





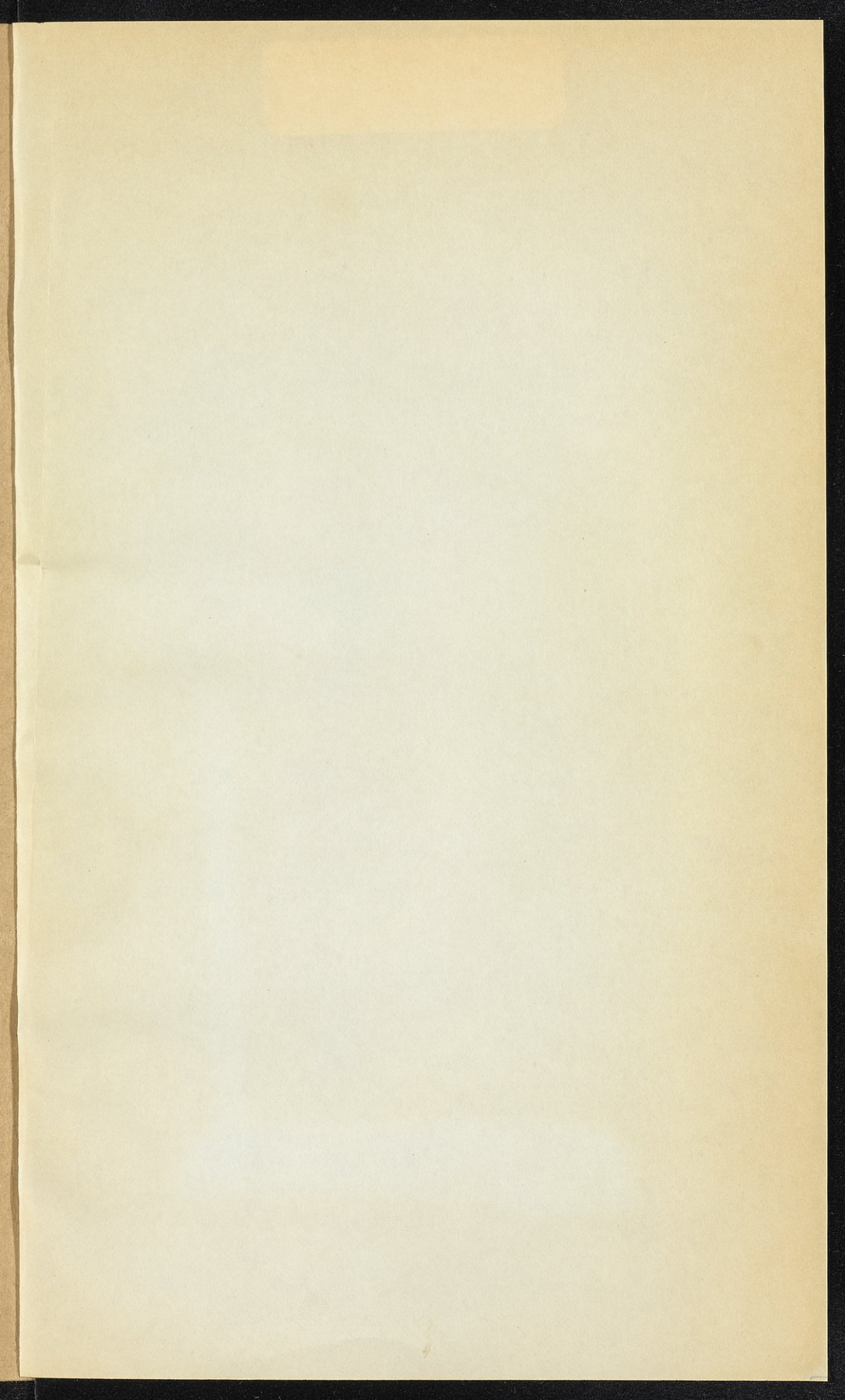


Princeton University Library

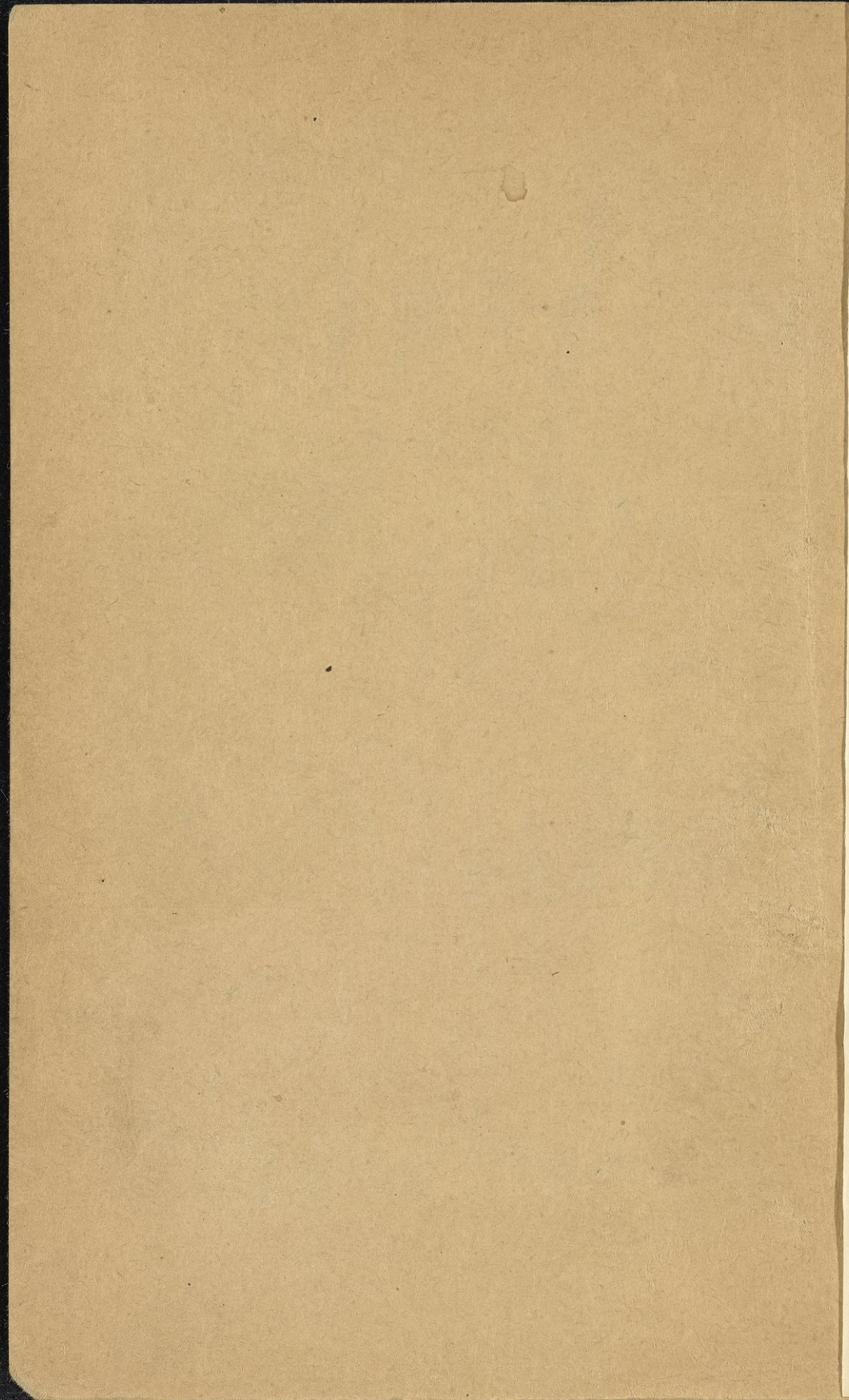


32101 073825141

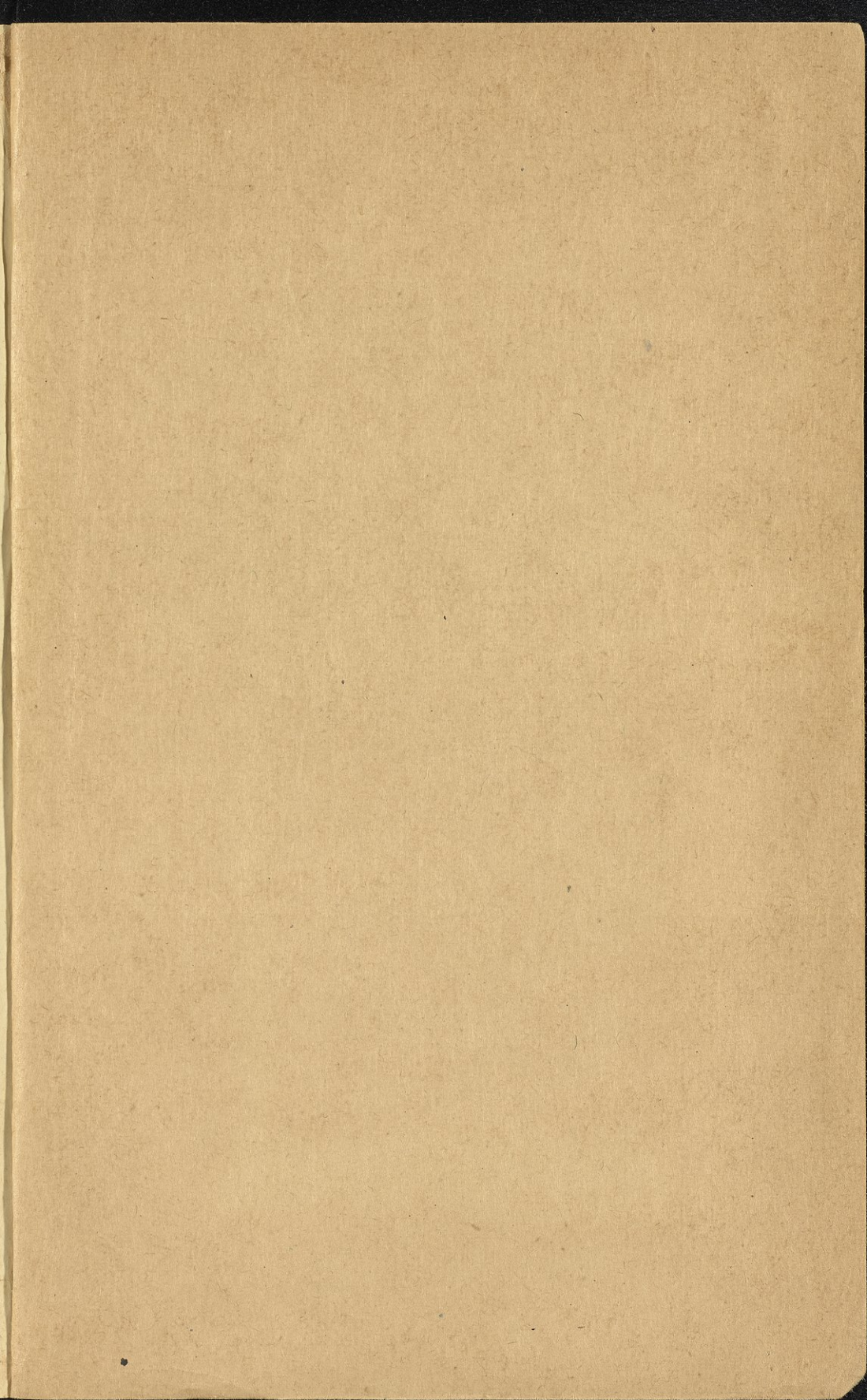














مقرر تدريس هذا الكتاب بكلية اللغة العربية من الجامعة الأزهرية

Mustafa, Mahmud

الأدب العربي في صدر الإسلام

al-Adab al-'arabi

في

عصر صدر الإسلام والدولة الأموية

الجزء الأول

تأليف الأستاذ

محمود مصطفى

الطبعة الثانية

[بها زيادات كثيرة مع شرح جميع النصوص شرحاً لغوياً بلاغياً]

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١٣٥٦ هـ / ١٩٣٦ م / ٧٣٥



جميع حقوق الطبع والنقل محفوظة



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد الذي بعثه الله في تلك الأمة الأمية ، هادياً للحق وإلى صراط مستقيم ، قاضياً على العصبية الهادمة ، والأوهام الشائنة ، نائراً للدين ولغته في مشارق الأرض ومغاربها ، معجزاً بالقرآن ، متحدّثاً بأحسن بيان .

وبعد : فإني أستعين الله وأسأله السداد فيما أقدمه لقراء العربية عامة ، ولطلبة السنة الثانية من كلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية خاصة ، من دروس في تاريخ الأدب العربي ، تنتظم عشرين من أزهى عصوره ، وهما : عصر صدر الإسلام ، وعصر الدولة الأموية ، متبعاً في ذلك طريقة الفصل بينهما ، إذ كانت لكلٍّ ميزات ظاهرة تجعله جديراً بالاستقلال في مناحي الحكم .

وكنت قد أخرجت هذا الكتاب منذ خمس سنوات ، وما زلت منذ ذلك الحين أتناوله بالتنقيح والتحقيق ، حتى استطعت بعون الله أن أظهر طبعته هذه على وجه يرضيني . ورجائي إلى الله أن ينفع بهذا العمل ، فإني لم أرد به إلا وجهه ، وكفاني ذلك

شرف مقصد ما

2258  
671764

محمود مصطفى

مدرس الأدب في تخصص المادة

بالجامعة الأزهرية

٧٠١



## عصر صدر الإسلام

هو العصر الثاني من عصور اللغة العربية . يتدئ بقيام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى الإسلام بمكة ، وينتهي بانقضاء أيام الخلافة ، وانتقال الولاية إلى ملك عضوض على يد ملوك بني أمية سنة ( ٤١ ) إحدى وأربعين من الهجرة النبوية . ومدة هذا العصر ( ٥٣ ) ثلاث وخمسون سنة . فقد مكث رسول الله بمكة يدعو إلى الإسلام اثنتي عشرة سنة قبل الهجرة ، وقامت الدولة الأموية سنة ٤١ منها ، فمجموع ما قبل الهجرة وما بعدها إلى قيام هذه الدولة هو ٥٣ سنة .

وإذ كنت تعرف أن لكل عصر عوامل وأسباباً أثرت فيه ، قترأت صورتها في اللغة ، وتجلت في الفكر والخيال ، فاعلم أن هاتيك الأسباب كانت في هذا العصر قوية غالبية ، سالبة واهبة ، فكانت نتائجها واضحة لا خفاء فيها .

## العرب بين الجاهلية والإسلام

يسمى العصر من مبعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيام الدولة الأموية « عصر صدر الإسلام » كما يسمى العصر الذي قبله « العصر الجاهلي » .

والمطلع على أحوال العرب في قديم أيامهم يعرف أن الطيش والخفة إلى الشر ، والغرام بالانتقام ، واستباحة المحارم ، كانت ألصق بهم من الجهل وعدم المعرفة ، وأدل عليهم من الأمية وإهمال التتقيف ، لذلك اشتق الإسلام لهم لفظ الجاهلية ، من الجهل بمعنى الطيش والخفة إلى الشر ، وسمى القرآن ما كانوا فيه حمية الجاهلية ، لأنهم كانوا جهلاء غير حلماء ، وشراراً غير خيار ، ومهاجمين غير موادعين .

ولم يكن لفظ يصلح لوصفهم ، وقد بدلوا من الطيش وقاراً ، ومن الاستباحة استنكاراً ، ومن الظلم نصفة ، ومن الوثوب مهادنة . إلا كلمة « إسلام » ، لأنها أخت



السلام والمسألة، وهما ضد الحرب، ومن مستلزمات هذا المعنى الطاعة والالتقياد، حتى جرى الاصطلاح الديني على تعريف الإسلام بأنه الالتقياد لأوامر الله وطاعته بأداء ما يرضيه.

أثر الإسلام من له  
... من الحياة  
... من الدنيا

## أثر الإسلام في العقول

ليس أدلّ على الغباء وضعف العقل من عبادة صنم أو وثن<sup>(١)</sup> لا ينفع ولا يضرّ ، ولا يخلّي ولا يُمِر . ينحته اليوم من الصخر ناحته ، أو يتخذُه من المعدن صانعه ، ثم يكب في الغد أمامه عابداً مبتهلاً ، داعياً عند الملمّ ، مستشيراً في المهمّ ، ولم يكن جميع العرب عبدة أوثان ، بل لقد انبثت في صحرائهم هذه جميع أنواع العبادات المعروفة في العالم لوقتهم ، ومرجع ذلك إلى أن هؤلاء القوم كانوا يخاطبون الأمم بالتجارة والرحلة ، وكان كثير من الناس يطرءون على بلادهم فاتحين أو فارّين من وجه الظلم ، فكلّ ذلك جعل البلاد مباءة للمجوسية والوثنية واليهودية والنصرانية ، كما أن ديانة إبراهيم عليه الصلاة والسلام كانت لها بقايا وشعائر احتفظ بها قوم من العرب ، وقد جاء في كتاب طبقات الأمم ، لصاعد الأندلسي في الكلام عن ديانات العرب ما يأتي :

«وكانت دياناتهم مختلفة، فكانت حمير تعبد الشمس، وكنانة القمر، وتميم الدبران ولخم وجذام المشتري ، وطبيّ سُهَيْلاً ، وقيس الشّعريّ العبّور ، وأسد عطاردأ ، وكانت ثقيف وإياد تعبدان شيئاً بأعلى نخلة يقال له : « اللات » ، وكان لحنيفة صنم من حَيْس ، فلحقّتهم مجاعة في بعض السنين فأكلوه . قال بعض الشعراء :

أَكَلَتْ حَنِيفَةُ رَبَّهَا      عَامَ التَّقَحُّمِ وَالْمَجَاعَةِ  
لَمْ يَحْذَرُوا مِنْ رَبِّهِمْ      سُوءَ الْعَوَاقِبِ وَالتَّبَاعَةِ»

(١) الصنم : التمثال على صورة إنسان من حجر أو غيره ، والوثن : الحجر الغفل من الصنعة ، واسمها العام : الأصنام ، فإن اتخذ المعبود من خشب فهو البعيم ، فإن كان من صمغ أو رُخام أو عاج ، فهو البمية .



هكذا كان العرب في الجاهلية إلا من ارتقى فكره ، فنبذ هذه الآلهة ، واستدلّ بالكون وما فيه من آيات على وجود مدبر له ، لا يحدّه العقل البشرى .

كذلك كانوا مغمورين بأوهام لا حدّ لها: من زجر الطير<sup>(١)</sup> ، والطَّرْقُ بالحصى ، والكِهانة ، والعرافة<sup>(٢)</sup> ، إلى الهامة ، واستهواء الجن ، وتعليق الحلي على الملدوغ<sup>(٣)</sup> ، وأن دم الرئيس يشفى من الكلب والجنون<sup>(٤)</sup> ، إلى غير ذلك . فجاء الإسلام قاضياً على كلّ هذا ، داعياً إلى عبادة إله « لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » ، وأفهمهم أن « عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو » ، وقضى على كلّ هذه الترهات ، بدعوتهم إلى النظر في الأسباب وتحكيم العقل .

### أثره في الحياة الاجتماعية

كان العرب في جاهليتهم على أخلاق لا تضمنها آصرة واحدة ، ولا يجمعها أصل ثابت ، فحماية للمستجير ، واعتداء على الأمن الوداع ، وجود على الضيف ، واستلاب لعابر السبيل . ودفاع عن الحرم ، وانتهاك لها ، وجنون بالعصبية ، ومحاربة لابن العم ؛

(١) كانوا يتفألون بالسائح ، وهو الذي يمرّ من جهة اليمن ، ويتشاءمون بالبارح وهو المارّ من جهة اليسار .

(٢) قيل هما بمعنى واحد ، وهو استطلاع الغيب ، وقيل الكهانة استطلاع المستقبل ، والعرافة الأخبار بالماضي .

(٣) يقول الشاعر يصف لديغ حية :

يُسَهَّدُ فِي لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمَهَا      لِحَلِي النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقُ

(٤) في الأوّل قول الشاعر :

بُنَاةٌ مَكَارِمٍ وَأُسَاةٌ حِلْمٍ      دِمَاؤُهُمْ مِنْ الْكَلْبِ الشِّفَاءُ

وفي الثاني قول الآخر :

وَدَاوَيْتُهُ مِمَّا بِهِ مِنْ مِجَنَّةٍ      دَمَ ابْنِ كِهَالٍ وَالنَّطَّاسِيَّ وَاقِفُ



هذا إلى تعامل مبنى على الغبن في الربا الفاحش ، والمقامرة المدقعة ، والخمر المبيدة . فجاء الإسلام فاستل من نفوسهم سخائم الجاهلية ، وأبطل نعرتها ، وقضى على العصبية ، فشمّل المسلمين إخاء ومودة ، وصاروا بعد التناذب والتقاطع كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، قال تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ » ، ثم قال في الامتنان على العرب بتأليف قلوبهم : « وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً قَالَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ » ، وقد عمل النبي على نحو هذه السوءات الجاهلية ، فشرع للناس التساوى بقول الله : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « لَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجْمِيٍّ فَضْلٌ إِلَّا بِالْتَّقْوَى » ، وقوله : « الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ » كما أزرى على من جنح إلى النزعات الجاهلية بقوله لأبي ذرٍّ وقد عير رجلاً بأمه : ( إنك أمرؤ فيك جاهليّة ) ، وقوله في الحديث الشريف : « مَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ <sup>(١)</sup> يَغْضَبُ لِعَصْبِيَّةٍ ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصْبِيَّةٍ ، أَوْ يَنْصُرُ عَصْبِيَّةً قَتَلَ ، قُتِلَ قِتْلَةَ جَاهِلِيَّةٍ » .

كذلك أوجب الإسلام مراعاة الحقوق ، وأداء الديون ، ووفاء الكيل والميزان ، وأمّن الضعيف ، وأدلّ العاتى ، وحرّم الخمر والميسر . فبطلت الأحقاد ، وهدأت ثورة النفوس .

فهل كان تقوّة غير الإسلام أن تغير ما وطّده في النفوس مضى العهد وضرورة البيئة ؟ وهل كان العائش في الجاهلية يستسيغ في خياله أن يرى العربي بعد ذلك وهو يساكن الفارسي أو الرومي ، والعربي في السلاح ، وصاحبه أعزل مغلوب على أمره ، ثم هو آمن على نفسه وعياله ؟ كلا !! ولكنه هدى الله يهدى به من يشاء من عباده .

وليس أدلّ على الفرق بين الحاليين حال الجاهلية والإسلام مما رواه جعفر بن أبي طالب ( وكان أحد الذين هاجروا إلى الحبشة ) قال للنّجاشيّ وقد سأله عن حال

(١) جهل وضلالة .



المهاجرين إلى بلاده : « كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسئ الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله ، لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، فصدقناه وأمنا به . . . . . »

### أثره في اللغة

لسنا في مقام الادلاء بكل ما أحدثه الإسلام من أثر في اللغة العربية فإننا سنوزع الكلام على ذلك في أبواب الشعر والنثر والخطابة . ولكننا بصدد تصوير عام لهذا الأثر يشمل في إجماله هذا الروح الذي سرى في مناحي العربية حتى أبرزها في ثوب تخالف به ما كانت عليه في عهدها السابق .

ولست أعزو ما حدث للغة من التغيير إلا إلى شيء واحد هو القرآن الكريم وحديث النبي ، لأن العرب إلى بدء الدولة الأموية لم يكونوا اختلطوا بأهل البلاد المفتوحة ، من فرس وروم ، ذلك الاختلاط الذي يظهر أثره في لغتهم ، فالعرب ما زالوا إلى آخر هذا العصر جنوداً يحملون سلاحهم ، ويتنقلون من شرق إلى غرب ، ومن شمال إلى جنوب ، لا يستقر بهم المقام ، وإن استقر فهم في الأغلب السائع مرابطون في حصونهم ، لا يخالط جمهورهم أهل البلاد التي يحلون بها .

وإلى عهد عثمان لم يكن أولاد السبايا قد بلغوا الحلم ، ولم يكن الأعاجم قد قرءوا القرآن . ثم إن العرب كانوا منصرفين عن زخرف المدنية ، لجدة الإسلام في نفوسهم



وغلبة التقوى على مشاعرهم ، فهم غير جديرين أن يتأثروا بما رأوا من حال الفرس والروم ، لأنهم عنها مشغولون .

فكل ما حدث للغة فإنما مرجعه إلى القرآن الكريم وحديث النبي ، ومظهر ذلك استواء الحجة ، ووضوح المحجة ، وهجر الحوشي ، والعدول عن سجع الكهان مع الزايرة عليه ، والتوسع في أساليب الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، والتحسين والتبسيط في وصف الجنة والنار ، والإكثار من سَوْق الحكمة ، وضرب المثل ، والاستشهاد بأحوال السابقين ، والأدب في الخطاب ، ولطف الكناية ، وحسن البدء والختام ، وتمام الربط ، وتجنب الإملال في الحديث المعاد .

ولما كانت الأسباب التي صحبت هذا العصر قوية غالبية أحدثت زيادة في مادة اللغة بألفاظ نشأت ولم يكن العرب يعرفونها ، وأخرى عرفت بمعان فجدت لها أخرى ، فمن ذلك : الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والركوع ، والسجود ، والمؤمن ، والكافر ، والفاسق ، والمنافق ، فقد كانت الصلاة في لغة الجاهلية مطلق الدعاء ، وكان الركوع طأطأة الرأس ، ولا يفرقون بين الركوع والسجود ، والصيام كان معناه الإمساك مطلقا ، والحج لم يعرف إلا بمعنى القصد . ثم زادت الشريعة في كل ذلك ما هو معروف له من المعاني في أبواب الفقه . ومثل ذلك هذه المصطلحات : الإيلاء ، الظهار ، العدة ، الحضنة ، النفقة ، العتق ، اللقيط ، الأبق ، الوديعه ، العارية ، الشفعة .

أما المؤمن فقد كان معروفاً من الإيمان وهو التصديق ، وكذلك الإسلام كان معناه تسليم الشيء ، والكفر لم يفهمه إلا بمعنى التغطية والستر ، والمنافق لفظ اشتقه الإسلام لمن أبطن خلاف ما يظهر ، أخذوه من نفاقاء اليربوع ( جحره ) ، كما اشتقوا لفظ فاسق من فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها ، ثم عرفت كل هذه الألفاظ في الإسلام بالمعاني التي تعرفها لها . وكذلك لفظ « الجاهلية » لم يكن معروفا عندهم ، ثم أحدثه الإسلام للزمن الذي كان قبل بعثة النبي . ويقولون إن أبا بكر الصديق هو أول من أطلق لفظ « مصحف » على القرآن ، بعد أن جمع في الأوراق على عهده .



نعم إن مثل هذا النقل بطريق المجاز كان حاصلًا في العصر الجاهلي ، لأنه من عوامل نمو اللغة ، ولكنه لم ينقل إلينا فيما نقل من تاريخ الجاهلية ما يدلنا على الزمن الذي انتقلت فيه ألفاظ من معانيها الحقيقية إلى المجازية ، ولا نسبة ذلك إلى من أحدثه من رجالهم ، اللهم إلا ما قيل من أن امرأ القيس أول من شبه المرأة بالبيضة في قوله :

وَبَيْضَةَ خَدْرِ لَا يُرَامُ خِبَاؤُهَا      تَمَتَّعْتُ مِنْ لَهْوِهَا غَيْرَ مُعْجَلٍ

وأن النابغة أول من سمى الأرض التي لم تحفر قط ولم تحرث إذا فعل بها ذلك «مظلومة» ، فتبعه العرب في هذا . « ذكر ذلك الجاحظ في كتابه الحيوان <sup>(١)</sup> » .

وهناك ألفاظ أبطل الإسلام مسمياتها فبطلت تبعاً لها ، أو عدل عنها لدالاتها على ما أبغضه من أمور الجاهلية ، أو أبدل بها غيرها مما يناسب ما جاء به الإسلام من خير .

ومما أبطله الإسلام فبطلت ألفاظه قولهم : المِرْبَاعُ والنَّشِيطَةُ والْفُضُولُ . فالمرباع كان عندهم ربع الغنيمة ، وهو نصيب الرئيس في الحرب ، وقد أبطل الإسلام ذلك ، فجعل الخمس لله ورسوله . قال الله تعالى : « وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ » ؛ والنشيطه من الغنيمة ما أصابه الجيش في الطريق ، قبل أن يصل إلى قصده ، وكان للرئيس مع الربع ؛ والفضول ما فضل من القسمة ، مما لا يمكن تقسيمه ، كأسير أو سيف ، قال عبد الله ابن غنمة يخاطب بسطام بن قيس :

لَكَ الْمِرْبَاعُ مِنْهَا وَالصَّفَايَا      وَحُكْمُكَ وَالنَّشِيطَةُ وَالْفُضُولُ <sup>(٢)</sup>

ومما أبغضه الإسلام فماتت ألفاظه قولهم في مخاطبة العظيم : (أَبَيْتَ اللَّعْنَ) ، وقول العبد لسيدته : ( يَا رَبِّي ) ، وقولهم للذي لم يهج ، أو لم يتزوج بتثلاً : ( صَرُورَةٌ ) .

(١) ص ١٦١ ج ١ .

(٢) الصفايا : جمع صفى ، وهو ما كان يصطفيه الرئيس لنفسه من الغنيمة بأخذه قبل القسمة ، وقد اصطفى رسول الله ثم بطل بعده الاصطفااء فمات لفظه .



قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا صَرُورَةَ فِي الْإِسْلَامِ » ؛ ومنه أيضاً قولهم :  
« حَبْرًا مَحْجُورًا » ، وله معنيان ردّ السائل بالحبيبة ، أو التعوّذ من مخوف ، وتفسيره :  
حرام محرم .

ومما أبدل به الإسلام غيره قولهم : عِمٍ أو أَنْعِمٍ صباحاً ، وعم أو أنعم مساءً ، فقد  
استعمل بدلها السلام والرحمة .

## القرآن الكريم

«ذلك الكتاب ، لا ريب فيه هدى للمتقين» . أنزله الله على نبيه ، ليكون برهان  
نبوته ، ودليل رسالته ، وشرع به سياسة الدين والدنيا ، وضمن السعادة لمن اتبع سبيله ،  
واهتدى بنوره . حكم بالغة ، وأمثال بمجامع القلوب آخذة ، وحجة تخرس المنطيق ، وتأخذ  
على الباطل الطريق . قد صاغ من تلك الأمة المفككة العُرى ، المقطوعة الأواصر شعباً  
يجتمع على كلمة واحدة ، فيغير من نفسه ومن نفوس الشعوب الأخرى ما لم تقو على تغييره  
الأيام ، ولم تطمع في تحقيقه الأحلام .

وذلك هو القرآن الذي عبد به الله في كل مكان ، وذلّ له كل سلطان ،  
وحاربت باسمه الجيوش ، وثلت به أقوى العروش . وهو القرآن الذي يتغير كل شيء  
وهو محفوظ ، وتدرس كل شريعة وشريعته قائمة الضمير والأعلام ، ولا تزال الأيام  
تمدنا بالحجة على أنه «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزّل من حكيم حميد» .

## نزوله

وقد نزل القرآن على محمد عليه الصلاة والسلام ، جاءه به الروح الأمين ، منجماً  
بحسب الحوادث والمقتضيات ، فاستغرق نزوله بضعاً وعشرين سنة بين مكة والمدينة ،



وكان أكثر ما نزل منه بمكة ، نزل بها ثنتان وتسعون سورة ، ونزل بالمدينة اثنتان وعشرون ( تبلغ ثلث القرآن ) ، وهي : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة ، والنور ، والأحزاب ، والقتال ، والفتح ، والحجرات ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والصف ، والجمعة ، والمنافقون ، والتغابن ، والطلاق ، والتحریم ، والعصر ، وما عدا ذلك فهو مكى .

ومع ذلك فالاختلاف فى عدد السورة مكية أو مدنية كثير جداً ، حتى إن الجمع عليه من ذلك قليل ، فالعدد مختلف فيها ، وكذلك الفاتحة ، وإن كان الأكثر أنها مكية ، ومما اختلف فيه أيضاً تحديد معنى المكى والمدنى ، وأحسن الآراء أن المكى ما نزل قبل الهجرة ، والمدنى ما نزل بعدها ، سواء أكان بمكة أم المدينة ، وتسمى السورة مكية إذا كان معظم آياتها قد نزل بمكة ، مثل الأنعام تعدّ مكية ، ومنها ثلاث آيات مدنية تبتدىء بقوله تعالى : « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ... » الآيات . ومثل سورة الشعراء تعدّ مكية ، مع أن بها خمس آيات مدنية ، تبتدىء من قوله تعالى : « وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ » ، وقيل فى التفرقة التقريبية بين المكى والمدنى : إن كل ما بدىء بقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ » فهو مكى ، وما بدىء بقوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » ، فهو مدنى ، وكل سورة فيها ذكر المنافقين فهى مدنية إلا العنكبوت .

والآيات المكية فى الغالب كانت فى التوحيد ، ودم الأوثان ، والزراية على عبادتها ، والتوسل بها ، وفى إثبات يوم آخر ، والترغيب فى ثوابه ، والتخويف من عقابه ، وما يتبع ذلك من وصف الجنة والنار والميزان والصراط والحشر .

كذلك تشمل الآيات المكية قصص الأنبياء لتكون سلوة للنبي فى وقت عزّ فيه الناصر ، واشتدّ الأذى ، وضاق الذرع . وفى مكة نزلت بعض الآيات فى بيان الآداب التى لا غنى للمرء عنها فى حياته واتصاله بمعاشره ، كالعفو فى قوله تعالى : « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ » ، وكالمسالمة فى قوله تعالى : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » ، وكببر الوالدين فى قوله : « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ



وَبِأَلْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا... » الآيات . وآخر ما نزل بمكة الإذن للنبي بالقتال حين صار مستطيعاً له ، بعد تعهد أهل المدينة بنصره .

وإن التالى للآيات المسكية ليجد فيها شدة وأسراً لا يجدهما فى الآيات المدنية ، ذلك لأن النبى كان بمكة مضطهداً ، قليل الناصر ، فكان بحاجة إلى ما يشدّ عضده ، ويربط على قلبه ، فجعل الله له فى قوّة التبليغ ما يجعله يؤمن كلّ الإيمان بفوز حقه على باطلهم ، وقهر دينه لوثمتهم . ومن أمثلة هذه الآيات قوله تعالى : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » ، وقوله : « وَتَعَلَّمَنَّا نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » ، وقوله : « فَأَصْبِرْ إِنَّا وَعَدَدُ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » ، وقوله : « قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تُرِيئُنِي مَا يُوعَدُونَ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » .

وأما الآيات المدنية فقد كانت فى قصّ حوادث الغزوات واستخلاص العبرة منها للمسلمين كما كانت فى بيان العبادات والمعاملات من صلاة الجمعة ، (وقد شرعت الصلاة العامة بمكة) ، وصلاة الخوف ، والصيام ، والحجّ ، والزكاة ، والقصاص ، والزواج ، والميراث ، والتنبيه على آداب اجتماعية كأداب الاستئذان ، وردّ التحية ، والنهى عن إبداء الزينة ، إلى غيرها من الآداب التى لا يصلح الاجتماع بدونها .

## جمع القرآن وترتيبه

كان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالآيات من القرآن إرشاداً للمسلمين فى أمر من أمور دينهم ، أو تجلية لغامض من شؤونهم ، أو إجابة لسائل ، أو بشرى بنصر ، أو تعزيزاً لمقصر ، أو صفحاً عن مذنب ، أو فضيحة لمنافق ، أو براءة لمتهم ، إلى غير ذلك من أغراضه الشريفة . فإذا كان النبى بين أصحابه تلا عليهم ما نزل عليه لساعته ، وإذا نزل عليه فى غير محضر القوم خرج إليهم فتلقنوه منه ، وحفظوه عنه ، يرويه عليه الصلاة والسلام باللهجات المختلفة ، ليسهل على كلّ تلاوته .



وذلك سبب الاختلاف في قراءاته ، على درجات في قوّة السند وضعفه ، وكان حول النبيّ كثير يبلغون نيفاً وأربعين من الصحابة ، الذين كانوا يعرفون الكتابة منذ الجاهلية ، أو من أبنائهم الذين تعلموها بعد غزوة بدر ، حين قبل النبيّ من الأسير الكاتب أن يفتدى نفسه بتعليم عشرة من أولاد المسلمين . وكان من كتّاب النبيّ : عليّ ، ومعاوية ، وعثمان ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث وغيرهم ، فكانوا يكتبون ما نزل من الآيات في عُسْبِ النخل أو اللّخاف<sup>(١)</sup> ، أو الأكتاف ، أو قطع الخرف ، أو الجلود ، والنبيّ يرشدهم إلى موضع الآية من السورة ، فقد ورد في صحيح البخارى : أن جبريل عليه السلام كان يعارض<sup>(٢)</sup> النبيّ بالقرآن ، وقد عارضه به في السنة التي توفي فيها مرتين .

جمع الآيات وترتيبها في السور متفق على أنه كان أيام النبيّ ، بتوقيف من جبريل عليه السلام ، بدليل أن النبيّ كان يقرأ سوراً كاملة ، كالبقرة وآل عمران والنساء ، وفي البخارى : أنه قرأ الأعراف في المغرب ، و (قد أفلح المؤمنون) في الصبح ، و (هل أتى) في صبح الجمعة أو خطبتها .

أما ترتيب السور على ما هي عليه في المصحف ، فقد اختلفوا فيه : أ كان في أيام النبيّ ، أم حصل باجتهاد الصحابة حين جمع القرآن ، ما عدا السبع الطوال ، وآل حاميم فإنها كانت مرتبة على أيام النبيّ ؟

ومات النبيّ والقرآن مكتوب ومحفوظ في الصدور ، ولكنه لم يكن مجموعاً في مكان واحد ، إذ كان الصحابة يتنافسون في اقتناء ما يصلون إليه منه ، وينسخون لأنفسهم سوراً وآيات ، وكان ولاة الأمور مطمئنين لشدة عناية الصحابة بحفظ القرآن ومدارسته ، ولكن لما قتل من حفظته سبعون في وقعة اليمامة بين المسلمين ومسيلمة المتنبى ، خيف أن يستحرق القتل في سائر المواطن ، فيذهب كثير من القرآن بذهاب حفاظه ففرغ إلى أبي بكر في شأن القرآن ، فاتفق الرأي على جمعه في صحف ، وصياتها بئامن ،

(١) حجارة بيض رفاق : واحدتها لخرة ( بالفتح فالسكون ) .

(٢) يتلوه عليه مرتباً ليتلو مثل تلاوته .



(وسمى أبو بكر مجموعته مصحفاً) ، وبقيت هذه الصحف عند أبي بكر مدة حياته ، ثم صارت إلى عمر مدة خلافته ، وبقيت بعدها عند ابنته حفصة .

وفي أيام عثمان لما اتسعت الفتوح ، وتباعدت المواطن ، واختلفت القراءات ، خيف أن تحدث الفتنة من تحطئة القراء بعضهم لبعض<sup>(١)</sup> ، فرأى عثمان ذرءاً لهذا الشر أن يكتب عدة نسخ من المصحف ، ووكل ذلك إلى أربعة من الصحابة ، وهم : عبد الله ابن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث ، وزيد بن ثابت ، الذي يقال إنه شهد العرضة الأخيرة للقرآن ، قبل وفاة النبي . وهو الذي وكل إليه أبو بكر جمع القرآن في الصحف أولاً .

كتب عثمان من المصاحف ستة ، أرسل منها أربعة إلى الكوفة والبصرة ومكة والشام ، وأبقى واحداً لأهل المدينة ، وآخر لنفسه ، وهو الذي كان يقرأ فيه حين قتل . وسمى عثمان مصحفه إماماً ، لأنه قام خطيباً فقال : أتم عندي تختلفون وتلحنون ، فمن نأى عنى من الأمصار أشدّ اختلافاً وأشدّ لحناً ، فاجتمعوا يا أصحاب محمد ، فاكتبوا للناس إماماً .

ثم أمر عثمان بجمع ما كان قبل ذلك في الصحف وإحراقه ، وقد اقتصر في كتابة المصاحف على لغة قريش ، لنزول القرآن بها .

والناس يسمون عمل عثمان رضى الله عنه جمعاً للقرآن ، فعلى ذلك يكون للقرآن جمعان : أحدهما على أيام أبي بكر ، والثاني على أيام عثمان ، فاسمع في الفرق بين الجمعين قول الإمام السيوطي في الإتيان : « الفرق بين جمع أبي بكر وبين جمع عثمان ، أن جمع أبي بكر كان خشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حملته ، لأنه لم يكن مجموعاً في موضع واحد ، فجمعه في صحائف مرتباً لآيات سوره ، على ما وقفهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجمع عثمان لما كثرت الاختلاف في وجوه القراءات حين

(١) حضر حذيفة بن اليمان غزوة أرمينية وأذربيجان ، فرأى في سفره اختلافاً بين المسلمين في القرآن حتى سمع أحدهم يقول للآخر : قراءتي خير من قراءتك ، فلما رجع المدينة أندر عثمان بسوء العاقبة إذا لم يتلاف هذا الأمر .



قرعوه بلغاتهم على اتساع اللغات ، فأدّى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض ، فحشى من تقاوم الأمر في ذلك ، فتمسح تلك الصحف في مصحف واحد مرتباً لسوره ، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش ، محتجاً بأنه نزل بلغتهم .

## م قراءات القرآن

المعروف الآن للقرآن أربع عشرة قراءة : سبع منها مروية بالتواتر ، وبقية العشر آحاد ، وما عداها شاذّ . وقد كانت هناك قراءات أكثر من ذلك لم تدوّن وإن كان قراؤها من الصحابة .

وإنما كان تعدّد القراءات رحمة من الله للعرب ، فإن فيهم الشيخ الذي لا يستقيم لسانه إلا بلهجته ، فتحويله عنها وإرادته على غيرها مشقة لم يردّها الله بهم ، لذلك قيل إن جبريل نزل على النبيّ بالقراءات المختلفة ، فكان النبيّ يقرئ كلّاً بلهجته ، فيمدّ بقدر الألف أو الألفين أو الثلاثة لمن لغته كذلك ، ويفخّم ويرقق ويُميل ويُسّمّ لمن تقتضى لغته ذلك ، وكلّ هذا بلغة قريش ومن حولها ، لا يتعدّها إلى غيرها ، لأنّ العرب كانت قد سبقت ، فأجمعت على لغة قريش قبيل الإسلام ، وخطب بها الخطباء ، وأنشد الشعراء .

واللغات التي نزل بها القرآن غير لغة قريش هي لغة بني سعد ، وثقيف ، وخزاعة ، وهذيل ، وكنانة ، وأسد ، وضبة ، ثم قيس وأكنافها ، وهم يسكنون وسط الجزيرة . وقد اختلف العلماء في معنى قوله عليه الصلاة والسلام : « نَزَلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ ، كُلُّهَا شَافٍ كَافٍ » اختلافاً كبيراً جداً ، حتى لقد عدّ السيوطي في الإتيان أربعين رأياً في كلمة أحرف ، وقد رجح المرحوم فضيلة الشيخ محمد نجيب المطيعي أن المراد من الأحرف السبعة « أنها أوجه سبعة ترجع إلى كيفية النطق بألفاظ القرآن ، وتختلف بسببها تأدية تلك الألفاظ ، وقد بنى ترجيحه لهذا المراد على ما رواه من



الأسباب التي دعت إلى نطق رسول الله بهذا الحديث ، فهي لاشكّ تحدّد معنى كلمة حرف ، وقد روى تلك الأسباب من طرق عدّة ، منها أن عمر سمع هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان ، فإذا هو يقرأ على حروف لم يتلقها عمر من رسول الله ، قال فكذبت أساوره في الصلاة ، وتصبرت حتى سلم ، فليبتة بردائه ، وانطلقت به أقوده إلى رسول الله ، فسمع مني ، وسمع منه ، وقال لكلّ منا: كذلك أنزلت ، « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ ، فَأُقْرَءُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ » .

وابن قتيبة يعدد هذه الأحرف السبعة ، فيقول :

١ - ما يتغير حركته ولا يزول معناه ، ولا صورته ، نحو : « وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ » (بفتح الراء وضهما) .

٢ - ما يتغير فيه الفعل ، مثل : بَعْدُ وَبَاعِدُ ، بلفظ الماضي والطلب .

٣ - ما يتغير بالنقط ، مثل : نُنشِرُهَا وَنُنشِرُهَا .

٤ - ما يتغير بإبدال حرف قريب المخرج ، مثل : طَلَحَ وَطَلَعُ .

٥ - ما يتغير بالتقديم والتأخير ، مثل : وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ وَسَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ .

٦ - ما يتغير بزيادة ونقصان ، مثل : « وَالذِّكْرُ وَالْأُنْثَى » ، « وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى » .

٧ - ما يتغير بإبدال كلمة بأخرى ، مثل : كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ، و « كَالشُّوفِ الْمَنْفُوشِ » .

ولما كثرت وجوه الاختلاف في القراءة أيام عثمان رضي الله عنه وخشى الفتنة ، جمع الناس على مصحفه ، ولوحظ في كتابته أن يجمع ما اشتهر من لغات القراءة ، فكتبوا الصراط مثلا في قوله تعالى : « أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » (بالضاد) المبدلة من السين التي هي الأصل ، لتكون قراءة السين (الصراط) وإن خالفت الرسم قد أتت على الأصل اللغوي المعروف فيعتدلان ، وكتبوا الصلاة (الصلاة) لتقبل التفتيح



لكلام وهو بعض القراءات ، وكتبوا : ( إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ) ليدلوا على اللغة التي لا تبدل الهاء من تاء التانيث ، وهكذا .  
أما القراء السبعة ، فهم : نافع بن أبي نعيم ، وعبد الله بن كثير ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعبد الله بن عامر ، وعاصم بن بهدلة الأسدي ، وحمزة بن حبيب الزيات ، وعلى بن عمر الكسائي .

### بلاغة القرآن

لا خلاف بين أهل العلم ونقده الكلام في أن القرآن لا يداينيه في بلاغته كلام عربيّ مهما ارتقت درجته ، وعلت ذروته ، ولكنهم اختلفوا ، فقيل : كل آياته بمثابة واحدة من التناهي في البلاغة ، وأن ما يبدو لنا من التفاوت يرجع إلى اختلاف الحس ، وقيل : بل تفاوت مراتب آياته بين الفصيح والأفصح ، ليكون في مظهره مشبهاً كلام الناس ، وإلا ما صحّ التحديّ به . وردّ عليه بأنهم لو شعروا بدنوه من مرتبة كلامهم لحاولوا معارضته ، ولكنهم لم يفعلوا ، فثبت أن سموه على كلام العرب ليس بقدر معتاد ، فهو لذلك معجز .

والكثير الغالب من أهل العلم اليوم إنما يدركون بلاغة القرآن بالتوقيف ، واتباع آراء السلف في تعرف وجوه الكمال فيه ، لأن لمعرفة ذلك وسائل لا تتم لنا : أولها السليقة والطبع القوي : وأين نحن من الوليد بن المغيرة الذي سمع من النبي قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » ، فرق له وقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، ما يقول هذا بشر ! .  
وأين نحن من ذلك الأعرابي الذي سمع قارئاً يقرأ : « فَأُصْغِرُ بِمَا تُؤْمَرُ » ، فسجد وقال : سجدت لفصاحته ، ومن الآخر الذي سمع : « فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا » ،



فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام . وحديث إسلام عمر ، ( وكان من أشد الكفار على النبي ) حين دخل على أخته وزوجها وهما يقرآن سورة طه ، فرق قلبه ، وأتى النبي لساعته فأسلم . وإن كلاماً يلين قسوة كقسوة عمر في كفره ( وقد ضاق به النبي ذرعاً ) لا عهد للناس بمثله في شدة التأثير ، وإذا أردنا أن نجد وجوه البلاغة في القرآن ، فإننا لا نتجاوز ما قاله عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز : إن المزية هي لتأليف الكلام ، وضم بعض أجزائه إلى بعض ، وتخيير كلماته ، وحسن مقاطعه ، مراعى في ذلك كل مقتضيات الأحوال .

وإذا أضفنا إلى ذلك حلال الغرض ، وسمو المعاني ، وصفاء الحكمة ، وتمام مطابقة المثل ، علمنا أن القرآن جمع الحسن من أقطاره ، فصار نسيج وحده في البلاغة .

## حكم القرآن وأمثاله

في القرآن كثير من الآيات جرت مجرى الأمثال ، مثل قوله تعالى : « لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ » ، وقوله : « كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ » ، وقوله : « ضَعَفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » ، وقوله : « ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » ، وقوله : « كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ » ، وقوله : « تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى » ، وقوله : « مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ » . قيل للحسن بن الفضل : هل تجد في كتاب الله : « خير الأمور الوسط » . فقال نعم ، في أربعة مواضع : « لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ » ، و « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا » ، و « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ » ، و « وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَأُتْبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا » . قيل فهل تجد من جهل شيئاً عاداه ؟ قال : « بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ » . قيل : فهل تجد ليس الخبر كالعيان ؟ قال : « قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالِ بَلَىٰ وَ لَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي » .



هذا إلى الأمثال المضروبة التي لا ترى كوقعها وحسن انطباقها مثل قوله تعالى :  
« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ  
وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ  
صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ . وَمَثَلُ الَّذِينَ  
يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا  
وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » ،  
وقوله تعالى : « إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ  
الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا » وقوله :  
« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي  
السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ  
يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا  
مِنْ قَرَارٍ » ، وقوله : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ  
مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ  
مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ » ، وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ  
إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ  
لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ » .

## الايجاز في القرآن

إن الإيجاز في الكلام من أدق مسائله ، وبه يتفاضل البغاء وفيه يتنافسون ،  
وللقرآن فيه الغاية التي لا تلحق ، شأنه في جميع مناحي القول . فمن ذلك قوله تعالى :  
« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا . . » ، فاستقاموا كلمة واحدة تفصح عن



الطاعات كلها في الأتثار والانزجار ، ولو أن إنسانا عبدَ اللهَ مائة سنة ثم سرق حبة واحدة لخرج بسرقتها عن حد الاستقامة . ومنه قوله تعالى : « لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ » ، فقد أدرج فيه ذكر كلِّ محبوب ، وزوال كلِّ مكروه ، ولا شيء أضرَّ بالإنسان من الخوف والحزن ، لأن الحزن يتولد من مكروه ماضٍ أو حاضر ، والخوف يتولد من مكروه مستقبل ، وليس بعد ذلك من أنواع المكروه شيء ، ومنه : « أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ » ، فالأمن كلمة واحدة تنبئ عن خلوص سرورهم من الشوائب ، لأن الأمن هو السلامة من الخوف ، وإذا قالوا الأمن بالإطلاق ارتفع الخوف عنهم ، ومنه قوله تعالى : « أَوْفُوا بِالْعُقُودِ » ، فهما كلمتان جمعتا ما عقده الله على نفسه لخلقهِ ، وما تعاقده الناس فيما بينهم . وقوله تعالى : « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ ، وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ » ، فلم يبق مفرغ لأحد إلا تضمنته هاتان الكلمتان ، وقوله تعالى : « وَالْفَلَاحِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ » ، فهذه الكلمات تجمع من أصناف التجارات وأنواع المرافق في ركوب السفن ما لا يبلغه الإحصاء ، ومنه قوله تعالى : « فَأُصْدِعْ بِمَا تُؤْمَرُ » اشتملت على شرائط الرسالة وشرائعها وأحكامها وحلالها وحرامها ، مع القوة في الأمر بقوله . اصدع ، وما يشعره لفظ الصدع من الأثر الشديد الذي يحدثه النبي في نفوس العرب عند التبليغ . ومنه قوله تعالى في وصف خمر الجنة : « لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ » ، فهما كلمتان قد أتتا على جميع معائب الخمر ، ويشمل قوله : « وَلَا يُنْزِفُونَ » عدم العقل ، وذهاب المال ، ونفاد الشراب ، ومنه قوله تعالى : « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ » ، وقد كان للعرب كلمة يعجبون بها ويعدون بها من أوابد كلامهم ، وهي قولهم : « القتل أنفى للقتل » ، فلما نزلت آية القرآن تضاءلت أمامها حكمة العرب ، وظهر فيها ضعف الخلق أمام جبروت الخالق ، فإن الآية كلمتان ، وهما القصاص حياة ، وكلمة العرب أربع ، والآية برئت من التكرار الحاصل في كلمة العرب ، وفي الآية ترغيب في القصاص بذكر الحياة المحبوبة وجعلها نتيجة له ، وفي الآية إظهار للعدل بذكر كلمة القصاص



وأن القتل ليس تشفياً ، وفي الآية تنكير لكلمة الحياة وهو للتعظيم ، والحكمة خطأ إذ ليس كل قتل أنقى للقتل فإن ذلك يشمل الاعتداء والنزى ينفي القتل هو القصاص . ومن أمثلة الإيجاز في القرآن قوله تعالى « فَلَمَّا اسْتِئْذِنُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا » أبانت الآية عن اعتزالهم للناس وتقليبهم الآراء ظهرا لبطن ، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودتهم وما يوردون عليه من ذكر الحادث . ومنه قوله تعالى « وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ » ولا يستطيع بليغ مهما بلغ من قوة البيان أن يعبر عن هذا المعنى بهذه الألفاظ ، حتى يصل مقطوعها ويبسط مجموعها ويظهر مستورها ، فيقول : إن كان بينك وبين قوم هدنة فحقت منهم خيانة أو نقضاً ، فأعلمهم أنك نقضت ما شرطت لهم وأذنهم بالحرب ، لتكون أنت وهم في العلم بالنقض سواء . ومنه قوله تعالى : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » جمع فيه جميع مكارم الأخلاق ، لأن في العفو صلة القاطعين ، والصفح عن الظالمين ، وغض الطرف عن الحرمات ، والتبرؤ من كل قبائح ، لأنه لا يجوز أن يأمر بالمعروف وهو ملابس شيئاً من المنكر . وفي الإعراض عن الجاهلين الصبر والحلم ، وتنزيه النفس عن مقابلة السفية بما يُوتغ (١) الدين ، ويسقط القدرة .

## الكنايات في القرآن

ومقام الكناية في التعبير مشهور واضح ، فهي أبلغ من الحقيقة والجاز ، ثم لها فوق ذلك مرتبة معروفة ، وهي الاختصار فيها بالمعجزة ، والاستغناء بالمعجزة ، والتحرز عن ذكر الفواحش ، مما ينبو عنه الطبع ، ويمجه السمع ، وقد ورد في القرآن منها ما لا يتعلق بعبارة بليغ ، فمن ذلك قوله تعالى في صفة المسيح عليه السلام وأمه : « مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَنِ الطَّعَامَ » فكفى بأكل الطعام عن التغوط والتبول ، لأهمها بسبب منه . إذ لا بد للأكل منها . ومنها أيضاً قوله تعالى :

(١) يوتغ : يفسد .



« وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا » أى لفروجهم . وقال تعالى : « أَوَلَا مَسْمُومُ النِّسَاءِ »  
 فكفى بالملامسة عن الجماع إذ لا يخلو منها غالباً . وقال تعالى عن المهر : « وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ  
 وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ » فكفى بالإفشاء عن الدخول كما كفى عن الجماع بالسر  
 فى قوله تعالى : « وَلَكِنْ لَا تَأْخُذُوهُنَّ سِرًّا » وقوله أيضاً « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ  
 لِبَاسٌ لَهُنَّ » . ومن كنيات القرآن قوله تعالى : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » فقد نفي المثلية عن  
 المثل ، فانتفت بالتبع عن الله ، وهذا طريق أبلغ من النفي المباشر ، لأنه كما يقولون :  
 كدعوى الشيء بيئته .

ومن كنيات القرآن قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ »  
 كناية عن آدم . والغرض منها الدلالة على عظم القدرة . وقوله تعالى « إِنَّ هَذَا أَخِي  
 لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ » كنى بالنعجة عن المرأة كعادة العرب فى  
 ذلك . ولذلك لم يذكر القرآن امرأة باسمها ، فكفى عن زليخا بافراة العزيز . وإنما  
 ذكر مريم باسمها تأكيداً لأن عيسى بلا أب ، وإلنسب إليه ، ومن كنياته أيضاً قوله  
 تعالى : « أَوْ مَنْ يَنْشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ » كناية عن النساء بأنهن  
 ينشأن فى الترفه والتزين الشاغل عن النظر فى الأمور ودقيق المعانى ، ولوأتى بلفظ النساء  
 لم يشعر بذلك . ومنها قوله تعالى : « بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ » كناية عن سعة جوده  
 وكرمه جداً ، ومثلها فى هذا كل ماورد منسوبا إلى الله مما لا يصح نسبته إليه كقوله تعالى :  
 « يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ » وقوله : « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » وقوله : « وَالْأَرْضُ  
 جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » .

أما التعريض الذى يلبس الكناية ويؤدى مؤداها فى المبالغة ، فقد وقع كثيراً فى  
 القرآن . ومنه قوله تعالى : « قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا » ، فإنه لم يقصد إفادة ذلك لأنه  
 معلوم ، بل إفادة ما يشير إليه ، وهو أنهم يردونها ويجدون حرها إن لم يجاهدوا . ومنه أيضاً  
 قوله تعالى : « بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا » نسب الفعل إلى كبير الأصنام المتخذة آلهة ، كأنه



غضب أن تعبد الصغار معه تلويحاً لعابديها بأنها لاتصلح أن تكون آلهة ، لما يعلمون إذا نظروا بعقولهم من عجز كبيرها عن ذلك الفعل ، والإله لا يكون عاجزاً . ومنه قوله تعالى : « وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ » أى محمداً صلى الله عليه وسلم إعلاءً لقدره ، أى إنه العلم الذى لاخفاء له . ومما ورد منه تلطفاً واحترازاً عن المحاشنة قوله تعالى : « وَمَالِيَ لَأَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي » أى وما لكم لاتعبدون بدليل قوله : « وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » ومن هذا أيضاً قوله تعالى : « أَأَخِذُوا مِنْ دُونِهِ آهَةً » وكذلك قوله : « لَمَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ » خوطب النبي وأريد غيره لاستحالة الشرك عليه شرعاً ، وكذلك قوله تعالى : « إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ » تعريض بدم الكفار ، وأنهم فى حكم البهائم التى لاتتذكر . والتعريض والسكناية نادران فى كلام العرب ، لدقة استعمالهما ، ونفاضة قدرهما ، ولكهما كما رأيت فى القرآن كثير ، مع ارتقاء النوع إلى الحد الذى لا يجارى .

ونكتفى من بيان أسرار القرآن بما ذكرنا ، فإن همة مهما علت وتوفرت لا تقوى على الإحاطة بذلك . وحسبنا أن العلماء ألفوا ولا يزالون يؤلفون ، ثم هم بعد لا يدعون الموقوف على جميع أسرار القرآن ، وهذه آية باقية من إعجازه .

## إعجاز القرآن

شاءت رحمة الله بعباده حين يرسل إليهم رسولا يدعوهم إلى طاعته أن يهيب لهم أسباب الإيمان به ، لأنه تعالى يعلم مقدار إلف النفوس لما اعتادت ، وحرصها على ما وجدت عليه آباءها من قبل ، فهو سبحانه وتعالى يشدُّ أزر النبي بالبرهان الساطع على نبوته ، والحجة الدامغة على رسالته ، حتى يسهل على النفوس ، وقد طفا عليها الشرك ، وأعمى بصيرتها الضلال ، أن تهجر ما ألفت ، وتقلع عما اعتادت ، يشدُّ الله أزر نبيه بتمكينه من العلم الذى نبغ فيه قومه ، أو الصناعة التى برزوا فيها ، حتى يعلموا أن هذا التأييد إلهى ، وأن هذه القدرة من مواهبه تعالى لمن اختصه برسالته .



ولما كانت الأمة العربية التي بزغ منها نور النبوة المحمدية أمة أمية خرقاء ، لا تعرف علماً ولا صناعة ، ولا تملك إلا مملكة البيان تتصرف فيه ، وتجيد الضرب في نواحيه، والتحليق في سمائه ، وكانت أمة لا تعرف الفضل لرجلها إلا في شعر يجيدون حبكها ، أو خطب يرمون بطوالها وقصارها ، لما كان ذلك ، ناسب أن تكون حجة محمد عليهم هي البيان ، أو تكون وسيلته إليهم هي البلاغة ، لأنها هي التي آمنوا بها فيما بينهم ، وعرفوا قدرها في نفوسهم .

أنزل الله على رسوله القرآن ، فكان حجته الدامغة ، وقوته وعدته ، على حين لا قوة له ولا عدة ، فكم صعقوا ، وكم زلزلوا ، وكم أخذوا ، وكم أذعنوا حين سمعوا آياته الكريمة . فهذا عمر (وما كان أشدّ عناده للنبيّ وأذاه للمسلمين!) أسلم حين سمع من أخته وزوجها سورة طه . وهذا الوليد بن المغيرة جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رقّ له . فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه ، فقال : يا عمّ ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه لئلا تأتي محمداً لتعرض لما قاله ، فردّ عليه الوليد قائلاً : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا . قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له . قال وماذا أقول ؟! فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ، لا برجزه ، ولا بقصيده ولا بأشعار الجنّ ، والله ما يشبه الذي تقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليعظم ما تحته . قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال فدعني حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يأثره عن غيره .

فن هذه الأحاديث وأشباهاها نعلم يقيناً أن القرآن قد بهر القوم نوره ، وأعشاهم ضوؤه ، وعقل أسنتهم بيانه ، واستبدّ بقواهم صوغه وإحكامه .

ولقد كانوا مع ذلك يناهضون النبيّ ولا يذعنون ، ويكابرون ولا يؤمنون ، يقول بعضهم : إنه سحر ، وآخر إنه شعر ، وغيرهم يقولون : إنه افتراء ، فتحذّاهم إذ ذاك ربّ العالمين بأن يأتوا بمثله إن كانوا قادرين ، فلما عجزوا تحدّاهم بعشر سور ، فلما



انكشفوا ظالمهم بسورة واحدة ، فلكهم الهير ، وانقطع بهم الجدل ، ولم يجدوا بعدُ إلا الإذعان وإلا الإيمان ، فما الذي ياترى أذعنوا له وآمنوا من أجله ؟  
في القرآن أسرار كثيرة أوقوى هائلة ، كل شيء منها كاف وحده لأن تدين له النفوس وتخضع لحكمه :

١ - فمن ذلك ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات ، مما لم يكن قبل إخبار القرآن به ، فوقع كما أخبر ، وأتى وفق ما وصف ، كقوله تعالى : « لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمَنِينَ » ، وقوله : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » ، وقوله : « غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بضع سنين » ، وقوله : « إِنَّا نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » ، وقوله تعالى في شأن أهل بدر ، وقد نزلت الآية بمكة قبل الواقعة بسبع سنين :  
« سَيَهْرَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ » ، وقوله : « هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ » ، وقوله : « إِنَّا كَفِينَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ » . ولما نزلت بشر النبي أصحابه بذلك ، وكان المستهزون نفراً بمكة ، ينفرون الناس عنه ، ويؤذونه فهلكوا ، وقوله : « وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » ، فكان ذلك على كثرة من رام ضره ، وقصد قتله .

٢ - ومن ذلك ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة ، والشرائع الدائرة مما كان لا يعلم القصة الواحدة منه إلا الفذ من أخبار أهل الكتاب ، الذي قطع عمره في تعلم ذلك ، فيورده النبي صلى الله عليه وسلم على وجهه ، وقد علم العرب أن الرسول أمي لا يقرأ ولا يكتب ، ولا اشتغل بمدارسه ولا مثافنة<sup>(١)</sup> ، ومن هذه الأخبار كل ما ورد في القرآن من قصص الأنبياء . وكان اليهود والنصارى كثيراً ما يعنتونه بالسؤال عن أخبار أنبيائهم ، وما ورد في توراتهم وإنجيلهم ، فيأتيهم بالجواب الحق ، الذي لا يستطيعون معه معارضة ولا مناقضة ، فكان من أثر ذلك أن

(١) ثافته : وجالسه ولازمه .



أكثرهم صرح بصحة نبوته ، وصدق مقالته ، واعترف بعناده وحسده إياه . ومن  
بأنهت في ذلك ، وادّعى كذب محمد فيما جاء به من أخبارهم قيل له « قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ  
فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » ، فكان ذلك أعظم تفرّيع وتوبيخ له . قال تعالى :  
« يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ  
الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ » .

٣ - ومن ذلك حسن تأليفه ، والتثام كلمه ، وتخيّر ألفاظه ، وحسن مقاطعه  
ومطابقة هذا النظام لمقتضيات الأحوال ، مضموماً إلى ذلك جلال الغرض وسموّ  
المعاني ، وصفاء الحكمة ، وانطباق المثل .

وإن البحث في هذا ، وتفصيل القول في فصاحة القرآن ، وسلامة تأليفه من  
الاضطراب ، هو الذي شغل علماء البلاغة ، فظلوا أجيالا طويلة يكشفون عن هذه  
الأسرار ، فما اتهموا إلى غاية ، ولا وقفوا إلا على بعض السرّ الذي ينطوى عليه هذا  
النظم العجيب . فما أشبه القرآن في ذلك : « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى » بالشمس يسطع  
نورها ، فيجد فيها السالك هداة ، والخصر دفته ، والمستوقد ناره ، والزارع حاجة  
زرعه إلى النماء ، إلى ما لا تكاد نعدّه من فضائل هذه الشمس ، فهذا مثل آي  
القرآن الكريم لا يزال العلماء يجدّون في الكشف عن أسرارها ، وكلما اتهموا  
إلى غاية تسامت عنهم غيرها وغيرها ، فهم مع حسن بلائهم ، وعظيم حيلتهم ،  
وواسع بيانهم ، مقرون بالعجز ، مقصرون عن الغاية ، وكم تكلموا فأطالوا في قوله  
تعالى : « وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ » ، وقوله : « وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغُوا فَلَا فَوْتَ  
وَأَخْذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ » ، وقوله : « وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَمَاءُ  
أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »  
وانظر إلى قوله تعالى في وصف أهل النار : « فَأَلَّذِينَ كَفَرُوا تُطِغْت  
لَهُمْ نِبَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي



بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ . وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ . كَمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ » ، وقوله تعالى : « وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ » ، وقوله تعالى في وصف النار : « إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا صَيِّمًا مَقْرَنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا . لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا » ، وإلى قوله تعالى في وصف أهل الجنة : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحَسَنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ . لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ . لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ » ، وانظر إلى قوله تعالى : « قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ » ، وقوله : « قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ » .

وهناك أسلوب شاع في القرآن ، ولم يكن العرب يعرفونه ، وهو عرض الكلام في معرض الشك حتى يكون ذلك استدراجاً للخصم ، وتخفيفاً من شدة عناده ، كقوله تعالى : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » ، وقوله : « أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا » ، وقوله : « قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » ، وقوله : « لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ » . وقوله : « فَسَتَبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ بِأَيِّكُمْ الْمَفْتُونُ » .

وهذا مقام لا يسعنا فيه إلا نقل القرآن برمته للاحتجاج به ، فهو جميعه سبيكة واحدة في جمال الرونق ، وكمال البيان ، وإحكام الصنعة . فنحن نحيلك على المصحف تقلب صفحاته ، لترى الحكمة كيف سبقت ، والمثل كيف ضرب ، والحجة كيف دمغت ، والصفة كيف تمثلت ووضحت ؟ .

وقد عرضنا لك هذه المزايا الظاهرة في القرآن ، ولم نقاضل بعد بينها ، ولا رجحنا



بعضها على بعض . فلو قيل لنا : أى هذه المزايا أحقّ بالتقديم وأولى بالاعتبار ، فإننا ما نتردد في هذه الميرة الثالثة ، وهى الفصاحة وقوّة البيان ، لأن هذا الوصف هو الذى يحسن فى التحدّى للعرب الذين عرفوا باللسن ، واشتهروا بقوّة البيان ، ثم هو الوصف الباقى مع القرآن ما بقى الزمان ، لأن التنبؤ بما لم يكن ، لم تكن له قيمته إلا قبل حدوثه ، فأما بعد ذلك فقد زالت روعته ، وصار لمنكره سبيل إلى الإنكار ، لولا ما محتجّ به من أنه سبق الوقوع وتقدّمه ، فتكون الحجة فيه محتاجة إلى حجة ، والبرهان متوقفاً على غيره . هذا إلى أن العرب كانوا مولعين باستطلاع الغيب ، وكان فيهم من يدعى علم ذلك ، من الكهنة الذين كانوا يلقون القول على عواهنه ، فيصدق منه بعض ويكذب بعض . فلو كان التحدّى من النبىّ بذلك لوجد من هؤلاء من يقول أنا أخبرت بكذا ، فكان كما قلت . وهذا ضعف فى الحجة لا تقبله فى القرآن ، والاستدلال به على هذا الأمر العظيم ، وهو صدق محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما الإخبار بالأمر التى وقعت منذ العهود البعيدة ، وأخبر بها النبىّ من قصص الأنبياء ، وحادث أهل الكهف ، أو شأن ذى القرنين ، فإن هذه أخبار كانت معلومة أيام النبىّ ، وإن كان علمها مقصوراً على أهل الكتاب ، فلو شاء معارض أن يقول : إن محمداً قد استطاع الوصول إلى ذلك بإحدى الوسائل مهما كانت السبيل دونه وعرة ، فإن هذا القول بفت فى حجته ، وليس من شأن حجج الأنبياء أن ينالها الوهن من إحدى نواحيها ، فلم يبق إلا أن الإعجاز كان بهذا السرّ الباقى على الأيام ، وهو البلاغة التى تسطع حجتها فى كلّ حين .

وقد بقى من الآراء فى إعجاز القرآن قول منسوب إلى أحد شيوخ المعتزلة وهو إبراهيم النّظام . وهذا هو القول بالصّرفة ، ومعناه : أن العرب كانوا قادرين على معارضة القرآن ، ولكنّ الله صرفهم عن ذلك ، وأبطل مقدرتهم عليه . وذلك فيما يرى النّظام أدلّ على التأييد من الله لرسوله ، إذ كان العجز مع القدرة ، واستحالة الممكن أدلّ على إرادة الله لنصرة نبيه ، وهذا قول باطل لا يابق الأخذ به ، فقيه اعتراف



من قائله بأن القرآن في ذاته يمكن المعارضة، لا فضيلة له يمتاز بها على كلام العرب ،  
وأن تقصيرهم عن محاماته كان لسبب خارج عن ذاته، موقوت بالمدّة التي شاءت  
القدرة الإلهية أن تحد من عزم العرب عن معارضته ، وهذا كله نقض ينزه القرآن  
عنه . على أنه لو كان الواقع ما ادّعاه النظم ما استعظم العرب فصاحة القرآن ،  
وتعجبوا من سبكه ، وعلوّ كلمه ، بل كان تعجبهم من عجزهم عن المعارضة مع  
قدرتهم عليها .

وقد رأينا من الباحثين في هذا الموضوع من يقول : إن إعجاز القرآن في معناه  
يريد بذلك أن علوّ حكّمته ، ودقة تشريعه ، وشمول الفكرة فيه لما لم يكن العرب  
يفكرون فيه ، ولا يتناولونه ببحثهم ، هو الوجه الظاهر في الإعجاز ، وهذا الوجه لانراه  
يستطيع النهوض وحده ، إذ يكون التحدّي به تحديًا بما لم تجر به العادة في  
التحدّي ، فإن العرب لم يكونوا أمة علم ، ولا ادعوا الفوق في التشريع ، حتى يحتاجوا  
وينازعوا في هذا الباب . على أن المنقول عن العرب أن الذي راعهم إنما هو  
السبك وقوّة البيان ، فهذا قوله تعالى : « فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ » لم يصعق له سامعه  
إلا من ناحية الصوغ وبراعة التأليف وهكذا ، وإذا نظرنا إلى حكمهم بأن القرآن  
شعر أو سحر عرفنا الناحية التي راعتهم منه ، وهي ناحية التأثير لا ناحية دقة المعنى  
وبعد المراد .

كذلك رأينا من يقول : إن وجه الإعجاز الذي يجب أن يكون في مقدّمة  
الاستدلال على علوّ كعب القرآن ليس هو الصياغة الفنية وحدها ، وإنما الذي أعجز  
العرب مع هذه الصياغة وجوه أخرى ، تلك هي الأسلوب المنطقي والأسلوب العلمي . الخ  
وقد فصل صاحب هذا الرأي قوله في الأسلوب المنطقي والعلمي فذكر أن العرب لم  
يكونوا يعرفونهما ، وأنهم إنما اعتادوا الأسلوب الخطابي . والواقع أن الأسلوب المنطقي  
حاصل في كلّ كلام ، لأن الكلام بيان واستدلال وترجيح وتفضيل ، ولا تكون



هذه الأمور إلا بهذا الأسلوب ، فالقول بجهل العرب لهذين الأسلوبين ، وعدم وجودها في كلامهم ، لا يمكن الإيمان به ، والشعر والنثر الجاهليان يفيضان بهذا .  
وإن من سبق له الاطلاع على أدب الجاهليين ليكفيينا مئونة الاستدلال على أن العرب قد وقع لهم في كلامهم الأسلوبان : ( العلمى ، والمنطقي ) ، وإلا فإين حكمهم وأمثالهم ؟ وكلها ناطقة بتجرتهم ، مثبتة لقويم استدلالهم

ولا بأس أن نطالعك على هذا الحوار المتين ، والجدل القوى الذى تقرع فيه الحجة بالحجة ، ويوزن الدليل بالدليل ، لتعرف أن هؤلاء العرب كانوا إلى جانب قوتهم الخطابية ، حصفاء يتلطفون للإقناع ويتأتون له . هذا الحوار هو ما جرى بين امرئ القيس ابن حُجر ، وأشياخ بني أسد في الغفوع عن دم أبيه :  
قال قبيصة بن نعيم يخاطب امرأ القيس :

إنك في الحل والقدر ، من المعرفة بتصرف الدهر ، وما تحدثه أيامه ، وتنقل به أحواله بحيث لا تحتاج إلى تذكير من واعظ ، ولا تبصير من مجرب ، ولك من سودد منصبك ، وشرف أعراقك<sup>(١)</sup> ، وكرم أصلاك في العرب ، محتد<sup>(٢)</sup> يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة ، ورجوع عن الهفوة ، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية الإرجعت إليك ، فوجدت عندك من فضيلة الرأى ، وبصيرة الفهم ، وكرم الصفح ما يطول رغباتها ، ويستغرق طلباتها<sup>(٣)</sup> ، وقد كان الذى كان من الخطب الذى عمّت رزيتة نزاراً واليمن ، ولم تخصص به كينة دوننا ، للشرف البارع الذى كان لحجر . ولو كان يُفدى هالك بالأنفس الباقية بعده ، لما بجلت كرائمنا بها على مثله ، ولكنه مضى به سبيل لا يرجع أخراه على أولاه ، ولا يلحق أقصاه بأدناه . فأحمد الحالات عندك أن تعرف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث : إما أن اخترت من بنى أسد أشرفها بيتاً ، وأعلاها في بناء المكرمات صوتاً فقدناه إليك بنسعة<sup>(٤)</sup> تذهب مع شفرات حسامك بياق قصرتة<sup>(٥)</sup> ، فنقول : رجل امتحن بهالك عزيز ، فلم يستل سخيمته<sup>(٦)</sup> إلا تمكينه من

(١) أنسابك . (٢) أصل . (٣) جمع طلبة (كفرحة) وهى الطلب . (٤)

(٥) قطعة من جلد . (٦) رقبته . (٧) يستل سخيمته : ينزع ضغنه .



الانتقام ، أو فداء بما يروح على بنى أسد من نعمها ، وهي ألوف تجاوز الحِسْبَةَ . فكان ذلك فداء رجعت به القُضْبُ (١) إلى أجدانها لم يردّدها تسليط الإحن (٢) على البراء ، وإما أن وادعتنا إلى أن تضع الحوامل ، فتُسَدُّ الأزر ، وتُعقد الحُمُرُ فوق الرايات . فبكى امرؤ القيس ساعة ، ثم رفع رأسه فقال :

لقد علمت العرب أن لا كفء لحُجر في دم ، وأنى لن أعتاض به ناقة أو جملا ،  
فأكتسب بذلك سُبَّةَ الأبد ، وفَتَّ العَضد ، وأما النُّظْرَةُ فقد أوجبتها الأجنة في بطون  
أمهاتها ، ولن أكون لعطها سبباً ، وستعرفون طلائع كندة تحمل في القلوب حنقاً ،  
وفوق الأسننة عَمَلَقاً (٣) :

إذا جالت الحَرْبُ في مَازِقِ تصافح فيه المنايا النفوسا

أتقيمون أم تنصرفون ؟ قالوا : بل ننصرف بأسوا الاختيار ، وأبلى الاجترار ، بمكروه  
وأذية ، و حرب و بليّة ، ثم نهضوا عنه ، وقبيصة يتمثل :

لعلك أن تستوخم الوِزْدَ إنْ غدت كتائبنا في مَازِقِ الحربِ تُمَطِّرُ (٤)

فقال امرؤ القيس : لا والله ولكن أستعذبه ، فريداً ينفرج لك دجاها عن فُرسان  
كندة وكتائب حَمِير ، ولقد كان ذكر غير هذا أولى بي إذ كنت نازلاً بربعي ،  
والكنك قلت فأوجبت .



وختم القول أن العرب لو كانوا حقاً يجهلون الأسلوبين العلمى والمنطقي ولم يأنفوا  
القول فيهما ، ما كان لهما وقع في نفوسهم ، لأنهم يكونون جاهلين بهما ، وغير متدوِّقين  
لهما ، ومن جهل شيئاً لم يأبه له ، ولا اعتد به ، وإنما يملك إعجاب المرء كل شيء حاوله  
فكان له فيه بلاء لم يبلغ غاية السكال ، فهو لا يزال محاولاً لها طامعاً فيها حتى إذا

(١) قضب : جمع قضيب وهو السيف . (٢) الإحن : جمع إحنة ، وهي الحقد .

(٣) دما . (٤) استوخم الشيء : وجده سيء العاقبة .



رأها تمت على يد غيره ، أسرع بالإقرار له بالفضل إن كان منصفاً ، أو اضطرَّ أخيراً إلى الإذعان حين يبهره جمال الفن الذي تعشقه وتعلق به ، ثم يكل إلى مثله الأعلى .

## أثر القرآن في اللغة

بمراجعة كتاب الجمل من مؤلف

لا يؤثر شيء في لغة قوم حتى يكون قد غير ما بأنفسهم ، لأن اللغة طابع الأمة وغرار ثقافتها . وقد علمت ما أحدث القرآن في نفوس العرب من هداية ، وما كشف عنهم من عمّاية ، وما هذب من خلقهم ، وبذل من جهلهم ، وأنه قلبهم من رعاة جفاة غلاظ الأكياد ، إلى سادة يدين العالم لعدهم ، ويتسابق الناس إلى اعتناق دينهم ، والدخول في زميرتهم .

وإذا علمت سرعة هذه الظفرة في خلقهم وحياتهم ، فاعلم أنها كانت كذلك في لغتهم ، فإن العرب لم يسمعوا القرآن حتى خضعوا لسلطانه ، وتسابقوا إلى حفظه ، وتدوّقوا من حلاوته ، وتعبدوا بتلاوته ، وهان عليهم بإزائه ما تناولوا به من حكهم وأمثالهم ، وما ملئوا به أشداقهم من نثرهم ونظمهم ، فكان من أثر ذلك أن هجر بعض فحولهم عادته في قول الشعر ، وعكف على القرآن يستوحيه الحكمة ، ويستمدّه الهداية . وبعضهم استمرّ منبهراً منقطعاً ، متصراً عن الغاية التي عرفت له في أيام الجاهلية . ولم يلبث العرب حتى صار القرآن نورهم الذي يهتدون به ، فاتبع الشعراء والخطباء أسلوبه ، وعمدوا إلى سهولته وانسجامه ينسجون على منوالهما ، هاجرين ( كما هجر ) حوشى اللفظ ، ومعقد القول ، وكثرت من المعاني ثروتهم ، وتدفقت بالقول أسنتهم ، يقتبسون من القرآن ( وهو البحر الخضم ) أساليب متنوّعة ، ومعاني في كلّ غرض ، وحكمة ، ومثلاً ، في أحسن مساق ، وأليق موضع .

وتتبع من حرص العرب على القرآن أن تقدموا بخطا واسعة إلى المدنية ، فإنهم من



أجله وضعوا علم النحو ولم يعض عليهم في الإسلام ثلاثون سنة ، ثم أتبعوه بعلوم التفسير ،  
واللغة ، والتاريخ ، والبلاغة وغيرها ، مبالغة في الذود عنه ، والحرص عليه .  
أما هو فقد أتى بمعجزة أخرى غير معجزته في نفسه ، وهي بقاء العربية ناقضة طبيعة  
اللغات ، في عدم الثبات .

## نبأ النبوة والبلاغة النبوية

لقد بعث الله محمداً في تلك الأمة العربية التي تعترّ ببيانها ، وتباهى بفصاحتها ،  
ولا يشغلها إلا القول تدبجه ، والبيان تحبره ، فلم يكن يستطيع أن يظهر عليهم  
إلا بسلاحهم . فأيده الله بالقرآن الكريم ، فبهزم حسنه ، وغلبهم أسره ، وذلوا أمامه ،  
ساجدين لعظمته . ثم لم يكن من المستطاع أن يجرى القرآن على لسان النبي ، وهو بعد  
بين القوم كأحدهم ، لا فضيلة له عليهم في خاصّ كلامه ، ومعتاد حديثه ، وهو محتاج  
إلى التأثير ، وشدة الأخذ ، ودعوتهم إلى الدين ، وتأديبهم بأدبه ، ودفعهم لمحاربة  
أعدائه . فكان من الله أن أيده بمعجزة أخرى ، هي بلاغة لسانه ، وقوة بيانه . فقد  
كان صلى الله عليه وسلم في هذا على غير ما يعهد العرب في فصحتهم ، وما يألون  
من مناطيقهم ، حتى لقد قال له أبو بكر رضي الله عنه : لقد طفت في العرب ،  
وسمعت فصحاءهم ، فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك (علمك) ؟ فقال عليه الصلاة  
والسلام : « أَدَّتْ نَبِيَّ رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيْبِي » .

وكما أعدّ الله رسوله للنبوّة منذ قدرها له ، فأنبته نباتاً حسناً ، وطهره من  
أرجاس العرب ، فما سجد لضمير ولا لابس منكر ، كذلك أعدّه للفصاحة ، فجعله من  
قريش ، وهي في الذروة من الفصاحة ، واختاره من خير بيوتها نسباً وصهرراً ، ثم كانت  
رضاعته في بني سعد ، وهم من أفصح القبائل ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام :  
« أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ بَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ وَنَشَأْتُ فِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ » .



ولم تقف عناية الله برسوله إلى حدّ المولد والنشأة ، بل لقد علمه الله لغات العرب كلها ، فكان يخاطب كل قبيل بلغته فيبزّم فيها . ومثل ذلك لا يكون إلا بتعليم وتلقين ، والنبى لم يعلم عنه أنه تنقل في تلك التبدائل قبل البعثة حتى يحذق لغاتها ، ويكون فيها أفصح من فصحاءها . ولقد قال له على رضى الله عنه حين سمعه يخاطب وفد بنى نهد : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ، ويراك تكلم وفود العرب بما لا نفهمه ، فأجابه رسول الله بما أجب به أب بكر آنفاً .

ومن أمثلة هذه اللغات التي كان النبى يعرفها دون قریش كتابه لوائل بن حجر الكندى أحد أقبال حضرموت ، ومنه (١) :

إلى الأقبال العباهلة ، والأرواع المشايب .  
ومنه : وفى التبيعة شاة ، لا مُمَوَّرَة الألياط ولا ضنّاك ، وأنطوا الثبجة ، وفى الشيوب الخمس ، ومن زنى مم بكر فاصتعوه مائة ، واستوفضوه عاماً ، ومن زنى مم ثيب فضرّجوه بالأضاميم ، ولا توصيم فى الدين ، ولا عُمَّة فى فرائض الله تعالى ، وكل مسكر حرام ، ووائل بن حجر يترفّل على الأقبال .

لم تقف الدهشة من أمر النبى صلى الله عليه وسلم عند معرفته لغات العرب ، ولكنها كانت أعظم حين يخاطب قومه بما لم يعهدوه فى لغتهم ، ولم يأتروه عن بلغاتهم من جوامع الكلم التي رويت عنه ، كقوله فى الحرب يوم حنين : « الآن حمى الوطيس » ، والوطيس : التنور ومجتمع النيران ، استعاره رسول الله لشدة الحرب . وقوله لأبى تميمه الجهيمى : « إياك والمخيلة » ، فقال يا رسول الله نحن قوم عرب ، فما الخيلة ؟

(١) التفسير لألفاظ الكتاب بترتيبها : الأقبال : جمع قبيل ، وهو الملك من ملوك حمير وحضرموت . العباهلة : المقرون فى ملكهم ، الأرواع : الذين يروعون بالهيبه والجبال ، المشايب : جمع مشبوب وهو الجبل الزاهى اللون ، التبيعة : أربعون شاة ، المُمَوَّرَة : المسترخية ، الضنّاك : الوثيقة الخلق السمينة ، أنطوا الثبجة : أعطوا الوسط ، السيوب : جمع سيب وهو العطية ، والمراد به الركاز وهو دفين الجاهلية ، الصقع : الضرب ، الاستيفاض : النفي والتغريب ، الأضاميم : الحجارة الصغار ، التوصيم : الفترة والتوانى ، يترفّل : يتراأس .



فقال عليه السلام : « سَبَلُ الْأَزَارِ » ، يريد الكبر . وقوله : « هُدْنَةٌ عَلَى دَخَنٍ » ، والدخن : دخان النار ، يريد عليه الصلاة والسلام أن الصلح لم يذهب بالأحقاد جملة ، كما يبقى شيء من النار تحت الرماد ، فيستدل عليه بما يتصاعد عنه من دخان . ومن ذلك قوله : « لِأَنْجِشَةَ حَادِي إِبْلهِ وَفِيهَا النَّسَاءُ : « رِفْقًا بِالْقَوَارِيرِ <sup>(١)</sup> » ، وهي كناية عن النساء ليس بعد جمالها جمال . وقوله : « بُعِثْتُ فِي نَفْسِ السَّاعَةِ » ، أى قريباً منها ، أحسها كما يحس المرء أنفاس من يدانيه . وقوله : « يَا خَيْلَ اللَّهِ أَرَكَيْي » ، وقوله : « كُلُّ أَرْضٍ بِسِمَاتِهَا » ، وقوله : « لَا يَنْتَطِحُ فِيهِ عَزَانٌ » ، وقوله يوم بدر : « هَذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ » ، وقوله : « لَا يَلِدُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ » ، ويروى : لا يلسع ، والمعنى واحد ، وهذا القول قاله النبي لأبي عزة الشاعر ، أسره يوم بدر ، ثم من عليه ، وأتاه يوم أحد فأسره ، فقال من على ، فقال عليه الصلاة والسلام الحديث السابق : ( أى لو كنت مؤمناً لم تعاود قتالنا ) ، وقوله : « إِيَّاكُمْ وَخَصْرَاءَ الدَّمَنِ » ، قيل له : وما ذلك يا رسول الله ؟ قال : المرأة الحسنة فى منبت السوء ، شبهها بالشجرة الناضرة فى دمنة البعر ، وأكلها مؤذ .

ومن بليغ كلامه عليه الصلاة والسلام قوله : « عَلَّقَ سَوْطَكَ حَيْثُ يَرَاهُ أَهْلُكَ » ، وقوله : « النَّاسُ بِأَزْمَانِهِمْ أَشْبَهُ مِنْهُمْ بِأَبَائِهِمْ » ، وقوله : « مَا هَلَكَ أَمْرٌ وَعَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ » وقوله : « لَا تَجْنِ يَمِينَكَ عَلَى شِمَالِكَ » ، وقوله للأَنْصَارِ : « إِنَّكُمْ لَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ وَتَكْتُرُونَ عِنْدَ الْفُرْعِ » ، وقوله : « النَّاسُ كُلُّهُمْ سِوَاهِ كَأَسْمَانِ الْمَشْطِ » ، وقوله : « الْمَرْءُ كَثِيرٌ بِإِخْوَانِهِ » ، وقوله : « لَا خَيْرَ فِي صُحْبَةِ مَنْ لَا يَرَى لَكَ مَا يَرَى لِنَفْسِهِ » ، وقوله فى الخيل : « بَطُونُهَا كَنْزٌ ، وَظُهُورُهَا

(١) فى كتاب الكنايات للجرجاني : أن المعنى أن رسول الله لما رأى حسن صوت أنجشة ، وأنه قد يسي النساء ، قال له فى ذلك ليقبل من ترقيق صوته حتى لا يستميلهن .



حِرْزٌ» ، وقوله : « النَّاسُ كَابِلِ مَائَةٍ لَا تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً » ، وقوله : « لَوْ تَكَاشَفْتُمْ مَا تَدَافَنْتُمْ » ، أى لو علم بعضكم سريرة بعض لاستنقل تشيعه ودفنه .

ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « أ كَثَرُوا مِنْ ذَكَرِ هَادِمِ اللِّدَاتِ » ، ( يريد الموت ) ، وقوله : « مَلْعُونٌ مَنْ هَدَمَ بُنْيَانَ اللَّهِ » ، ( يريد قتل النفس ) ، وقوله : « قَدْ جَدَعَ الحَلَالُ أَنْفَ الغَيْرَةِ » ، وقوله : « وَعَدُ المُؤْمِنِ كَأَخْذِ بَالِيَدٍ » . هذا إلى جوامع كله عليه الصلاة والسلام التى اشتملت على الحكمة الرائعة ، وجرت مجرى المثل ، كقوله : « المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » ، وقوله : « الرِّعْبَةُ فِي الدُّنْيَا تُكْثِرُ اهُمَّ وَالْحُزْنَ ، وَالبَطَالَةُ تُقْسِي القَلْبَ » ، وقوله : « اَلْيَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنْ اَلْيَدِ السُّفْلَى » ، وقوله : « الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ اأُولَى » ، وقوله : « إِنْ مِنْ اَلْبَيَانِ لَسِحْرًا » ، وقوله : « تَرَهُكَ الشَّرُّ صَدَقَةً » ، وقوله : « حُبُّكَ الشَّيْءِ يُعْبَى وَيُصَمُّ » .



ودليلنا على أن شأن النبىِّ فى اللغة إنما كان إلهاماً من الله ، يقوى به جانبه ، ويشدُّ أزره ، أنه عليه الصلاة والسلام زاد فى اللغة ألفاظاً ، وأجرى فيها اشتقاقات ، وتوسع فى معانى بعض ألفاظها بما لم يعهد قبله ، فكان للغة منه مادة جديدة ، زادت فى ثروتها ، فمن ذلك تسميته : « صفراً الأول » محرّماً ، وذلك حين أبطل الإسلام النسيء ، وحتم تحريم القتال . وكذلك وصفه عليه السلام لفرس ركبه بأنه بحر ، أى لا ينقطع جريه ، كما لا ينقطع تيار البحر . وكذلك كلمة الصير بمعنى الشقِّ فى قوله : « من اطاع من صيرٍ بابٍ فقد دَمَرٌ » ، قال أبو عبيد : لم يسمع هذا الحرف إلا فى هذا الحديث . وصير الباب : خرقه . ودمر : دخل . كذلك وصفه للزانية بالزمارة فى حديث أبى هريرة : « إن النبىَّ نهى عن كسب الزمّارة » ، قال ثعلب : الزمارة الزانية



لأنها تشيع أمرها، كأنها تنفخ في بوق، وهذا الحرف لم يسمع إلا في هذا الحديث هذا إلى ألفاظ كثيرة جرت على لسانه في بيان الشريعة ولم ترد في القرآن .

كذلك ورد في القاموس المحيط : أن كلمة « مَهْرُوزَةٌ » لم تسمع إلا في قوله عليه الصلاة والسلام في المسيح : « ينزل عند المنارة البيضاء شرق دمشق في مَهْرُوزَتَيْنِ » ، أى بين ممصرتين ، وتروى مهروذتين بالدال ، ومعنى قول صاحب القاموس ممصرتين : مصبوغتان بالمصر ، وهو الطين الأحمر .

### النبى وقول الشعر ٥

صرف الله النبى عن قول الشعر ، فلم يؤثر عنه أنه أنشأ شيئاً منه وهو القادر عليه ، اللهم إلا ما وقع له من غير قصد ، كقوله يوم أحد :

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وقوله وقد دميت إصبعه :

هل أنت إلا إصبعُ دَمِيتِ وفى سبيلِ الله ما لَقِيتِ

وإنما اتفق له ذلك كما يتفق لكل متكلم أن يجيء كلامه على وزن وهو لا يتعمده .

قال الجاحظ : ولو قال بائع : ( من يشتري باذنجان ) لكان شعراً ، لأنه مستفعلان مفعولان ، وهو كما تعلم من منهوك المنسرح ذى العروض الموقوفة ، كذلك يروى الجاحظ أنه سمع ابن صديق له سقى بطنه وهو يقول : « اذهبوا بى إلى الطبيب وقولوا قدا كتوى » وهو كما ترى من الخفيف .

كما ورد في القرآن مثل قوله تعالى : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » ، وقوله : « وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ » ، فأنهما يوافقان الرمل <sup>(١)</sup> وقوله تعالى :

(١) وزن هذا البحر فاعلاتن فاعلاتن فاعلن (مرتين) الآية الأولى من مجرؤه ، وقد دخل ضربه التسيغ ، وهو زيادة حرف ساكن على السبب الخفيف ، والآية الثانية من مجزؤه أيضاً لكنه صحيح العروض والضرب .



« .. مَنْ تَرَكَ فَإِنَّمَا يَتَرَ كِي لِنَفْسِهِ » ، فإنه يوافق الخفيف <sup>(١)</sup> ، وقوله تعالى :  
« .. دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذَلِيلًا » فإنه يوافق الرجز <sup>(٢)</sup> ، وقوله تعالى :  
« وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ » ، فإنه يوافق الوافر <sup>(٣)</sup>  
وقوله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » ، وزنه مستفعلن متفعلن ، وهو رجز ، وقوله  
تعالى : « إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ » ، من بحر الخيب ، ووزنه : فَعَلْنَ فَعَلْنَ . . .  
وفي كتاب إيجاز القرآن للباقلاني أمثلة كثيرة ، لما ورد في القرآن من شعر غير مقصود ،  
فارجع إليه .

ومثل هذا يقع في كلام الناس كثيراً من غير قصد ، على أن ما وقع للنبي إنما  
كان من الرجز الذي هو أبسط أوزان الشعر ، وأقربها إلى النثر ، حتى نفي بعضهم أن  
يكون شعراً خصوصاً إذا كان من منهوكه أو مشطوره ، فإنه أشبه بفقرات السجع  
منه بالشعر .

كذلك لم يكن النبي يقيم وزن بيت يرويه أو يتمثل به ، كما فعل بيت طرفة ، فإنه  
رواه هكذا :

سَتَبْدِي لَكَ الْأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا      وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تَزُودَ بِالْأَخْبَارِ

وأصله : ويأتيك بالأخبار من لم تزود .

وكما فعل بيت العباس بن مرداس وهو :

أَتَجْعَلُ نَهْيِي وَنَهْبَ الْعَبِيدِ بَيْنَ الْأَقْرَعِ وَعَيْنِنَا

وأصله : بين عيينة والأقرع .

(١) وزن هذا البحر فاعلاتن مستفع لن فاعلاتن (مرتين) والآية من مجزئته .

(٢) وزن هذا البحر مستفعلن ست مرّات .

(٣) وزن هذا البحر فاعلاتن ست مرّات ، والآية منه مقطوف العروض ، والضرب :

( القطف صيرورة فاعلاتن إلى فمولن ) أي باسقاط السبب الخفيف الأخير وإسكان الحرف الخامس .



وأكثر ما كان يتمثل بأنصاف الأبيات حتى لا يتحقق كونها شعراً كما فعل بيت لبيد حين قال : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

\* أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ \*  
فأتى بالشطر صحيحاً ولكنه سكت عن إكمال البيت .

ولم يكن إعراض النبي عن قول الشعر وروايته إغماضاً لشأنه (أو صرفاً للعرب عنه) فإن المعروف أنه كان يقبل على الشعراء ، ويحسن الاستماع لقولهم ، ويثيب من يمدحه منهم ، فقد خلع على كعب بن زهير بردته التي اشتراها منه معاوية بثلاثين ألف درهم ، وتوارثها الخلفاء بعده ، يلبسونها في الجمع والأعياد ، وكان يكثر من استنشاد الخنساء في رثاء أخيها صخر ، ويقول : « هَيْه يَا خُنَّاسُ » ، بل لقد كان يدعو إلى قول الشعر ، ويستعين به في نشر دعوته ، وهو الذي اتخذ حسان شاعره ، وأمره أن يهجو كفار قريش ، وكان يقول له : « شُنَّ الْغَارَةَ عَلَى بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، فَوَاللَّهِ لَشِعْرُكَ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ وَقَعِ الْحُسَامِ فِي غَبِشِ الظَّلَامِ » ، وكان يثيبه ويدعوله . وهذه قَتِيلَةُ أُخْتِ النَّضْرِ بْنِ الْحُرْثِ الَّذِي كَانَ غَالِيًا فِي عَدَاوَةِ الْمُسْلِمِينَ بِمَكَّةَ يَكْتُرُ أَذَاهُمْ ، ويلقن فتيان قريش الشعر في مهاجمهم ، أسره النبي في بدر وقتله ، فجاءته أخته وأنشدته :

يَا رَا كِبَاً إِنَّ الْأَثِيلَ مَظْنَةٌ	مِنْ صُبْحِ خَامِسَةٍ وَأَنْتَ مُوَفَّقٌ (١)
أَبْلَغُ بِهِ مَيْتًا بَأْسَ تَحِيَّةٍ	مَا إِنْ تَزَالُ بِهَا النَّجَائِبُ تَحْفِقُ (٢)
مَنْى إِلَيْكَ وَعَبْرَةٌ مَسْفُوحَةٌ	جَادَتْ بِوَاكِفِهَا وَأُخْرَى تَحْنُقُ (٣)
هَلْ يَسْمَعُنِي النَّضْرُ إِنْ نَادَيْتُهُ	أَمْ كَيْفَ يَسْمَعُ مَيْتٌ لَا يَنْطِقُ (٤)
ظَلَّتْ سَيْوُفُ بَنِي أَبِيهِ تَنْوُشُهُ	لِلَّهِ أَرْحَامُ هُنَاكَ تَشْتَقُّ (٥)

(١) الأثيل : واد قرب بدر ، وهو الموضع الذي دفن به أخوها .

(٢) كيضرب : تسرع .

(٣) وكف المطر والدمع : سال .

(٤) أم للإضراب : أى بل إنه لا يسمع لأنه لا ينطق .

(٥) ناشه : تناوله .



صَبْرًا يُقَادُ إِلَى الْمَنِيَةِ مُتَعَبًا رَسَفَ الْمُتَمَيِّدِ وَهُوَ عَانٍ مُوثِقٌ (١)  
أَحْمَدٌ وَوَلَدَتِكَ خَيْرٌ نَجِيَّةٌ فِي قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فَخْلٌ مُعْرِقٌ (٢)  
مَا كَانَ ضَرْكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرَبَّمَا مَنِ الْفَتَى وَهُوَ الْمَغِيْطُ الْمُحْمَقُ (٣)  
فَالنَّضْرُ أَقْرَبُ مَنْ قَتَلْتَ قَرَابَةً وَأَحَقُّهُمْ إِنْ كَانَ عِتْقٌ يُعْتَقُ  
لَوْ كُنْتَ قَابِلَ فِدْيَةٍ لَفَدَيْتَهُ بِأَعْرَضٍ مَا يُغْلِي بِهِ مَنْ يُنْفِقُ (٤)

فقال رسول الله : لو سمعت هذا قبل قتله لمننت عليه .

ومن تمام الحجة في رسالة النبي أن صرفه الله عن الشعر ، لا يقوله ولا يحسن روايته ، لأنه لو قاله لوجب أن يبرز فيه ، ولا يبرز حتى يسير في نهج الشعراء ، من الهجاء والفخر والتشبيب والهيام في كلِّ واد من الكذب والضلال ، وما تلك سبيله في الهداية وتأديب الخلق . ولو كان شاعراً لنسب العرب فضيلة النبي وحجته البالغة إلى تأثير الشعر ، وقد طالما رأوا من بينهم شعراء يثيرون الحروب ، ويؤرثون نيران العداوة ، فيصبح النبي في نظرهم صعلوكاً من صعاليتهم ، الذين كانوا في كلِّ واد يهيمون ، ومثل هؤلاء لا يُتبعون في الأمر العظيم الذي دعا إليه النبي ، فدخل فيه العرب على بكرة أبيهم ، وكان منهم ما كان من سيادة العالم ، قال تعالى : « وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ » .

- (١) يقال قتله صبراً : إذا أقامه للقتل . العانى : الأسير . الموثق : المتقيد بالوثاق (بالفتح) .
- (٢) الفحل : كناية عن الأب . معرق : أصيل .
- (٣) المحنق : المغتاط ، من أحنقه إذ غاظه .
- (٤) غلى بالشيء وغلى به : طلب فيه ثمناً غالباً ، أو اشتراه كذلك .



## وصف بلاغة النبي

الرسالة  
بإيجاز كتاب جميل

كان رسول الله يوجز غالباً ليعقل عنه ما يقال ، ولأن الإيجاز أليق بعظمته ، وقد نهى عن الثثرة والتفهيق ، ولذلك جاءت أحاديثه كلمات جوامع ، وحكا بالغة ، وهو القائل : « إنا معشر الأنبياء بكاء » : ( قليلو الكلام ) ولم يكن ذلك بمناعه من الإطالة حين يقتضى المقام ، كما روى أبو سعيد الخدري أنه خطب بعد صلاة العصر فقال : « ألا إن الدنيا خضرة حوة ، ألا وإن الله مستخلفكم فيها ، فناظر كيف تعملون » . قال أبو سعيد : وما زال يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة على أطراف السعف . وكانت ألفاظه عليه الصلاة والسلام لا تعثر فيها باللفظ المستكره ، ولا بالتركيب الملق ، بل كل قوله إسجاح وسهولة في لفظ أنيق ، وتركيب منسجم ، ينطويان على المعاني العالية ، والرأى الناضج ، والإلهام الذى اختصه الله به .

ولقد كان موضوع حديثه عليه الصلاة والسلام أشرف الموضوعات ، فهو بيان أغراض القرآن ، وتفسير مشكله ، وإيضاح مبهمه ، وتخصيص مطلقه من كل ما يتعلق بأدب ، أو عبادة ، أو تعامل ، فالقرآن مثلاً لم يبين تفاصيل الصلاة ، ولم يشرح كيفيةاتها وحرّم الخمر بقوله : « إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَرْزَاقُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ » ، ولم يبين المراد من الخمر ، ولا مقدار ما يحرم منها ، فكان عمل النبي كشف الغامض في كل ذلك .

ولقد تجنب النبي في قوله ذلك السجع الذى كان يلتزمه الكهان ليلدكوا به النفوس ، ويستهووا الألباب ، فأزرى عليهم ، وحذر من فعالهم ، فقال : « إياكم وسجع الكهان » ، فجاء كلامه عليه الصلاة والسلام نقي اللفظ ، واضح الأسلوب ، حسن الإيجاز ، حسن الإطناب ، خالياً من السجع المستكره ، مشتملاً على المعاني السامية ، فهو جدير أن يجمع الفضل من أقطاره . لذلك كان أبلغ كلام عرفه الناس بعد القرآن .



## النثر في هذا العصر

لقد كان في كلام الله وحديث نبيه سيل منهمر من المعاني ، ومادّة واسعة من الأساليب ، وسمط منظوم من الألفاظ ، فكان كل ذلك قدوة للعرب حسنة ، هجروا به حوشيّهم من اللفظ ، ومعتمدّهم من الأساليب ، وسفّسافهم من المعاني .  
ولقد كان جلّ عنايتهم في جاهليتهم بالشعر يحفظونه ويروونه ، لذلك لم يؤثر عنهم من نثرهم إلا قطرة من بحر إذا قيس بالقرآن وحديث النبي .

فلما جاء الإسلام صارت الدعوة للنثر ، لأنه هو الموافق للجدّ الذي أخذ العرب في سبيله ، فدعا به النبيّ قومه إلى الإسلام ، وراسل به الملوك ، وكتب به اليهود ، وشرح به الدّين ، وكذلك فعل أصحابه من بعده في خطبهم حين الاستخلاف ، وفي كتبهم بتولية عهودهم ، وأوامرهم إلى قوادهم ووصاياهم لولايتهم ، وإرشادهم لقضاتهم ، وحثهم على اجتماع الكلمة ، والنتام الشعب ، وتزهيدهم في الدنيا ، ودعوتهم إلى الاستشهاد في سبيل الله . ثمّ كثر في أواخر هذا العصر القول في توهين حجة الخصم ، والنقاش في العقيدة ، كالذي كان واقعاً بين عليّ والخوارج ، كما كثر القول في ثلب الولاة والاعتلال عليهم ، وتنقص الخلفاء ، وإظهار معايبهم ، كالذي حدث في فتنة عثمان رضي الله عنه ، وأخيه الوليد بن عُقبة<sup>(٢)</sup> ، الذي كان يلي له الكوفة ، واتهمه الناس بشرب الخمر ، وطلبوا إقامة الحدّ عليه .

تلك هي أغراض النثر في هذا العهد ، وهي أغراض لم تعهده في الجاهلية ، ولذلك علا شأنه في هذا العصر ، وتطامنّت له قصرة<sup>(١)</sup> الشعر ، وطوى بساطه .  
ولقد كانت كلّ هذه الأغراض تؤدّي بأيسر طرق التأدية ، بالألفاظ التي اختارها

(١) عنق . (٢) كان الوليد أبا عثمان من الرضاع .



لهم القرآن والحديث، وهي القرشية الناصعة، التي ازوررت عن عنعنة<sup>(١)</sup> تميم، وترفعت عن عجمجة<sup>(٢)</sup> قضاة، وطمطمأ تيبة<sup>(٣)</sup> حمير.

أما الأسلوب فهو كذلك ما علمهم القرآن والحديث من الانسجام، والقصد إلى الغرض قُدماً، مع هجر السجع، وإلغاء التعمل، ومساوقة الطبع، ولقد زخر كلامهم بالمعاني السامة التي امتلأت بها قلوبهم، وثقت أفكارهم، وصحت معرفتهم، واقتبسوها من القرآن الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فمن علاقة الرجل بزوجه، إلى حقوق أولاده عليه، وحقوقه عليهم، إلى علاقة العبد بسيده، والوالى برعيته، إلى تدبير المعاش، والسعى في طلب الرزق، وحسن القصد في النفقة، إلى علاقة المرء بربه، إلى دعوته للنظر في ملكوت السموات والأرض، إلى ما لا يستطيع عدّه، لأن الله يقول: « مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » .

هذه هي المعاني التي كانت مادتهم في قولهم، فخصفت<sup>(٤)</sup> بها آراؤهم، واتسعت ملكاتهم، وحلت في نفوسهم محلّ أوهام الجاهلية وأباطيلها، فصار قولهم صادراً عن ذهن خصب، وفكر مرتب، فلم نر لهم ذلك الكلام المقطع، الذي تتنافر أغراضه، ولا تلتئم معانيه، ولا عثرنا لهم على باطل من القول، ولا مجال من الفكر، كما كنا نجد ذلك لأسلافهم من أهل الجاهلية.

## بفضل الجليل عبدالله بن محمد الخطابة في هذا العصر

تعتمد الخطابة على ثلاثة أسباب، إذا تمت لها بلغت من سمو كل كمال: فأما أولها فهو حرية الرأي، يظهر بها المرء ما يختلج في نفسه، ويدور بخلدّه، لا يخشى

(١) هي إبدال العين من الهمة المبدوء بها، فيقولون في أن عن

(٢) هي تحويل الياء جيماً إذا وقعت بعد العين، فيقولون: الراجح في الراعي

(٣) هي إبدال أم من آل، فيقولون: طاب امهواء، في طاب المهواء

(٤) قويت واستحكمت.



سلطانا يسيطر عليه ، ويعقل لسانه ، وأنت تعرف أن هذا السبب قد تمّ للعرب في جاهليتها ، فما عرفت أمة مثلهم بالصراحة وانطلاق الفكر . وجاء الإسلام فبنى على النظر في ملكوت السموات والأرض ، وجعل الشورى أصلاً في سياسة الناس . وهذه حياة عمر بن الخطاب تدلنا على أنه لم يكن يقطع أمراً دون المسلمين حتى يخطبهم ، ويطلب رأى عامتهم وخاصتهم فيه ، وكان يقبل الرأى الصائب مهما كان مصدره ، وهو الذى كان يخطب في أمر المهور ، ومغلاة الناس بها ، وقد عزم أن يجعل لها حداً ، فصاحت به امرأة من أقصى المسجد تقول : كيف وقد قال الله تعالى : « وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا » ؟ فعدل عن رأيه ، وقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

أما ثانياً أسباب الخطابة ، فهو قوة البيان ، والاعتدال على الارتجال ، ونصيب العرب من ذلك معروف مشهور ، خصوصاً في الإسلام ، بعد أن زادت ثروتهم اللغوية بأداب القرآن والحديث .

ولا يقدر في قوة بيانهم في هذا العصر ما روى عن المرتج عليهم مثل يزيد ابن أبى سفيان ، فقد ورد في الكامل للمبرّد : أن أبا بكر وواه ربعاً من أرباع الشام ، فرقى المنبر ، فتكلم فأرتج عليه ، فقطع الخطبة وقال : سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ، وبعد عيِّ بياناً ، وأتم إلى أمير فَعَالَ ، أحوج منكم إلى أمير قَوَالَ .

فظهرت بلاغته في هذا الاعتذار ، حتى إن عمرو بن العاص لما سمع هذه القصة قال عن هذه الكلمات التى فاه بها يزيد : « هُنَّ مَخْرَجَاتِي مِنَ الشَّامِ » استحساناً لها . أما الإرتاج فباب آخر قد يكون منشؤه الفكرة المشتتة ، والحوادث الشاغلة ، والذهن المكسود ، لأن من نطق بمثل عبارة يزيد هذا لاتعوزه العبارة ولا ينقصه البيان . وثالث الأسباب : قيام الدواعي الحافزة للخطابة ، وقد توافرت في هذا العصر من دعوة إلى الدين ، وإعلان للسياسة ، وحض على لزوم الطاعة ، وتشجيع على قتال ، أو دفاع عن رأى ، أو خوض في فتنة .



تمت هذه الأسباب للخطابة في عصر صدر الإسلام والعصر الذي يليه ، لأن الأسباب بقيت فيه مجتمعة متوافرة ، فبلغت الأوج من عزها ، وأحصى للعرب من الخطب ما لم يحص لغيرهم من الأمم ، وبلغت في كثرتها ما بلغه الشعر في العصر الجاهلي . وهذا على كرم الله وجهه تروى له خطبه في كتاب ضخيم ، هو «نهج البلاغة» . وإذا صح ما قيل من أن فيها مدسوساً عليه ، فإن سلامة نصفها له أو أقل ليجعله مقطوع النظر فيمن عرفنا قديماً من خطباء الدنيا . فهذا ديموستينيس خطيب اليونان المشهور قديماً لم يعدوا له أكثر من ستين خطبة ، لا شك أن فيها مدسوساً عليه ، شأن كل عظيم يحاول قومه تفخيم أمره .

وبقيت للخطابة عاداتها القديمة ، من اعتجار العمامة ، والاشتغال بالرداء ، واختصار المنصورة ، والقيام على شرف من الأرض ، أو منبر ، وكان رسول الله يعتمد على قوس في الحرب ، وعلى عصا في السلم قبل أن يتخذ له المنبر .

وكان شأنهم في ألفاظها وأسلوبها هو الشأن العام في نثرهم من سهولة اللفظ ، وانسجام الأسلوب ، وهجران السجع ، وترك التكلف . وكانوا يبدءونها بالحمد لله ، والصلاة على رسوله ، ويكثرون فيها من اقتباس الآيات القرآنية ، فقد كان رسول الله يلو في كل جمعة إذا خطب الناس سورة : « ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ » حتى لقد اشترط بعض الأئمة اشتغال خطبة الجمعة على شيء من القرآن .

وقد جروا فيها على طرفي الإيجاز والإطناب اتباعاً للدواعي ، فقد خطب رسول الله من لدن صلاة العصر حتى دنت الشمس للمغيب ، كما ذكر أن عمر لما بويع وقف على المنبر ، فلم يزد على قوله بعد الحمد لله : إِنَّمَا مَثَلُ الْأُمَّةِ كَمَثَلِ جَمَلٍ أُنْفٍ (١) أُتْبِعَ قَائِدُهُ ، فَلْيَنْظُرْ قَائِدُهُ أَيْنَ يَقُودُهُ ؟ أَمَّا أَنَا فَوَرَبُّ الْكَعْبَةِ لَا أُحْمِلُكُمْ عَلَى الطَّرِيقِ . ومن إيجازهم في الخطابة ما رواه المبرّد في الكامل قال : ومما يؤثر من هذه

(١) هو الذي إن قيد انقاد ، أو هو الذي يأنف من الزجر والضرب ، فيعطى ما عنده بلا طلب .



الآداب ، ويقدم قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى أوّل خطبة خطبها حدثنا العُتْبِيُّ قال: لم أرَ أقلّ منها فى اللفظ، ولا أكثر فى المعنى . حمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، وصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : أيها الناس إنا والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى أخذ الحقّ له ، ولا أضعف عندى من القويّ حتى أخذ الحقّ منه ، ثم نزل . قال أبو الحسن ( يريد الأخفش ) : قد روينا هذه الخطبة التى عزّاها إلى عمر ، عن أبي بكر ، وهو الصحيح .  
ومن خطباء هذا العصر رسول الله وخلفاؤه ومعاوية وسحبان وائل وزياد .

## نماذج من خطابة هذا العصر

أوّل خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دعا قومه بمكة .

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إن الرّائد<sup>(١)</sup> لا يكذبُ أهله . والله لو كذبتُ  
الناسَ ما كذبتُكم ولو غرّرتُ<sup>(٢)</sup> الناسَ ما غرّرتُكم ، والله الذى لا إله إلا هو  
إني لرسولُ الله إليكم حقّاً وإلى الناس كافةً . والله لتمؤمننَّ كما تنأمون ، ولتتبعنَّ كما  
تستبيطننَّ ، ولتجاسبننَّ بما تعملون ، ولتجزوننَّ بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً ،  
وإنها للجنة أبداً ، أو النار أبداً ، وإنكم لأوّل من أنذر بين يدي عذاب شديد<sup>(٣)</sup> .

ومن خطبه أنه قال بعد الحمد لله والثناء عليه : أيها الناس كأنّ الموت فى الدنيا  
على غيرنا كتّيب ، وكأنّ الحقّ على غيرنا وجب ، وكأنّ الذين نُشيع من الأموات سفّروا

(١) الرائد : الذى يرسل فى التماس النجعة وطب الكلاء .

(٢) غرّه غراً وغروراً ، فهو مغرور وغرير : خدعه .

(٣) أى أوّل من أنذر قريباً من عذاب شديد : أى من يوم القيامة الذى يكون فيه العذاب

الشديد لأهل الكفر والضلالة .



عما قليل إلينا راجعون ، نُبِؤُهُمْ أَجْدَانَهُمْ ، ونَأْكُلُ تَرَاتُهُمْ كَأَنَّا مُخَلَّدُونَ بعدهم . قد نَسِينَا كُلَّ وَاِعْظَمَةٍ ، وَأَمِنَّا كُلَّ جَائِحَةٍ ، طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عِيُوبِ النَّاسِ ، وَأَنْفَقَ مِنْ مَالٍ اِكْتَسَبَهُ مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ ، وَرَحِمَ أَهْلَ الذَّلِّ ، وَخَالَطَ أَهْلَ الْفَقْهِ وَالْحِكْمَةِ ، طُوبَى لِمَنْ أَدَلَّ نَفْسَهُ ، وَحَسَّنَتْ خَلِيقَتَهُ ، وَصَحَّتْ سِرِّيَّتُهُ ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ ، وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ ، وَوَسَّعَتْهُ السَّنَةُ ، وَلَمْ يَعُدَّهَا إِلَى الْبِدْعَةِ .

**مَرْفُوعٌ** وخطب يوماً فقال : أيها الناس ، إن لكم معالم<sup>(١)</sup> ، فاتموا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية ، فاتموا إلى نهايتكم ، وإن المؤمن بين مخافتين : بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به ، وبين آجل قد بقي لا يدري ما الله فاض فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخريته ، ومن الشبيبة<sup>(٢)</sup> قبل الكبر<sup>(٣)</sup> ، ومن الحياة قبل الممات . فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعجب ، ولا بعد الدنيا من دار ، إلا الجنة أو النار<sup>(٤)</sup> .

وخطب حين دخل مكة ، فبعد أن طاف بالبيت سبعاً على راحلته ، وأخذ مفتاح الكعبة من حاجبها عثمان بن طلحة ، وقف على باب الكعبة وقال : لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة<sup>(٥)</sup> أودم<sup>(٦)</sup> أو مال يدعى به ، فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سداية البيت وسقاية الحاج . ثم قال : يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة<sup>(٧)</sup> الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس

(١) المعلم : العلامة ، ومنه معلم الطريق ما يوضع ليستدل به عليه .

(٢) شبّ من باب ضرب شباباً وشبيبة ، وذلك ما كان بين الفتاء والكهولة .

(٣) الكبر : كأنها مرّة من الكبر ، وهو الطعن في السنّ ، والفعل كفرح بهذا المعنى ، ومن باب كرم بمعنى عظم .

(٤) رواية « تقد النثر » لقدامة ، ففقوا عند نهايتكم ، و « إن المؤمن » بلا واو ، « بين آجل قد مضى ، وبين آجل قد بقي » ، و « فليأخذ امرؤ » ، و « من الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت » .

(٥) أي مفخرة موروثه عن الآباء .

(٦) نأر .

(٧) كبر وعظمة .



من آدم ، وآدم من تراب . ثم قال : يا معشر قريش ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً . أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأتهم الطلقاء<sup>(١)</sup> ، ثم ردّ مفتاح الكعبة إلى سادنها ، فهى فى عقبه إلى اليوم .

ومن خطبه عليه الصلاة والسلام خطبته فى حجّة الوداع<sup>(٢)</sup> ، وهى التى لم يحجّ بعدها ، بعد أن علمّ الناس سنن الحج وأراهم مناسكه<sup>(٣)</sup> ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس : اسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى لعلّى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً ، أيها الناس : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرامٌ إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم . وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنته عليها . وإن كلّ رباً موضوع<sup>(٤)</sup> ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظالمون . وإن كلّ دمٍ فى الجاهلية موضوعٌ ، وإن أول دماءكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث<sup>(٥)</sup> ، فهو أول ما أبدا به من دماء الجاهلية . أمّا بعد : فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً . ولكنّه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم . أمّا بعد : أيها الناس ، فإن لكم على نساءكم حقاً ، ولهنّ عليكم حقاً . لكم عليهنّ ألا يوطئن فرشكم<sup>(٦)</sup> أحداً تكرهونه ، وعليهنّ ألا يأتين بفاحشة مبينة<sup>(٧)</sup> ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير

(١) جمع طليق ، وهو المنون عليه بفكّ الاسار .

(٢) كانت سنة عشر ، وسميت بالوداع ، لأن النبي ودّع الناس فيها بالوصية ، وأكّد الوداع بالاشهاد ، فما عرف وداعه حتى توفى .

(٣) المناسك : جمع منسك ( كجلس ومقعد ) وهو ما يتعبد به ، والنسك ( مثلثة ) العبادة

(٤) ويروى : وإن أول ربا أبداً به ربا عمى العباس بن عبد المطلب .

(٥) وفى رواية : دم عامر بن ربيعة بن عبد المطلب . وكان مسترضعاً فى بنى ليث فقتلته هذيل .

(٦) الفرش مصدر واسم للمفروش . ويصح ضبط الكلمة فرش ( ككتب ) فتكون جمعاً لفرش .

(٧) هى النشوز أو البذاء .



مبرح ، فإن اتبهين فلهن رزقهن وكسوتهن<sup>(١)</sup> بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً .  
فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً . أيها الناس : اسمعوا قولي واغفلوه تغفلن  
أن كل مسلم أخ المسلم ، فلا يحل<sup>(٢)</sup> لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس  
منه ، فلا تظلمن أنفسكم . اللهم قد بلغت ، اللهم اشهد .



من خطبة أبي بكر<sup>(٣)</sup> يوم بويع :

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد ، فإني وليت عليكم ولست بخيركم<sup>(٤)</sup> . ولكن نزل  
القرآن ، وسن النبي صلى الله عليه وسلم وعلمنا فاعلمنا ، واعلموا أن أكيس الكيس<sup>(٥)</sup>  
الثقي ، وأن أحمق الحمق الفجور ، وأن أقواكم عندى الضعيف حتى أخذ له الحق ، وأن  
أضعفكم عندى القوي حتى أخذ منه الحق . أيها الناس : إنما أنا متبع<sup>(٦)</sup> ولست  
بمبتدع ، فإن رأيتوني على حق فأعينوني ، وإن رأيتوني على باطل فردوني ،  
أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته<sup>(٦)</sup> فلا طاعة لي عليكم . أقول قولي هذا  
وأستغفر الله لي ولكم .

(١) بالضم والكسر في المفرد ، أما الجمع فهو بالضم لا غير ( كسا ) .

(٢) حل من الحلال كضرب . ومعنى فك المقدمة أو نزل بالمكان كنصر .

(٣) هو عبد الله بن أبي قحافة يجتمع مع رسول الله في مرة بن كعب . ولد بعد سنتين من مولد رسول  
الله وكان صاحبه قبل النبوة وهو أول من أسلم من الرجال ولذلك سمي الصديق وقد لزم النبي في أخرج  
المواقف : أقام معه في الغار وصحبه في الهجرة . نشأ من أكرم قريش خلفاً وأرجحهم حلاً وكان أعلمهم  
بالأنساب وقد كان ذا مال أنفق في معاضدة النبي . ثم كان له الفضل على الإسلام بمحاربه المرتدين حتى  
ردهم إلى حظيرة الإسلام ورأب صدعه بهم . ثم لم يلبث أن جرد الجيوش لفتح ممالك كسرى وقصر  
فضله على الإسلام عظيم أولاً وآخراً . وكانت مدته في الخلافة سنتين وثلاثة أشهر تولى سنة إحدى عشرة  
للهجرة وتوفي سنة ثلاث عشرة .

(٤) خيراً فعل تفضيل وأصله أخير أو هو صفة مشبهة . وكذلك شر وقد استعمل بصيغة أفعل على  
الأصل . ويقال لفته بأخي الشر أى بالخير وبأخي الخير أى بالشر .

(٥) ضد الحق .

(٦) عصى ( كضرب ) ضد أطاع ، ومنه العصا وجمعها عصى كقسي وأعصاء . وشق العصا

الخالفة ، وعبيد العصا . أى الذين يضرّبون بها .



ومن خطبه خطبته التي يُرْسِحُ<sup>(١)</sup> فيها عمر للخلافة ، فإنه جمع الناس وهو مريض فأمر بمن يحمه على المنبر ، ثم خطب آخر خطبة له ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، اخذروا الدنيا ولا تتقوا بها ، فإنها غرارة<sup>(٢)</sup> ، وآثروا الآخرة على الدنيا وأحبوها ، فحب كل واحدٍ منهما تبغض<sup>(٣)</sup> الأخرى ، وإن هذا الأمر الذي هو أملاك بنا<sup>(٤)</sup> ، لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله ، ولا يتحمله إلا أفضلكم مقدرةً وأملاككم لنفسه ، وأشدكم في حال الشدة<sup>(٥)</sup> ، وأسلسكم في حال اللين ، وأعلمكم برأى ذوى الراى ، لا يتشاغل بما لا يعنيه<sup>(٦)</sup> ، ولا يحزن لما ينزل به ، ولا يستحى من التعلم ، ولا يتحيز عند البديهة<sup>(٧)</sup> ، قوى على الأمور ، لا يجوز لشيء منها حدة بعدوان ولا تقصير ، يرصد<sup>(٨)</sup> لما هو آت عتاده<sup>(٩)</sup> من الحذر والطاعة ، وهو عمر بن الخطاب .



ومن كلام عمر بن الخطاب<sup>(١٠)</sup> :

- (١) من معانى الترشيح : التقوية . والمعنى هنا يبين قوته على احتياها .  
 (٢) خداعة .  
 (٣) الكثير في هذا الفعل أبيض والقليل بغض ( كنصر ) ويقال بغض فلان ( ككرم ) أى صار بغيضاً مكروهاً .  
 (٤) ألصق بنا ، يقال ملك الحشف أمه إذا قوى وقدر أن يتبعها ، والمراد بالأمر الخلافة .  
 (٥) الشدة : صعوبة الزمن ، واجتمع شدد بكسر الشين . أما الشدائد فجمع شديدة بنفس المعنى أوجع شاذ لشدة .  
 (٦) عناه الأمر عنياً : شغله فهو معنى به .  
 (٧) البديهة : ما يفتجأ الانسان من أمر ، واجمع بدائه .  
 (٨) رصد الشيء ( كنصر ) ترقبه . ويرصد هنا من أرصد بمعنى أعد .  
 (٩) الحاضر من الأمر ، يقال عتد الأمر حضر فهو عتد وعتيد .  
 (١٠) هو أبو حفص عمر بن الخطاب . أول من تسمى من الخلفاء بأمر المؤمنين وأول من أرخ بالتاريخ الهجرى ومصر الأمصار ( بنيت البصرة والكوفة بأمره ) ودون الدواوين للجيش والحراج ، ولد بدمولد رسول الله ثلاث عشرة سنة . وكان بين قريش من زعمائها . وكانت له السفارة بينها وبين القبائل



أيها الناس: اتَّقُوا اللَّهَ فِي سِرِّرِكُمْ وَعَلَانِيَتِكُمْ ، وَأْمُرُوا بِالْمَعْرُوفِ ، وَانْهَوْا  
عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلَا تَكُونُوا مِثْلَ قَوْمِ كَانُوا فِي سَفِينَةٍ ، فَأَقْبَلَ أَحَدُهُمْ عَلَى مَوْضِعِهِ يَخْرِقُهُ  
فَنظَرَ إِلَيْهِ أَصْحَابُهُ فَمَنَعُوهُ ، فَقَالَ هُوَ مَوْضِعِي وَلِيَّ أَنْ أَحْكُمَ فِيهِ ، فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدِهِ  
سَلِمَ وَسَلِمُوا ، وَإِنْ تَرَكَوه هَلَكَ وَهَلَكُوا مَعَهُ ، وَهَذَا مِثْلُ ضَرْبَتِهِ لَكُمْ ، رَحِمَنَا  
اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ .

ومن خطبه قوله بعد حمد الله والثناء عليه : أيها الناس ، إني دَاعٍ فَأَمَّنُوا . اللهم  
إِنِّي غَلِيظٌ فَلْيَنِّ لَأَهْلِ طَاعَتِكَ بِمَوَاقِفَةِ الْحَقِّ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ وَالْدارِ الْآخِرَةِ ، وَارْزُقْنِي  
الْعِلْمَ وَالشَّدَّةَ عَلَى أَعْدَائِكَ وَأَهْلِ الدَّعَاةِ (١) وَالنِّفَاقِ ، مِنْ غَيْرِ ظَلَمٍ مِنِّي لَهُمْ وَلَا اعْتِدَاءٍ  
عَلَيْهِمْ . اللهم إني شَحِيحٌ فَسَخِّنِي فِي نَوَائِبِ (٢) الْمَعْرُوفِ قَصْدًا مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا تَبْذِيرٍ (٣)  
وَلَا رِيَاءٍ وَلَا سُمْعَةٍ ، وَاجْعَلْنِي أَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَكَ وَالْدارِ الْآخِرَةَ . اللهم ارْزُقْنِي خَفَضَ  
الْجَنَاحِ وَلِينِ الْجَانِبِ لِلْمُؤْمِنِينَ . اللهم إني كَثِيرُ الْغَفْلَةِ وَالنَّسِيَانِ ، فَأَلْهَمْنِي ذِكْرَكَ عَلَى  
كُلِّ حَالٍ ، وَذِكْرَ الْمَوْتِ فِي كُلِّ حِينٍ . اللهم إني ضَعِيفٌ عَنِ الْعَمَلِ بِطَاعَتِكَ ،  
فَارْزُقْنِي النِّشَاطَ فِيهَا وَالقُوَّةَ عَلَيْهَا ، بِالنِّيَّةِ الْحَسَنَةِ الَّتِي لَا تَكُونُ إِلَّا بِعِزَّتِكَ وَتَوْفِيقِكَ ،  
اللَّهُمَّ تَبَتَّنِي بِالْيَقِينِ وَالْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَذِكْرِ الْمَقَامِ بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَالْحَيَاءِ مِنْكَ ، وَارْزُقْنِي  
الْخُشُوعَ فِيمَا يَرْضِيكَ عَنِّي ، وَالْحَاسِبَةَ لِنَفْسِي ، وَإِصْلَاحَ السَّاعَاتِ ، وَالْحَذَرَ مِنَ

== في الحروب والمفاخرات، ثم كان في بدء الدعوة من أشد الكفار على النبي والمسلمين حتى أعز الله به الدين، فلقبه  
النبي بالفاروق يوم إسلامه بفرقه بين الحق والباطل ، وحضر مع النبي جميع غزواته ونال الخلافة بعهد من  
أبي بكر فكان لحزبه وعزمه أثر كبير في تقدم الفتوح وحسن طاعة العرب ، وكان لا يعمل عملاً بلا  
استشارة يجمع لها أهل الرأي .

(١) الخبث والفجور .

(٢) النوائب : جمع نائبة وهي المصيبة فلما أضيفت إلى المعروف صار معناها المصائب التي تحتاج إلى  
المعروف لتلافيها .

(٣) القصد : التوسط في الأمور، والسرف ضده فهو أعم من أن يكون في المال أو غيره وبالافراط  
أو التفريط . التبذير : الإففاق في غير طاعة الله وهو الإسراف . وينبغي حمل السرف هنا على التقدير حتى  
يكون عطف التبذير عليه للمغايرة .



الشُّبُهَاتِ ، اللهم ارزقني التفكيرَ والتدبرَ لما يَتَأَوُّهُ لسانِي من كتابك ، والفهمَ له ،  
والمعرفةَ بمعانيه ، والنظرَ في عجائبه ، والعملَ بذلك ما بقيت ، إنك على كلِّ شَيْءٍ قدير .



ومن خطبه لما بلغه أن قوما يفضلونه على أبي بكر الصديق رحمه الله ، فوثب  
مغضباً حتى صعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ،  
ثم قال :

أيها الناسُ : إني سأخبرُكمُ عنى وعن أبي بكر : إنه لما تُوِّفِّي رسولُ الله  
صلى الله عليه وسلم ارتدَّتِ العربُ ، وَمَنَعَتْ شَأْتَهَا وَبَعِيرَهَا<sup>(١)</sup> ، فَأَجْمَعَ رَأْيُنَا كُلَّنَا  
أصحابَ محمد صلى الله عليه وسلم أنْ قُلْنَا له : يا خليفةَ رسولِ الله ، إن رسولَ الله صلى الله  
عليه وسلم كانَ يقاتلُ العربَ بالوَحْيِ والملائكةِ ، يُمِدُّهُ اللهُ بهم وقد انقطع ذلك اليومَ ،  
فألزَمَ بَيْتَكَ ومسجدك ، فإنه لا طاقةَ لك بقتالِ العربِ ، فقال أبو بكر الصديقُ :  
أَوَكُلُّكُمْ رَأْيُهُ على هذا ؟ فقلنا نَعَمْ ، فقال والله لأنْ أُخِرَ<sup>(٢)</sup> من السماء ، فَتَخَطَفَنِي  
الطيرُ أَحَبُّ إِلَيَّ من أن يكونَ هذا رأْيِي . ثم صعد المنبر ، فحمد الله وكبَّره ، وصلى  
على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبلَ على الناسِ ، فقال : أيها الناسُ من كان يعبدُ  
محمدًا فإنَّ محمدًا قد مات ، ومن كان يعبدُ الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموتُ . أيها الناسُ : أئن  
كثُرَ أعداؤكم ، وقلَّ عددُكم رَكِبَ الشيطانُ منكم هذا المرَّكبَ ؟ !! والله ليُظْهِرَنَّ اللهُ  
هذا الدينَ على الأديانِ كُلِّهَا ولو كرِهَ المشركونَ . قوله الحقُّ ، ووَعْدُهُ الصدقُ . بل تَقْدِفُ  
بالحقِّ على الباطلِ فَيُدمِغُهُ<sup>(٣)</sup> فإذا هوزاهق<sup>(٤)</sup> . وَكَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً  
كثيرةً يَأْذِنُ اللهُ واللهُ معَ الصَّابِرِينَ ، واللهُ يأيها الناسُ لو أُفْرِدْتُ من جميعِكم  
لجاهدْتُهُمْ في الله حَقَّ جِهَادِهِ حتى أُبْلِيَ بنفسي عذراً<sup>(٥)</sup> أو أُقتلَ قتلاً . والله أيها

(١) أى منعت زكاتها . (٢) أسقط .

(٣) دمه : أصاب دماغه . (٤) زهق الشيء : هلك ، والباطل : اضمحل .

(٥) يقال أبلاه عذراً : قدمه إليه فقبله . والمعنى هنا فعل ما يعذر معه أى لم يقصر .



الناس لو منعوني عقلاً لجاهدتهم عليه ، واستعنت الله عليهم وهو خير مُعينٍ ، ثم نزل :  
فجاهد في الله حقَّ جهاده حتى أذعنتِ العربُ بالحق .

قال المبرِّد في قوله : لو منعوني عقلاً لجاهدتهم عليه الصحيح أن المصدِّق إذا أخذ  
من الصدقة ما فيها ولم يأخذ ثمنها ، قيل أخذ عقلاً . وإذا أخذ الثمن ، قيل أخذ نقداً .  
قال الشاعر :

أَنَا أَبُو الْخَطَّابِ يَضْرِبُ طَبْلَهُ فَرَدَّ وَلَمْ يَأْخُذْ عِقْلاً وَلَا نَقْداً  
(وكانت الأمراء إذا خرجت لأخذ الصدقة تضرب الطبول) . والذي تقوله العامة :  
لو منعوني ما يساوى عقلاً فضلاً عن غيره . وهذا وجه والصحيح الأول لأنه ليس عليهم  
عقال يعقل به البعير فيمنعه .



ومن خطب عثمان<sup>(١)</sup> : أجزاء  
قطعة  
بمسرة  
إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ آفَةً<sup>(٢)</sup> ، وَإِنَّ لِكُلِّ نِعْمَةٍ عَآهَةٌ . وَإِنَّ آفَةَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ،  
وَعَآهَةَ هَذِهِ النِّعْمَةِ عِيَابُونَ ظَنَّانُونَ يُظْهِرُونَ لَكُمْ مَا تُحِبُّونَ . وَيُسِرُّونَ مَا تَكْرَهُونَ .

(١) هو عثمان بن عفان الأموي القرشي . ولد في السنة الحامسة من ميلاد رسول الله وشب على  
الأخلاق الكريمة فكان حياً عفيفاً . ولما بعث رسول الله كان من السابقين الأولين إلى الإسلام وهو  
أحد المهاجرين إلى الحبشة خرج إليها مع السيدة رقية بنت الرسول وكان النبي قد زوجها إياه وحضر مع  
النبي جميع واقعه إلا بدرًا استبقاه الرسول ليقوم بتمريض رقية في مرض موتها وبعدها زوجه النبي ابنته  
السيدة أم كاثوم وأنفق كثيراً من ماله في إصلاح حال المسلمين وجهاز جيش العسرة إلى تبوك وكان من  
كتبة الوحي . وكان أحد الستة الذين حصر عمر فيهم الخلافة فانتخب من بينهم . وتولى الخلافة من  
سنة ٢٤ من الهجرة إلى أن قتل سنة ٣٥ هـ فدفنه إحدى عشرة سنة لم يسلم له منها إلا الست الأولى  
ثم تولى عليه الشعب من أهل الأمصار بحجة أنه يؤثر أقرباءه بالأعمال ولولا لينه الشديد بعد شدة عمر  
البالغة ما حدثت هذه التلمة التي حدثت بقتله واجترأ بها الناس على الخلفاء . قتل رحمه الله بداره وهو  
يقرأ القرآن .

(٢) الآفة والعاهة : ما يفسد الشيء ، والأولى من أي شيء فهو مثوف ومثيف . والثانية من عاه  
يعيه فهو معيوه .



يَقُولُونَ لَكُمْ وَتَقُولُونَ . طَعَامٌ (١) مِثْلُ النِّعَامِ (٢) يَتَّبِعُونَ أَوَّلَ نَاعِقٍ . أَحَبُّ مَوَارِدِهِمْ  
إِلَيْهِمُ النَّارِحُ (٣) . لَقَدْ أَقْرَرْتُمْ لِابْنِ الْخَطَّابِ بِأَكْثَرِ مِمَّا نَقَمْتُمْ (٤) عَلَيَّ وَلَكِنْ  
وَقَمْتُمْ (٥) وَفَعَمَّكُمْ وَزَجَرَكُمْ زَجَرَ النِّعَامِ الْمُخْرَمَةِ (٦) . وَاللَّهِ إِنِّي لَأَقْرَبُ نَاصِرًا  
وَأَعَزُّ نَفَرًا وَأَقْنَمٌ (٧) إِذَا قُلْتُمْ هَلُمَّ (٨) أَنْ تُجَابَ دَعْوَتِي مِنْ عُمَرَ . هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ  
حَقُوقِكُمْ شَيْئًا ؟ فَمَا لِي لَا أَفْعَلُ فِي الْحَقِّ مَا أَشَاءُ إِذَا ، فَلِمَ كُنْتُ إِمَامًا ! !

ومن خطبه في الوعظ قال بعد حمد الله والثناء عليه :

إِنَّكُمْ فِي دَارِ قُلْعَةٍ (٩) وَفِي بَقِيَّةِ أَعْمَارٍ . فَبَادِرُوا آجَالَكُمْ بِخَيْرِ مَا تَقْدِرُونَ  
عَلَيْهِ فَلَقَدْ أُتَيْتُمْ : صُبْحْتُمْ أَوْ مُسِّتُمْ . أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا طُوِيَتْ عَلَى الْغُرُورِ ،  
فَلَا تَعْرَنَّاكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرَنَّاكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (١٠) . اُعْتَبِرُوا بِمَنْ مَضَى ثُمَّ  
جِدُّوا وَلَا تَعْفَلُوا فَإِنَّهُ لَا يُعْفَلُ عَنْكُمْ . أَيْنَ أَبْنَاءُ الدُّنْيَا وَإِخْوَانُهَا الَّذِينَ أَثَارَوْهَا  
وَعَمَّرُوهَا (١١) وَمَتَّعُوا بِهَا طَوِيلًا ؟ أَلَمْ تَلْفِظْهُمْ ؟ أَرُمُوا الدُّنْيَا حَيْثُ رَمَى بِهَا اللَّهُ ،  
وَاطْلُبُوا الْآخِرَةَ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ ضَرَبَ لَهَا مَثَلًا ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : « وَاضْرِبْ لَهُمْ  
مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا

(١) الطعام : أوغاد الناس واحدها طعامة . والطعامة أيضاً الأحمق .

(٢) النعام : اسم جمع للنعامة وهي طائر أحمق . (٣) القليل الماء .

(٤) نقم منه ( كضرب وعلم ) انتقم ، ونقم منه وعليه الشيء : عابه .

(٥) وقم ( كوعد ) نهر ورد أبيض رد . (٦) خزم البعير ( كضرب ) جعل في جانب أنفه

الخزامة يخزمه . (٧) أقنم : أجدر . ويقال هو قين وقن كخدر وقن كبطل والأخير لا يجمع ولا يثنى

لأن أصله المصدر وصف به كعدل .

(٨) هلم أصلها لم بمعنى ضم واجمع كأن النادى يقول ضم نفسك والهاء للتنبيه . والحجازيون

يستعملونه بلفظ الواحد له وغيره ، وأهل نجد تلتحق به الضمائر ويستعمل لازماً ومتعدياً : هلم الينا .

وهلم شركاءكم . (٩) لادوام لها .

(١٠) الغرور ( بالفتح ) الدنيا أو ما غرك أو يخلص بالشيطان وهو أيضاً ما يتغرغر به . وبالضم

مصدر غر أو جمع غار . (١١) صم الرجل المكان ( كنعصر ) أقام به . والعمارة ( بالكسر )

ما يعمر به المكان وبالضم أجرة الإقامة به وبالفتح كل ما يلبس على الرأس .



تَذْرُوهُ (١) الرِّيحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا . الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا .

ومن خطبه :

أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِتَمَّا أَعْطَاكُمْ الدُّنْيَا لِتَطْلُبُوا بِهَا الْآخِرَةَ ، وَلَمْ  
يُعْطِكُمْوهَا لِتَزْكُوا إِلَيْهَا . إِنَّ الدُّنْيَا تَفْنَى وَالْآخِرَةُ تَبْقَى ، فَلَا تَبْطُرَنَّكُمْ (٢)  
الْفَانِيَةُ وَلَا تَشْغَلَنَّكُمْ عَنِ الْبَاقِيَةِ ، فَاتْرُؤُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى ، إِنَّ الدُّنْيَا  
مُنْقَطِعَةٌ ، وَإِنَّ الْمَصِيرَ إِلَى اللَّهِ . اتَّقُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّ تَقْوَاهُ جُنَّةٌ مِنْ بَأْسِهِ وَوَسِيلَةٌ  
عِنْدَهُ ، وَأَحْذَرُوا مِنْ اللَّهِ الْغَيْرِ (٣) ، وَالزَّمُوا جَمَاعَتَكُمْ أَلَّا تَصِيرُوا أَحْزَابًا وَأَذْكَرُوا  
نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا .



ومن كلام علي (٤) في التحريض على القتال لما أغار سفيان (٥) بن عوفٍ الأَسَدِيُّ  
على الأَنْبَارِ (٦) وقتل عامل علي عليها :

حَمِدَ اللهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ ،

(١) ذراه ( كضرب ) فرقه في الهواء .

(٢) البطر : كفر النعمة .

(٣) أى أحداثه التي تنير حال الشيء ، قيل هو مفرد وجمعه أغيار ، وقيل جمع غيره كعنب جمع عنبة .

(٤) علي بن أبي طالب ، هو ابن عم رسول الله وأحد كتاب وحيه وزوج ابنته فاطمة ولد بعد مولد

النبي باثنتين وثلاثين سنة ، وهو أول من آمن من الصبيان وشهد جميع الغزوات مع النبي إلا غزوة  
تبوك . وقد بايعه الحجاز وامتنع عليه معاوية بالشام معتلا بالمطالبة بدم عثمان مقدها لها على تنصيب  
الحليفة ففرض على أيامه كلها في محاربه لمعاوية حتى اغتاله أحد الخوارج وهو عبد الرحمن بن ملجم  
سنة ٤٠ هـ وهو أفصح الناس بعد رسول الله وأكثرت علماء وزهداً وقد خرج عليه جماعة من جنده  
يخطئون في التحكيم ويطالبونه بأن يقر على نفسه بالكفر ثم يتوب فيتابعوه ، فلم ينزل على رأيهم لاعتقاده  
أنه على الحق .

(٥) هو أحد بني غامد ، وهي قبيلة باليمن وقد بعثه معاوية لشن الغارة على أطراف العراق .

(٦) بلدة على الشاطئ الشرقي للفرات .



فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَمَنْ تَرَكَهُ رَعْبَةً عَنْهُ (١) أَلْبَسَهُ اللَّهُ الذِّلَّ ، وَسِيَاءَ (٢)  
الْحَسْفِ (٣) وَذِيَّتَ بِالصَّغَارِ (٤) . وَقَدْ دَعَوْتُمْكُمْ إِلَى حَرْبٍ هُوَ لِأَيِّ الْقَوْمِ لَيْلًا وَنَهَارًا ،  
وَسِرًّا وَإِعْلَانًا ، وَقُلْتُ لَكُمْ أُغْزَوْهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَغْزَوْكُمْ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ  
مَا غَزَى قَوْمٌ قَطُّ فِي عَقْرِ (٥) دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا ، فَتَحَاذَلْتُمْ وَتَوَا كَلْتُمْ ، وَنَقُلْ عَلَيْكُمْ  
قَوْلِي ، وَاتَّخِذْتُمْوهُ وَرَاءَكُمْ ظُهُرِيًّا حَتَّى شَنَنْتُ عَلَيْكُمْ الْغَارَاتِ (٦) .

هذا أخو غامدٍ قد بلغت خيله الأنبار ، وقتل حسانَ البكري ، وأزال خيلكم  
عَنْ مَسَالِحِهَا (٧) وقتل منكم رجالاً صالحين . وقد بلغني أن الرجل منهم كان  
يدخل على المرأة المسلمة ، والأخرى المعاهدة ، فينزِعُ حجلها وقلبها ورعاتها (٨) ،  
ثم أنصرفوا موفورين (٩) ، ما نال رجلاً منهم كلمة (١٠) ، ولا أريق لهم دم . فلو  
أن رجلاً مسلماً مات من دون هذا أسفاً ما كان عندي فيه مألوماً ، بل كان به عندي  
جديراً . يا عجباً كلَّ العجب !! عجبٌ يميت القلب ، ويشغل الفهم ، ويكثر  
الأحزان ، من تصافر هؤلاء القوم على باطلهم ، وفشلكم عن حَقِّكم حتى  
أصبحتم غرضاً تُرمون ولا ترمون ، ويعارُ عليكم ولا تُغيرون ، ويعصى الله فيكم

(١) رغب ( كفرح ) فيه أرادته . وعنه كرهه . وإليه ابتهل . ورغب ( ككرم ) اشتد نهمه

(٢) علامة . (٣) الذل . (٤) دبت : وصم ، والصغار : الذل .

(٥) عقر : وسط .

(٦) قال المبرد : قوله شنت عليكم الغارات يقول صبت . يقال شنت الماء على رأسه أى صببته  
وكذلك يفسرها صاحب القاموس المحيط . والظاهر أن كلمة الغارة في قول الشاعر :

فَلَيْتَ لِي بِهِمْ قَوْمًا إِذَا رَكَبُوا شَنُوا الْإِغَارَةَ رُكْبَانًا وَفُرْسَانًا

مفعول به بدل ليل أنها وقعت نائب فاعل في قول سيدنا علي لما حذف الفاعل . فأما قول الشيخ الحضري  
في حاشيته على ابن عقيل إن مفعول شن محذوف والإغارة مفعول لأجله فلا داعي له .

(٧) جمع مسلحة وهي الثغر حيث يخشى طروق العدو .

(٨) الحجل : الخيال . القلب . السوار . الرعات جمع رعثة وهي القرط .

(٩) تامين لم ينقص منهم أحد . (١٠) جرح .



وَتَرَضُونَ . إِذَا قُلْتُمْ أَغْزَوْهُمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ هَذَا أَوَانٌ قُرٍّ وَصِرٌّ (١) ، وَإِنْ قُلْتُمْ لَكُمْ أَغْزَوْهُمْ فِي الصَّيْفِ قُلْتُمْ هَذِهِ حَمَارَةٌ (٢) الْقَيْظُ . أَنْظِرْنَا يَنْصَرِمِ الْحَرُّ عَنَّا ، فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ تَفْرُونَ ، فَأَنْتُمْ وَاللَّهِ مِنَ السَّيْفِ أَفْرٌ ، يَا أَشْبَاهَ الرَّجَالِ وَلَا رِجَالَ ، وَيَا طَعَامَ (٣) الْأَحْلَامِ ، وَيَا عُقُولَ رَبَّاتِ الْحِجَالِ (٤) ، وَاللَّهِ لَقَدْ أَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ ، وَلَقَدْ مَلَأْتُمْ جَوْفِي غَيْظًا حَتَّى قَالَتْ قُرَيْشٌ : ابْنُ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شَجَاعٌ وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لَهُ فِي الْحَرْبِ . لِلَّهِ دَرْهَمٌ (٥) !! وَمَنْ ذَا يَكُونُ أَعْلَمَ بِهَا مِنِّي وَأَشَدَّ لَهَا مِرَاسًا ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ الْعَشْرِينَ ، وَلَقَدْ بَيَّفْتُ الْيَوْمَ عَلَى السِّتِينَ ، وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لِي لَنْ لَا يُطَاعُ (يَقُولُهَا ثَلَاثًا) ، فِقَامٌ إِلَيْهِ رَجُلٌ وَمَعَهُ أَخُوهُ ، فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : أَنَا وَأَخِي هَذَا كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : « رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي » فَمَرُّنَا بِأَمْرِكَ ، فَوَاللَّهِ لَنَنْتَهِيَنَّ إِلَيْهِ وَلَوْ حَالَ دُونَهُ جَمْرُ الْغَضَى وَسَوْكُ الْقِتَادِ ، فَدَعَا لهُمَا بِخَيْرٍ ، ثُمَّ قَالَ لهُمَا : وَأَيْنَ تَقَعَانِ مِمَّا أُرِيدُ .

ومن خطبه كرم الله وجهه حين استنفر أهل الكوفة لحرب الجمل قال :

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين ، وآخر المرسلين . أمّا بعدُ : فإن الله بعث محمدًا عليه الصلاة والسلام إلى الثقلين كافةً ، والناس في اختلافٍ ، والعربُ بشرُّ المنازل مُضْمِنُونَ لِلشَّنَانِ (٦) بعضهم على بعض . فرأبَ به الله

(١) القر بالضم : البرد ، ويوم قر بالفتح وليلة قره كذلك باردة والقررة بالكسر البرد والرجل

مقرور . والصر : الريح الشديدة كالصرصر .

(٢) حمارّة القَيْظُ شدته ومثلها صبارة الشتاء .

(٣) الطعام : السفلة من الناس والواحد طعامة .

(٤) الحجال جمع حجلة وهي الستر : أي ذوات الخدور كناية عن النساء أو جمع حجل بكسر فسكون وهو الخنخال .

(٥) الدر : النفس ، واللبن ، والعمل ، والمراد من نسبة الدر إلى الله بأحد هذه المعاني هو تعظيمه لأن الشيء إذا نسب إلى العظيم كان عظيمًا .

(٦) يقال : أضين الشيء إذا جعله في ضبئه ، والضين بكسر فسكون : الإبط وما يليه .



الثَّأَى (١) ، ولَأَمَّ به الصَّدْع ، ورتق به الفَتَق (٢) ، وَأَمَّن السَّبِيل ، وَحَقَّنَ به الدَّمَاءُ ، وَقَطَعَ به العِدَاةَ المُوغِرَةَ للقلوب (٣) ، والضغائنَ المُخَشِّنَةَ للصدور . ثم قَبَضَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ مشكوراً سَعِيَهُ ، رَضِيماً عملُهُ ، مغفوراً ذنبُهُ ، كريماً عند ربِّه نُزُلُهُ (٤) ، فيألفها مصيبةً عَمَّتِ المسلمين ، وَخَصَّتِ الأَقْرَبِينَ ، وَوَلِيَّ أبوبكر ، فسار بسيرة رَضِيهَا المسلمون . ثم وَلِيَّ عُمَرَ ، فسار بسيرة أبي بكر رضى اللهُ عنهما ، ثم وَلِيَّ عثمانَ فنال منكم وَنَلْتُمُ منه ، حتى إِذَا كان من أمره ما كان أَيْتَمُوهُ فقتلتموه . ثم أَيْتَمُونِي فقتلتم لى بايعنا . فقلت لكم لا أفعل ، وَقَبَضْتُ يَدِي فبسطتموها ، ونازعتم كَفِّي فجدبتموها (٥) وقلتم لا نرضى إلاَّ بك ، ولا نجتمع إلاَّ عليك وتدا ككتم (٦) على تَدَا كُكَّ الإبلِ الهيم (٧) على حياضها يوم ورودها ، حتى ظننتُ أنكم قَاتِلِيَّ ، وأن بعضكم قَاتِلُ بَعْضِي ، فبايعتموني وبايعني طَلْحَةُ والزُّبَيْرُ (٨) . ثم ما لبثنا أن استأذنانى للعُمْرة ، فسارا إلى البصرة (٩) فقتلنا بها المسلمين وفعلا الأفاعيل ، وهما يَعْلَمَانِ ؛ والله أنى لست بدون واحد من مضى . ولو أشاء أن أقول لقلت . اللهم إنهما قطعاً قرابتي ، ونكثاً بيعتي ، وألباً على عدوى . اللهم فلا تُحْكِمَ لهما ما أبرَّما ، وَأَرِهْمَا المِساءَةَ فيما عَمِلَا وَأَمَلَا .

(١) رَأَب : أصْلَح . الثَّأَى بفتحين أو فتح فسكون : الفساد .

(٢) لَأَمَّ ( كمنع ) أصْلَح . رتق ( كقتل ) سدَّ .

(٣) وَغَرَّ ( كتعب أو وعد ) صدره : امتلاءً غَيْظًا .

(٤) النزل بضمين : ما يهيباً للضيف .

(٥) الكف مؤنث

(٦) فى اللسان . تَدَاكَ عليه النجوم إذا ازدحموا عليه .

(٧) الهيم : الإبل العطاش واحداها أهيم والأنتى هيماء ووزن هيم فعل ( كقفل ) وإعما كسرت الهاء لمناسبة الباء

(٨) هما إثنان من العشرة المبشرين بالجنة والستة أهل الشورى وكلاهما قتل سنة ستة وثلاثين من الهجرة الأول في وقعة الجمل والثاني عند منصرفه منها .

(٩) البصرة : بالفتح أو الكسر أو الحريك أو فتح الباء مع كسر الصاد ففيها أربع لغات وليس فى النسب إليها إلا الفتح أو الكسر مع سكون الصاد .



## بلاغات النساء في هذا العصر

للمرأة كما تعلم منزلة بين العرب بقيت لها إلى ما بعد الإسلام ، ولقد أثارت الحوادث التي جرت بعد رسول الله كوامن البلاغة فيهن ، فكم ترى لهنّ من قول أهب القلوب حمية يوم القتال ، وفَصَلَ الخطاب يوم الخصاص . وإنه ليروعك منهنّ جهارة الرأي وصدق اليقين حين ترى المتشيعات أو العلويات يجبهنّ معاوية ، وهو على سرير ملكه ، والحراس من حوله بالقول الجارح ، والتهمة الشنيعة ، ويذكرنه بما كان منه من خروج على الجماعة ، ونبذ للطاعة . ولقد فعلن من ذلك ما لم يفعله كثير من الرجال الذين انقلبوا إلى معاوية بعد موت عليّ التماساً للدنيا ، واستدراراً للعطاء . أما هنّ فإذا اتفق لإحداهنّ أن تطلب حاجة فإنما تطلبها في عزة وأنفة ، باسم الحقّ المغتصب ، والوديعة المحتججة ، وإذا أردت أن ترتع من روض هذا الكلام في أحسن مرتع ، فعليك بكتاب بلاغات النساء لابن طيفور ، فقد جمع من ذلك رىّ الصادى . وإنما نقل من ذلك أمثلة فنقول :

### من كلام عائشة أم المؤمنين

بلغها أن أقواماً يتناولون أبا بكر رضى الله عنه ، فأرسلت إلى أزّ فلة<sup>(١)</sup> من الناس فلما حضروا أسدلت أستارها وعلمت وسادها ، ثم قالت :

أبى وما أبية !! أبى والله لا تعطوه<sup>(٢)</sup> الأيدى . ذلك طوؤدّ منيف ، وظلّ مديد ، هيهات كذبت الظنون ، أنجح إذ أكديتم<sup>(٣)</sup> ، وسبق إذ ونيتم « سبق الجواد إذا استولى على الأمد » فتى قريش ناشئاً ، وكهفها كهلاً ، يفتك عانيها ،

(١) الجماعة . (٢) لاتناولوه . (٣) جبتم .



وَيَرِيشُ<sup>(١)</sup> مُمْلِقِهَا ، وَيَرَأْبُ شَعْبَهَا<sup>(٢)</sup> ، وَيَلْمُ شَعْبَهَا ، حَتَّى حَلَمِيَّتَهُ قَلُوبُهَا ، ثُمَّ اسْتَشْرَهُ<sup>(٣)</sup> فِي دِينِ اللَّهِ ، فَمَا بَرِحَتْ شَكِيمَتُهُ<sup>(٤)</sup> فِي ذَاتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى اتَّخَذَ بِنَفْسِهِ مَسْجِدًا يَحْيِي فِيهِ مَا أَمَاتَ الْمُبْطِلُونَ . وَكَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ غَزِيرَ الدَّمْعَةِ ، وَقَيِّدَ<sup>(٥)</sup> الْجَوَانِحِ شَجِيَّ النَّشِيحِ<sup>(٦)</sup> ، فَانْعَطَفَتْ إِلَيْهِ نِسْوَانُ مَكَّةَ وَوِلْدَانُهَا يَسْخَرُونَ مِنْهُ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِ « اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » فَأَكْبَرَتْ ذَلِكَ رَجَالَاتُ قَرِيشٍ ، اخْتَدَتْ قَسِيهَا ، وَفَوَقَتْ سَهَامَهَا ، وَامْتَثَلُوهُ<sup>(٧)</sup> غَرَضًا ، فَمَا قَالُوا لَهُ صَفَاةً ، وَلَا قَصَفُوا لَهُ قَنَاءً ، وَمَرَّ عَلَى سَيْسَائِهِ<sup>(٨)</sup> حَتَّى إِذَا ضَرَبَ الدِّينَ بِجِرَانِهِ<sup>(٩)</sup> ، وَالْقَى بَرَكَةً ، وَرَسَتْ أَوْتَادُهُ ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِيهِ أَفْوَاجًا ، وَمِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ أَرْسَلَا وَأَشْتَاتَا ، اخْتَارَ اللَّهُ لِنَبِيِّهِ مَا عِنْدَهُ ، فَلَمَّا قَبِضَ اللَّهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَصَبَ الشَّيْطَانَ رِوَاقَهُ ، وَمَدَّ طُنْبُيَهُ ، وَنَصَبَ حَبَائِلَهُ ، وَأَجْلَبَ بَخِيلَهُ وَرَجَلَهُ ، وَاضْطَرَبَ حَبْلَ الْإِسْلَامِ ، وَمَرَجَ<sup>(١٠)</sup> عَهْدَهُ ، وَمَاجَ أَهْلَهُ ، وَبُعِيَ الْغَوَائِلُ ، وَظَنَّتْ رَجَالٌ أَنْ قَدْ أَكْتَبَ نَهْزُهَا<sup>(١١)</sup> ، وَلَاتَ حِينَ الَّذِي يَرْجُونَ ، وَأَنَّى وَالصَّدِيقَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ ؟ فِقَامَ حَاسِرًا مُشْمَرًا ، فَجَمَعَ حَاشِيَتَهُ ، وَرَفَعَ قُطْرِيَهُ ، فَدَرَسَنَ الْإِسْلَامَ عَلَى غَرْبِهِ ، وَلَمْ شَعَثُهُ بَطِيئُهُ ، وَأَقَامَ أَوْدَهُ بِتِقَافِهِ ، فَابْذَعَرَ النِّفَاقَ بَوَاطِنِهِ ، وَانْتَشَرَ الدِّينَ فَنَعَثَهُ<sup>(١٢)</sup> ، فَلَمَّا أَرَاكَ الْحَقَّ عَلَى أَهْلِهِ ، وَقَرَّرَ الرِّءُوسَ عَلَى كَوَاهِلِهَا ، وَحَقَنَ الدَّمَاءَ فِي أَهْبِهَا ، أَتَتْهُ مَنِّيَّتُهُ ، فَسَدَّ ثَمَّتَهُ بِنَظِيرِهِ فِي الرَّحْمَةِ ، وَشَقِيقَهُ فِي السَّيْرَةِ وَالْمَعْدَلَةِ ، ذَاكَ ابْنَ الْخَطَّابِ

(١) يعطى ويفضل من راس السهم إذا جعل فيه ريشا ليكون أسدله وكذلك الحسن يقوى الفقير على الحياة .

(٢) الشعب : الصدع . (٣) جدّ واجتهد . (٤) أنفته وحميته . (٥) عليل .

(٦) الشجى الحزين . النشيح : صوت البكاء .

(٧) نصبوه . (٨) شدته . والسياء : عظم الظهر ، والعرب تضربه مثلا للشدّة .

(٩) الجران : الصدر وكذلك البرك . (١٠) اختلط .

(١١) أكتب : قرب . النهز : اختلاس الشيء والظفر به مبادرة . (١٢) رفعه .



لله أُمَّ حَفَلَتْ لَهُ ، وَدَرَّتْ عَلَيْهِ !! لقد أُوْحِدَتْ بِهِ ، فَفَنِّحَ الْكُفْرَةَ وَدَبَّحَهَا (١) ، وَشَرَّدَ الشَّرْكَ شَدْرَ مَدْرٍ ، وَبَعَجَ الْأَرْضَ وَبَجَعَهَا (٢) . فَقَاءَتْ أَكْلَهَا ، وَلَفِظَتْ جَنِينَهَا ، تَرَاهُ وَيَصْدِفُ عَنْهَا ، وَتَصْدِي لَهُ وَيَأْبَاهَا ، ثُمَّ وَزَعَ فِيهَا فِيهَا وَوَدَّعَهَا كَمَا صَحِبَهَا . فَأَرْوَنِي مَا تَرْتَابُونَ ، وَأَيُّ يَوْمِي أَبِي تَنْقِمُونَ ؟ أَيُّومَ إِقَامَتِهِ إِذْ عَدَلَ فِيكُمْ ، أَمْ يَوْمَ طَعْمَتِهِ وَقَدْ نَظَرَ لَكُمْ ؟ أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ .

ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَى النَّاسِ بِوَجْهِهَا . فَقَالَتْ : أَنْشُدْكُمْ اللَّهَ ، هَلْ أَنْكَرْتُمْ مِمَّا قُلْتُمْ شَيْئاً ؟ قَالُوا : اللَّهُمَّ لَا .

### من كلام أم الخير بنت الحريش البارقية

وفدت على معاوية ، فقال لها كيف كان كلامك يوم قتل عمار بن ياسر ؟ قالت لم أكن والله زورته (٣) قبل ولا زويته بعد . وإنما كانت كلمات تفهن لسانى حين الصدمة ، فإن شئت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت . قال : لأشأء ذلك . ثم التفت إلى أصحابه فقال : أيُّكم يحفظ كلامها ؟ قال رجل من القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظى سورة الحمد . قال : هاته . قال نعم ، كأنى بها تقول : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ » إن الله قد أوضح الحق ، وأبان الدليل ، ونور السبيل ، ورفع العلم ، فلم يدعكم فى عمياء مبهمة - ولا سوداء مدلهمة . فأنى تريدون رحمكم الله ، أفراراً عن أمير المؤمنين ، أم فراراً من الزحف ، أم رغبة عن الإسلام ، أم ارتداداً عن الحق ؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول : « وَنَبَأُوا نَكْمَ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبَأُوا أَخْبَارَكُمْ » . ثم

(١) صغرها . (٢) بعج الأرض وبجعها : شقها . (٣) أعدته .



رفعت رأسها إلى السماء ، وهي تقول : اللهم قد عيّل الصبر ، وضعّف اليقين ، وانتشرت  
الرغبة ، وببكد ياربّ أزمّة القلوب ، فاجمع الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على  
الهدى ، ورّد الحقّ إلى أهله . هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل ، والوصىّ الوفيّ ،  
والصديق الأكر . إنها إحْنٌ بَدْرِيَّةٌ<sup>(١)</sup> ، وأحقّادٌ جاهلية ، وضغائنٌ أُحديّة ، وثب بها  
معاوية حين الغفلة ليُدرك بها ثارات بني عبد شمس . ثم قالت :

« قَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِيَّاهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ » صبراً معشر المهاجرين  
والأنصار . قاتلوا على بصيرة من ربكم ، وثبات من دينكم . وكأني بكم غداً وقد لقيتم  
أهل الشام كحُمُرٍ مستنفرة ، فرّت من قسورة<sup>(٢)</sup> . لا تدرى أين يسلك بها من فجاج  
الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وباعوا البصيرة بالعمى ،  
و « عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ » حتى تحلّ بهم الندامة ، فيطلبون الإقالة . إنه  
والله من ضلّ عن الحقّ وقع في الباطل ، ومن لم يسكن الجنة نزل النار . . . . . فقال  
معاوية : والله يأم الخير ما أردت بهذا الإقتل ، والله لو قتلتك ما حرّجت<sup>(٣)</sup> في ذلك .  
قالت : والله ما يسوعفني يابن هند أن يجري الله ذلك على يدي من يسعدني الله  
بشقائه<sup>(٤)</sup> . قال : هيهات يا كثيرة الفضول ، ما تقولين في عثمان بن عفان ؟ قالت :  
وما عسيّت أن أقول فيه ؟ استخلفه الناس وهم كارهون ، وقتلوه وهم راضون ؛ فقال :  
إيها<sup>(٥)</sup> يا أم الخير ، هذا والله أصلك الذي تبينين عليه ، قالت : لكن الله يشهد « وكرّفي  
بِاللَّهِ شَهِيدًا » ما أردت بعثمان نقصاً ، ولقد كان سباقاً إلى الخيرات ، وإنه لرفيع  
الدرجات ، وما زال يسألها عن رجال وتجيبه ، ثم قال لها : قد أعفيتك وردّها مكرّمة  
إلى بلدها .

(١) إحْنٌ : جمع إحْنة وهي الضغْن . وبدرية نسبة إلى بدر أي إنها تولدت من هذه الموقعة وكذا  
قولها بعد ذلك ضغائنٌ أُحديّة . (٢) القسورة : الأسد .  
(٣) حرج : ارتكب حرجاً : أي إيماً .  
(٤) تريد بقولها من يسعدني الله بشقائه ، معاوية ، وفي الكلام التفتات لأنه مبنى أولاً على الخطاب .  
ثم صار إلى الغيبة . (٥) أمر بالسكوت .



## كلام أروى بنت الحارث بن عبد المطلب

دخلت رحمها الله على معاوية بالمواسم وهي عجوز كبيرة ، فلما رآها قال : مرحباً بك يا عمّة . قالت : كيف أنت يا بن أخي ؟ لقد كفرت بعدى بالنعمة ، وأسأت لابن عمك الصحبة ، وتسميت بغير اسمك ، وأخذت غير حقلك بغير بلاء كان منك ولا من آبائك في الإسلام . ولقد كفرتم بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فأتعس الله منكم الجذود<sup>(١)</sup> ، وأصعّر<sup>(٢)</sup> الخدود ، حتى ردّ الله الحقّ إلى أهله ، وكانت كلمة الله هي العليا ، ونبينا محمد هو المنصور على من ناوأه ولو كره المشركون . فكنا أهل البيت أعظم الناس في الدين حظاً ونصيلاً وقدرًا ، حتى قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم مغفوراً ذنبه ، مرفوعاً درجته ، شريفاً عند الله مرضياً . فصرنا أهل البيت منكم بمنزلة قوم موسى من آل فرعون يذبحون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم . وصار ابن عمّ سيد المرسلين فيكم بعد نبينا بمنزلة هرون من موسى حيث يقول : يا بن أمّ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني ، ولم يجمع بعد رسول الله لنا شمل ، ولم يسهل لنا وعر ، وغايتنا الجنة ، وغايتكم النار . قال عمرو بن العاص : أيتها العجوز الضالة أقصرى من قولك وغضّ من طرفك . قالت ومن أنت لا أم لك ؟ قال . عمرو بن العاص . قالت يا بن اللّخناء النابغة<sup>(٣)</sup> أتكلمني ؟ اربع على ظلمك<sup>(٤)</sup> ، واعن بشأن نفسك ، فوالله ما أنت من قريش في الباب من حسبها ، ولا كريم منصبها ، ولقد ادعاك ستة من

(١) الجذود : جمع جذّ ، وهو الحظ .

(٢) أصعّر الخدود : جعلها تميل عن الناس كبراً . والمعنى : أن الكبر غلبهم ، فلم يسلموا فتعس حظهم .

(٣) اللّخناء : التي لم تحفض . النابغة : البني .

(٤) أى أقم على ما فيك من ضعف وأبصر عجزك واسكت على ما فيك من عيب ، وقد يسهل أخذ هذا المعنى إذا لوحظ أن الظلم التهمة والظالم التهم ، ويقال : ارق على ظلمك ، أى لا تتكاف إلا ما تطيق كما يصعد الظالم على سلم ، فيكون ذلك على قدر عرجه .



قريش كلهم يزعم أنه أبوك<sup>(١)</sup>. ثم كلمها مروان بن الحكم بمثل كلام عمرو، فردت عليه بمثل ما ردت به على عمرو، فقال لها معاوية: يا عمّة، أقصدي قصّد حاجتك، فقالت حاجتي أن تأمر لي بألفي دينار، وألفي دينار، وألفي دينار، فقال: ما تصنعين بها؟ قالت أشتري بألفين عينا خرّارة في أرض خوّارة تكون لولد الحرّ بن عبد المطلب، وبألفين أزواج فتيان المطلب من أكفاهم، وبألفين أستعين على عسر المدينة، وزيارة بيت الله الحرام. فقال نعم الموضع وضعتها، وأمر لها بستة آلاف دينار، وقال لها يا عمّة! أنفقي هذه فيما تحمين، فإذا احتجت فاكتبي إلى ابن أخيك يحسن صفدك ومعونتك إن شاء الله.

## نهج البلاغة

تحقيق نسبته إلى عليّ كرم الله وجهه

جمع الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ما نسب إلى عليّ كرم الله وجهه من خطب وكتب وحكم، في كتاب سماه: «نهج البلاغة» وفي هذا القول ضربان من الشك: أولهما هل الجامع لذلك هو الرضى كما قدمنا أو أخوه المرتضى؟ قال ابن خلكان في ترجمة المرتضى: وقد اختلف الناس في كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الإمام عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه: أهو جمعه أم جمع أخيه الرضى؟ وقد قيل إنه ليس من كلام عليّ، وإنما الذى جمعه ونسبه إليه هو الذى وضعه والله أعلم، كما نصّ الحافظ الذهبي في كتاب ميزان الاعتدال على أنه مكذوب عليه جزماً.

(١) كانت أم عمرو بن العاص من العواهر اللاتي يغشاهن الرجال، وكنّ إذا ولدت لإحداهن ولداً نسب إلى من هو أدنى شبيها به من هؤلاء الذين يغشونها، فلما ولد عمرو نسب إلى العاصي لشبهه به.



أما أسباب الشكِّ في نسبة هذا الكلام إلى عليٍّ فترجع إلى ما يأتي :

- ١ — خلوّ الكتب الأدبية والتاريخية التي ظهرت قبل الشريف الرضى من كثير مما في نهج البلاغة .
- ٢ — ما ورد فيه من فكرة عويصة ونظرة دقيقة مما لا يصحّ نسبه إلى عصر عليٍّ .
- ٣ — إطالة الكلام إلى الحدِّ الذي لم يؤلف إذ ذاك كما في عهد الأشرع النَّخَعِيِّ .
- ٤ — ما في النهج من قول جارح وشم صريح للصحابة من مثل ماورد في الشقشقية مما لا يصحّ قبوله من مثل عليٍّ في الصحابة رضى الله عنهم .
- ٥ — الأسلوب الصوفي والعبارات التي لم تعهد إلا في أزمان متأخرة عن زمن الإمام جرت على ألسنة المتكلمين ، ومنها ما هو خطأ لغوي لا يصحّ نسبه إلى عصر الإمام .

### ردُّ هذه الشبهة

أما الشبهة الأولى : فنقول في شأنها : إن جمع كلام بليغ من البلاغ في كتاب واحد لم تجر به العادة قبل عصر الشريف الرضى إلا في كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، أما من عداه فقد كان كلامهم يرد في المناسبات مفرقاً في كتب التاريخ وغيرها . ولقد كان كلام عليٍّ مع ذلك مذكوراً معروفاً بالكثرة ، فقد قال المسعودي في مروج الذهب : « والذي حفظ الناس من خطبه في سائر مقاماته أربعمائة خطبة ونيف وثمانون خطبة يوردها على البديهة تداول الناس عنه ذلك قولاً وعملاً » .

ويقول الجاحظ في البيان والتبيين بعد أن أورد خطبة قال إنها معاوية في نفر من قريش تباشروا بموته : « وفي هذه الخطبة أبقاك الله ضرّوب من العجب . منها أن هذا الكلام لا يشبه السبب الذي من أجله دعاهم معاوية ، ومنها أن هذا المذهب في تصنيف الناس ، وفي الاخبار عنهم ، وعماهم عليه من القهر والإذلال ، ومن التقية



والخوف أشبهه بكلام عليّ وبمعانيه وحاله منه بحال معاوية . . . وإنما نكتب لكم ونخبر بما سمعناه والله أعلم بأحباب الأخبار وبكثير منهم .

وهذه الخطبة ذكرها الشريف في النهج : ( ج ١ ص ٨٥ ) ، ومنها :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا قَدْ أَصْبَحْنَا فِي دَهْرٍ عَنُودٍ <sup>(١)</sup> ، وَزَمَنٍ كَنُودٍ <sup>(٢)</sup> ، يُعَدُّ فِيهِ الْحَسَنُ مَسِيئًا ، وَيَزِدَادُ الظَّالِمُ عُتُوًّا ، وَلَا نَنْتَفِعُ بِمَا عَلَّمْنَا ، وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا جَهَلْنَا ، وَلَا نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً حَتَّى تَحُلَّ بِنَا ، فَالنَّاسُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ : مِنْهُمْ مَنْ لَا يَمْنَعُهُمُ الْفَسَادَ إِلَّا مَهَانَةً نَفْسِهِ ، وَكَوَالَةَ <sup>(٣)</sup> حُدِّهِ ، وَنَضِيضٌ وَفَرِهِ <sup>(٤)</sup> . وَمِنْهُمْ الْمُصَلِّتُ لِسِيْفِهِ ، وَالْمَعْلَنُ بِشِرِّهِ ، وَالْمَجْلُبُ بِخَيْلِهِ وَرَجْلِهِ ، قَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ <sup>(٥)</sup> ، وَأَوْبَقَ <sup>(٦)</sup> دِينَهُ ، حَطَّامٌ يَنْتَهِرُهُ ، أَوْ مَقْمَبٍ <sup>(٧)</sup> يَقُودُهُ ، أَوْ مَنبَرٍ يَفْرَعُهُ ، وَلِبئْسَ الْمُتَجَرُّ أَنْ تَرَى الدُّنْيَا لِنَفْسِكَ ثَمَنًا ، وَمِمَّا لَكَ عِنْدَ اللَّهِ عِوَضًا ، وَمِنْهُمْ . . . »

ثم قال الشريف : « أقول وهذه الخطبة ربما نسبها من لا علم له إلى معاوية ، وهي من كلام أمير المؤمنين عليه السلام الذي لا يشك فيه ، وأين الذهب من الرغام ، والعذب من الأجاج . وقد دلّ على ذلك الدليل الحرّيت ، وتقده الناقد البصير عمرو ابن بحر الجاحظ » .

أما الشبهة الثانية : وهي استكثار هذه الحكمة ، والنظرة الدقيقة على عليّ كرم الله وجهه فإنها مردودة إذا عرفنا ما كان عليه من حصافة الرأي التي استفادها عن عشرته لرسول الله ، وهو مشرق النور الإلهي ، ولا يستبعد ذلك من عرف عشرة عليّ لرسول الله منذ الصغر ، وملازمته له ، حتى إنه لم يتخلف عنه في غزوة من غزواته إلا غزوة تبوك ، فقد خلفه رسول الله على أهله وقد عرف عليّ بين الصحابة بالذكاء ،

(١) جائر . (٢) كافر . (٣) ضعف . (٤) قلة ماله .  
(٥) أشراط نفسه لكنا: أعدها ، والمراد هنا للشر . (٦) أهلك .  
(٧) الطائفة من الخيل .



ونفاذ البصيرة ، حتى كانوا يصدرون عن رأيه ، وهو الذى قال فى شأنه عمر : « لولا  
على هلك عمر » ، وقال : « لَا يُفْتِنَنَّ أَحَدٌ فِي الْمَسْجِدِ وَعَلَى حَاضِرٍ » ، وقبل ذلك  
قال رسول الله : « أقضاكم على » ، ودعا له حين بعثه إلى اليمن قاضياً فقال : « اللهم  
اهد قلبه وثبت لسانه » .

وإذا أضفنا إلى ذلك ما استفاده من التجارب أيام خلافته وما درس من طباع الناس  
وأحوالهم ، حكما بأنه جدير بأن يكون بالمشابة التى أضافوها إليه من بعد النظر وقوة  
الفراسة ، وكيف نستبعد على على أن يكون كما وصفنا ، وهذا عمر بن الخطاب قد دوّخ  
الممالك بسياسته التى كانت موضع عجب المؤرّخين .

أما الشبهة الثالثة : شبهة الطول فى عهده للأشتر النخعيّ الذى بلغ ٢٧٥ سطرًا  
وفى خطبته المسماة بالقاصعة البالغة ٢١٧ سطرًا ، وخطبة الأشباح البالغة ١٧٠ سطرًا ،  
والتي يدلّ كلام الشريف الرضى فيها أنه لم يوردها كلها ، إذ يقول فى ثناياها . . .  
ومنها . . . ومنها . . .

فالذى تقوله على الجملة : إن الطول ليس مستبعداً على فصاحة على التى صارت  
مضرب الأمثال ، وإذا وهب المرء ملكة البيان سهل عليه القول ، فإذا اتجهت نفسه  
إلى القول أفاض فيه ، وإذا أضفنا إلى ذلك زهد على وانصرافه عن زخارف الدنيا ،  
واهتمامه بصلاح الناس ، وإقامة عمود الدين ، سهل علينا إدراك الداعى إلى هذه  
الكثرة فى كلامه والطول فيه ، فإذا أطال على فى خطبه ، فلأن الوعظ أحبّ الأمور  
إلى نفسه لأنه يعظ نفسه حين يعظ الناس ، ويحرك قلبه حين يحرك القلوب ، ثم هو  
يرى من العبادة لله أن يهدى الناس إلى الحقّ بعد ما بدا منهم الانصراف عن الدين ،  
فهو يرى فى ذلك نوعاً من الجهاد الذى وقف حياته عليه ، فليجاهد بلسانه حين يستريح  
من الجهاد بيمينه ، وليخلط ذلك بذلك حين يحتاج إلى التذكير فى مواطن القتال . فلو  
أن علياً ظلّ متكلماً فى هذا النوع الذى كثر المروى عنه فيه ما كان ذلك كثيراً  
من مثله .



وشبهة الناس في عهد عليّ للأشتر خاصة أن الإمام عهد قبل ذلك إلى غير الأشتر فلم يطل ، وأضافوا إلى ذلك أن الأشتر كان من أصحاب عليّ الملازمين له ، وكان ساعده الأيمن في صفين ، فكأنه كان في غنى عن هذه النصائح الطويلة ، ولكننا نقول : إن العهد إلى الأشتر لا يقصد به وحده ، بل إنه يتناول جميع من معه من عماله وأعوانه ، والكتاب بعد ذلك يعدّ دستوراً للعمل في القضاء والجباية وغيرها . وأما أن عليّاً لم يعهد لغير الأشتر بمثل هذا الطول ، ففعل ذلك قد ضاع فيما ضاع من آثار عليّ الكثيرة ، أو لعلّ الناس لما رأوا العهود متقاربة المعنى ، احتفظوا بمثل منها لعله أجمع لمعانيها .

ولا نستبعد مع ذلك أن يكون الشيعة نسبوا لعلّيّ هذا العهد ليدلوا على فضله ، وأنه لم يفته في عصره الأول ما تنبه الناس له في عصور متأخرة كما فعل طاهر ابن الحسين في عهده لابنه عبد الله حين ولّاه المأمون الرقّة ومصر وما يليهما ، فلما اشتهر هذا العهد شهرة عظيمة حرّك ذلك من رغبة الشيعة في نسبة مثله إلى مثلهم الأعلى في الفصاحة والتدبير .

أما الشبهة الرابعة : وهي ما في النهج من سبّ صريح للصحابة ، فنقول في شأنها :

إنه قد انحصر ما ورد من سبّ عليّ لعمر وعثمان وبعض الصحابة في خطبته المعروفة بالشَّقْشِقِيَّة ( ج ١ ص ٣٤ ) وورد ذمه لمعاوية وعمرو بن العاص في كتب أرسل بها إليهما ، وفي بعض خطبه يعرض بهما أو بأحدهما .

والكلام في نحل الشَّقْشِقِيَّة أو تحقيق نسبتها إلى عليّ قد تحدّث به المتقدّمون ، فقد روى ابن أبي الحديد ما يؤيد نسبتها إليه في كلام طويل أثبت إليه أنها مروية في كتب أخرى قبل أن يولد الرضى ، ولكن نفيه لاختراع الشريف لها لا ينفى أنها مدسوسة على عليّ قبل ذلك .

أما نحن فنعرض عليك المقام الذي قيلت فيه هذه الخطبة . قالها عليّ عليه السلام بعد أن بايعه الناس فأقبلوا إليه كعرف الضبُع ( كما يقول ) حتى وُطِيّ الحسنان ، وشقّ عطفه من كثرة الزحام ، فلما نهض بالأمر يريد إصلاح الفاسد ولمّ الشعث لم



يجد من القلوب ثباتا معه على الحق ، فبلغ منه اليأس كل مبلغ ، وهمّ بجمع نفسه لولا لزوم البيعة في عنقه ، وذلك إذ يقول : « أَمَا وَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ ، وَبَرَأَ النَّسْمَةَ ، لَوْلَا حُضُورُ الْحَاضِرِ ، وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ ، وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى الْعُلَمَاءِ إِلَّا أَنْ يَقَارُوا عَلَى كَيْفَةِ ظَالِمٍ ، وَلَا سَعَبَ مَظْلُومٍ ، لِأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا »

فجدير بك أن تعتبر هذه الخطبة نفثةً مصدور ، وأنة مَكْلُومٌ ، طال عناؤه فيما يجازل من ردّ الكيد ، وخداع الحرب .

تنبى الخطبة على معنى عام ، هو أن الخلافة فاتت علياً في أول أمرها ، فلما صارت إليه كانت الأمور قد اضطربت ، والنفوس قد تدارت ، فلم يتحقق غرضه من الإصلاح ، وحسن القيام على هذا التراث المستخلف عن رسول الله . وينبغي أن تؤمن يقيناً أن طلب هؤلاء الصحابة الكرام للخلافة وحرصهم عليها ، لم يكن لغرض دنيوى ، وإنما طلبوها ليقيموا عمود الدين ، ويحققوا العدالة بين الناس . وفي سيرهم جميعاً ما يدل على أنهم بذلوا ثروتهم ، وأفنوا جهودهم ، وخالطوا الناس نهارهم ، وعشوا عليهم ليلهم التماساً لتحقيق العدالة وإرضاء الله .

لذلك لا نستبعد أن يكون على قد أسف على حرمانه من الخلافة أيام كان يستطيع أن ينفع ويثمر خيراً للإسلام ، فنستبيح له أن يقول في أول هذه الخطبة : أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ تَقَمَّصَهَا فُلَانٌ ( يريد أبا بكر ) ، وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحي » ، وفي تأخر على عن مبايعة أبي بكر ( كما يحدثنا التاريخ ) ما يساعد على أن علياً يستجيز أن يقول هذه الكلمة .

ثم هو يقول في الخطبة أيضاً : « حتى مضى الأول لسبيله ، فأدلى بها إلى فلان بعده ( يريد عمر ) .

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا وَيَوْمَ حَيَّانَ أَخِي جَابِرٍ (١)

(١) حيان : سيد من بني حنيفة كانت له حظوة عند ملوك الفرس ونعمة واسعة وكان الأعشى ميمون بن قيس قاتل هذا البيت يناديه . ومعنى البيت : أن فرقا كبيرا بين يومه وهو مسافر يعانى متاعب السفر ، وبين يوم حيان في رفاهيته ونعمته



فيا عجباً ! بينما هو يستقيها في حياته ، إذ عقدها لآخر بعد وفاته ! لشد ما تشطراً ضرعياً  
فصيرها في حوزة خشناً يغلظ كلامها ويخشن مسها .

ولا يستوقفنا من هذه الفقرة إلا قوله : « لشد ما تشطراً ضرعياً » ، فهي كلمة  
صريحة في أن الخليفين قد تقاسما النفع في تولى أمر المسلمين ، فجعلنا الخلافة ناقة ، أخذ  
كل شطراً من ضرعها . ورأى أن هذه الجملة مقحمة بين الكلام بدليل أن ما بعدها  
معطوف بالفاء على ما قبلها ، وهي لا تسمح بمثل هذا الاعتراض ، وإذاً يكون على  
برهان من هذه التهمة التي لا يستسيغ إيمانه وعدالته أن يلصقها بالإمامين . وأما تعجبه  
من جمع أبي بكر بين الاستقالة منها أول توليه ، وحرصه على اختيار عمر لها بعد وفاته ،  
فتلك حقيقة لا ينكرها أحد . وأما قوله : فصيرها في حوزة خشناً ، فذلك أمر مشهور  
متعالم ، فإن عمر كان شديداً ، وقد أعلن ذلك في خطبه ، وفي الخطبة بعد ذلك أقوال  
لا شك أنها مدسوسة على علي كقوله في وصف عمر : « فمني الناس بجبظ وشماس ،  
وتلوثن واعتراض » ، وقوله في حديث الشورى : « فصغى رجل منهم لضغنه ، ومال  
الأخر لضره » يعني بالأول طلحة ، وبالثاني عبد الرحمن بن عوف ، وكان طلحة قد  
وهب حقه لعبد الرحمن بن عوف لانحرافه عن علي ، وكان عبد الرحمن صهراً لعثمان ،  
لأن زوجته أخت عثمان من أمه .

أما ما كان من علي في شأن معاوية ، وعمر بن العاص من كلام يعرض فيه بهما ،  
أو بأحدهما ، أو كتاب يوجهه إلى أحدهما ، فذلك تقبله من علي فيهما ، ونقر أنه يقوله  
ولا حرج عليه في ذلك ، لأن علياً كان يعتبرها شاقين لطاعة المسلمين ، خارجين على  
جماعتهم ، مريقين للدماء في غير حق ، ومن كان مثلهما يعتبر كافراً محارباً لله ورسوله ،  
فكيف يستكثر من علي شتم أو ذم أو لعن لأحدهما ، وقد ثبت أنه هو الذي بدأ  
بلعن معاوية على المنابر بعد مكيدة التحكيم ، ففعل مثله معاوية ، وصارت بدعة في  
جميع خلفاء بني أمية حتى أبطلها عمر بن عبد العزيز .



ومن كلام عليّ فيهما قوله في ردّ كتاب محمد بن أبي بكر حين أخبره بنزول عمرو بن العاص قريباً من مصر :

« وقد قرأت كتاب الفاجر بن الفاجر معاوية ، والفاجر بن الكافر عمرو ، المتحابين في عمل المعصية ، والمتوافقين المرتشيين في الحكومة » .

وأما الشبهة الخامسة : وهي العبارات التي لم تعهد إلا في أزمان متأخرة عن زمن عليّ ، فهي شبهة قويّة ، إذ نرى بين كلامه قوله : « ولا حدّه من كيفه » فإنه لم يعهد إلى أيام عليّ اشتقاق فعل من كلمة كيف الجامدة ، وكذلك قوله : « كلّ قائم في سواه معلول » ، قال صاحب القاموس : « وأعله الله فهو مُعلِّ وعليل ، ولا تقل معلول ، والمتكلمون يستعملونها ولست منها على ثلج » ، وقوله : « لا يجري عليه السكون والحركة ، وكيف يجري عليه ما هو أجراه ، ويعود فيه ما هو أبداه ، ويحدث فيه ما هو أحدثه إذاً لتفاوتت ذاته ، ولتجزأ كنهه ، ولا تمنع من الأزل معناه » ، وكلمة الأزل غير عربية . قال في شفاء الغليل : « أزلى والأزل وأزليتة كله خطأ لأصل له في كلام العرب ، وإنما يريدون المعنى الذي في قولهم لم يزل عالماً ، ولا يصحّ ذلك في اشتقاق ولم يسمع ، وإن أولع به أهل الكلام » وكذلك قوله في القاصعة : « الذي نازع الله رداء الجبريّة » قال في المصباح : « الجبر خلاف القدر ، وهو القول بأن الله يجبر عباده على فعل المعاصي وهو فاسد ، وتعرف أدلته من علم الكلام ، وينسب إليه على لفظه ، وإذا قيل قدرية وجبريّة جاز التحريك للازدواج » ، وظاهر من المصباح أن الجبر من اصطلاح المتكلمين .

ونحن أمام هذه الشبهة لا نستطيع إنكار أن كلام عليّ تناولته الأقلام على مرور الأيام بالزيادة حتى دخلت هذه التعابير إن لم تكن خلقت أيام عليّ ، وهذا شأن كلّ كلام نال إعجاب الناس كما جرى لكتاب كلبية ودمنة مثلاً ، فإن عبارات فيه وأبواباً برمتها زيدت على توالي العصور حتى صار إلى ما هو عليه الآن ، ولا يمنع هذا أن يكون نهج البلاغة في جملة هو كلام عليّ الذي لا شكّ فيه .



## الكتابة في هذا العصر

عرفت في دروس السنة الماضية تاريخ الخط العربي ، وأنه صار إلى مكة من طريق الحيرة والأنبار على يد حرب بن أمية ، وقد تعلمه من بشر بن عبد الملك ، الذي قدم معه إلى مكة وتزوج ابنته الصهباء . فجاء الإسلام وفي أهل مكة كتاب ولكنهم بضعة عشر رجلا ، وأغلبهم ممن كانوا أصحاب رسول الله في الإسلام .

كان الكتاب بمكة لما جاء الإسلام سبعة عشر رجلا ، منهم : عمر ، وعلي ، عثمان ، وأبوسفيان ، وابناه معاوية ويزيد وغيرهم . وكان من النساء قليل ، كحفصة ، وأم كلثوم ، وكانت عائشة تقرأ ولا تكتب .

وكان بالمدينة أول عهد الإسلام أحد عشر كاتباً ، منهم زيد بن ثابت وقد تعلم فيما بعد كتابة اليهود بأمر رسول الله كما تعلم السريانية بأمره أيضاً في سبعة عشر يوماً .

وما زال عدد الكتاب يكثر بحث رسول الله حتى صار كتابه عليه الصلاة

والسلام نيفاً وأربعين .

لم يكن كتاب رسول الله نوعين : كتاب وحى ، وكتاب أعمال ؛ ومن كتاب الأعمال كما رواه القضاة في كتابه عيون المعارف : الزبير بن العوام ، وجهم بن الصلت ، وكانا يكتبان الصدقات ، وحذيفة بن اليمان وكان يكتب خرص النخل ، والمغيرة بن شعبة والحصين بن نمير ، وكانا يكتبان التداين والمعاملات .

وبعد غزوة بدر كثرت الكتاب من المسلمين بالمدينة ، لأن النبي قبل في فداء الأسير من قريش إذا كان كاتباً تعليم عشرة من أولاد المسلمين ، وبذلك حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمية كما كان يحارب الوثنية . وصار هؤلاء الكتاب ذخر الدولة ، فقد كتبوا القرآن ، واستخدمهم الخلفاء في رسائلهم إلى العمال والقواد ، وفي وصاياهم إلى قضاتهم ، ومناشيرهم إلى عامة المسلمين من أهل الأمصار ، وفي مصالحتهم لأهل البلاد



المفتوحة . وقد اجتمع من هذه الرسائل القدر الجمّ ، لأن نشاط المسلمين في الفتح استوجب ذلك .

وبقيت الكتابة عمل الخليفة أو العامل يكتب أحدهما بيده ، أو يختار من جلسائه من يملئ عليه ، فلم تصر صناعة يؤجر عليها الكاتب ، أو يستوزر من أجلها كما صار الأمر كذلك فيما بعد . ويتجلى في رسائل هذا العصر طابعها السهل ، وقصدها إلى الغرض ، وبعدها من التكلف ، وميلها للإيجاز ، وخلوها من عبارات التفخيم ، فما عرفوا ضمير الجمع إلا له ، فيقولون أنت وأنا ، ويكتب الوالي أو القائد إلى الخليفة ، فيقدم اسمه عليه ، فيقولون مثلاً : من سعد بن أبي وقاص إلى أمير المؤمنين عمر .

ومن أمثلة إيجازها عهد أبي بكر إلى عمر : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد أبو بكر إلى المسلمين ، أما بعد : فإنني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم ألكم خيراً . حتى لقد كان من رسائلهم ما لم يتجاوز جملة واحدة ، ككتاب خالد بن الوليد إلى عياض ابن غنم ، وكان قد استنجده وهو محاصر بدومة الجندل .

من خالد بن الوليد إلى عياض :

« إياك أريد » .

وهو أخصر كتاب عرف في الأدب العربي .

وكان النبيّ قبل نزول القرآن يبدأ رسائله بقوله : باسمك اللهم ، على حين كانت قريش تقول : باسم اللات أو اسم العزى ، فلما نزل القرآن صار المسلمون يبدعون رسائلهم بالبسملة ، ثم بقولهم : من فلان إلى فلان ، ثم يعقبون ذلك غالباً بقولهم : « السلام عليكم ، أو السلام على من اتبع الهدى » ، ثم يثنون بالحمد في قولهم : « إني أحمد الله إليك » ، ثم يتخلص الكاتب إلى غرضه بذكر ما بعد أو بدونها ، ويختتمون الرسالة غالباً بإحدى صيغتي السلام السابقتين ، وقد يتركون شيئاً من هذه اللوازم ، والمثال الذي يجمعها كلها كتابه عليه الصلاة والسلام إلى خالد بن الوليد ، وكان قد بعثه إلى بني الحارث فأجابوه إلى الإسلام ، وهو :



« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى خالد بن الوليد : سلام عليك ،  
فإني أحمدُ إليك <sup>(١)</sup> الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإن كتابك جاءني مع رسولك  
يُخبرني أن بني الحَرِثِ قد أساموا قبل أن تُقاتلهم ، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه  
من الإسلام ، وشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن قد هداهم  
الله بهديه ، فبشرهم وأنذرهم ، وأقبل وُلِّيقبل معك وفداهم ، والسلام عليك  
ورحمة الله وبركاته »

### نماذج من كتابة هذا العصر

من وصاياهم إلى أولياء عهدهم وصية أبي بكر الصديق لعمر بن الخطاب :

« إني مُستخلفك من بعدى ، وموصيك بتقوى الله ، إن الله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ،  
وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل ، وإنه لا تقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة ، فإنما ثقلت موازين  
من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم ، وحق <sup>(٢)</sup> لميزان  
لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفت موازين من خفت موازينه  
يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن  
يكون خفيفاً ، إن الله ذكّر أهل الجنة فذكّرهم بأحسن أعمالهم ، وتجاوز عن  
سيئاتهم ، فإذا ذكّرهم قلت : إني أخاف ألا أكون من هؤلاء ؛ وذكّر أهل النار  
فذكّرهم بأسوأ أعمالهم ولم يذكّر حسناتهم ، فإذا ذكّرهم قلت : إني لأرجو  
ألا أكون من هؤلاء ، وذكّر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ،

(١) أى أحمد الله معك أى أنت تحمد وأنا أحمد أو أحمد الله حمداً أشهدك عليه أو أوجهه  
إليه في مقابلتك .

(٢) يقال حق على أن أفعل كذا (بالبناء للفاعل) وحق لى أن أفعل كذا (بالبناء للمفعول) .



وَلَا يَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَلَا يُلْقَى بِيَدِهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ . فَإِذَا حَفِظْتَ وَصِيَّتِي  
هَذِهِ فَلَا يَكُنْ غَائِبٌ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنَ الْمَوْتِ وَهُوَ آتِيكَ ، وَإِنْ ضَمِيعَتْ وَصِيَّتِي فَلَا يَكُنْ  
غَائِبٌ أَبْغَضَ إِلَيْكَ مِنَ الْمَوْتِ . وَلَسْتَ بِمُعْجِزِ اللَّهِ . »

ومن إرشادهم لقضاتهم كتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري وقد ولاه القضاء :

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس ،  
سلام عليك ، أما بعد : فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ ، وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ <sup>(١)</sup> . فَافْتَهُم <sup>(٢)</sup>  
إِذَا أَدُلِّيَ إِلَيْكَ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لَا نَفَاذَ لَهُ ، آس <sup>(٣)</sup> بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ ،  
وَعَدْلِكَ ، وَمَجْلِسِكَ ، حَتَّى لَا يَطْمَعُ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ <sup>(٤)</sup> ، وَلَا يَيْئَسُ ضَعِيفٌ مِنْ  
عَدْلِكَ ، الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنْ ادَّعَى ، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ ، وَالصَّلْحُ <sup>(٥)</sup> جَائِزٌ بَيْنَ  
الْمُسْلِمِينَ إِلَّا صَلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا ، أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا . لَا يَمْنَعَنَّكَ <sup>(٦)</sup> قَضَاءُ قَضَيْتَهُ الْيَوْمَ  
فَرَاغَتْ نَفْسُكَ ، وَهُدَيْتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ ، أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الْحَقِّ ، فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ .  
وَمَرَاغَةُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ . الْفَهْمَ <sup>(٧)</sup> لِفَهْمٍ . فِيمَا يَتَلَجَّلِجُ <sup>(٨)</sup> فِي صَدْرِكَ  
مِمَّا لَيْسَ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ . ثُمَّ اعْرِفِ الْأَشْبَاهَ وَالْأَمْثَالَ فَقِسْ الْأُمُورَ عِنْدَ ذَلِكَ ،

- (١) يريد بالفريضة المحكمة ما حده الله في كتابه . وبالسنّة المتبعة ما بينه الرسول وسار عليه .
- (٢) يريد أن من يدلى بحجته لا يغنيه قوله مهما كان مصيبا إذا لم يتنبه له القاضى ويعقل ما يقوله حق  
يحسن الحكم ويرد الحق إلى صاحبه .
- (٣) أى سوى بين الناس ، وهو أمر من آسى على وزن فاعل (٤) الحيف : الظلم .
- (٥) اتفقت القوانين على أنه لا قيمة للصلح إذا خالف القانون فإنها لم توضع إلا لأنها الصالح العام  
فإذا خولفت اضطرب الأمر .
- (٦) يريد أن القاضى لا ينبغي أن يتقيد بحكم حكمه فاذا ظهر له خطؤه كان عليه أن يحكم بما تجدد  
في نفسه من رأى . وقد حدث أن عمر حكم في حادثة بحكم ثم حكم في غيرها بغيره ولم يغير  
السابق وقال ذلك على ما قضينا وهذا على ما نقضى .
- (٧) هذا أصل ثالث من أصول الحكم وهو القياس ، ومن هنا اشتروا قديما في القاضى أن  
يكون مجتهدا لا مقلدا .
- (٨) اللجلجة كالتلجلج : التردد .



وَأَعِدْ إِلَى أَقْرَبِهَا إِلَى اللَّهِ وَأَشْبَهْهَا بِالْحَقِّ ، وَاجْعَلْ<sup>(١)</sup> لِمَنْ ادَّعَى حَقًّا غَائِبًا أَوْ بَيِّنَةً أَمْدًا يَنْتَهَى  
إِلَيْهِ . فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَةً وَإِلَّا اسْتَحْلَلْتَ عَلَيْهِ الْقَضِيَّةَ فَإِنَّهُ أَنْفَى لِلشَّكِّ وَأَجْلَى لِلْعَمَى .  
وَالْمُسْلِمُونَ عَدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدٍّ ، أَوْ مُجْرَبًا عَلَيْهِ شَهَادَةٌ زُورٌ ، أَوْ  
خَلِينًا فِي وِلَاءٍ أَوْ نَسَبٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَوَلَّى مِنْكُمْ السَّرَائِرَ وَدَرَأَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْإِيمَانِ . إِيَّاكَ  
وَالْفَلَقَ<sup>(٢)</sup> وَالضَّجَرَ وَالتَّادِيَّ بِالْخِصُومِ وَالتَّنَكَّرَ عِنْدَ الْخِصُومَاتِ ، فَإِنَّ الْحَقَّ فِي مَوَاطِنِ  
الْحَقِّ يُعْظَمُ اللَّهُ بِهِ الْأَجْرَ ، وَيُحَسِّنُ الذُّخْرَ . فَمَنْ صَحَّتْ نَيْبَتُهُ وَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ كَفَاهُ  
اللَّهُ مَا بَيَّنَّهُ وَبَيْنَ النَّاسِ . وَمَنْ تَخَلَّقَ لِلنَّاسِ بِمَا يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسِهِ شَأْنُهُ اللَّهُ .  
فَمَا ظَنُّكَ بِثَوَابِ اللَّهِ فِي عَاجِلِ رِزْقِهِ ، وَخِزَانِ رَحْمَتِهِ ؟ وَالسَّلَامُ » .

وَمِنْ رِسَائِلِهِمْ إِلَى أُمَرَاءِ الْأُمَصَارِ مَا كَتَبَهُ عُمَانُ إِلَى عَمَالِهِ حِينَ وُلِيَ الْخِلَافَةَ :  
أَمَا بَعْدَ : فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْأُمَّةَ أَنْ يَكُونُوا رِعَاةً وَلَمْ يَتَقَدَّمْ إِلَيْهِمْ<sup>(٣)</sup> أَنْ يَكُونُوا جُبَاةً .  
وَإِنَّ صَدَرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ خُلِقُوا رِعَاةً وَلَمْ يَخْلُقُوا جُبَاةً ، وَلْيُوشِكَنَّ أُمَّتُكُمْ أَنْ يَصِيرُوا  
جُبَاةً وَلَا يَصِيرُوا رِعَاةً . فَإِذَا عَادُوا كَذَلِكَ انْقَطَعَ الْحِيَاءُ وَالْأَمَانَةُ وَالْوَفَاءُ . أَلَا وَإِنَّ  
أَعْدَلَ السَّيْرِ أَنْ تَنْظُرُوا فِي أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ وَفِي مَا عَلَيْهِمْ فَتَعْظُمُوهُمْ مَا لَهُمْ ، وَتَأْخُذُوهُمْ  
بِمَا عَلَيْهِمْ . ثُمَّ تَعْتَمِنُوا بِالذِّمَّةِ<sup>(٤)</sup> فَتَعْظُمُوهُمْ الَّذِي لَهُمْ وَتَأْخُذُوهُمْ بِالَّذِي عَلَيْهِمْ . ثُمَّ الْعَدُوُّ  
الَّذِي تَتَابَعُونَ فَاسْتَفْتَحُوا<sup>(٥)</sup> عَلَيْهِم بِالْوَفَاءِ .

وَمِنْ مَنَاشِيرِهِمْ إِلَى عَامَةِ الْمُسْلِمِينَ مَا كَتَبَهُ عُمَانُ : أَمَا بَعْدُ ، فَإِنَّمَا بَلَغْتُمْ مَا بَلَغْتُمْ  
بِالْاِقْتِدَاءِ وَالِاتِّبَاعِ فَلَا تَلْفَتَنَّكُمْ الدُّنْيَا عَنْ أَمْرِكُمْ . فَإِنَّ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ صَارَتْ إِلَى

(١) يشير إلى جواز تأجيل الحكم لمن طلب ذلك من الخصوم لسبب معقول كقبية اليهود مثلاً .

(٢) هكذا رواها المبرد ولم يروها بالقف (الفلق) وقال في معناها يقال في سوء الخلق رجل غلق

(تخذر) وأصل ذلك من قولهم أغلق عليه الأمر إذا لم يتضح ولم يفتح . اهـ . ولا شك أن

سوء الخلق من ضيق الفطن وانعدام الروية والفهم الصحيح للأمر .

(٣) تقدم إليه : أمره . (٤) أي أهل الذمة .

(٥) استفتح عليه : استقوى واستعان .



الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم ، وُبُوغِ أَوْلَادِ السَّبَايَا ، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن<sup>(١)</sup> . فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : الكُفْرُ فِي الْعَجَبَةِ<sup>(٢)</sup> . فَإِذَا اسْتَعْجَمَ عَلَيْهِمْ أَمْرٌ تَكَلَّفُوا وَابْتَدَعُوا .

ومن مصالحتهم لأهل البلاد المفتوحة ما كتبه عمر إلى أهل إيلياء « بيت المقدس » .

بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما أعطى عبد الله بن الخطاب أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان . أعطاهم أماناً لأنفسهم ، وأموالهم ، ولكنائسهم ، وصلبانهم ، وسقيمها وبريئها ، وسائر ملتها ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شيء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن إيلياء معهم أحد من اليهود ، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن ، وعليهم أن يخرجوا منها الرثوم ، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم . ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الرثوم ، ويخلى بيعهم وصلبانهم ، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبانهم حتى يبلغوا مأمنهم .

## عمر بن الخطاب

[ مولده ونسبه ] : قال عمر عن نفسه : ولدت قبل حرب الفجار الأعظم بأربع سنين . فيكون قد ولد قبل مبعث النبي بعشرين سنة ، لأن حرب الفجار كانت قبل

(١) المراد بقراءة هؤلاء القرآن : انتشار الإسلام فانهم لا يقرءونه حتى يكون الإسلام قد انتشر .

(٢) العجبة : عدم الافصاح . والأعجم والأعجمي : من لا يفصح . والعجم بالضم والعجم بالتحريك :

خلاف العرب من أى جنس كانوا .



البعثة بنحو ست عشرة سنة ، وهو ابن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح .  
ويجتمع مع النبي صلى الله عليه وسلم في كعب وهو الأب الثامن للنبي .  
وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة ، وليست بنت هشام بن المغيرة إذ يتبع هذا أن  
يكون أبو جهل خاله وليس كذلك .

[ خَلَقَهُ وَخُلِقَهُ ] : كان عمر رجلاً طويلاً جسيماً أبيض ، شديد حمرة العينين ،  
أصلع ، في عارضيه خفة ، كثير شعر السبلة ، أعسر يسراً ، « أضبط » ، شديد الوطء  
إذا مشى ، جهير الصوت إذا تكلم ، وكان قليل الضحك ، مقبلاً على شأنه ، شجاعاً حازماً  
أيدياً ، شديد العارضة ، مهيب الجانب ، ذكى الفؤاد .

[ حياته في الجاهلية ] : كان في بدء أمره يرعى غنماً لأبيه ، ثم اشتغل بالتجارة ،  
وهي عمل الأشراف من قريش .

ولقد عرفت له قريش في الجاهلية شدة عارضته ، وشجاعة قلبه ، وذكاءه ،  
وحسن بيانه ، فجعلته السفير بينها وبين قبائل العرب في المفاخرات والمنافرات والمصالحات  
والحروب . وذلك شرف عظيم لا يناله إلا من كان كابن الخطاب .

ولقد جاء الإسلام فلقى النبي وأصحابه عنماً شديداً من عمر ، ومن كل من كان  
على نحو صفاته ، كأبي جهل من رؤساء قريش ، فقد جاءت بعثة النبي مؤذنة بزوال  
سطوتهم ، وتطامن مكاتهم ، حتى لقد روى عن النبي أنه كان يقول : اللهم أعز  
الإسلام بأحب الرجلين إليك : بعمر بن الخطاب ، أو بأبي جهل ، فأجاب الله دعاءه  
بدخول عمر في الإسلام ، فكان أحب الرجلين إلى الله تعالى .

[ إسلامه ] : حدث عمر رضی الله عنه عن أول وقوع الإسلام في قلبه قال :  
خرجت أتعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدته قد سبقني إلى المسجد ، فقامت  
خلفه ، فاستفتح سورة الحاقة ، فجعلت أعجب بتأليف القرآن ، فقلت : هذا والله شاعر كما  
قالت قريش ، فقرأ : « إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا  
مَا تُؤْمِنُونَ » ، فقلت كاهن ، فقرأ : « وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَدَّكُرُونَ تَنْزِيلٌ



مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقْوَابِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ » قال فكان ذلك أول وقوع الإسلام بقلبي .

خرج عمر متقلداً سيفه ليقتل محمداً الذي سب آلهتهم ، وسفه أحلامهم ، وعاب دينهم ، وفرّق جماعتهم ، فقابله رجل من بني زُهرة ، فقال له : ألا أدلك على العجب يا عمر ؟ إن أختك وختنك قد صَبَوَا ، فمَشَى عمر دامراً<sup>(١)</sup> حتى أتاهما وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خباب ، فلما سمع خباب حسَّ عمر تواري في البيت فدخل عمر ، فقال لأخته وختته<sup>(٢)</sup> ما هذه الهيمنة التي أسمعها عندكم ؟ ( وكانوا حين مجيئه يقرءون طه ) ، فجعلا يخفيان أمرهما ، ثم أظهرتا إسلامهما ، وطلب عمر الصحيفة التي فيها طه فقرأها ثم قال : دلوني على محمد ، فذكروا له أنه في دار بني الأرقم عند الصفا ، فقصد إليه عمر فأسلم ، ثم قال يا رسول الله : ألسنا على الحقِّ قميم الاختفاء ؟ فكان ذلك أول إعلان الرسالة ، فسماه رسول الله الفاروق لفرقه بين الحقِّ والباطل ، وكان إسلامه رضى الله عنه في السنة السادسة من البعثة .

وكان كفار قريش إذا رأوا رجلاً دخل في الإسلام يقولون : قد صبأ فلان ، وإذا عثروا به أكثروا ضربه وأذاه ، وهكذا فعلوا بعمر حتى خاف عليه خاله العاص بن وائل ، فقال : عمر في جوارى ، فامتنع الناس عنه ، ولكن عمر كان يلتدُّ بالأذى في سبيل الله فردَّ على خاله جواره ، فكان يُضْرَب وَيَضْرَب ، ومن شجاعته أنه حين خرج مهاجراً لم يخف هجرته كما فعل غيره ، بل تقلد سيفه ، وتنكب قوسه ، وانتضى في يده أسهماً ، ومضى قِبَلَ الكعبة ، والملا من قريش بِنِهَاها ، فطاف بالبيت متمكناً ، ثم أتى المقام فصلى متمكناً ، ثم وقف بالحلقة واحدة واحدة ، فقال لهم : سأهت<sup>(٣)</sup> هذه الوجوه ، لا يُرْغِمُ اللهُ إلهذه المعاطس . من أراد أن تَشْكَلَ<sup>(٤)</sup> أمه أو يَتِمَّ<sup>(٥)</sup> طفله

(١) من دمر : بمعنى دخل بغير إذن وهجم هجوم الشر .  
(٢) الختن : الصهر ، وكل ما كان من ناحية المرأة كأيها وأخوتها .  
(٣) قبحت . (٤) شكك المرأة ( كفرح ) فقدت ولدها .  
(٥) يتم ( كضرب وعلم ) فقد أباه دون الرشد .



أُوَيْرِمْ لَ (١) زوجته ، فليلقني وراء هذا الوادي ، ثم خرج ، فلم يتبعه أحد .

[ تشریف النبی له ] : كان من تشریف النبی له أن لقبه بالفاروق يوم إسلامه ، وكناه بأبي حفص لما رأى من شجاعته ، وناداه بيا أخى حين استأذنه في العمرة ، فقال له : يا أخى لا تنسانا من دعائك ، تزوج النبی ابنته حفصة بعد موت زوجها ، ووصفه بأنه محدث أو مؤتمهم أو ملهم ، فقال كما جاء في الصحيحين : إنه كان فيمن قبلكم من الأمم ناس محدثون ، وإنه إن كان في أمي هذه أحد فإنه عمر بن الخطاب ، وذلك لما كان يأتي به الوحي من تأييده كما حدث فيما يأتي :

١ - لما أراد النبی أن يصلي على عبد الله بن أبي قال له عمر : أليس الله نهاك أن تصلي على المنافقين ؟ فقال النبی أنا بين خيرتين . قال تعالى : « أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ » ، ثم صلى عليه فنزل : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » .

٢ - أسر النبی في بدر سبعين رجلا ، فاستشار فيهم أبا بكر فقال : قومك وعشيرتك فحل سبيلهم ، وقال عمر : اقتلهم ، فعاداهم النبی ، فعتب الله عليه بقوله : « مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْحَنَ فِي الْأَرْضِ » (٢) ، فقال رسول الله : لقد كاد يصيبنا في خلافتك شر يا عمر .

٣ - وكانت نساء النبی يظهرن للناس ، فكان عمر يغار عليهن ، ويرى من

(١) أرملت المرأة : فقدت زوجها .

(٢) معنى الآية : أنه ما يستقيم للنبي أن يكون له أسرى ويتغلب على أعدائه حتى يكثر القتل فيكون ذلك ذلا للكفر وإضعافا ، وغزا للإسلام . ولما كثر المسلمون بعد ذلك قال الله : « فَأَيَّمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِيَّامَا فِدَاءً » .



اللائق بشرفهن أن يحتجبن وكلم النبي في ذلك ، فنزل قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا  
النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكِ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ » الآية .  
٤ - عاتب النبي بعض نسائه ، فجعل عمر يمرّ عليهنّ واحدة واحدة ، وهو يقول :  
لئن اتهميتنّ وإلا لبيدنّ الله رسوله منكنّ خيراً ، فنزل قوله تعالى : « عَسَى  
رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ » .

إلى غير ذلك حتى قيل : ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيه وقال فيه عمر إلا نزل  
القرآن على نحو ما قال عمر .

ومن مزايا عمر : صواب رأيه ، واجتهاده فيما لم يرد فيه نصّ من كتاب الله ،  
ولا سنة نبيه حتى يقول الفقهاء في باب الاجتهاد : إن عمر عمدة هذا الباب ، ومن  
أمثلة اجتهاده : أن رجلاً قتله امرأة أبيه وحليها ، فتردّد عمر ، هل يقتل الكثير  
بالواحد ؟ فقال له عليّ : لو أن جماعة سرقوا جزوراً ، فأخذ هذا عضواً ، وذاك عضواً ،  
أكنت قاطعهم ؟ قال نعم ، قال فكذلك . فكتب عمر رأيه إلى عامله : أن اقتلها ولو  
اشترك فيه أهل صنعاء كلهم .

وسئل في شارب الخمر فقال : من شرب فقد هدَى ، ومن هدَى فقد افتري ، فأرى  
عليه حدّ المفتري «القاذف» .

وكان يفهم روح التشريع فيجعل للملابسات دخلاً في فهم المراد ، ومن أمثلة ذلك :  
أن النبي كان قد تألف أبا سفيان ، والأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، وصفوان  
ابن أمية ، وأعطى كلاً مائة من الإبل ، فجاء عيينة والأقرع إلى أبي بكر يطلبان أرضاً  
فكتب لهما بها ، ثم حضر عمر فمزق الكتاب وقال : إن الله أعزّ الإسلام وأغنى  
عنكم فإن ثبتم عليه ، وإلا فالسيف بيننا وبينكم .

وفي مرّة لم يقطع في السرقة ، وذلك أنه في عام المجاعة سرق غلّة لحاطب بن  
أبي بلتعة جزوراً ، وأقروا على أنفسهم ، فبعد أن أمر عمر بقطع أيديهم أعادهم ، وقال



لابن حاطب : أما والله لولا أنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل الميتة حلّ له ، لقطعت أيديهم ، وإيم الله إذ لم أفعل لأغرمتك غرامة توجعك .

وكان طلاق الثلاث على عهد رسول الله وأبي بكر ، وسنتين من عهد عمر يقع واحدة حتى قال عمر : إن الناس قد استعجلوا في أمر كانت فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم فأمضاه وجعله يقع ثلاثاً تأديباً للناس .

### خلافته

عهد أبو بكر إليه بالخلافة بعد أن استشار الصحابة في أمره ، وكان بدء خلافته سنة ١٣ هـ ، وقتل سنة ٢٣ هـ ، فكانت خلافته عشر سنوات . وقد قتله رجل من السبائيا يسمى فيروز ، ويكنى أبا لؤلؤة ، وهو غلام المغيرة بن شعبه ، وقد فرض عليه المغيرة درهمين في اليوم ، فشكا الغلام ذلك إلى عمر وهو يطوف في السوق . فقال له : ما صناعتك ؟ قال : نجار حداد نقاش . قال عمر : فما أرى خراجك كثيراً ، فاضطغن عليه الغلام ، وقتله بعد ثلاثة أيام ، وهو يريد صلاة الفجر ، وحمد الله عمر حين علم أن قاتله غير مسلم .

[ أعماله في خلافته ] : أما فتوحه التي لم يعرف مثلها لغيره من الخلفاء وملوك الإسلام كافة ، فإن التاريخ العام كفيل بشرحها ، وبيان مساحة رقعتها وسرعة حدودها وإحكام أمرها ، فلعمري في ذلك الأمر حديث عجب ، فلقد كان يرسل للقائد بوصف البلاد التي سيقدم عليها ، وبيان أخلاق أهلها ، وطريقة محاربتهم ، فيكون في العمل برأيه النصر المؤزر . ويكفي أن نروي لك كتابه إلى سعد بن أبي وقاص في حرب القادسية قال :

أما بعد : فسر من سيراف نحو فارس بمن معك من المسلمين ، وتوكل على الله ، واستعن به على كل أمر . واعلم أنك تقدم على أمة عددهم كثير ، وعدتهم فاضلة ،



وَبَأْسُهُمْ<sup>(١)</sup> شَدِيدٌ ، وَعَلَى بَلَدٍ مَنِيعٍ وَإِنْ كَانَ سَهْلًا ، كَوُودٍ<sup>(٢)</sup> ؛ لِبَحْوَرِهِ ، وَفِيؤُوضِهِ  
وَدَادِيهِ<sup>(٣)</sup> . إِلَّا أَنْ تَوَافَقُوا غَيْضًا<sup>(٤)</sup> مِنْ قَيْضٍ ، وَإِذَا لَقِيتُمْ الْقَوْمَ أَوْ أَحَدًا مِنْهُمْ  
فَابْدِءُوا بِهِمْ الضَّرْبَ . وَإِيَّاكُمْ وَالْمَنَازِرَةَ<sup>(٥)</sup> لِمَجْمُوعِهِمْ ، وَلَا يَخْدَعَنَّكُمْ فَإِنَّهُمْ خُدَعَةٌ<sup>(٦)</sup>  
مَكْرَةٌ ، أَمْرُهُمْ غَيْرُ أَمْرِكُمْ إِلَّا أَنْ يَجَادُوكُمْ ، وَإِذَا اتَّهَمْتُمْ إِلَى الْقَادِسِيَّةِ ، وَالْقَادِسِيَّةُ  
بَابُ فَارِسَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . وَهِيَ أَجْمَعُ تِلْكَ الْأَبْوَابِ لِمَادَتِهِمْ ، تَكُونُ مَسَاحِكًا<sup>(٧)</sup> عَلَى  
أَنْقَابِهَا<sup>(٨)</sup> وَيَكُونُ النَّاسُ بَيْنَ الْحَجَرِ وَالْمَدْرِ ، عَلَى حَافَاتِ الْحَجَرِ وَحَافَاتِ الْمَدْرِ ، وَالْجِرَاعُ<sup>(٩)</sup>  
بَيْنَهُمَا . ثُمَّ الزَّمَّ مَكَانَكَ فَلَا تَبْرَحْهُ فَإِنَّهُمْ إِذَا أَحْسَوْكَ أَنْفَضْتَهُمْ<sup>(١٠)</sup> رَمُوكَ بِجَمْعِهِمْ الَّذِي  
يَأْتِي بِخَيْلِهِمْ وَرَجُلِهِمْ وَحَدَثَهُمْ وَجِدَهُمْ فَإِنْ أَتَمَّ صَبْرَتُمْ لِعَدُوِّكُمْ وَاحْتَسَبْتُمْ<sup>(١١)</sup> لِقِتَالِهِ وَنَوَيْتُمْ  
الْأَمَانَةَ رَجَوْتُمْ أَنْ تُنْصَرُوا عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ لَا يَجْتَمِعُ لَكُمْ مِثْلُهُمْ أَبَدًا إِلَّا أَنْ يَتَجَمَّعُوا  
وَلَيْسَتْ مَعَهُمْ قُلُوبُهُمْ . وَإِنْ تَكُنِ الْأُخْرَى كَانَ الْحَجَرُ مِنْ أَرْضِكُمْ ثُمَّ كُنْتُمْ عَلَيْهَا أَجْرًا  
وَبِهَا أَعْلَمُ ، وَكَانُوا عَنْهَا أَجْبَنَ ، وَبِهَا أَجْهَلُ ، حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِالْفَتْحِ وَيَرُدَّ لَكُمْ  
الْكِرَّةَ عَلَيْهِمْ .



وَأَمَّا سِيرَتُهُ فِي رَعِيَّتِهِ فَقَدْ بَنَاهَا عَلَى أَسْنِينَ عَظِيمِينَ مِنْ سِيَاسَةِ الْأُمَمِ ، فَطَاعَتُهُ  
الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ أَحْسَنَ طَاعَةٍ . وَجَرَتْ لَهُ الْأُمُورُ عَلَى أَذْلَالِهَا<sup>(١٢)</sup> .  
فَأَحَدُ أَسَى سِيَاسَتِهِ هُوَ الشَّدَّةُ فِي الْعَدَالَةِ ، وَعَدَمُ الْهُوَادَةِ فِي حُدُودِ اللَّهِ ، وَذَلِكَ هُوَ

- (١) الْبَأْسُ : الشَّدَّةُ فِي الْحَرْبِ . (٢) صَعْبٌ .
- (٣) أَوْدِيَّتُهُ الْمَتَسَعَةُ . (٤) الْغَيْضُ : النَّقْضَانُ .
- (٥) الْإِتِّظَارُ وَالْإِمْهَالُ .
- (٦) يُقَالُ هُوَ خُدَعَةٌ بَضْمُ فَتْحٍ : أَي كَثِيرُ الْخِدَاعِ ، فَإِنْ سَكَنْتِ الدَّاءُ صَارَ مَعْنَاهَا كَثِيرُ الْإِنْخِدَاعِ .
- (٧) الْمَسَاحِقُ الثَّغُورُ . (٨) الْأَنْقَابُ : جَمْعُ نَقَبٍ بِالْفَتْحِ أَوْ الضَّمِّ ، وَهُوَ الطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ .
- (٩) الْأَرْضُ الرَّمْلِيَّةُ . (١٠) تَحَرَّكَتْ إِلَيْهِمْ .
- (١١) رَجَوْتُمْ ثَوَابَ اللَّهِ .
- (١٢) جَمْعٌ لِمَفْرُودٍ لَهُ أَوْ مَفْرُودٌ ذَلَّ ، وَالْمَعْنَى جَرَتْ عَلَى وَجْهِهَا وَطَبِيعَتِهَا .



خلق عمر منذ جاهليته ، ولكنه كان في الجاهلية صرامة وغلظة كبد وحمية جاهلية . ثم صار في الإسلام تحرياً لرضاء الله ، وتنفيذاً لأوامره ، وحرصاً على جبل الإسلام أن يضرب .

ومن أمثلة ذلك : أنه كان إذا شكى إليه عامل مهما عظم قدره دعاه المثل بين يديه ، فإن ظهرت إدانته أقام عليه الحد ، وإن شك في أمره عزله . وقد شك إليه رجل أبا موسى الأشعري وذكر أنه ضربه ، فكتب إليه : إن كنت ضربت فلاناً على ملاً من الناس فعزمت عليك لما قعدت له في ملاً من الناس حتى يقتص منك ، وإن كنت فعلت ذلك في خلاء من الناس فاقعد له في خلاء من الناس حتى يقتص منك . ولولا غفو الرجل بعد أن قعد له أبو موسى الأشعري للقصاص ، لجرى القصاص على أبي موسى وهو هو سابقته في الإسلام و بلاء ، ومثل ذلك جرى لعمر بن العاص . وقد استحضر عمر سعد بن أبي وقاص فاتح القادسية والمدائن ومصر الكوفة والبصرة . وكان قد شكاه أهل عمله بالكوفة ، فجمع بينه وبينهم ، فوجده بريئاً . وكان للوصول إلى العدالة يأمر عماله أن يوافوه في موسم الحج ليجمع بينهم وبين الشاكين منهم .

ولقد كان له عامل يقتص آثار العمال فيرسله في كل شكوى ليحققها في البلد الذي جرت فيه ، وهذا العامل هو محمد بن سلمة ، وكان يثق به ثقة تامة .



وكان عمر يرى أن العدالة تقتضى سهره على الرعية واستطلاعها لأحوالها ، فكان يعس بالمدينة ليلاً ، وقد روى عن عسه قصص تمثل حرصه التام على منع الظلم عن رعيته .

فمن ذلك أن قدمت رفقة من التجار ، فنزلوا بمسجد المدينة ، فقال عمر لعبد الرحمن ابن عوف : هل لك أن نحرسهم الليلة من السرقة ؟ فباتا يحرسانهم ويصليان ، فسمع عمر بكاء صبي ، فتوجه نحوه وقال لأمه : اتقى الله وأحسنى إلى صبيك . ثم عاد ،



فسمع بكاءه ثانية وثالثة ، ثم قال لها : إني لأراك أم سوء<sup>(١)</sup> ! مالي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة ! فقالت : إني أريغه على الفطام فيأبى ، قال ولم ؟ قالت لأن عمر لا يفرض إلا لفطيم ، فقال ولم عمره ؟ فقالت كذا شهراً ، فصلى عمر الفجر ما يستبين الناس قراءته من البكاء . فلما أتمّ صلاته قال : يا بؤساً لعمر . كم قتل من أولاد المسلمين ؟ ثم أمر مناديا ينادى : ألا لا تعجلوا عن الفطام ، فإننا نفرض لكلّ مولود في الإسلام .

قال أسلم : مررت مع عمر في عسه ، فرأى ناراً فدنا ، فإذا امرأة معها صبيان يتصاعون<sup>(٢)</sup> جوعاً ، فقال : ما بال الصبية ؟ فقالت الجوع . قال فأى شيء في القدر ؟ فقالت : ماء أسكتهم به حتى يناموا ، والله بيننا وبين عمر . فقال : أى رحمك الله وما يدري عمر بكم ؟ قالت يتولى أمرنا ثم يغفل عنا . فقال عمر لأسلم : انطلق بنا حتى أتيا الدقيق ، فأخرج عدلاً منه ، وكبة من شحم ، فقال : احمله علىّ ، قال أسلم : أحمله عنك . قال عمر : أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة ؟ !! فانطلق عمر به يهرول حتى ألقاه عندها ، ثم أخرج شيئاً من الدقيق ، فجعل يقول لها : ذرى علىّ وأنا أحرك لك ، وجعل ينفخ تحت القدر ، فكان الدخان يخرج من خلال لحيته ، ثم أنزلها وقال لها : ابغيني شيئاً ، فأنته بصحفة فأفرغها فيها . ثم جعل يقول لها : أعطيهم وأنا أسطح لهم ، فلم يزل حتى شعبوا . ثم قام فقالت المرأة : جزاك الله خيراً كنت أولى بهذا الأمر من عمر ، فيقول لها قولي خيراً . إذا جئت أمير المؤمنين وجدتنى هناك إن شاء الله . ثم تركها وجعل يرقب الصبية حتى رآهم يصطرعون ، ثم ناموا ، فقال يا أسلم : إن الجوع أسهرهم وأبكاهم ، فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت .

ومن أمثلة عدله : أنه بينما كان يمشى بسكة من سكك المدينة إذا هو بصبية تطيش على وجه الأرض تقوم مرّة وتقع أخرى ، فقال : يا ويحها ! يا بؤسها ! من يعرف هذه منكم ؟ فقال عبد الله بن عمر : هي إحدى بناتك . قال : وأى بناتي هي ؟ قال :

(١) أى أما قبيحة ، ولا يقال إلا بفتح السين من سوء مع إضافة ما قبلها إليها وتنكيرها .

(٢) يصيحون ويتلوون .



هي ابنتي . قال : ويحك ! ما صيرها إلى ما أرى ؟ قال منعك ما عندك . قال : ومنعني ما عندى منعك أن تطلب لها ما يكسب الأقوياء لبناتهم ، إنه والله مالك عندى غير سهمك في المسلمين وسعك أو عجز عنك ، هذا كتاب الله بيني وبينك .



وثانى أسئى سياسته : أنه كان يبنى أمره على الاستشارة ، فكان يستشير الناس على مراتب ، فيأخذ رأى العامة أولاً ، ثم رأى الخاصة . فقد فعل ذلك عند زيارته للشام سنة ١٧ هـ حتى إذا كان بسرغ<sup>(١)</sup> لقيه أمراء الأجناد ، فأخبروه أن بالشام طاعونا ، فجمع الناس ، فرأى خاصتهم أنه يجب أن يرجع ، فقال أبو عبيدة بن الجراح : أفراراً من قدر الله ؟ فقال : أفرّ من قدر الله إلى قدر الله .

ولقد كان ينزل على رأى الحقّ مهما صغر ، فقد بداله ، وقد رأى مغالاة الناس بالهور أن يخطب في منع الناس من ذلك ، فقالت له امرأة من أقصى المسجد : كيف ؟ والله يقول : « **وَأَتَيْتُمُ إِخْدَاهُنَّ فَنظَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا** » ، فقال عمر : أصابت امرأة وأخطأ رجل . كلّ الناس أفتة منك يا عمر . وقد تمثل ميله للاستشارة في اختياره خليفته ، فقد جعله أحد ستة هم خير المسلمين حينئذ ، وقد شهد لهم رسول الله بأنهم من أهل الجنة ، وهم : عثمان ، وعليّ ، وعبد الرحمن بن عوفٍ ، وسعدٌ ، والزبيرُ ابن العوّام ، وطلحةٌ ، ولم يقطع رأياً في ذلك دون المؤمنين .



وأما غير ذلك من أعماله في خلافته ، فهي أنه أول من أرخ بالتاريخ الهجرى لما رأى من اضطراب الأمر في تواريخ الكتب ، فقد رفع إليه صك محله شعبان ، فقال أىّ شعبان هو ؟ الذى مضى ، أو الذى هو آت ، أو الذى نحن فيه ؟ وقيل إن سعد

(١) موضع بالشام .



ابن أبي وقاص شكاً إليه أنه تأتبه كتبه ولا يعرف السابق منها من اللاحق . فاستشار أهل الرأي في ذلك ، فاجتمع رأيهم على جعل الهجرة مبدأ التاريخ للمسلمين ، وكان العمل به في ربيع الأول سنة ست عشرة من الهجرة ، وقيل سنة ثمانى عشرة ، أو تسع عشرة .

وهو أوّل من مَصَّر الأمصار ، وأوّل من دوّن الدواوين ، وأوّل من استقضى القضاة في الأمصار ، وأوّل من وضع الخراج على الأرض ، وكان العرب يريدون قسمة السواد كما فعل رسول الله بخيبر ، فقال لهم : فما لمن جاء بعدكم من المسلمين ؟ وهو أوّل من سمى أمير المؤمنين ، دخل عليه عمرو بن العاص ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال له : ما بدالك من هذا الاسم ؟ لتخرجنّ مما قلت ، قال نعم . قدم لبيد بن ربيعة ، وعدي بن حاتم ، فقالا : استأذن لنا على أمير المؤمنين ، فقلت : أتما والله أصبنا اسمه ، إنه لأمير ونحن المؤمنون ، فجرى عليه هذا اللقب وعلى من بعده من الخلفاء .

## الأدب في حياة عمر

ذكرنا عن عمر أنه كان يقوم بالسفارة لقريش . وتلك منزلة لا يسمو إليها إلا كلٌّ مدّرهِ جزل البيان ، قوى العارضة ، وهكذا كان عمر ، فقد تجلّت فيه نزعة لغوية جليّة الشأن ، فلقد كان يعرف قدر الشعر ، ويدعو الناس إلى تعلّمه ، وهو الذى يقول : أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها في حاجته ، يستعطف بها قلب الكريم ، ويستميل بها قلب اللّيم . وكتب إلى أبى موسى الأشعري يقول : مرّ من قبلك يتعلّم الشعر ، فإنه يدلّ على معالى الأخلاق ، وصواب الرأى ، ومعرفة الأنساب . وهو الذى يقول : تعلّموا العربية ، فإنها تثبت العقول وتزيد المروءة .

وكان يحب سماع الشعر ، وقد أتاب عليه بمقيصه الذى لم يجد ما يعطيه غيره ،



وهو الذي قال لبعض ولد هرم ، وقد أشده قول زهير في أبيه ، إنه كان ليحسن فيكم القول ، فقال له : ونحن كنا نحسن له العطاء ، قال : ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم . كذلك كان يأخذ الناس بأدب الخطاب ، ويرشدهم إلى مواضع الصواب في القول ، فقد روي أنه لما حضر خراج العراق ، خرج مع مولى له يعد الإبل ، وهي تفوق الحصر ، فقال له الغلام : هذا من فضل الله ورحمته ، فقال له عمر : كذبت ليس هذا هو الذي يقول الله فيه : « قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا » يقول بالهدى وبالسنة والقرآن فبذلك فليفرحوا : « هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ » .

وأثنى أمامه رجل على رجل في وجهه ، فقال له : عقرت الرجل عقرك الله . وسمع رجلا يقول : إنني أنفق مالي ونفسي في سبيل الله ، فقال عمر : أو لا يسكت أحدكم ، فإن ابتلي صبر ، وإن عوفي شكر . وأراد أن يستعين برجل في عمل ، فسأله عن اسمه ، فقال : ظالم بن سراق ، فقال : تظلم أنت ويسرق أبوك ، ولم يستعن به . وكان عمر في حديثه مع الناس يحاسب نفسه على اللفظ ، ويتجنب ما أخذ القول ، فلقد أقبل على قوم يوقدون ناراً ، فقال السلام عليكم يا أهل الضوء ، وكره أن يقول : يا أهل النار .



ولعمر غير خطبه كلمات سامية ، وعبارات تدلّ على سموّ خياله ، فقد قال : لو كنت تاجراً ما اخترت على العطر شيئاً ، إن فاتني ريحه ، لم يفتني ريحه . وسمع سائلاً يقول : من يعشى السائل ، فقال عمر : عشوا السائل ، ثم سمعه ثانية ، فقال : ألم أقل لكم عشوا السائل ؟ فقالوا : قد فعلنا ، فأرسل إليه ، فإذا جرابه مملوء خبزاً ، فقال له : لست سائلاً ، بل أنت تاجر . وسمع نادبة تنوح فضربها وقال : إنها لا تبكي بشجوك ، ولكنها تهريق دمعها



لأخذ دراهمكم ، إنها تؤذى أموالكم في قبورهم ، وأحياءكم في دورهم ، إنها تنهى عن الصبر وقد أمر الله به ، وتأمر بالجزع وقد نهى الله عنه .

وكان إذا سمع رجلاً يتلجلج في كلامه قال : خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد .  
ومرّ بدير راهب فناده فأشرف عليه ، فجعل عمر يبكي ويقول : « عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ  
تَصَلِّي نَارًا حَامِيَةً » .

ورأى رجلاً يحمل ابناً له ، فقال : ما رأيت غراباً أشبه بغراب من هذا بهذا .  
ومن كلامه قوله : ثلاث يثبتن لك المودة في صدر أخيك : أن تبدأه بالسلام ،  
وتوسع له في المجلس ، وتدعوه بأحبّ الأسماء إليه .

وقوله : كفى بالمرء غيياً أن تكون فيه خلةٌ من ثلاث : أن يعيب شيئاً ثم يأتي مثله ،  
أو يبدو له من أخيه ما يخفى عليه من نفسه ، أو يؤذى جليسه فيما لا يعنيه .

وروى وهو يهنأ بغيراً من إبل الصدقة ، ف قيل له : هلا قام بذلك عبد من عبيد  
الصدقة ، فقال : وأىّ عبد هو أعبد مني !!

ومرّ عمر بينان يبنى بأجرٍ وجصٍّ ، فقال : لمن هذا ؟ فقيل لعاملك على  
البحرين ، فقال : أبّت الدراهم إلا أن تُخرَجَ أعناقها .



ومن حكمه قوله للأحنف بن قيس : من كثر ضحكك قلت هيئته ، ومن مزح  
استخفّ به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر  
سقطه قلّ حياؤه ، ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه ، ومن قلّ ورعه مات قلبه .

ومن حكمه : من عرض نفسه للثمة فلا يلومنّ من أساء به الظن . من كتم سرّه  
كان الخيار بيده . كفى بالمرء سرفاً أن يأكل كلُّ ما اشتهاه . الطمع فقر واليأس غنى . أعقل



الناس أَعَذَرَهُمْ للناس . أشقى الوِلاَةَ مَنْ شَقِيَّتْ به رعيته . لا تُؤَخِّرْ عمل يومك لِنَدِكَ . من لم يعرف الشرَّ كان جديراً أن يَقَعَ فيه .



ومن آثار عمر الأدبية شعر يرويه بعض الناس له وينكره آخرون ، فمن قوله يوم فتح مكة :

أَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَظْهَرَ دِينَهُ      عَلَى كُلِّ دِينٍ قَبْلَ ذَلِكَ حَائِدٍ  
وَأَسْلَبَهُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ بَعْدَ مَا      تَدَاعَوْا إِلَىٰ أَمْرِ مِنَ الْغَىِّ فَاسِدٍ  
عَدَاةَ أَجَالِ الْخَيْلِ فِي عَرَصَاتِهَا      مُسَوِّمَةً بَيْنَ الزُّبَيْرِ وَخَالِدٍ  
فَأَمْسَى رَسُولُ اللَّهِ قَدْ عَزَّ نَصْرُهُ      وَأَمْسَى عِدَاةُ مِنْ قَتِيلٍ وَشَارِدٍ

وإن فاته قول الشعر لم يفته التمثل به في كلِّ مقام ، فقد قال الأصمعي ما قطع عمر رضي الله عنه أمراً إلا تمثل فيه بيت من الشعر .

قيل خرج عمر وعليه حُلَّةٌ قطن ، فنظر الناس إليه نظراً شديداً ، فتمثل :

لَا شَيْءَ مِمَّا يُرَىٰ تَبَقَىٰ بِشَاشَتُهُ      يَبْقَىٰ الْإِلَهُ وَيُودَى الْمَالُ وَالْوَالِدُ



أما ترسله فهو في الكثرة يجارى فتوح عمر ، فقد كان من حرصه على فوز جنوده لا يكاد يتركها من غير نصيحة بتعبئة أو هجوم أو توقف ، كما كان يطالب قواده وعمَّاله بموافاته بالأخبار ، وما تمَّ من أمورهم أو لا فأوَّلا ، فكانت الكتب لا تنقطع بينه وبينهم .

كذلك لم يكن يُغِبُّ الناس خطابة ، فكان يقوم بها في مواعيد الصلاة وغيرها كلما بدت له عظة يريد النفع بها ، أو رأى بدعة يريد حمل الناس على تركها ، أو أتاه خبر عن فتح يريد إعلانه للقوم .



ونرى أنه إذا أحصى كل ذلك ، وجمع شتيته من كتب الأدب والسير كان منه أثر جليل القدر ينتفع الناس بتداوله .

وسنقل هنا شيئاً من رسائله وخطبه التي لم يسبق لنا إيرادها آنفاً .

٨ خطب عمر فقال : أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا كُنَّا نَعْرِفُكُمْ إِذْ بَيْنَ أَظْهُرِنَا رَسُولُ اللَّهِ ، وَإِذْ يَنْزِلُ الْوَحْيُ وَيُنذِينَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ . فَقَدْ ذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَانْقَطَعَ الْوَحْيُ . وَإِنَّمَا نَعْرِفُكُمْ بِمَا أَقُولُ لَكُمْ : مَنْ أَظْهَرَ مِنْكُمْ خَيْرًا ظَنَّنَا بِهِ خَيْرًا وَأَحْبَبْنَاهُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ أَظْهَرَ مِنْكُمْ شَرًّا ظَنَّنَا بِهِ شَرًّا وَأَبْغَضْنَاهُ عَلَيْهِ . سَرَّأْتُكُمْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ . أَلَا وَإِنَّهُ قَدْ آتَى عَلَيَّ حِينٌ وَأَنَا أَرَى أَنَّهُ مِنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ وَمَا عِنْدَهُ ، وَقَدْ خِيلَ إِلَيَّ بِأَخْرَةٍ (١) أَنَّ رِجَالًا يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ يُرِيدُونَ بِهِ مَا عِنْدَ النَّاسِ . فَأَرِيدُوا اللَّهَ بِقِرَاءَتِكُمْ وَعَمَلِكُمْ .

وشكى إليه جماعة من عماله فأمرهم أن يوافوه بالموسم ، فلما حضروا قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أَيُّهَا الرَّعِيَّةُ ، إِنَّا لَنَا عَلَيْكُمْ حُسْنَ النَّصِيحَةِ بِالْغَيْبِ ، وَالْمَعَاوَنَةَ عَلَى الْخَيْرِ ، أَيُّهَا الرُّعَاةُ : إِنَّا لِلرَّعِيَّةِ عَلَيْكُمْ حَقًّا . اَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا حِلْمَ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَلَا أَعَمُّ مِنْ حِلْمِ إِمَامٍ وَرِفْقِهِ ، وَإِنَّهُ لَيْسَ جَهْلٌ أَبْغَضَ إِلَى اللَّهِ وَلَا أَعَمُّ مِنْ جَهْلِ إِمَامٍ وَخُرْقِهِ . اَعْلَمُوا أَنَّ مَنْ يَأْخُذُ بِالْعَافِيَةِ (٢) فَيَمُنْ بَيْنَ ظَهْرِيهِ (٣) يُرْزَقِ الْعَافِيَةَ مِمَّنْ هُوَ دُونَهُ .

وكان إذا بعث أمراء الجيش أوصاهم بتقوى الله ثم قال عند عقد الألوية : باسم الله ، وعلى عون الله ، وامنضوا بتأييد الله والنصر ، ولزوم الحق والصبر ، وقاتلوا في سبيل الله مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . ثُمَّ لَا تَجْبُنُوا عِنْدَ

(١) أي أخيرا .

(٢) العافية : دفاع الله عن المرء . والمعنى في قوله يأخذ بالعافية أن يترك لله حقوقه عند الناس يتولاها جل شأنه .

(٣) تثنية ظهر على القياس ، وقد يقال هو بين ظهرانيهم أو أظهرهم والمراد بينهم .



اللقاء ، ولا تَمْتَلُوا<sup>(١)</sup> عند القُدْرَةِ ، ولا تُسْرِفُوا عند الظهور<sup>(٢)</sup> ، ولا تَنَكَّلُوا<sup>(٣)</sup> عند الجهاد ، ولا تَقْتُلُوا امرأة ولا هَرِمًا ولا وَلِيدًا ، وَتَوَقَّوْا قَتْلَهُمْ إِذَا اتَّقَى الزَّخْفَانَ ، ولا تَغْلُوا عند الغنائم ، وَتَرَهُوا الجهاد عن عَرَضِ الدنْيَا . وَأَبْشِرُوا بِالْأَرْبَاحِ<sup>(٤)</sup> فِي البَيْعِ الَّذِي يَابِعُ بِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

ومن رسائله ما كتبه إلى معاوية عامله على الشام : أما بعد ، فالزَمِ الْحَقَّ يُنْزِلِكَ<sup>✕</sup> الْحَقُّ مَنَازِلَ أَهْلِ الْحَقِّ يَوْمَ لَا يُقْضَى إِلَّا الْحَقُّ ، وَالسَّلَامُ .

✕ ومنها وصيته للخليفة من بعده ، قال ابن عمر : رفع إلى أبي كتابًا ، فقال : إِذَا اجْتَمَعَ النَّاسُ بَعْدِي عَلَى رَجُلٍ ، فَارْفَعْ إِلَيْهِ هَذَا الْكِتَابَ وَأَقْرَأْهُ مِنِّي السَّلَامُ .

أوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله ، وأوصيه بالمهاجرين الأولين الذين أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أَنْ يَعْرِفَ حَقَّهُمْ وَيَحْفَظَ لَهُمْ كِرَامَتَهُمْ ، وَأَوْصِيَهُ بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا الَّذِينَ تَبَوَّءُوا<sup>(٥)</sup> الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً<sup>(٦)</sup> مِمَّا أُوتُوا . إِلَى قَوْلِهِ : الْمُفْلِحُونَ ، أَنْ يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَيَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئَتِهِمْ ، وَأَنْ يُشْرِكُوا فِي الْأَمْرِ ، وَأَوْصِيَهُ بِذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُؤْفَى بِعَهْدِهِمْ ، وَلَا يُكَلَّفُوا فَوْقَ طَاقَتِهِمْ وَأَنْ يُقَاتِلَ مِنْ وَرَائِهِمْ .

(١) التمثيل : التشويه . (٢) الظهور : الغلبة .

(٣) نكل ( كصر وعلم ) نكص وجبن . (٤) الأرباح : جمع ربح .

(٥) تبوءوا الدار : أى سكنوا وتوطنوا المدينة وعطف الإيमान على الدار على معنى وأخلصوا الإيमान كقول الشاعر \* علقها تبنا وماء باردا \* أى وسقيتها ، أو المعنى دار الهجرة ودار الإيमान وتكون أُل قد قامت مقام المضاف إليه فى دار الهجرة ويكون المضاف إليه قد قام مقام المضاف فى دار الإيमान .

(٦) أى شيئًا من حسد وحقد وقيل حاجة بمعنى محتاج إليه : أى ولا يجدون فى أنفسهم طلب محتاج إليه مما أوتى المهاجرون .





وبعد : فرسانه وخطبه وحكمه وكل ما عرف له من قول يتجلى فيه خشية الله والإخلاص له ، والعمل على رضائه ، ثم هو بعد من الجهة اللغوية ، نقي اللفظ ، ساعى الغرض ، لا تكلف فيه ، ولا محاولة للمباهاة به ، أو المساماة بفصاحته ، وذلك شأن رجال هذا العصر لم يستوقفهم اللفظ فيتأثقوا في اختياره ، ولا يشغلهم شيء غير إفهام الخطاب حكمتهم التي كانت ذوب قلوبهم .

### × الشعر في هذا العصر

كان الشعر في الجاهلية سمة العرب التي بها يعرفون ، وهجيراً التي بها يلهجون ، وكان حجتهم على الفضل ، ودليلهم على النبل . وسجل أيامهم المشهورة ، وأعمالهم الماثورة . وكان الفراغ وخلق البال والانطلاق من قيود الدين تجعلهم يهيئون به في كل واد : فمن غزل لا يتحرزون فيه من ذكر الغافلات المقصورات في خدورهن إلى هجاء ومدح (مبناها المبالغة والكذب) كذلك كانت العصبية تسيطر في الشعر على جملة أغراضه ، فهي التي كانت تهيج الفخر والمباهاة ، وتحمل على إثارة الضغائن وتأريث العداوات والتحريض على القتال . حتى كانت الجزيرة العربية تنثورا ينفخ فيه الشعراء ويحضون بمعاولهم نيرانه . ومن هذا نستطيع أن ندرك مقدار حرص القبيلة على أن يكون لها شاعر ينافح عنها ويسجل مفاخرها ، وأنها كانت لاتزال متطامنة منكسة الرأس حتى ينبغ فيها شاعر ، فيتباشر أهلها ، ويأتيها المهتمون بنبوغها .

جاء الإسلام بالجد الذي لم يعرفه العرب (في العمل للدنيا والآخرة) فامتلات أوقاتهم بالمساعي النافعة في تحصيل الدين أو نشر كلمته ، جاء بابطال كثير من أمور الجاهلية . وأولها العصبية التي كانت قاضية على اجتماعاتهم ، مبددة لشملهم ، وكذلك قيدهم بالحدود لا يتعدونها في دين أو أدب ، فحرم عليهم الكذب وحاسبهم على الهمز



والعز. وإشاعة الفاحشة في الناس ، وقذف المحصنات . فكانوا جديرين أن تتعطل آياتهم في الشعر ريثما يصلحون أوتارها . ويغيرون نغمتها . فقد حيل بينهم وبين ما يشتهون من نحوه الجاهلية ، وفخرها الكاذب ، والوقوع في الأعراض ، وذكر العورات ، وتأريث العداوات . لذلك نرى الشعر في بدء هذا العصر قد قترت حركته لبطلان أغراضه القديمة لديهم ، ولما رأوا من بلاغة القرآن الذي حقر في نظرهم بلاغتهم وضائل فصاحتهم . وإن من شعرائهم من وصل به الانبهار من بلاغة القرآن ، والعكوف على تذوقها وتزويد النفس من محاسنها ، أن انقطع عن قول الشعر كلبيد ( وهو من المجلِّين بين شعراء الجاهلية ) ، فلم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً هو :

الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجْلِي حَتَّى أَكْتَسَيْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ سِرّاً

ومن حديث لبيد أن عمر أرسل إلى عامله على البصرة أن سل لبيداً والأغلب ما أحدثنا في الإسلام؟ فقال الأغلب :

أرجزاً سألت أم قصيدا فقد سألت هيناً موجودا

وقال لبيد : قد أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران ، فزاد عمر في عطائه فبلغ به ألفين ، فلما ولى معاوية قال يا أبا عَاقِلٍ : عطاؤك وعطائي واحد ، لأراني إلا سأحطك قال : أو تدعني قليلاً ثم تضمّ عطائي إلى عطائك ، فتأخذ العطاءين جميعاً .

وأما من لم ينقطع منهم عن قول الشعر فقد تركت فيه مفاجأة القرآن أثراً من الضعف جلياً أجمع النقدة للشعر على نفسه وإحساسه ، ومن هؤلاء حسّان بن ثابت الذي كان في إسلامه تامّ الخضوع لأوامر الدين ، فلم يهتج إلا أعداء الإسلام ، ولم يفخر إلا بالمقدار المباح ، ومن الشعراء من أسلم ولكنه كان رقيق الإسلام فلم يتقيد بقيوده ، ولم يتحرّج عن منهياته كأخطيئة فإنه ظلّ يهجو ويشبّ ، ولعله لم يكن يحفل بالاستماع للقرآن كثيراً حتى يتأثر بأدبه وأسلوبه . لذلك ترى شعره في الإسلام بمثابة الجاهلية ، ولقد بلغ من تمسك الخطيئة بجاهليته أن استمرّ يهجو حتى حبسه عمر ابن الخطاب لهجائه للزُّبْرَقان بن بدر ، ثم أحضره لقطع لسانه ، فلم يُنَجِّهِ إلا شفاعة الشفعاء



وتوبته وأخذُه العهد على نفسه ألا يعود إلى هجاء أحد ، فأعفاه عمر من قطع اللسان ،  
واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم . *بعضهم يروي أنه اشترى منه*  
ومن هجا فأخش في هذا العصر غير الخطيئة فحس مثله ، ضابي بن الحارث  
البرُّجُمي ، فإنه كان قد استعار كلباً من بعض بني جرَّول بن نهشل ، فطال مكثه عنده ،  
فلما طلبوه امتنع عليهم ، فعرضوا له وأخذوه منه فغضب ، ورى أمهم بالكلب وقال :

تَجَشَّمْ نحوى وفدُ قرحان شقَّةً      تَظَلَّ بها (الوجناء) وهى حَسِيرُ  
فأردتهم كلباً فراحوا كأنما      حباهم بتاج الهرمزان أميرُ  
وقلدهم مالو رميت مُتالماً      به وهو مُغَبَّرٌ لكان يطيرُ  
فيأرا كلباً إماماً عَرَضَتْ فبألغن      أمامة عنى والأمور تدورُ  
فإنك كلب قد ضريت بما ترى      سميع لما فوق الفراش بصيرُ  
إذا عثنت من آخر الليل دُخنةً      يبيت لها فوق الفراش هريرُ

فاستعدوا عليه عثمان فحبسه وقال : لو أن رسول الله حي لأحسبته نزل فيك قرآن .  
وما رأيت أحدا رمى قوما بكلب قبلك . ومثل هذا قول زهير وقد رمى قوما بمحل إبل *يعني*

حبسوه عنه فقال : *بعضهم يروي أنه اشترى منه*  
ولولا عسبه لرددتموه      وشرٌّ منيحة أير مُعارُ  
إذا طمحت نساؤكمو إليه      أشظُّ كأنه مسدُّ مُغارُ



ولا يدورنَّ بخلد أن إهمال النبي لإقامة وزن الشعر ، وقول الله تعالى :  
« والشُعراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ » قد كان لهما أثر في هذه الفترة التي حدثت في الشعر  
أول هذا العصر ، فقد عرفت سببها كما عرفت أن النبي وإن لم يقم وزن الشعر كان  
يحسن استماعه ، ويعجب به ، ويثيب على قوله ، ويدعو لقائله ، وأنه القائل : « إِنَّ  
مِنَ الشُّعْرِ لِحِكْمَةً » ، وهؤلاء خلفاؤه ومتبعو سنته لهم من الشعر أقوال مأثورة ،



وطالما دعوا إلى العناية به ، وحملوا على الحرص عليه ، وأخذ النشء من أولاد العرب بأدبه ، فهذا عمر بن الخطاب يقول : « رَوْوُوا أَوْلَادَكُمْ مَا سَارَ مِنَ الْمَثَلِ وَحَسَنَ مِنَ الشَّعْرِ » ، وكتب إلى أبي موسى الأشعري : « مُرُّ مَنْ قَبْلَكَ بِتَعَلُّمِ الشَّعْرِ ، فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى مَعَالَى الْأَخْلَاقِ ، وَصَوَابِ الرَّأْيِ ، وَمَعْرِفَةِ الْأَنْسَابِ » ، ويروى عن السيدة عائشة أنها كانت تحفظ جميع شعر لبيد ، وكانت تقول «رَوْوُوا أَوْلَادَكُمْ الشَّعْرَ تَعْدُبُ أَسْتِهِمْ» . ولم يكونوا يحرصون على الشعر ويدعون إليه لحُضِّ اللّهُو به ولما فيه من تأديب للنفس فحسب . بل لقد كانوا يجدون تعلمه ضرورياً لفهم القرآن . فقد قال ابن عباس : « إِذَا قَرَأْتُمْ شَيْئًا فِي كِتَابِ اللَّهِ فَلَمْ تَعْرِفُوهُ فَاطْلُبُوهُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ » .



تقول في لفظ الشعر وأسلوبه ما قلناه في الكتابة والخطابة ، من هجر الحوشى ، وعذوبة اللفظ ، وحسن السبك ، وإذا كان فرق بين النثر والشعر في شيء من هذا ، فهو الفرق بين البديهة والروية ، لأن الخطيب منهم لم يكن في غالب أمره يحفل بإعداد العبارة لخطابته ، وكذلك المترسل يكتب أو يملى على كاتبه من غير تخيير للفظ ، أما الشعر فإنه غالباً يهبأ قبل إلقائه ، فذلك ترى فيه دائماً أثر العناية وسيا التنوُّق .

ونستطيع أن ندلك على بعض أمثلة كان الشعراء فيها متأثرين أسلوب القرآن ، سالكين نهجه ، فهذا حسان يقول في الردّ على أبي سفيان حين هجا النبيّ :

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفٍّ      فَشَرُّ كَمَا خَيْرِ كَمَا الْفِدَاءُ

فإنه ينظر إلى قوله تعالى : « وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » .

ويقول في رثاء النبيّ :

عَزِيزٌ عَلَيْهِ أَنْ يَحِيدُوا عَنِ الْهُدَى      حَرِيصٌ عَلَىٰ أَنْ يَسْتَقِيمُوا وَيَهْتَدُوا



فهو من قول الله تعالى : « عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » ، وقوله :

وَهَلْ يَسْتَوِي ضَلَالٌ قَوْمٍ تَسَفَّهُوا عَمَى وَهُدَاةٌ يَهْتَدُونَ بِمَهْتَدِي

واستعمال هل يستوى أسلوب تكرر في القرآن كثيراً .

ويقول النابغة الجعدي :

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا شَرِيكَ لَهُ مَنْ لَمْ يَقْلُهَا فَنَفَسَهُ ظَلَمًا  
الْمَوْجِ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَفِي اللَّيْلِ نَهَارًا يُفْرِجُ الظُّلَمَا

نقل ألقاظ البيتين من القرآن كما يعرف ذلك حفظاًه .

(ويقول معن بن أوس) :

فَمَا زِلْتُ فِي لَيْلِي لَهُ وَتَعْطِي عَلَيْهِ كَمَا تَحْنُو عَلَى الْوَالِدِ الْأُمِّ  
وَخَفِضَ لَهُ مِنِّي الْجَنَاحَ تَأَلَّفَا لَتُدْنِيهِ مِنِّي الْقَرَابَةَ وَالرَّحْمُ

فهذا الشعر من قوله تعالى : « وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلَّةِ مِنَ الرَّحْمَةِ » .



ولقد زاد الإسلام في أغراض الشعر ونقص . فأما الذي زاده فهو الإكثار من الحكمة وضرب المثل الكثرة ماورد من هذين في القرآن وللحفاة التي صار عليها عقل العربي من دراسة الدين . وللتجارب التي استفادها في حياته العملية الناشطة . كل أولئك أجرى لسانه بالحكمة وأحضر أمامها صورة المثل .

ومما قاله شعراء هذا العصر من ذلك قول الخطيئة :

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَنْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

وقول حسان :

وَإِنْ أَمْرًا يُمَسِي وَيُضْمِحُ سَالِمًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَا جَنَى لَسَعِيدُ



رُبَّ حِلْمٍ أَضَاعَهُ عَدَمُ الْمَا لِي وَجَهْلٍ عَطَى عَلَيْهِ النَّعِيمُ  
وقول كعب بن زهير :

مَقَالَةُ السُّوَاءِ إِلَى أَهْلِهَا أَسْرَعُ مِنْ مُنْحَدِرِ سَائِلِهَا  
وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذِمَّتِهِ ذَمُّهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ  
وقول النابغة الجعدي :

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكْدَرَا (١)  
وَلَا خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَلِيمٌ إِذَا مَا أُوْرِدَ الْأَمْرَ أُصْدَرَا (٢)  
كذلك زاد في الشعر حديث الورع وتقوى الله ، والتزهيد في الدنيا ، وذكر البعث  
والجنة والنار .

يقول بجير أخو كعب بن زهير :

إِلَى اللَّهِ (لَا الْعُزْمَى وَلَا الْأَلَاتِ) وَخَدَهُ لَدَى يَوْمٍ لَا يَنْجُو وَلَيْسَ بِمُفْلِتٍ  
فَدِينُ زُهَيْرٍ (وَهُوَ لَا شَيْءٌ) بَاطِلٌ  
وَيَقُولُ أَبُو ذُوَيْبٍ الْهُدَلِيُّ :

أَبَا عُبَيْدٍ رَفِيعَ الْكِتَابِ وَأَقْتَرَبَ الْمَوْعِدُ وَالْحِسَابُ

وتلك هي مادة علم العربي التي أفادها من الإسلام .

ولقد بان في شعر هذا العصر فهم الشعراء لحقائق كانوا يسيئون فهمها ، فأدركوا  
حقيقة القضاء والقدر ، وأن الآجال محدودة ، لا يستقدم المرء ساعة ولا يستأخر ، ولو كان  
في برج مشيد .

(١) البوادر : جمع بادرة وهي ما ييدر من الغضب والحدة .

(٢) أورد الإبل أقي بها الماء ، وأصدرها : أعادها بعد الشرب .



وهذا قول زهير بن أبي سلمى على كونه من أعقل العرب ومع شهادة النبي له بأن  
حكيمته من كلام النبوة يقول :

رَأَيْتُ الْمَنَائِيَا خَبَطَ عَشْوَاءَ مَنْ تُصِبُ تَمَّتْهُ وَمَنْ تَخَطَّى يُعَمَّرَ فِيهِمْ

ويقول حسان :

لَوْ كُنْتُ أَعْجَبُ مِنْ شَيْءٍ لَأَعْجَبَنِي سَعَى الْفَتَى وَهُوَ مَخْبُوءٌ لَهُ الْقَدَرُ  
يَسَعَى الْفَتَى لِأُمُورٍ لَيْسَ يُدْرِكُهَا فَالْنَفْسُ وَاحِدَةٌ وَالْهَمُّ مُنْتَشِرٌ (١)  
وَالْمَرْءُ مَا عَاشَ مَحْدُودٌ لَهُ أَجَلٌ لَا يَنْتَهِي الْعُمُرُ حَتَّى يَنْتَهِيَ الْأَثَرُ (٢)

أما ما نقص من الأغراض فهو ما أبطله الإسلام من وصف الحمر لأنه حرم شربها وفي  
وصفها دعوة إليها . كذلك الغزل الفاحش الذي يتناول اسم محبوبه بذاتها ويصف  
لقاءها والخلوة بها مما لا يبيحه الشارع إلا في زواج شرعي .

وقد ورد في كتاب : [طبقات الشعراء] أن كعب بن الأشرف من شعراء المدينة  
اليهود شبب بنساء النبي والمسلمين ورثا قتلى بدر من الكفار ، فأمر رسول الله ، محمد  
ابن مسleme ورهطاً من الأنصار أن يقتلوه ففعلوا .

لذلك ترى حساناً وكعب بن زهير وغيرها أشدوا النبي والخلفاء غزلاً ، ولكنه  
عفيف ليس فيه قصد إلى امرأة بعينها حتى يكون ذلك قذفا لها . ثم هو بعد خالٍ من  
كل ما ينكره الدين ، وليس فيه إلا وصف للخلق ، أو جمال الأعضاء الظاهرة التي  
لا تحرم رؤيتها :

قال كعب بن زهير :

بَانَتْ سَعَادٌ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتَّبِعُ مَتِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُبَدِّ مَكْبُولٌ (٣)

(١) متفرق .

(٢) الأثر من كل شيء : بقيته . والمعنى لا يموت المرء حتى تنتهي كل بقية من عمره .

(٣) تبلة الحب : ذهب بقلبه . وتامت المرأة قلب الرجل وتيمنته : عبدته وذالته ، كبله : قيده .



وَمَا سَعَادَ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا  
 كَهَيْفَاءَ مُقْبِلَةً عَجْزَاءَ مُدْبِرَةٍ  
 تَجْلُو عَوَازِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمَتْ  
 إِخَالَهَا خِصْلَةً لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ  
 فَمَا تَدْرُومُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا  
 وَلَا تَمْسُكُ بِالْوَعْدِ الَّذِي زَعَمْتَ  
 فَلَا يَغْرُنُكَ مَا مَدَّتْ وَمَا وَعَدَتْ  
 كَانَتْ مَوَاعِيدُ عُرْقُوبٍ لَهَا مَثَلًا  
 إِلَّا أَعْنُ غَضِيضُ الطَّرْفِ مَكْحُولٌ (١)  
 لَا يُسْتَكْبَى قَصْرُ مِنْهَا وَلَا طَوْلُ  
 كَأَنَّهُ مُهْلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولٌ (٢)  
 مَوْعُودَهَا أَوْ لَوْ أَنَّ النَّصْحَ مَقْبُولُ  
 كَمَا تَلَوْنُ فِي أَثْوَابِهَا الْغَوْلُ  
 إِلَّا كَمَا يُمَسِّكُ الْمَاءَ الْغَرَابِيلُ  
 إِنَّ الْأَمَانِيَّ وَالْأَخْلَامَ تَضْلِيلُ  
 وَمَا مَوَاعِيدُهَا إِلَّا الْأَبَاطِيلُ (٣)

بصديقه  
 المذموم  
 دجسرد  
 دجسرد

ويسمى الشاعر الذي شهد عصرى الجاهلية والإسلام مخضرمًا ( إذا كان شعره  
 قد تأثر بالإسلام ) .

فخران بن ثابت وكعب بن زهير ، ومعن بن أوس مخضرمون لظهور أثر الإسلام  
 في قولهم .

ولكن لبيدًا والخنساء غير مخضرمين لامتناع الأول من القول في الإسلام ولبقاء  
 صبغة الجاهلية في شعر الخنساء لأنها لم تقل في غير الفخر والثناء قبل الإسلام وبعده .  
 وكلمة مخضرم من الألفاظ التي استعملها الإسلام هذا الاستعمال ، وأصلها على رأى  
 الأخفش من قولهم ماء خضرم : أى متناه في السعة والكثرة ، فنه سمى الذى شهد  
 الجاهلية والإسلام مخضرمًا كأنه استوفى الأمرين . وهى فى رأى الأصمعى من الخضرمة  
 أى قطع آذان الإبل فى موضع غير الذى كانت تقطع منه فى الجاهلية ليكون ذلك  
 علامة إسلامهم ، فسمى كل من أدرك العصرين مخضرمًا ، ثم خص اللفظ بالشعراء  
 أو هى من خضرم عطيته إذا قطعها ، فسمى الشعراء مخضرمين لأن مرتبتهم فى الشعر

- (١) الأغن : الطي ، لأنه يخرج صوته من خيشومه وتلك هى الغنة . غضبيض الطرف : فاطر  
 النظر ، كل العين ( كمنع ونصر ) وكحلت العين ( كفرح ) اسودت منابت أهدابها خلقة .  
 (٢) العارض : السن فى مقدم الفم . الظلم : بريق الأسنان .  
 (٣) عرقوب : رجل من العالقي يضرب مثلاً فى خلف الوعد .







حتى أتسلى عن مصيبتى فلم يجد الربيع فيهم أحداً يحفظها ، فعاد إليه ، فقال المنصور :  
والله لمصيبتى بأهل بيتى لا يكون فيهم أحد يحفظ هذه القصيدة لقلّة رغبتهم فى الأدب  
أعظم من مصيبتى بابى ، ثم قال : انظر ، هل فى القواد أو العوامّ من يحفظها ؟ فوجد  
شيخاً مؤدّباً يحفظها ، فجاء به ، فلما قال : ( وَالذَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مَنْ يَجْزَعُ ) . قال  
صدق والله . أنشدنى هذا الشطر مائة مرّة ، وما زال الرجل ينشده حتى شفى نفسه  
وأذهب منه حزنه .

ومن شهرتها : أن عبد الله بن عباس استأذن على معاوية فى مرض موته ليعوده ،  
فأمر معاوية أن يُقعد ويُسنَدَ ، وقال : ائذّنوا له ليسلم قائماً وينصرف ، فلما سلم عليه  
وولى أنشد معاوية قول الهذلى :

وَتَجَلَّى لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمْ      أَيْ رَبِّبِ الذَّهْرِ لَا أَتَضَعُ  
فأجابه ابن عباس على القور :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا      أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

فما خرج من الدار حتى سمع الناعية عليه .

وفى هذه القصيدة وصف أبو ذؤيب حاله بعد موت أبنائه ، ثم وصف الحمار  
الوحشى وطيب عيشه ، وتباعده عن كثير من الآفات بشديد نفاره ، وكثير حذاره  
وبعد مراتعه ، ثم هو مع ذلك إلى الفناء ، ثم وصف ثور الوحش ، وأن مصيره إلى  
الموت ، ثم الكمى الذى ضاعف الدروع ، واستلأم فى الحديد ، ثم نازل القرن على  
غاية من الاستعداد والحذر ، فلم ينجبه ذلك من الموت .

مختار شعره

أول قصيدته العينية :

أَمِنَ الْمُنُونِ وَرَيْبَهَا تَتَوَجَّعُ      وَالذَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبٍ مَنْ يَجْزَعُ<sup>(١)</sup>

(١) يقول الأخفش : المنون جمع لاواحد له ، ويقول الأصمعي : واحد لا جمع له ، وهو



قَالَتْ أُمِيمَةٌ مَا لِحِسْمِكَ شَاحِبًا  
 أَمْ مَا لِحِسْمِكَ لَا يَلَامُ مُضْجَعًا  
 مُنْذُ ابْتَدَلْتَ وَمِثْلُ مَالِكَ يَنْفَعُ (١)  
 إِلَّا أَقْضَى عَلَيْهِ ذَلِكَ الْمُضْجَعُ (٢)  
 فَأَجَبْتَهَا أَنْ مَا لِحِسْمِي أَنَّهُ  
 أَوْدَى بَنِي فَأَعْتَبُونِي حَسْرَةً  
 أَوْدَى بَنِي فَأَعْتَبُونِي حَسْرَةً  
 سَبَقُوا هَوَىَّ وَأَعْتَقُوا لِهَوَاهُمْ  
 فَغَبَرْتُ بَعْدَهُمْ بِعَيْشٍ نَاصِبٍ  
 وَلَقَدْ حَرَصْتُ بِأَنْ أَدْفِعَ عَنْهُمْ  
 وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا  
 فَالْعَيْنُ بَعْدَهُمْ كَأَنَّ جُفُونَهَا  
 وَتَجَلَّدِي لِلشَّامِتِينَ أَرِيهِمْ  
 حَتَّى كَأَنِّي لِلْحَوَادِثِ مَرَوَةٌ  
 لَا بُدَّ مِنْ تَلْفٍ مُقِيمٍ فَأَنْتَظِرُ  
 وَلَقَدْ أَرَى أَنَّ الْبُكَاءَ سَفَاهَةٌ  
 بَعْدَ الرُّفَادِ وَعَبْرَةٌ مَا تُقْلَعُ  
 فَتُخْرَمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَضْرَعٌ (٤)  
 وَإِخَالُ أَنِّي لِأَحِقُّ مُسْتَتَبِعٌ (٥)  
 وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَقْبَلَتْ لَا تُدْفِعُ  
 أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ  
 سَمِلْتُ بِشَوْكِ فَهَى عَوْرًا تَدْمَعُ (٦)  
 أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ  
 بَصْفًا الْمَشْقَرَّ كُلَّ يَوْمٍ تُرْعُ (٧)  
 أَبَارِضِ قَوْمِكَ أَمْ بِأَحْرَى الْمُضْجَعِ  
 وَلَسَوْفَ يُوَلِّعُ بِالْبَيْكَا مَنْ يُفْجَعُ

يذكر ويؤنث ، وسمى الموت منونا ، لأنه بمنّ المرء : أى ينقصه . ريب المنون : ما يأتى به من الفواجع . الإعتاب : فعل ما يرضى العاتب .

(١) ابتدل الرجل (بالبناء للفاعل) : عمل عمله بنفسه . وقوله : ومثل مالك ينفع أى فى شراء العبيد وقيامهم بالعمل بذلك .

(٢) أقضى عليه المضجع : أى امتلاء قضيباً (حصى) والمراد أنه أرق ولم يهدأ .

(٣) أن هنا مخففة من الثقيلة ، أى أجبتها أن الذى حصل لحسمى أن أولادى هلكوا . وتركونى

(٤) أصل هوى هوى هواى (لغة هذيل تقلب ألف المقصور فى هذه الحالة ياء وتدغمها فى ياء التكلم)

أعنتوا : ساروا سيرا فسيحاً سريعاً ، والمراد أنهم ماتوا فى مستقبل العمر فوصلوا إلى الغاية قبل غيرهم . تخرموا : أخذوا واحداً بعد واحد .

(٥) غبرت : بقيت . مستتبع : لاحق ، من قولك : استتبعنى فلان ، أى جعلنى أتبعه .

(٦) ويروى كأن حدائقها وذلك مناسب لقوله سملت : أى فقتت وعورا مقصور عوراء .

(٧) المروة : القطعة من أصلب الحجارة . الصفاً : جمع صفاة ، وهى الحجر الصلد الضخم . المشقر :

حصن بالبحرين .



وَلَتَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ يَوْمٌ مَرَّةً      يُبْكِي عَلَيْكَ مُقَنَعًا لَا تَسْمَعُ  
وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَعِبَتْهَا      وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ  
كَمْ مِنْ جَمِيعِ الشَّمْلِ مُلْتَمِيِ الْهُوَى      كَانُوا بَعِيثٍ نَاعِمٍ فَتَصَدَّعُوا  
فَلَيْتَنَ بِهِمْ فِجَعُ الزَّمَانُ وَرَيْبُهُ      إِنِّي بِأَهْلِ مَوَدَّتِي لَمُفَجَّعٌ  
وَالدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ      جَوْنُ السَّرَاةِ لَهُ جَدَائِدُ أَرْبَعٌ (١)  
أَكَلَ الْجَمِيمَ وَطَاوَعْتُهُ سَمَحَجٌ      مِثْلُ الْقِنَاةِ وَأَزَعَلْتُهُ الْأَمْرُعُ (٢)  
وَالدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ      شَبَّ أَفْرَزْتُهُ الْكِلَابَ مَرْوَعٌ (٣)  
شَغَفَ الْكِلَابُ الضَارِيَاتِ فَوَادِهِ      فَإِذَا يَرَى الصُّبْحَ الْمَصْدَقَ يَفْزَعُ  
وَالدَّهْرُ لَا يَبْقَى عَلَى حَدَثَانِهِ      مُسْتَشْعِرُ حَلْقِ الْحَدِيدِ مَقْنَعٌ  
حَمَيْتَ عَلَيْهِ الدَّرْعَ حَتَّى وَجْهَهُ      مِنْ حَرِّهَا يَوْمَ الْكَرِيمَةِ أَسْفَعُ

وقال في موت النبي :

كَسَفَتْ لِمَضْرَعِهِ التُّجُومُ وَبَدَّرُهَا      وَتَضَعَضَتْ أَرْكَانُ بَطْنِ الْأَبْطَحِ  
وَتَزَعَزَعَتْ أَجْبَالُ يَثْرِبَ كُلِّهَا      وَنَحْيِلُهَا لِحُلُولِ خَطْبِ مُفَدَحٍ (٤)

### النابغة الجعدى

[ اسمه ونسبه ] : هو حسان بن قيس بن عبد الله الجعدى العامري ، ويكنى أبا ليلى ويلقب بالنابغة ، لأنه قال الشعر في الجاهلية ، ثم أجبلى حينئذ . قيل ثلاثين سنة ثم نبغ فيه في الإسلام كما ذكر حماد الراوية .

- (١) جون السراة : أسود الظهر . جدائد : آئن جافة التندى .
- (٢) الجميم : النبات الطويل . السمحج : الأتان الطويلة . أزعلته : نشطته . الأمرع : جمع مرع وهو المكان الحصب .
- (٣) الشيب : الثور المسن . أفزته : استخففته وأفزته .
- (٤) يقال أفذح الرجل الأمرع إذا وجدته فادحا .



[ حياته ] : نشأ في الجاهلية ، وهو أقدم من النابغة الذبياني ، لأنه أدرك المنذر ابن مخرق ، ولم يدرك النابغة الذبياني إلا ابنه النعمان وفي ذلك يقول الجعدي :

تَذَكَّرْتُ شَيْئًا قَدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ      وَمِنْ عَادَةِ الْحَزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا  
نَدَامَايَ عِنْدَ الْمُنْذِرِ بْنِ مَحْرَقٍ      أَرَى الْيَوْمَ مِنْهُمْ ظَاهِرَ الْأَرْضِ مُقْفَرًا<sup>(١)</sup>  
كُهُولٌ وَفَتَيَانٌ كَأَنَّ وَجُوهَهُمْ      دَنَانِيرٌ مِمَّا سِيقَ فِي أَرْضٍ قَيْصَرَا

وكان في جاهليته قد حرّم الخمر على نفسه ، وجر الأوثان ، ووحد الله وعبدته على دين إبراهيم . ولما جاء الإسلام وفد على النبي فأسلم وأنشده ، فاستحسن شعره ودعاه .  
وقد وفد على عمر فأشده :

لَبِثْتُ أَنْسَاءً وَأَفْنَيْتُهُمْ      وَأَفْنَيْتُ بَعْدَ أَنْسَاءِ أَنْسَاءَ  
ثَلَاثَةَ أَهْلِينَ أَفْنَيْتُهُمْ      وَكَانَ الْإِلَهِ هُوَ الْمُسْتَأْسَا<sup>(٢)</sup>

فقال له عمر : فكم لبثت في كلّ أهل ؟ قال : ستين سنة . وإذا علمنا أنه مات في خلافة عبد الملك صحّ ما ذكره ابن قتيبة من أنه عاش مائتين وعشرين سنة ، إذ المدّة بين عمر وخلافة عبد الملك تتم هذا المقدار فيكون قد أدرك ثلاثة عصور .

ولقد كانت ضلع الجعدي مع عليّ ، فحارب معه في صفين ، وأعانه بلسانه ، ونال من معاوية . فلما صار الأمر إليه خشي لسانه ، فلم يعاقبه علي ما كان منه ورد إليه ما كان بدأ بأخذه منه من مال وولد وذلك على معاوية وإنشاده :

فَإِنْ تَأْخُذُوا أَهْلِي وَمَالِي بِظَنَّةٍ      فَإِنِّي لِحَرَابِ الرَّجَالِ مُجْرَبٌ<sup>(٣)</sup>  
صَبُورٌ عَلَى مَا يَكْرَهُ الرَّءُ كَلَّهُ      سِوَى الظُّلْمِ إِنِّي إِنْ ظَلَمْتُ سَأَغْضَبُ

وقد شايح بعد ذلك ابن الزبير حين خروجه على يزيد وعروان وعبد الملك .

(١) الندمان : يطلق على الأسيف كالندام وعلى النديم كالندام وجمعه فيهما ندماي .

(٢) المستأس : المستعاض من الأوس ، وهو العطية عوضا .

(٣) حربته : سلبه وحراب صيغة مبالغة .



وقد مات بأصبهان في رحلته إلى الأمصار المفتوحة بعد ما عمر ما عمر .

[ شعره ] : لم يعرف عنه أنه كان يهذب شعره في جاهلية ولا إسلام بل كان يقوله عفو الخاطر لذلك كان منه الجيد والردىء والمتوسط حتى قال الأصمعي : ( وكان معجباً به لذلك ) عنده مطرف<sup>(١)</sup> بالآف . وخمار بواف<sup>(٢)</sup> . فخالف بذلك زهيراً والحطيئة ، ووافق الذبياني الذي كان مثله لا ينتظر في شعره حتى يسمعه من الغنيات فيدرك ما فيه من إقواء<sup>(٣)</sup> وغيره فيصلحه .

وقد ذكروا أنه كان مغلباً ما هاجى أحداً ولا نافرته إلا غلب . هاجى أوس ابن مغراء . وكعب بن جعيل . وليلى الأخيلية فغلبوه جميعاً .

ونرى أن السبب في ذلك ما كان في طبعه من كرم وإسجاح . يتجلى ذلك في ميله إلى التوحيد أيام الجاهلية وإطلاقه عنان الشعر لا يتكلف له ، فلم يستطع مجازاة من غلب على أنفسهم الشر ، واشتعلت صدورهم بالأحقاد ، ولقد كان إذا عرف أن منافره أربى عليه أسرع بالاعتراف بالمزينة ، لا يكابر ولا يمارى ، فإنه سمع قول أوس ابن مغراء في منافرته :

لَعَمْرُكَ مَا تَبَلَى سَرَابِيلُ عَامِرٍ  
مِنَ اللُّؤْمِ مَا دَامَتْ عَلَيْهَا جُلُودُهَا  
فقال : لقد غلب أوس .

ولقد أجاد في الفخر والثناء والهجاء والمدح ووصف الخيل . وكان أحد ثلاثة أجادوا وصفها وهم : طفيل الغنوى ، وأبو داود ، والنايفة الجعدى .

(١) الطرف (مثلة الميم) : ثوب من خز مربع ذو أعلام .

(٢) لوافي : هو الدرهم قدر درهم وثلث .

(٣) هو اختلاف حركة الروى المطلق بالكسر والضم مثل قول حسان :

لا بأس بالقوم من طول ومن قصر  
جسم البغال وأحلام العصافير  
كانهم قصب جفت أسافله  
مثقب نفخت فيه الأعاصير



شعره :

لعل أشرف شعره قصيدته التي مدح بها رسول الله ، وهي طويلة تبلغ مائتي بيت :  
 خَلِيلِيْ غُوجَا سَاعَةً وَهَجْرًا      وَلَوْ مَا عَلَيَّ مَا أَحَدَتْ الدَّهْرُ أَوْ ذَرًّا (١)  
 وَلَا تَجْرَعَا إِنَّ الْحَيَاةَ ذَمِيمَةٌ      فَخَفَا لِرَوَعَاتِ الْحَوَادِثِ أَوْ قِرًّا (٢)  
 وَإِنْ جَاءَ أَمْرٌ لَا تَطِيْقَانِ دَفْعَهُ      فَلَا تَجْرَعَا مِمَّا قَضَى اللهُ وَاصْبِرَا  
 أَلَمْ تَرَيَا أَنَّ الْمَلَامَةَ نَفْعُهَا      قَلِيلٌ إِذَا مَا الشَّيْءُ وَلَى وَأَدْبِرَا  
 تَهِيْبُ الْبُكَاءِ وَالنَّدَامَةُ شَمٌّ لَا      تُغَيِّرُ شَيْئًا غَيْرَ مَا كَانَ قُدْرًا (٣)



أَتَيْتُ رَسُوْلَ اللهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى      وَيَتْلُو كِتَابًا كَالْمَجْرَةِ نَيْرًا  
 أَقِيْمُ عَلَى التَّقْوَى وَأَرْضِيْ بِفَعْلِهَا      وَكُنْتُ مِنَ النَّارِ الْمَخُوفَةِ أَحْذَرًا (٤)  
 خَلِيلِيْ قَدْ لَاقَيْتُ مَا لَمْ تَلَاقِيَا      وَسَيَّرْتُ فِي الْأَحْيَاءِ مَا لَمْ تُسَيِّرَا  
 تَذَكَّرْتُ وَالذِّكْرَى تَهِيْبُ لَذِي الْهُوَى      وَمِنْ حَاجَةِ الْمَحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا

ومنها في الفخر :

وَنُنْكَرُ يَوْمَ الرُّوعِ أَلْوَانَ خَيْلِنَا      مِنْ الطَّعْنِ حَتَّى نَحْسَبُ الْجَوْنَ أَشْقَرًا (٥)  
 وَنَحْنُ أَنْاسٌ لَا نَعُوْدُ خَيْلِنَا      إِذَا مَا التَّقِيْنَا أَنْ تَحْمِيْدَ وَتَنْفِرَا  
 وَمَا كَانَ مَعْرُوفًا لَنَا أَنْ نَرُدَّهَا      صَاحًا وَلَا مُسْتَنْكَرًا أَنْ تُعْقِرَا (٦)

- (١) تهجر : سكن وقت الهجرة : والمراد هنا مجرد اللبث .  
 (٢) قر بالكسر أمر من وقر (كوعد) بمعنى رزن وبالفتح أمر من قر (كمر) وخفت بحذف  
 إحدى الراءين وبهما قرى قوله تعالى : « وَقُرْآنٌ فِي بُيُوتِكُنَّ » .  
 (٣) لا يصح المعنى إلا إذا فهم من تغير معنى تحدث .  
 (٤) أحذر : تفضيل من حذر .  
 (٥) تنكر : نجهل . الجون هنا الأبيض . أشقر : أحمر .  
 (٦) المفرد صحيح وصاحح (بالفتح) والجمع صحاح (بالكسر) . العقر : ضرب قوائم الدابة لتمنع عن  
 الحركة مقدمة لذبحها . فارادة معنى الذبح من العقر مجاز .



بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَسَنَاوُنَا وَإِنَّا لَنَرُجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا

فقال له النبي: فأين المظهر يا أبا ليلى؟ فقال الجنة. قال له النبي: إن شاء الله.

ومنها في الحكم:

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا

وَلَا خَيْرَ فِي جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَلِيمٌ إِذَا مَا أُوْرَدَ الْأَمْرَ أَصْدَرَا

فقال له النبي: لا يفضض الله فاك، فأنت عليه مائة سنة ولم تسقط له سن، ثم

كان إذا سقطت له سن نبتت غيرها، وكان فوه يتلأأ ويبرق.

ومن حكمه أيضاً:

المرء يهوى أن يعيش وطول عيش قد يضره

وتتأبِعُ الأيام حتى ما يرى شيئاً يسره

تغنى بشاشته ويبقى من حلو العيش مره

كم شامت بي إن هلكت وقائل لله دره

## معن بن أوس

[ اسمه ونسبه ] : هو معن بن أوس بن نصر بن زياد ينتمي نسبه إلى مزينة

بنت كلب بن دبرة .

[ حياته ] : عاش بدويا أيام جاهليته وإسلامه ، ووفد على عمر بن الخطاب في

خلافته مستعيماً به في بعض شأنه ، وخطبه بقصيدته التي أولها :

تَأْوَبُهُ طَيْفٌ بِذَاتِ الْجَرَاثِمِ فَنَامَ رَفِيقَاهُ وَلَيْسَ بِنَاعِمِ

ورحل في بعض أيامه إلى البصرة ليمتار منها ويبيع إبلاله ، فتزوج امرأة ذات جمال

ويسار ، وأقام معها حولا ، ثم حن إلى موطنه ، فأذنت له أن يقيم سنة يصلح فيها من



شأنه ويدبر ماله ، فلم يعد بعد العام ، ثم خرجت حاجة فعثرت به في الطريق ، وقد  
أضلَّ إبلا له ، وحملها على القمام بوطنه فلم تقبل ، فطلقها وندم ، فقال :  
فَقَوْلًا لِلْيَلِي هَلْ تَعُوِّضُ نَادِمًا لَهُ رَجْعَةٌ قَارَ الطَّلَاقَ مُمَازِحًا  
وقد كفَّ بصره في آخر حياته .

منزلته في الشعر :

كان معاوية يفضل مزينة في الشعر ويقول : كان أشعر أهل الجاهلية منهم ، وهو  
زهير ، وأشعر أهل الإسلام منهم ، وهما كعب ابنه ومعن بن أوس .

وقد شهد له بالسبق عبد الملك بن مروان حين كان عنده عدّة من أهل بيته  
وولده ، فقال : ليقبل كلُّ منكم أحسن شعر سمع به ، فذكروا لامرئ القيس والأعشى  
وطرفة فأكثروا حتى أتوا على محاسن ما قالوا ، فقال عبد الملك أشعرهم الذي يقول :

وَذِي رَحِمٍ قَلَّمْتُ أَظْفَارَ ضِعْفِهِ بِجِلْمِي عَنْهُ وَهُوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمٌ (١)

قالوا فمن قائلها ؟ قال معن بن أوس :

وقد حضر مرّيد البصرة وأنشد فيه ، فرّبه الفرزدق وهو بالمرّيد ، فقال : يامعن ،

من القائل :

لَعَمْرُكَ مَا مَزِينَةٌ رَهْطُ مَعْنٍ بِأَخْفَافٍ يَطَّانٍ وَلَا سَنَاْمٍ (٢)

فقال معن : أتعرف يا فرزدق الذي يقول :

لَعَمْرُكَ مَا تَمِيمٌ أَهْلُ فُلْجٍ بِأُذْرَافِ الْمُلُوكِ وَلَا كِرَامٍ (٣)

قال الفرزدق : حسبك أنا جرّبتك . قال قد جرّبت وأنت أعلم ، فانصرف وتركه .

(١) الرحم : القرابة : الأظفار : جمع ظفر بضمّين أو ضم فسكون ، وأما كسر الظاء مع  
سكون الفاء فلغة شاذة .

(٢) أى ليس لهم صفة الأخفاف في الدوس ولا شرف الأسمنة في الارتفاع .

(٣) الأذراف : جمع ردف وهو الرديف الذي يكون خلف الراكب على دابة واحدة .



وقد تجلت في شعر معن عبارة رصينة وقول جزل في حكمته البارعة ، ومدحه ،  
وغرره ، ومجائه .

### مختار شعره

قال في صفة ابن عمه :

وَذِي رَحِمٍ قَلَّمْتُ أَظْفَارَ ضِعْفِهِ      بِحِلْمِي عَنْهُ وَهُوَ لَيْسَ لَهُ حِلْمٌ  
يُحَاوِلُ رَعْمِي لَا يُحَاوِلُ غَيْرَهُ      وَكَأَمُوتٍ عِنْدِي أَنْ يَحِلَّ بِهِ الرِّغْمُ (١)  
فَإِنْ أَعْفُ عَنْهُ أُغْضِ عَيْنًا عَلَى قَدِّي      وَلَيْسَ لَهُ بِالصَّفْحِ عَنْ ذَنْبِهِ عِلْمٌ (٢)  
وَإِنْ أَنْتَصِرَ مِنْهُ أَكُنْ مِثْلَ رَأْسِي      سِهَامَ عَدُوٍّ يُسْتَهَاضُ بِهَا الْعِظْمُ (٣)  
صَبَرْتُ عَلَى مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ      وَمَا تَسْتَوِي حَرْبُ الْأَقْرَابِ وَالسَّلْمُ  
وَبَادَرْتُ مِنْهُ النَّأْيَ وَالْمَرَّةَ قَادِرٌ      عَلَى سَهْمِهِ مَا دَامَ فِي كَفِّهِ السَّهْمُ (٤)  
وَيَشْتُمُ عِرْضِي فِي الْمَغِيبِ جَاهِدًا      وَلَيْسَ لَهُ عِنْدِي هَوَانٌ وَلَا شَتْمٌ  
إِذَا سُمِّتُهُ وَصَلَّ الْقُرَابَةَ سَامِنِي      قَطِيعَتَهَا تِلْكَ السَّفَاهَةُ وَالْإِثْمُ (٥)  
وَإِنْ أَدْعُهُ لِلنِّصْفِ يَأْبَ وَيَعْصِنِي      وَيَدْعُو لِحُكْمِي جَائِرٌ غَيْرُهُ الْحُكْمُ (٦)  
فَلَوْلَا اتِّقَاءُ اللَّهِ وَالرَّحِمِ الَّتِي      رِعَايَتُهَا حَقٌّ وَتَعْطِيلُهَا ظُلْمٌ  
إِذَنْ لَعَلَّاهُ بَارِقِي وَخَطْمَتُهُ      بَوَسْمِ شَنَارٍ لَا يَشَاكُهُ وَسْمٌ (٧)

(١) الرغم : القسر والاذلال .

(٢) أغضى عينه : أطبق جفنها . القدى : ما يقع في العين فيؤذيها .

(٣) راس السهم : وضع فيه الريش ليكون أسد له وأصوب . هاض العظم : كسره بعد جبر وذلك أشد وأنكى .

(٤) بادر الشيء : سبق إليه . النأي : البعد .

(٥) سامه الشيء : كلفه إياه .

(٦) النصف مثلثة : العدل ، اسم من الانصاف .

(٧) خطمه : ضرب خطمه (أنفه) .



وَلَيْسَ الَّذِي يَبْنِي كَمَنْ شَأْنُهُ أَهْلَدُمُ  
وَأَكْرَهُ جُهْدِي أَنْ يُخَالِطَهُ الْعُدْمُ (١)  
وَمَا إِنْ لَهُ فِيهَا سَنَاءٌ وَلَا غَمُّ (٢)  
عَلَيْهِ كَمَا تَحْنُو عَلَى الْوَالِدِ الْأُمُّ  
لِتُدْنِيَهُ مِنِّي الْقَرَابَةُ وَالرَّحْمُ (٣)  
أَلَا أَسْلَمَ فِدَاكَ الْخَالُ ذُو الْعَقْدِ وَالْعَمُّ (٤)  
وَكَطْمِي عَلَى غَيْظِي وَقَدْ يَنْفَعُ الْكَطْمُ (٥)  
وَقَدْ كَانَ ذَا ضِعْفٍ يَضِيقُ بِهِ الْجُرْمُ (٦)  
بِرَفِيقِي أَحْيَانًا وَقَدْ يُرْقِعُ النَّوْمُ  
بِحِلْمِي كَمَا يَشْفِي بِالْأَدْوِيَةِ الْكَلْمُ  
فَعَدْنَا كَأَنَّا لَمْ يَكُنْ بَيْنَنَا صَرْمٌ (٧)  
فَأَصْبَحَ بَعْدَ الْحَرْبِ وَهُوَ لَنَا سَلْمٌ (٨)

وَيَسْعَى إِذَا أَبْنِي لِيَهْدِمَ صَالِحِي  
يَوَدُّ لَوْ أَتَى مُعْدِمٌ ذُو خِصَاصَةٍ  
وَيَعْتَدُّ غَمًّا فِي الْحَوَادِثِ نَكْبَتِي  
فَمَا زِلْتُ فِي لَبْنِي لَهُ وَتَعَطُّي  
وَخَفِضَ لَهُ مِنِّي الْجَنَاحَ تَأَلَّفًا  
وَقَوْلِي إِذَا أَخَشَى عَلَيْهِ مُصِيبَةً  
وَصَبْرِي عَلَى أَشْيَاءٍ مِنْهُ تُرِيْبِي  
لَأَسْتَلَّ مِنْهُ الصُّغْنُ حَتَّى أُسْتَلَّتَهُ  
رَأَيْتُ أَنْثَلَامًا بَيْنَنَا فَرَقَعْتَهُ  
وَأَبْرَأْتُ غِلَّ الصَّدْرِ مِنْهُ تَوَسَّعًا  
فَدَاوَيْتُهُ حَتَّى أَرْفَأَنَّ نِفَارَهُ  
وَأَطْفَأْتُ نَارَ الْحَرْبِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ

ومن أحكم شعره وأعفه :

وَلَا سَحَلْتَنِي نَحْوُ فَاحِشَةٍ رِجْلِي  
وَلَا دَلَّنِي رَأْيِي عَلَيْهَا وَلَا عَقْلِي

لَعَمْرُكَ مَا أَهْوَيْتُ كَفِّي لِرِيْبَةٍ  
وَلَا قَادَنِي سَمْعِي وَلَا بَصْرِي لَهَا

- (١) الخصاصية : الفقر أو كل خلل أو خرق في باب أو نحوه . الجهد بالفتح المشقة وبالضم المشقة أو الطاقة .
- (٢) السناء : الشرف . وبالقصر الضوء .
- (٣) الرحم : بالكسر لغة في الرحم .
- (٤) الفداء بالكسر ممدود ويقصر ، والفدا بالفتح مقصور لا غير فهي في البيت صالحة لها وأن تكون أيضا فعلا . العقد : العهد .
- (٥) رابني الأمر وأرابني : جعل في قلبي ريبا أي شكاً .
- (٦) يروي الحلم والحزم وهما ظاهران ، وأما الجرم فمعناه الجسم والحلق .
- (٧) ارفأن : سكن . صرم : قطيعة .
- (٨) سلم : هي هنا بمعنى مسلم .



وَأَعْلَمُ أَنِّي لَمْ تُصِيبْنِي مُصِيبَةٌ  
وَلَسْتُ بِبَاشٍ مَا حَيِّتُ لِمُنْكَرٍ  
مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا قَدْ أَصَابَتْ قَتِي قَبْلِي  
مِنَ الأَمْرِ مَا يَمْشِي إِلَى مِثْلِهِ مِثْلِي  
وَأَوْثِرُ ضَيْفِي مَا أَقَامَ عَلَى أَهْلِي

ومن أمثاله السائرة قوله في ابن أخته :

أَعْلَمُهُ الرَّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ  
وَكَمَ عَلِمْتُهُ نِظْمَ القَوَافِي  
فَلَمَّا اسْتَدَّ سَاعِدَهُ رِمَانِي  
فَلَمَّا قَالَ قَافِيَةَ هِجَانِي

### الخنساء

[ اسمها ونسبها ] : هي تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمي من أهل نجد وكنيتها أم عمرو ، ولقبت بالخنساء لجمالها تشبيهاً لها بالبقرة الوحشية ، أو لجمال أنفها ، لأن الخنس<sup>(١)</sup> من جمال الأنف . وكان أبوها من سادات سليم .

[ حياتها ] : نشأت الخنساء جميلة تزينها وفرة عقلها ، وتمتع بشرف أبيها الذي كان أحد سادات العرب العشرة الذين أوفدهم النعمان على كسرى .

وكان لها أخوان : صخر ، ومعاوية . كان أبوها يأخذ بيديهما في الموسم ويقول : أنا أبو خيرى مضر ، فمن أنكر فليغير ، فلا يغير ذلك عليه أحد .

وقد رآها دريد بن الصمة فارس هوازن تهنأً بغيراً لها فلكه جمالها ، وخطبها إلى أبيها فلم تقبل ، وآثرت الزواج في قومها وقد حياها عند رؤيتها بقوله :

حَيُّوا تَمَاضِرَ وَأَرْبَعُوا صَحْبِي  
وَقِفُّوا فَيَنَّ وَقُوفَكُمْ حَسْبِي<sup>(٢)</sup>

(١) هو تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة .

(٢) ربع (كمنع) وقف وانتظر .



مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ كَالْيَوْمِ طَالِي أَيْتُقِ جُرْبِ (١)  
مُتَبَدِّلاً تَبْدُو مُحَاسِبُهُ يَضَعُ الْهِنَاءَ مَوَاضِعَ النُّقْبِ (٢)  
أَخْنَسُ قَدْ هَامَ الْفُؤَادُ بِكُمْ وَأَعْتَادَهُ دَاءٌ مِنَ الْحُبِّ  
فَسَلِّهِمْ عَنِّي خُنَاسُ إِذَا غَضَّ الْجَمِيعُ هُنَاكَ مَا خَطْبِي (٣)

تزوجت في قومها ، وكان زوجها متلافا ، فشاطرها أخوها صخر ماله مرآت ، وفي كل مرة يعطيها خير الشطرين : وكان صخر أخاها لأبيها .

كانت الخنساء في أول أمرها تقول البيت أو البيتين ، فلما مات أبوها وأخواها هاج الحزن عليهم طبيعة الشعر في نفسها ، فأنت في رثائهم بما لم يعهد كثرة وجوده . وقد وفدت مع قومها وهي عجوز على النبي ، فأسلمت وأعجب النبي بشعرها ، فكان يستنشدنا ويقول : هيه يا خناس ! ويومئ بيده .

وكانت مع إسلامها تلبس الصِّدَارَ (٤) ، وقد كلمتها عائشة رضي الله عنها فيه لأنه منهي عنه في الإسلام ، فقالت : إن سببه أن أخاها شاطرها مرة ماله وخيرها فيما أخذ فلامته امرأته وقالت : أما كفأك أن تقسم مالك حتى تخير فقال :

وَاللَّهِ لَا أَمْنَحُهَا شِرَارَهَا وَهِيَ حَصَانٌ قَدْ كَفَتْنِي عَارَهَا (٥)  
وَلَوْ أَمُوتُ مَزَقْتُ جِمَارَهَا وَجَعَلْتُ مِنْ شَعْرِ صِدَارَهَا

فَأَتَّخَذْتُ الشَّعَارَ تَصْدِيقًا لَهُ . وَاللَّهِ لَا أَنْزِعُهُ حَتَّى أَمُوتَ .

قال لها عمر رضي الله عنه يوما وقد رأى ندوبا في وجهها : ما هذا يا خنساء ؟ فقالت

(١) نابة على وزن فعلة بالتحريك ، تجمع للقة على أفعل فيقال أنوق وقد يستنقلون الضمة على

الواو فيقدمون الواو فيقولون أنوق وقد يعوضون من الواو ياء فيقولون أيتق .

(٢) الهناء : الفطران . النقب بالفتح أو الضم : الجرب .

(٣) يقال غص المكان (بالبناء للفاعل) إذا امتلأ بالقوم . وقد أسند الفعل هنا لأهل المكان مجازا .

(٤) الصدار : شعر المرأة الحزينة تجزعه ثم تلبسه في صدرها .

(٥) شراز : جمع شير ككريم وكرام . حصان : عفيفة .



من طول البكاء على أخوي ، فقال لها : أخواك في النار ، فقالت : ذلك أطول لحزني وإني كنت أبكيهما من النار . فأنا اليوم أبكيهما من النار .

و بقدر جزعها على أخويها في الجاهلية كانت رابطة الجأش في أمر بنينا الأربعة الذين حضرت معهم حرب القادسية ، وحرّضتهم على القتال بقولها :

يا بني : إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين . والله الذي لا إله إلا هو إنكم لبئو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة . ما هَجَّنتُ حَسَبَكُمْ . ولا غَيَّرْتُ نَسَبَكُمْ ، واعلموا أن الدَّارَ الآخِرَةَ خَيْرٌ مِنَ الْفَانِيَةِ . اصْبِرُوا وصابروا وآتقوا الله لعلكم تفلحون . فإذا رأيتم الحرب قد شمَّرت عن ساقها ، فيمَّمُّوا وَطَيْسَهَا ، وجالدوا رئيسها عند احتدام حَمِيْسِهَا تَطْفَرُوا بِالْعُغْمِ وَالسَّكْرَامَةِ فِي دَارِ الْخُلُودِ وَالْمُقَامَةِ <sup>(١)</sup> .

فقاتل أبناؤها حتى قتلوا جميعاً ، فلما نَعُوا إِلَيْهَا قَالَتْ : الحمد لله الذي شرفني بموتهم وأرجو أن يجمعني بهم في مستقرِّ رحمته . وقد أعطاهما عمر أرزاق أبناها طول حياته . وقد ماتت الخنساء بالبادية في خلافة معاوية سنة ٥٠ هـ .

[ منزلتها في الشعر ] : عرف قدرها في الشعر جاهلية وإسلاماً ، فقد حضرت سوق عكاظ ، فضلها النابغة ، ( وكان له الحكم في الشعر ) على كل من حضر السوق إلا الأعشى ، فهاج ذلك غضب حسان .

وسئل جرير من أشعر الناس ؟ فقال : أنا لولا الخنساء ، وكان بشار يقول : لم تقل امرأة الشعر إلا ظهر الضعف فيه ، فقيل له : وكذلك الخنساء ؟ فقال : تلك غلبت الفحول ، وقد فضلها معاوية على الأخطل ، وهو حاضر عنده للإشادة ، فأقر لها الأخطل بالفضل ، وإذا ثبت أن النبي قال عنها إنها أشعر الناس في رده على عدي بن حاتم لما وفد عليه وقال : فينا أشعر الناس . وأسخرى الناس . وأفرس الناس <sup>(٢)</sup> . فذلك شرف لها لا يعدله شرف .

(١) المقامة بالضم : الإقامة .

(٢) أشعر الناس : امرؤ القيس . وأسخرام : حاتم . وأفرسهم : عمرو بن معدى كرب .



وأغلب شعر الخنساء في رثاء أبيها وأخويها ، وما تبع ذلك من فخر بالكرم ،  
ووصف للشجاعة ، ولشعرها وقع في القلب ، وهزّة في النفس ، والنساء أشجى الناس  
وأشدّهم حزنا على هالك .

ويقول نقدة الشعر : إن شعرها لم تتغير صبغته بعد الإسلام ، ولم تعدل به عن  
موضوعه القديم من البكاء على أخويها وأبيها . ونرى أن ذلك لأنها امرأة لا تجول  
مجال الرجال في تعلم الدين ، ومخالطة رجاله ، ودراسة القرآن ، وآثار النبي ، ثم هي لم  
تدرك الإسلام إلا عجوزا لا همة فيها لشيء من ذلك .

شعرها :

فضلها جرير على جميع الشعراء بقولها :

إِنَّ الزَّمَانَ وَمَا يَفْنَى لَهُ عَجَبٌ      أَبْتَقَى لَنَا ذَنْبًا وَأَسْتَوْصِلَ الرَّاسُ  
أَبْتَقَى لَنَا كُلَّ مَجْهُولٍ وَفُجَعْنَا      بِالْحَامِلِينَ فَهَمُّ هَامٌ وَأَرْمَاسُ<sup>(١)</sup>  
إِنَّ الْجَدِيدِينَ فِي طُولِ اخْتِلَافِهِمَا      لَا يَفْسُدَانِ وَلَكِنْ يَفْسُدُ النَّاسُ

وفضلها النابغة على كل من حضر السوق إلا الأعشى لقولها :

قَدَى بَعِينِيكَ أُمُّ بِالْعَيْنِ عَوَّارُ      أَمْ ذَرَفَتْ أَنْ خَلَتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ<sup>(٢)</sup>  
كَأَنَّ دَمْعِي لِدِكْرَاهُ إِذَا خَطَرْتُ      فَيَضُّ يَسِيلُ عَلَى الْخَدَّيْنِ مِدْرَارُ  
تَبْكِي لِصَخْرٍ هِيَ الْعَبْرَى وَقَدْ وَلِهْتُ      وَدُونَهُ مِنْ جَدِيدِ التُّرْبِ أُسْتَارُ  
تَبْكِي خُنَاسُ عَلَى صَخْرٍ وَحَقَّ لَهَا      إِذْ رَابَهَا الدَّهْرُ إِنَّ الدَّهْرَ ضَرَّارُ

ومنها :

وَإِنَّ صَخْرًا لَكَافِينًا وَسَيِّدُنَا      وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا نَشْتُو لِنَحَارُ

(١) الحاملون : الذين يحملون المغارم عن القوم أي الأسياد . هام : جمع هامة ، يقال فلان

هامة اليوم أو الغد : أي هو ميت اليوم أو غدا . الأرماس : جمع رمس وهو القبر .

(٢) القدى : ما يقع في العين فيؤذيها . العوّار : كل ما أعل العين .



وَإِنَّ صَخْرًا لَمَقْدَامٌ إِذَا رَكِبُوا      وَإِنَّ صَخْرًا إِذَا جَاعُوا لَعْقَارٌ<sup>(١)</sup>  
 وَإِنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُّهُ الْهُدَاةُ بِهِ      كَأَنَّهُ عِلْمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ  
 حَمَلٌ أَلْوِيَةَ هَبَّاطٌ أَوْدِيَةٌ      شَهَادٌ أُنْدِيَةٌ لِلْجَيْشِ جِرَارٌ

ومن قولها في صخر أيضاً :

أَمِنْ حَدَثِ الْأَيَّامِ عَيْنُكَ تَهْمِلُ      تُبْكِي عَلَى صَخْرٍ وَفِي الدَّهْرِ مَذْهَلٌ<sup>(٢)</sup>  
 أَلَا مَنْ لِعَيْنٍ لَا تَجِفُّ دُمُوعُهَا      إِذَا قُلْتَ أَفْنَتْ تَسْتَهْلُ فَتَحْفِلُ<sup>(٣)</sup>  
 عَلَى مَا جَدِ ضَخْمِ الدَّسِيعَةِ بَارِعِ      لَهُ سَوْرَةٌ فِي قَوْمِهِ مَا تَحْوَلُ<sup>(٤)</sup>  
 فَمَا بَلَغَتْ كَفُّ أَمْرِي مُتَنَاوَلًا      مِنْ الْمَجْدِ إِلَّا وَالَّذِي نِلْتَ أَطْوَلُ  
 وَلَا بَلَغَ الْمُهْدُونَ لِلنَّاسِ مِدْحَةً      وَإِنْ أَطْنَبُوا إِلَّا الَّذِي فِيكَ أَفْضَلُ

ومن أجل البيتين الأخيرين فضلها معاوية بمحضر الأخطل ، وأقر لها الأخطل بالفضل .

ومن جيد رثائها لصخر :

يَذْكَرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا      وَأَذْكَرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسٍ<sup>(٥)</sup>  
 فَلَوْلَا كَثْرَةُ آبَائِكَ حَوْلِي      عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَمَلْتُ نَفْسِي  
 وَلَكِنْ لَا أَزَالُ أَرَى مَجْجُولًا      وَنَائِحَةً تَنُوحُ لِيَوْمِ نَحْسٍ<sup>(٦)</sup>  
 هُمَا كَلِمَتَاهُمَا تَبْكِي أَخَاهَا      عَشِيَّةَ رُزْنِهِ أَوْ غَبَّ أَمْسٍ

(١) العقر : ضرب قوائم الدابة لتسقط على الأرض وتمتنع حركتها ، وهو عندهم مقدمة للنحر فاستعماله في النحر مجاز .

(٢) هملت العين (كضرب) كثر نزول دمعها . المذهل : هنا مصدر ميمي : أى الذهول ، والمعنى إن الدهر في ذهول عنك لايهمه أمرك ولا يرد لك بالبكاء فائنا .

(٣) استهمل المطر : بدأ نزوله . حفلت السماء (كضرب) كثر مطرها .

(٤) الدسيعة : الجفنة . أو المائدة الكريمة . برع : تم في كل فضل وكمال .

(٥) تقول أذكركه في أول النهار لأنه الوقت الذي كان يخرج فيه للغارة وأذكركه في المساء لأنه الوقت الذي يتجمع فيه الضيفان في فئائه . كذا ذكره في الكامل .

(٦) العجول : الثكلى والواله من النساء والابل لعجلتها في حركتها جزعا .



وَمَا يَبْكِينَ مِثْلَ أُخِي وَلَكِنْ أَسَلَى النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأْسَى (١)  
 فَقَدْ وَدَعْتُ يَوْمَ فِرَاقِ صَخْرٍ أَبِي حَسَّانَ لَدَاتِي وَأُنْسِي  
 فَيَا لَهْفِي عَلَيْهِ وَهَلْفَ أُمِّي أَيُصْبِحُ فِي الضَّرِيحِ وَفِيهِ يُمْسِي

ومن قولها : وقد تسابق أبوها وأخوها فسبق أبوها ، فقيل لها : لئن مدحت أباك  
 لقد هجوت أخاك ، فقالت : وتخلصت من الموقف أحسن تخلص يجعل سبق أبيها ليس  
 عن عجز أخيها ، ولكنه اعتراف بحقه وتسليم لكبر سنه .

جَارِي أَبَاهُ فَأَقْبَلَا وَهُمَا يَتَعَاوَرَانِ مُلَاءَةَ الْحَضْرِ (٢)  
 حَتَّى إِذَا نَزَتِ الْقُلُوبُ وَقَدْ نَزَّتْ هُنَاكَ الْعُنْدُ بِالْعُنْدِ (٣)  
 وَعَلَا هَتَافُ النَّاسِ أَيُّهُمَا قَالَ الْمُجِيبُ هُنَاكَ لَا أَدْرِي  
 بَرَزَتْ صَحِيفُهُ وَجْهَ وَالِدِهِ وَمَضَى عَلَى غُلُوَائِهِ يَجْرِي (٤)  
 أَوْلَى فَأَوْلَى أَنْ يُسَاوِيَهُ لَوْلَا جَلَالُ السِّنِّ وَالْكِبَرِ (٥)  
 وَهُمَا وَقَدْ بَرَزَا كَأَنَّهُمَا صَقْرَانِ قَدْ حَطَّآ إِلَى وَكْرٍ

### حسان بن ثابت

[ اسمه ونسبه ] : هو حَسَّانُ بن ثابت بن الأُنْدَرِ بن حَرَامِ بن زَيْدِ مَنَاةَ بن عَدِيّ  
 ابن جَعْفَرِ بن مالك بن النجار وينتهي إلى الخَزَرَجِ .

- (١) التأسى : اتخاذك الناس أسوة لك (أشباها) في المصيبة .
- (٢) الحضرة والإحضار : السرعة .
- (٣) نزت : تحركت واضطربت . لزه به . ألصقه به . العنذر بسكون الذا : الشعر الذى على  
 كاهل الفرس . أو أصلها العنذر بضمين فتكون جمع عنذار وهو جانب اللحية أو ماقوع  
 عليه من اللجام .
- (٤) الغلواء : الغلو .
- (٥) الكبر : الشرف والعظمة .



ويكنى أبا الوليد ، وأبا المضرب ، وأبا الحسام ، وأبا عبد الرحمن ، وابن الفريرة  
وأمه الفريرة أدركت الإسلام ، فأسلمت .

[ حياته ] : ولد حسان بالمدينة قبل عام الفيل بثمان سنين ( قبل الهجرة بنيف  
وستين عاماً<sup>(١)</sup> ) ، فلما شبَّ وحصف عقله انطلق يقول الشعر . وقد اشتهر أمره في الجاهلية  
فانتجع بشعره الملوك وقبيل عطاياهم . وقد مدح النعمان بن المنذر ملك الحيرة كما مدح  
الغساسنة ملوك الشام ، وكانت بينه وبين أهل يثرب واشجعة نسب ، وأكثر ما كان  
مدحه لحبلة بن الأيهم آخر ملوكهم ، حتى اشتهر قوله فيه كما اشتهر عطاء جبلة له ، فقد  
أقسم جبلة لا يطيّف به ذكر حسان إلا أرسل إليه ، ولا يمرّ به غاد أو راح إلى  
المدينة إلا بعث معه ما يطرف به حسان .

دخل الإسلام المدينة وعمر حسان قرابة ستين سنة ، فأسرع إلى الإسلام ، وأبلى  
فيه بلسانه بلاءاً حسناً ، فقد تصدّى لهجاء قريش وذكر مثالبها ، فكان قوله كما يقول  
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أشدّ من وقع الحسام في عبّس الظلام » .

لم يبدأ بهجاءهم حتى أتى أبا بكر وهو أعلم العرب بأنساب قريش ، فجعل يذله على  
عوراتهم ، فيقول له : كفّ عن فلان ، واذكر فلانا ، وكفّ عن فلانة . واذكر  
فلانة . وذلك لموضع رسول الله من قرابة قريش ، فجعل يقع في أعراضهم ما شاء غير  
متعرّض لآل النبي ، واستله منهم استلال الشعر من العجيين كما يقول .

ومن شعره في هجاء أبي سفيان وقد تمثل فيه حدقه لنسب قريش بما علمه أبو بكر  
حتى قالت قريش لقد قال : ابن أبي قحافة الشعر بعدنا ، قوله :

وَإِنَّ سَنَامَ الْمَجْدِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ      بَنُو بِنْتِ مَخْزُومٍ      وَوَالِدُكَ الْعَبْدُ<sup>(٢)</sup>

(١) كان عام الفيل قبل الهجرة بثلاث وخمسين سنة وشهرين وثمانية أيام وهو العام الذي ولد  
فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) بنت مخزوم هي فاطمة بنت عمرو وهي أم عبد الله (جدة رسول الله) . والعبد يريد به الحرث  
ابن عبد المطلب (أبو أبي سفيان) وكانت أمه أم ولد . وأبناء زهرة يريد آمنه وهالة  
(أم حمزة وصفية) وهما زهرتان فهما بتا وهب بن عبد مناف بن زهرة .



وَمَنْ وَلَدَتْ أَبْنَاءَ زُهْرَةَ مِنْكُمْ كِرَامٌ وَلَمْ يَلْحَقْ عَجَائِزَكَ الْمَجْدُ  
وَإِنْ أُمْرَأً كَانَتْ سُمِّيَهُ أُمَّهُ وَسَمْرَاءُ مَثْلُوبٌ إِذَا بَلَغَ الْجَهْدُ  
وَأَنْتَ هَجِينٌ نَيْطٌ فِي آلِ هَاشِمٍ كَانَيْطُ خَلْفِ الرَّكَبِ الْقَدْحُ الْقَرْدُ

ولقد أبى حسان في الدفاع عن النبي وتعظيم أمر الإسلام والمسلمين ، فلم يترك مقاما إلا قال فيه : فمن هجاء لقريش وتناول لإشرافها ، إلى وصف لفوز المسلمين في الغزوات ، إلى مدح للنبي وصحابته . ولم تقترهمته في القول بعد موت النبي ، فقد استمر يرثيه ويمدح خلفاءه ويؤبئهم .

كان حسان موضع الرضا منذ دخل في الإسلام . فقد وهب له النبي سيرين أخت مارية أم المؤمنين ووالدة إبراهيم ابن الرسول عليه الصلاة السلام . وأعقب حسان من سيرين ابنه عبد الرحمن ، كذلك وهب له رسول الله يبرحى ، وهو قصر بالمدينة كان لأبي طلحة فتصدق به على آل النبي .

كذلك عرف الخلفاء لحسان فضله فقرضوا له العطاء الكافي من بيت المال .

ولما شاع حديث الإفك كان حسان أحد الذين خاضوا في عرض السيدة عائشة رضى الله عنها ، وكانوا خمسة : عبد الله بن أبي بن سلول . وزيد بن رفاعة وحسان . وحمنة بنت جحش<sup>(١)</sup> ، ومسطح بن أثانة وقد تاب حسان فلم يحد ، ونزل فيه قوله تعالى : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » .

ولا نستبعد حدوث ذلك من حسان ، فهو شاعر يسرع إلى تصديق الوهم ، ويجرى وراء الخيال ، ويؤيد خوضه في هذا الحديث ما جرى له من صفوان بن المعطل حين اعترضه فصر به بالسيف . كذلك شعر حسان في الاعتذار للسيدة عائشة بقوله :

حَصَانُ رَزَانٌ مَا تَرَنُّ رِيْبَةً وَتُصْبِحُ غَرْفِي مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ<sup>(٢)</sup>

(١) حمنة : هي أخت زينب زوج رسول الله .

(٢) حصان : عفيفة . رزان : ملازمة موضعها . ترن : تنهم . غرني : جوعى .



فَإِنْ كُنْتُ قَدْ قُلْتُ الَّذِي قَدْ زَعَمْتُمُو      فَلَا رَفَعْتَ سَوْطِي إِلَىٰ أَنَا مِلي  
وَكَيْفَ وُودِي مِنْ قَدِيمٍ وَنُصْرَتِي      لِأَلِ رَسُولِ اللَّهِ زَيْنِ الْمَحَافِلِ  
فَإِنَّ الَّذِي قَدْ قِيلَ لَيْسَ بِالْأَيْدِ      وَلَكِنَّهُ قَوْلُ أَمْرِي بِي مَاحِلِ<sup>(١)</sup>

فلما أنشدها السيدة عائشة قالت له : ولكنك يا حسان ما تصبح غرثان من لحومهن .



وقد ذكروا عن حسان الجبن ، لأنه لم يشهد زحفاً ولا غزوة . وكان يقيم مع الأطفال والنساء في الحصون ، فقد حدثت عبد الله بن الزبير قال : كانت صفية بنت عبد المطلب في فارح حصن حسان يوم الخندق ، وكان حسان مع النساء والأطفال في الحصن ، فرّ يهودى فجعل يطوف بالحصن ، فخشيت صفية أن يعرف اليهودى موضعهم فيدلّ عليهم اليهود وأهل الحصن بحيث لا يعيّنهم المسلمون لاشتغالهم عنهم ، فقالت له : انزل فاقتل اليهودى فقال لها : يغفر الله لك يا بنه عبد المطلب !! ما أنا بصاحب هذا ، فنزلت هي فقتلته ورجعت إلى الحصن ، ثم قالت : يا حسان انزل فاسلبه فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل . قال مالى إلى سلبه حاجة .

ويروى أنه أنشد رسول الله :

لَقَدْ غَدَوْتُ أَمَامَ الْقَوْمِ مُنْتَطِقًا      بِبَصَارِمٍ مِثْلِ لَوْنِ الْمِلْحِ قَطَّاعِ<sup>(٢)</sup>  
تَحْفَزُ عَنِّي نِجَادَ السَّيْفِ سَابِغَةً      فَضَفَافَةً مِثْلُ لَوْنِ النَّهْيِ بِالْقَاعِ<sup>(٣)</sup>

فتبسّم رسول الله فانكسر حسان لظنه أن تبسّم رسول الله لوصفه نفسه بالشجاعة مع جبنه، ونرى أن تهمة الجبن واقعة على حسان لأنه أكثر من الفخر بشجاعته ، ولم تعرف

(١) لائط : لائق . ماحل : تمام . يقال محل به إلى السلطان : أى مشى وتمّ .

(٢) منتطقا بصارم : أى حاملا له معلقا و منطوق .

(٣) تحفز : تدفع . النهى : الغدير .



له مواقع شهدها لا في جاهلية ولا إسلام، فدل ذلك على أنه يستر بالقول عاراً لاحقابه، على أن شهود الغزوات مع النبي كان شرفاً كبيراً للصحابة فكانوا يحرصون على شهودها ويتفاضلون بمقدار ما حضروا منها، فقد حكوا عن عمر أنه حضر مع النبي جميع غزواته، وأن عثمان لم يتخلف إلا عن بدر، وأن علياً شهدها جميعاً إلا تبوك، فلو أن حسان ليس جباناً وعواعا لشهد ولو واحدة منها. ولقد ذكروا أنه كان يخضب شاربه ومقدم لحيته بالحناء، فإذا قيل له: لم تفعل ذلك؟ قال لا أكون كأني أسد والغ في دم. وما نرى ذلك إلا تضليلاً للرأى فيه وتمويهاً لجبنه.

وإن نشأة حسان بالقرى واشتغاله في جاهليته بزيارة الملوك في شرق وغرب لتجعله بعيداً عن مواقف الشجاعة التي تقتضيها حياة الخشونة والغارة.

وقد عمّر حسان في الإسلام ستين سنة أخرى، قتم له مائة وعشرون سنة قضى معظمها موفور الصحة تام الحواس، ثم وهن في آخر أيامه، وكف بصره، ومات في خلافة معاوية سنة ٥٤ هـ.

منزلته في الشعر:

قال المبرد في الكامل: «وأعرق قوم كانوا في الشعر آل حسان، فإنهم يعدون ستة في نسق، وكلهم شاعر، وهم: سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر ابن حرام». فهو إذاً شاعر مطبوع يضرب بعرق بعيد في الشاعرية. لذلك لم يكن معروفاً بتنقيح شعره. وموقفه من وفد تميم شاهد عدل على قوة سليقته. فإنه فوجئ بأن طلب منه النبي الرد على الزبرقان بن بدر شاعر الوفد، فارتجل قصيدته:

إِنَّ النَّوَابِ مِنْ فِيهِمْ وَإِخْوَتَهُمْ  
قَدْ بَيَّنُّوا سُنَّةَ لِلنَّاسِ تَتَّبِعُ

وهي من خير قصائده.

ولقد ذكروا أن حسان كان شاعر الحضرة في الجاهلية. ونحن نعلم أن شعر الحضرة دون شعر الوبر. لذلك كانت منزلته وسطاً بين الشعراء، فلم يسام المجيدين، ولم ينحط إلى درجة المقصرين. وفي القصة الآتية بيان لمكانة حسان بين شعراء الجاهلية.



وفد على عمرو بن الحرث من ملوك غسان ، فوجد عنده النابغة الذبياني ، وعلقمة ابن عبدة ، فقال له عمرو : إني باعث إليك بصلة سنية ، ولا أحتاج إلى الشعر ، فإني أخاف عليك هذين السبعين أن يفضحك ، وفضيحتك فضيحتي ، (لأنه يمت إليه بالنسب) ، فقال حسان لا بدّ من القول ، واستأذن الشاعرين في الإنشاد ، فأنشد :

أَسَأَلْتُ رَسْمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلِ      بين الجوابي فالْبُضَيْعِ فَخَوَّمَلِ

فكان شعره دون شعر النابغة وعلقمة ، ولكنه حسن معدود .

وفي الإسلام زمن البعثة ارتفع شأنه ، لأنه لم يكن في أصحاب رسول الله ، ولا في أعدائه شاعر مثله ، فصار الشاعر المقدم عند النبي ، وطار له شهرة عظيمة ، ونال من إكرام النبي كثيراً ، فقد قال له : « اجهم وجبريل معك » ، وقال له أيضاً : « شن الغارة على بني عبد مناف ، فوالله لشعرك أشدّ عليهم من وقع الحسام في غبش الظلام » ، وكان ينصب له منبراً في المسجد ويسمع هجاءه لأعدائه .

فهذه الشهرة والشعر الكثير الذي قاله جعلاه بحق شاعر اليمانية في الإسلام .

وبقيت منزلته دون منزلة الفحول من المضرية .

[ أغراض شعره ] : كان موضوع شعره في الجاهلية التشبيب ووصف الخمر والهجاء والمدح والفخر بنسبه وشجاعته وفصاحته . فلما جاء الإسلام بطل من أغراضه التشبيب ووصف الخمر ، وانصرف هجاؤه إلى أعداء رسول الله ، واقتصر مدحه على النبي وأصحابه ، وبقي فخره بنسبه وشجاعته وبلاغته ، وزاد عليه الفخر بالإسلام .

وإن من يقرأ شعره في العهدين ليرى فرقا ظاهراً في الأسلوب واللفظ : ففي الجاهلية ، عبارة جزلة ، ولفظ ضخم . وفي الإسلام أسلوب سهل ، ولفظ لين . لذلك قال بعض نقدة الشعر إن حسان في الإسلام دونه في الجاهلية لما رأى من هذا الفرق ، وهذا القول حقّ واضح وعذر حسان فيه أن معاني الإسلام جديدة عليه . ليست تلك المعاني التي ألفها في الجاهلية ودرج عليها ، وسمع كثيراً من نماذجها في شعر فحولها ، ثم



عذره كذلك أنه أدرك الإسلام كبيراً قد زابتته همه الشباب وسورته ، وأنه أكثر من القول ، ومن التعويل على البديهة في أغلب المواقف ، فبان في شعره الضعف واللين . وللقول في ضعف شعره في الإسلام تفصيل اهتدينا إليه من كثرة ترديد الطرف في كل ما قاله في الإسلام . وذلك أننا نرى أن ما قاله في الدفاع عن النبي أقوى وأرصن ، وأشدّ قوافي ، وأحسن سبكا مما قاله في أغراض أخرى ، ولا نرى لذلك من سبب إلا وعد النبي له بأن روح القدس يؤيده ما كافح عنه في قوله عليه الصلاة والسلام : «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما كلفحت عن الله ورسوله» ، فهو في هذا كان ملهما مؤيداً ، فكان لا ينزع عن قوسه ، ولا يرمى من كنانته ، وسترى برهان ما قلنا فيما نعرضه عليك من مختار قوله .

### رأى النقاد في شعر حسان

ننقل لك في هذا المقام آراء النقاد في شعر حسان كما وردت مجملة مفرقة في كتب الأدب ليكون في كل رأى منها شبه الدليل على منحى من منحى قولنا الذي فصلناه في الحكم على شعره .

قال أبو عبيدة : فضل حسان الشعراء بثلاث : كان شاعر أهل يثرب في الجاهلية ، وشاعر النبي في النبوة ، وشاعر اليمين كلها في الإسلام ، وقال : اجتمعت العرب على أن حسان أشعر أهل المدر .

قال الأصمعي : حسان أحد فحول الشعراء ، فقال له أبو حاتم : تأتي له أشعار لينة . قال : تنسب إليه أشياء لا تصح عنه <sup>(١)</sup> ، وقال الأصمعي مرة : الشعر نكد يقوى في

(١) وقد أتى على بعض المنحول لحسان ابن هشام صاحب السيرة النبوية فانه اختصر سيرته من سيرة ابن اسحق وكان هذا ضعيف التقدير للشعر فدرس عليه أهل المدينة شيئاً ونسبوه إلى حسان . فكان ابن هشام إذا أورد شيئاً منه نبه على أنه منحول فيقول مرة ( وأهل العلم بالشعر ينكرونها لحسان ) أو يقول ( وتروى هذه الأبيات لفلان ) وهكذا .



الشرّ ويشنّد ، فإذا دخل في الخير ضعف ولان . هذا حسان فحل من فحول الجاهلية ،  
فلما جاء الإسلام سقط شعره .

وقال أبو الفرج الأصبهاني : حسان فحل من فحول الشعراء ، وقال النابغة الذبياني  
لحسان يوماً : إنك لشاعر .

وشهد الأعشى له ( وكان صديقه ) بالشاعرية ، وقال الحطيئة حين احتضر :  
أبلغوا الأنصار أن شاعرهم أشعر العرب حين يقول :

يُغَشَّوْنَ حَتَّى مَا تَهَرُّ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ

ومن حكم حسان على نفسه أنه قيل له : لان شعرك أو هرم في الإسلام ؟ فقال  
للقائل : يابن أخى ، إن الإسلام يحجز عن الكذب .

ووقف الحطيئة على حسان وهو ينشد شعراً ، فقال له حسان وهو لا يعرفه : كيف  
تسمع يا أعرابي ، فقال : ما أرى بأساً ، فقال حسان : اسمعوا نقول الأعرابي !!  
ما كنتك ؟ قال أبو مليكة ، قال : ما كنت قط أهون على منك حين تكنتت بامرأة ،  
فما اسمك ؟ قال : الحطيئة . قال : فامض بسلام .

مختار قوله :

أشد حسانُ عمرو بن الحرثِ بحضرة النابغة وعَلَمَةَ بن عبدة :

أَسَأَلْتَ رَسْمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلِ      بَيْنَ الْجَوَابِي قَالْبُضَيْعِ فُحْوَمَلِ  
فَأَلْمَرَجِ مَرَجِ الصُّفْرَيْنِ فَجَاسِمِ      فديار سلمي دُرَّسًا لَمْ تُحْمَلِ  
دِمْنٌ تَعَاقَبَهَا الرِّيَاحُ دَوَارِسُ      وَالمُدْجِنَاتُ مِنَ السَّمَاءِ الأَعزَلِ (١)  
دارُ لِقَوْمٍ قَدِ أَرَاهُمْ مَرَّةً      فَوْقَ الأَعزَّةِ عِزُّهُمْ لَمْ يُتَقَلِ

(١) المدجنات : الغيوم الممطرة . السماء في السماء سما كان أحدهما أعزل والثاني رامج ، وسمى  
الرامج راجحاً لأن له شعاعاً مستطيلاً منه كالرمح . أما الأعزل فلا شعاع له . ومن في قوله  
المدجنات من السماء للسببية : أي ممطرات بسبب السماء لأن سقوطه أو طلوعه كان عندهم  
سبب المطر .



اللَّهُ دَرَّ عَصَابَةً نَادَمْتُهُمْ  
 يَمْشُونَ فِي الْحَلَلِ الْمُضَاعَفِ نَسْجُهَا  
 الضَّارِبُونَ الْكَبِشَ يَبْرُقُ بَيْضُهُ  
 وَالْخَالِطُونَ فَقِيرُهُمْ بَعْنِيهِمْ  
 أَوْلَادُ جَفْنَةٍ حَوْلَ قَبْرِ أَبِيهِمْ  
 يُعَسَّوْنَ حَتَّى مَا تَهْرُ كِلَابُهُمْ  
 يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ الْبَرِيصَ عَلَيْهِمْ  
 بِيضُ الْوُجُوهِ كَرِيمَةٌ أَحْسَابُهُمْ  
 فَلَبِثْتُ أَرْمَانًا طَوَالًا فِيهِمْ  
 أَوْ مَا تَرَى رَأْسِي تَعَايِيرَ لَوْنُهُ  
 وَلَقَدْ يَرَانِي مُوعِدِي كَأَنِّي  
 وَلَقَدْ شَرِبْتُ الْخَمْرَ فِي حَانُوتِهَا  
 يَسْعَى عَلَيَّ بِكَاسِهَا مُتَنْظِفٌ

يَوْمًا يَجْلِقُ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ (١)  
 مَشَى الْجِمَالِ إِلَى الْجِمَالِ الْبُزْلِ (٢)  
 ضَرْبًا يَطِيحُ لَهُ بَنَانُ الْمَفْصِلِ (٣)  
 وَالْمُنْعِمُونَ عَلَى الضَّعِيفِ الْمُرْمِلِ  
 قَبْرِ ابْنِ مَارِيَةَ الْكَرِيمِ الْمُفْضِلِ (٤)  
 لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُفْبِلِ (٥)  
 بَرَدَى يُصَفِّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ (٦)  
 شُمَّ الْأَنْوْفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ (٧)  
 ثُمَّ أَدَّكَرْتُ كَأَنِّي لَمْ أَفْعَلِ  
 شَمَطًا فَأَصْبَحَ كَالنَّعَامِ الْمُخَوَّلِ (٨)  
 فِي قَصْرِ دُومَةَ أَوْ سَوَاءِ الْهَيْكَلِ  
 صَهْبَاءَ صَافِيَةً كَطَعْمِ الْفُلْفُلِ (٩)  
 فَيُعَانِي مِنْهَا وَلَوْ لَمْ أَنْهَلِ (١٠)

(١) جلق : دمشق .

(٢) البزل : جمع بازل ، وهو الجمل بلغ تسع سنين .

(٣) الكبش : سيد القوم . البيض : الخوذة . يطيح : ينفصل بعيدا .

(٤) حول قبر أبيهم ، كناية عن الاستقرار . وأنهم دائمو الخصب لا يرتحلون .

(٥) هرير الكلب : صوته دون نباحه من قلة صبره على البرد . والمراد هنا مطلق الصوت .

(٦) البريص : فرع من بردى . يصفق : يخطط . الرحيق : الخمر البيضاء .

(٧) الطراز : كلمة فارسية الأصل ، معناها التقدير المستوي . والمعنى هنا من الشكول الجيدة .

وشمم الأنف كناية عن السيادة ، إذ كانت الأمة العربية مكونة من صنفين : عبيد وأسياد وميزة العبيد فطس الأنوف وميزة الأحرار شممها .

(٨) وفي رواية : أما ترى ، ويرد على الأولى حذف النون من ترى بلا موجب ويرد على الثانية عدم توكيد الفعل مع قرب تأكيد كده هنا من الوجوب .

(٩) الحانوت : دكان الخمار . صهباء : متخذة من عنب أبيض . كطعم الفلفل : لاذعة .

(١٠) متنظف : لابس النظفة ( كهمة ) وهي القرط . النهل : الشرب الأول أو العطش







يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ  
 قَوْمُهُ إِذَا حَارَبُوا ضَرَبُوا عَدُوَّهُمْ  
 سَجِيَّةً تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ  
 لَا يَرْفَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكْفُهُمْ  
 إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمْ  
 وَلَا يَضُنُّونَ عَنْ مَوْلَى بِفَضْلِهِمْ  
 لَا يَجْهَلُونَ وَإِنْ حَاوَلَتْ جَهْلُهُمْ  
 أَعْفَى ذُكِرَتْ فِي الْحَيِّ عَقْتُهُمْ  
 كَمْ مِنْ صَدِيقٍ لَهُمْ نَالُوا كِرَامَتَهُ  
 أَعْطَوْا نَبِيَّ الْهُدَى وَالْبِرِّ طَاعَتَهُمْ  
 إِنْ قَالَ سِيرُوا أَجِدُوا السَّيْرَ جُهْدَهُمْ  
 مَا زَالَ سَيْرُهُمْ حَتَّى اسْتَقَادَ لَهُمْ  
 خُذْ مِنْهُمْ مَا آتَى عَفْوًا إِذَا غَضِبُوا  
 فَإِنَّ فِي حَرِّبِهِمْ قَاتِرُكُ عَدَاوَتِهِمْ  
 تَقْوَى الْإِلَهِ وَبِالْأَمْرِ الَّذِي شَرَعُوا  
 أَوْ حَاوَلُوا النِّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا (١)  
 إِنَّ الْخَلَائِقَ فَأَعْلَمَ شَرُّهَا الْبِدْعَ (٢)  
 عِنْدَ الدَّفَاعِ وَلَا يُوهُونَ مَا رَقَعُوا  
 فَكُلُّ سَبَقٍ لِأَذَى سَبَقِهِمْ تَبِعَ (٣)  
 وَلَا يُصِيبُهُمْ فِي مَطْمَعٍ طَبَعُ (٤)  
 فِي فَضْلِ أَحْلَامِهِمْ عَنِ ذَلِكَ مُتَّسِعَ  
 لَا يَطْمَعُونَ وَلَا يَزُرِي بِهِمْ طَمَعُ (٥)  
 وَمِنْ عَدُوِّ عَلَيْهِمْ جَاهِدِ جَدَعُوا (٦)  
 فَمَا وَتَى نَصْرُهُمْ عَنْهُ وَمَا نَزَعُوا  
 أَوْ قَالَ عُوْجُوا عَلَيْنَا سَاعَةً رَبَعُوا (٧)  
 أَهْلُ الصَّلِيبِ وَمَنْ كَانَتْ لَهُمْ بَيْعُ (٨)  
 وَلَا يَكُنْ هَمَّكَ الْأَمْرُ الَّذِي مَنَعُوا  
 شَرًّا يُخَاضُ عَلَيْهِ الصَّابُ وَالسَّلَامُ (٩)

- (١) أشياع : جمع شبيعة ، وهي للواحد والجمع ، تقول فلان شبيعة على وهو لاء من شيعته .  
 (٢) الخلائق : جمع خليفة ، وهي الطبع .  
 (٣) الطبع : الدنس والعيب وكل شين في دين أو دنيا . وفي الحديث « نعوذ بالله من طبع يهدى إلى طبع » .  
 (٤) أعفَى : جمع عفيف . أزرى به كذا : عابه وألحق به النقص .  
 (٥) نالوا كرامته : مقلوب عن نال كرامتهم وهذا ما يؤيده ويدل عليه السياق . جاهد : مجتهد جدعوا : قطعوا .  
 (٦) ربيع بالمكان : أقام به .  
 (٧) استفاد (مطاوع قاد) بمعنى ذل وخضع . البيع : جمع بيعة (كشيم جمع شيمة) وهي متعبد النصرارى .  
 (٨) الصاب والسلع : شجران مران .



لَا خَيْرَ إِنْ هُمْ أَصَابُوا مِنْ عَدُوِّهِمْ      وَإِنْ أُصِيبُوا فَلَا خَوْزٌ وَلَا جُرْعٌ (١)  
كَأَنَّهُمْ فِي الْوَعَى وَالْمَوْتُ مُكْتَنَعٌ      أُسْدٌ بَيْدِشَةٌ فِي أَرْسَاعِهَا فِدَعٌ (٢)  
أَكْرَمَ بِقَوْمِ رَسُولِ اللَّهِ شَيْعَتُهُمْ      إِذَا تَفَرَّقَتِ الْأَهْوَاءُ وَالشَّيْعُ  
أَهْدَى لَهُمْ مَدْحِي قَلْبُ يُوَازِرُهُ      فِيمَا أَرَادَ لِسَانُ حَاثِكُ صَمْعُ  
فَأَيُّهُمْ أَفْضَلُ الْأَحْيَاءِ كُلَّهُمْ      إِنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدُّ الْقَوْلِ أَوْ شَمَعُوا (٣)

فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس (أحد رجال الوفد) : والله إن هذا الرجل (يريد محمداً) لمؤني<sup>(٤)</sup> له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، وأشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا ، ثم أسلموا ، وجوزهم رسول الله ، فأحسن جوازهم .  
ومن قصيدة له أولها في الجاهلية وآخرها في الإسلام ، يصف في أولها الحمر ، ويهجو في آخرها أبا سفيان<sup>(٥)</sup> :

عَفَّتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءِ      إِلَى عَذْرَاءٍ مَنْزَلَهَا خَالَاءُ (٦)  
دِيَارٌ مِنْ بَنِي الْحَسْحَاسِ قَفْرٌ      تَعْفِيهَا الرِّوَامِسُ وَالسَّمَاءُ (٧)

(١) خور : جمع خوار على غير قياس لأن قياسه أن يكون جمع أخور . وجزع : جمع جزوع .  
(٢) مكتنع : قريب دان . بيدشة : من أعمال مكة مما يلي اليمن على خمس مراحل منها . وفي وادي بيدشة شجر كثير الأسود . الفدع : عوج المفاصل .

(٣) شمعو : لم يجدوا . والشمع : الطرب والضحك والمرح ، والفعل كمنع .

(٤) فلان مؤنث له : سهل الأمر ، من أتيت للماء : إذا سهلت سبيله .

(٥) وردت هذه القصيدة في سيرة ابن هشام بعنوان أنها قيلت في فتح مكة ، والظاهر أنها قيلت في هذا الشأن قبل حصول الفتح ، بدليل أنها ليس فيها إشارة إلى ماجرى في الفتح ، بل فيها التوعد بدخول مكة عنوة ، وفيها سب لأبي سفيان وكان قد أسلم بعد الفتح فلاداعي لسبه ، وبدليل أن النبي لما رأى النساء يلطنن الخيل قال لأبي بكر ماذا قال حسان؟ يريد قوله في القصيدة :  
يظل جيادنا متمطرات تلطمهن بالحمر النساء .

(٦) ذات الأصابع ، والجواء ، وعذراء : مواضع . ومنزلها ، أى منازلها ، لأن المفرد المضاف يعم .

(٧) الحسحاس : قوم من بني النجار . تعفيها : تمحو آثارها . الروامس : الرياح التي ترمس

الآثار (تسترها) . السماء هنا : المطر .



وكانت لا يزالُ بها أنيسٌ خِلالَ مُرُوجِها نَعَمٌ وشَاءٌ (١)  
فَدَعُ هذا ولكن من لَطِيفٍ يُورِّقني إذا ذَهَبَ العِشَاءُ  
لَشَاءُ عُنَاءٌ التي قد تيمَّنته فليس لقلبه منها شفاءً (٢)  
كأن سببمئةً من بيت رأسٍ يكون مزاجها عسلٌ وماءٌ (٣)  
إذا ما الأشرباتُ ذُكِرْنَ يوماً فهنَّ لَطِيبُ الراحِ الفِداءِ  
نُويها للملامسة إن ألمنا إذا ما كان معتٌ أو لحاءٌ (٤)  
ونشرها فتتركنا ملوكاً وأشدَّ ما يُنهنهنَّ اللقاء (٥)



عَدِمْنَا خَيْلَنَا إن لم تروها تُثيرُ النقعَ موعدها كداءً (٦)  
يُنَارِعُنَ الأسنَّةَ مُضْعِباتٍ على أكتافها الأسلُ الظمَاءُ (٧)  
يُظَلُّ جِيادنا مُتَمَطِّراتٍ تَلطَّمُهُنَّ بِالخُمُرِ النِّسَاءُ (٨)  
فإِما تُعْرَضُوا عَنَّا أَعْتَمَرْنَا وكان الفتحُ وانكشفَ الغطاءُ

- (١) شاء : جمع شاة ، وهي المذكر والمؤنث من الغنم ، أو منها ومن المعزى وغيرها ، وأصل شاء شاه قلبت الهاء همزة .
- (٢) شعناء : اسم امرأة وكانت إحدى زوجات حسان ، وقد قيل إنه لم يعشق كغيره من الشعراء وإنما كان يذكر نساءه في شعره ، وفي البيت التفات لقوله تيمته بعد قوله في البيت قبله يُورقني .
- (٣) السبيمة : الخمر المشتراة . بيت رأس : موضع بالشام مشهور بالخمر ، إذا رفع مزاج مع رفع عسل تكون الجملة خبر يكون واسمها ضمير الشأن ، وإذا نصب يكون ذلك ضرورة .
- (٤) ألام الرجل : فعل ما يلام عليه فهو هليم بمعنى ملوم . المعث : القتال والشر . اللحاء والملاحاة : المعارضة باللسان .
- (٥) ينهنهنها : يردّها .
- (٦) كداء : الثنية العليا بكمة ، وهي التي دخل منها النبي فاتحاً .
- (٧) معنى منازعة الخيل للأسننة : أن الفارس يضجع راحته فتكون شبابه بمساماة رأس الفرس فيجربى محاولاً سبق الريح . الأسل : جمع أسلة وهي الريح . الظماء جمع أظمى : أى أسمر ، يقال رمح أظمى ، وشفة ظمياء : أى سمراء .
- (٨) تطر الفرس : أسرع . تلطمهن النساء بالخمر : أى يفضن ما عليها من الغبار بضرها بالخمر .



وَالْإِفَاصِرُوا لِحِلَادِ يَوْمٍ يُعِينُ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ  
 وَقَالَ اللَّهُ قَدْ يَسَّرْتُ جَنَدًا هُمُ الْأَنْصَارُ عَرْضَتْهَا اللَّقَاءُ (١)  
 لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعَدٍّ سِبَابٌ أَوْ قِتَالٌ أَوْ هِجَاءٌ  
 فَنَحْكِمُ بِالتَّوْفِيقِ مَنْ هَجَانَا وَنَضْرِبُ حِينَ تَحْتَلِطُ الدِّمَاءُ (٢)  
 وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتُ عَبْدًا يَقُولُ الْحَقَّ إِنْ نَفَعَ الْبَلَاءُ  
 شَهِدْتُ بِهِ وَقَوْمِي صَادَقُوهُ فَقُلْتُمْ مَا نُجِيبُ وَمَا نَشَاءُ  
 وَجَبْرَيْلُ أَمِينُ اللَّهِ فِيْنَا وَرُوحُ الْقُدْسِ لَيْسَ لَهُ كِفَاءُ  
 أَلَا أَبْلَغُ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي مُغْلَمَةٌ فَقَدْ بَرِحَ الْخَفَاءُ  
 بَانَ سُيُوفَنَا تَرَكَتْكَ عَبْدًا وَعَبْدُ الدَّارِ سَادَتَهَا الْإِمَاءُ (٣)  
 هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجِبْتُ عَنْهُ وَعِنْدَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ الْجَزَاءُ  
 أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكُفٍّ فَشَرُّ كَمَا خَلَّيْرُ كَمَا الْفِدَاءُ (٤)  
 هَجَوْتَ مُحَمَّدًا بَرًّا حَنِيفًا أَمِينَ اللَّهِ شَيْمَتُهُ الْوَفَاءُ  
 أَمِنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءٌ (٥)

(١) يقال فلان عرضة حرب: أي يتعرض له كثيرا فهو عرضة الحرب، والحرب عرضته كلاهما عرضة للآخر.

(٢) نحكم: نمنع وزد.

(٣) عبد الدار: بطن من قريش كانت لهم السقاية واللواء والحجابه والرفادة. وفي غزوة أحد قال لهم أبو سفيان إنكم ضيعتم اللواء يوم بدر فادفعوه إلينا ففضبوا وإنما أراد أن يحملهم على الصبر، وكان قد أخذه منهم طلحة بن أبي طلحة فقتله على ثم أخذه عثمان ابنه فقتله حمزة ثم سعيد بن أبي طلحة فقتله سعد بن أبي وقاص وما زال اللواء ينتقل حتى أخذه عبد لهم يسمى صوابا فقتل فأخذته امرأته. فهذا ما أشار إليه حسان في قوله « سادتها الاماء » ويصح أن تقرأ سادتها فعلا فتكون تأوها ساكنة، أو اسما فتكون التاء مضمومة والوزن يجيز الأمرين.

(٤) لما أنشد حسان البيت قال الحاضرون: هذا أنصف بيت قائله العرب. وأنت تعلم أنه احتناء لقوله تعالى (وإننا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين).

(٥) العطف في قوله ويمدحه على تقدير من: أى ومن يمدحه لأن المادح غير الهاجى.



فإنَّ أبى ووالدهَ وعِرضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وَقَاءَ (١)  
 لِسَانِي صَارُمٌ لَا عَيْبَ فِيهِ وَبَحْرِي مَا تُكَدِّرُهُ الدَّلَاءُ (٢)  
 وقال يذكري يوم أحد ويفخر بنصر قومه لرسول الله :

وقد ضاربت فيه بنو الأوس كلهم وكان لهم ذكركم هناك رفيع  
 وحامى بنو النجار فيه وضاربوا وما كان منهم فى اللقاء جزوع  
 أمام رسول الله لا يتخلونه لهم ناصر من ربهم وشفيح  
 وفوا إذا كفرتم يا سخين بر بكم ولا يستوى عبد عصى ومطيع (٣)  
 بأيمانهم بيض إذا حمى الوغى فلا بد أن يرذى بهن صريع  
 أولئك قومي سادة من فروعهم ومن كل قوم سادة وفروع  
 فإن تذكروا قتلى وحمزة فيهم قتيلى ثوى لله وهو مطيع  
 فإن جنان الخلد ينزله بها وأمر الذى يقضى الأمور سريع  
 وقتلاكم فى النار أفضل رزقهم حميم معاً فى جوفها وضريع (٤)



اتصل عطاء آل جفنة بحسان حتى بعد أن أسلم وتنصروا . فقد أرسل إليه جيلة

- (١) العرض هنا: بمعنى النفس .  
 (٢) الدلاء : جمع دلو ، والمعنى أن بحره واسع كثير الماء بعيد الغور ، يريد أنه كثير الشعر فصيح اللسان .  
 (٣) سخين: كناية عن قريش لأنها كانت تكثر من أكل السخينة فغيرت بها ، وقد مازح معاوية الأحنف بن قيس ، فقال له: ما الشئ الملفف فى البجاد؟ قال السخينة يا أمير المؤمنين . أشار معاوية إلى وطب اللبن يلف فى الصوف وكانت تميم ( قوم الأحنف ) تعير بحب الأكل قال الشاعر :

إذا مامات ميت من تميم فسرك أن يعيش نجى بزاد  
 بنجيز أو بتمر أو بسمن أو الشئ الملفف فى البجاد

- (٤) الحميم : الماء الحار . الضريع : طعام أهل النار ، وقيل ان هذه الكلمة لم يكن العرب يعرفونها قبل القرآن .



ابن الأيهم بعد أن ارتدَّ عن الإسلام ، ولحق به رَقْل قيصر الروم خمسمائة دينار وخمسة  
أثواب ديباج ، فلما صارت الهدية إلى حسان قال :

إِنَّ ابْنَ جَفْنَةَ مِنْ بَقِيَّةِ مَعْشَرٍ      لَمْ يَغْدُهُمْ آبَاؤُهُمْ بِاللُّومِ  
لَمْ يَنْسِنِي بِالشَّامِ إِذْ هُوَ رَبُّهَا      كَلَّا وَلَا مُنْصَرًّا بِالرُّومِ  
يُعْطِي الْجَزِيلَ وَلَا يَرَاهُ عِنْدَهُ      إِلَّا كَبْعُ عَطِيَّةِ الْمَذْمُومِ  
وَأَتَيْتُهُ يَوْمًا فَقَرَّبَ مَجْلِسِي      وَسَقَى فِرْوَانِي مِنَ الْخُرْطُومِ (١)

وقال يرثي رسول الله :

مَا بَالُ عَيْنِكَ لَا تَنَامُ كَأَنَّما      كَحَلَّتْ مَا قِيهَا بِكَحْلِ الْأَرْمَدِ  
جَزَعًا عَلَى الْمَهْدِيِّ أَصْبَحَ ثَاوِيًا      يَاخِرَ مَنْ وَطِئَ الْحَصَى لَا تَبْعَدِ  
وَجْهِي يَقِيكَ التُّرْبَ لَهْفِي لَيْتَنِي      غُيِّبْتُ قَبْلَكَ فِي بَقِيْعِ الْغَرْقَدِ (٢)  
بَأَبِي وَأُمِّي مِنْ شَهْدَتِ وِفَاتِهِ      فِي يَوْمِ الْأَثْنَيْنِ النَّبِيُّ الْمَهْدِيُّ  
فَظَلَّتْ بَعْدَ وِفَاتِهِ مُتَبَلِّدًا      مُتَبَلِّدًا يَا لَيْتَنِي لَمْ أُؤَلَدْ (٣)

## موازنات بين أقوال حسان وغيره من الشعراء

يقول حسان :

إِذَا انصرفتُ نَفْسِي عَنِ الشَّرِّ لَمْ تَكَدْ      إِلَيْهِ بَوْجُهُ آخِرَ الدَّهْرِ تُقْبِلُ  
ويقول معن بن أوس البيت بألفاظه ، ولكنه يجعل كلمة الشيء بدل الشر . ولا اتحاد

(١) الخرطوم : الحمر .

(٢) الغرقد : مقبرة المدينة .

(٣) متبلدا : حيران . متلدا : كثير التلفت .



البيتين في جميع لفظهما لم تبق موازنة إلا بين كلمتي شرّ وشيء ، ونرى أن بيت حسان صار بكلمة الشرّ أحكم وأليق بارعواء المسلم وتقواه . أما بيت معن ، فقد صيرته كلمة « الشيء » جاهلياً ينبي عن ركوب الرأس ، والتمادي في العناد ، واطراح التعقل .

ويقول حسان :

لَوْ يَدِبُّ الْحَوْلِيُّ مِنْ وَدِّ الذَّرِّ رِ عَلَيْهَا لِأَنْدَبَتْهَا الْكُلُومُ

ويقول امرؤ القيس :

مِنَ الْقَاصِرَاتِ الطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مَحْوَلٌ مِّنَ الذَّرِّ فَوْقَ الْإِتْبِ مِنْهَا لِأَثَرًا

وبيت حسان خير من بيت امرئ القيس ، فإن المبالغة فيه مقبولة ، إذ جعل ديب النمل على ظاهر الجلد ، فكان من العقول أن يحصل التأثير ، ولكن امرأ القيس غلا وأحال بإثبات التأثير مع صيانة الجسم بالإتب . على أن في بيت حسان تفصيلاً للتأثير بذكر إحداثه الكلوم ، وهو مجمل في بيت امرئ القيس ، ولا شك أن الوصف بركة البشرة يناسبه ذلك التفصيل .

وقال حسان :

مَا إِنْ مَدَحْتُ مُحَمَّدًا بِمَقَاتِي لَكِنْ مَدَحْتُ مَقَاتِي بِمُحَمَّدٍ

وقد سبق كل الشعراء إلى هذا المعنى ، ولم يأت بعده من زاد فيه ، بل لا يزال بيت حسان خيراً فيما نعلم من كل بيت سرق منه .

فهذا المتنبي يقول :

الطَّيِّبُ أَنْتَ إِذَا أَصَابَكَ طَيْبُهُ وَالْمَاءُ أَنْتَ إِذَا اغْتَسَلْتَ الْغَاسِلُ

ولا شك أن اللفظ في بيت حسان قد حاز الفضيلة لأنه قد تيسر له من غير تكلف ذلك النوع البديعي المسمى بالعكس .

وكذلك قد سرقه أبو تمام في قوله :

وَلَمْ أَمْدَحْكَ تَفْخِيماً لَشَعْرِي وَلَكِنِّي مَدَحْتُ بِكَ الْمَدِيحَا



وهو يحاول تحقيق العكس ، فيأبى عليه اللفظ ، إذ جعله كلمة « المديحا » بدل الشعر  
منع من ذلك .

ولقد ذكروا أن حسان لما أنشد النابغة بسوق عكاظ ، ففضل عليه النابغة  
الخنساء غضب وقال :

أنا والله أشعر منها ومنك ومن أبيك ، قال النابغة : حيث تقول ماذا ؟ قال :  
حيث أقول :

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَهْمُنَ فِي الضُّحَى      وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمًا  
وَلَدْنَا بَنِي الْعَمَقَاءِ وَأَبْنَى مُحَرَّقٍ      فَأَكْرِمُ بَنَا خَالًا وَأَكْرِمُ بَنَا ابْنًا

قال النابغة : لقد قلت جفانك وأسيفك ، وفخرت بمن ولدت ، ولم تفخر بمن ولدك .  
وقالت الخنساء : تقول ، يلمعن بالضحى ، وكان حقه بالدجى ، ليكون أكثر طرأقا ،  
وقلت الغر ، وكان حقه البيض ، ويقطرن ، وكان الأجل يسلمن أو يفضن . . . وبعض  
هذه المأخذ حسن مقبول ، ولكن منها المتكلف الذى يصح أن يكون مدسوساً على  
هؤلاء العرب الأقياح الذين لا يعرفون هذه المناقشات اللفظية التى لا تدل أكثرتها  
إلا على فساد الذوق . وأرى أن كلمة يقطرن لا غبار عليها ، وليس الفيضان ولا السيولة  
بأبلغ فى الدلالة على الشجاعة ، لأن السيف مهما كثر القتل به ، فإنه لا يزيد على أن  
يقطر الدم .

وقد روى بعض الكتب هذه القصة بزيادات لا شك أنها مدسوسة ، كقولهم :  
إن الخنساء عابت كلمة نجدة ودما ، وقالت : لو قال نجدات ودماء لكان أبلغ ، وهو  
قول ظاهر الفساد ، فإن نجدة مصدر ، والدم اسم جنس ، وهما يدلان على الكثير  
والقليل سواء .

هذا وديوان حسان رضى الله عنه مطبوع فى مصر وغيرها ، ومشروح بعدة  
شروح ، ونرى أن أليقها وأقربها إلى الصحة والضبط ، شرح الأستاذ الجليل عبد الرحمن  
البرقوقى ذى الآثار الأدبية الكثيرة .



## الخطيئة

نشأ الخطيئة لا يعرف له نسباً صريحاً ينتمى إليه ، وكان كلما سأل أمه عن نسبة خلطت عليه القول وموهت ، فحقد عليها من أجل ذلك كما حقد على أبيه ، لأنه يعرف أن صراحة النسب في العرب شرف لا يعدله شرف . ولكنه لم يستطع مداراة هذه الفضيحة البادية ، فكان يصرح بقوله : أنا موضوع النسب . سأل أمه مرة عن أبيه ، فخلطت عليه ، وكان اسمها الضراء ، فقال :

تَقُولُ لِي الضَّرَاءُ لَسْتُ لَوَاحِدٍ      وَلَا اثْنَيْنِ فَانظُرْ كَيْفَ شَرِكُ أَوْلَمَكَا  
وَأَنْتِ أَمْرٌ تَبْغِي أَبَا قَدْ ضَلَلْتَهُ      هَمِلْتُ أُمَّمَا تَسْتَفِقُ مِنْ ضَلَالِكَا<sup>(١)</sup>

والذي عرف من نسبه أن أمه كانت أمة لأوس بن مالك الذي ينتهي إلى عبس ، وكان أوس متزوجاً بنت رياح بن عوف بن الحارث ، وتنتهي إلى ذهل ، وكان لبنت رياح أخ يقال له الأقمم . فيقال : إن أوساً أعلق جاريته الضراء بالخطيئة ، فلما ولدته جاء شبيهاً بالأقمم ، وسألها مولاتها : من أبو هذا الصبي ؟ فقالت لها : هو من أخيك ، وهابت أن تقول لها : من زوجك . فلما شبهت الصبي بأخيها قالت لها : صدقت ، فلما مات أوس ترك بنين من الحرة ، وتزوج الضراء رجل من عبس ، فولدت رجلين ، فكانا أخوي الخطيئة من أمه ، وقد أعتقت بنت رياح أم الخطيئة ، فلما صارت حرة

(١) يقال هملته أمه : أي شكته ، والقياس أن يقال في الدعاء هملت (بالبناء للمجهول) لأنه إنما يدعو عليه أن تشكله أمه ولكن صاحب لسان العرب نقل عن ابن الأعرابي أنه يقال في الدعاء هملت (بالبناء للفاعل) .



اعترفت أنها اعتلقت بالخطيئة من أوس . . وإنما ذكرنا هذا لترى كيف أن الخطيئة اتخذت من هذا التاريخ وسيلة لإشباع طمعه ، وإرضاء نفسه الحريصة على المال فإنه قام يطالب بميراثه من نوح كثيرة : طالب ابني أوس بنصبيه مما خلفه أوس ، فامتنعا وقالوا : أقم معنا ونواسيك ، فلم يرض حكمهما ، وقال يهجوها :

أَأَمَرْتُمَانِي أَنْ أُقِيمَ عَلَيْكُمَا      كَلَّا لَعَمْرُؤُا نِيكُمَا الْحَبَّاقِ (١)  
عَبْدَانِ خَيْرُهُمَا يُشَلُّ بِضَبْعِهِ      شَلَّ الْأَجِيرِ قَلَابِصَ الْوَرَّاقِ (٢)

ثم لحق بإخوته من الأقم وسألهم ميراثه ، وتلقهم أولاً بالمدح ، فقال :

إِنَّ الْيَمَامَةَ خَيْرٌ سَاكِنِيهَا      أَهْلُ الْقُرْيَةِ مِنْ بَنِي ذُهَلِ (٣)  
الضَّامِنُونَ لِمَالِ جَارِهِمْ      حَتَّى يَتِمَّ نَوَاهِضُ الْبَقْلِ (٤)  
قَوْمٌ إِذَا أُتْسَبُوا فَفَرُّهُمْ      فَرَعِي وَأَثْبَتُ أَصْلِهِمْ أَصْلِي

فأعطوه نخلات سميت بعد نخلات أم مليكة ، وهي أمانة امرأة الخطيئة . ثم لم تقنعه النخيلات ، وقد قام فيهم زمانا ، فسألهم ميراثه فلم يعطوه ، وضر به فقال :

تَمَنَيْتُ بَكَرًّا أَنْ يَكُونُوا عِمَارَتِي      وَقَوْمِي وَبَكَرُّهُ شَرُّ تِلْكَ الْقَبَائِلِ (٥)  
إِذَا قُلْتُ بَكَرِي نَبَوْتُمْ بِحَاجَتِي      فَيَالَيْتِي مِنْ غَيْرِ بَكَرٍ بِنِ وَاثِلِ (٦)

وغاضبهم فعاد إلى بني عبس وانتسب إلى أوس بن مالك .

(١) الحباق : الكثير لإخراج الريح .

(٢) يشل : يطرد . الضبع : وسط العضد . الوراق : صاحب الورق ، وهو المال . من ابل ودرام وغيرهما .

(٣) القرية : موضع باليمامة مساكن بني ذهل .

(٤) نهض البقل : استوى على سوقه ، يقول : إذا أجذب الناس ضمن هؤلاء المدوحون لجارهم وضيغهم ماله ، لا يعتدى عليه ، ولا يهلكه الجذب حتى يعود الخصب .

(٥) العمارة : أصغر من القبيلة .

(٦) نبوتم : تباعدتم .



ذلك هو الخطيئة الذي كان متدافعاً فيه بين قبائل العرب، يأوى إلى هذه إذا غضب على تلك، ويصحح نسبه من واحدة إذا عتب على الأخرى .



اجتمع على الخطيئة اختلاط النسب ، ( وهى شنعة ما بعدها شنعة ) ، وقبح الخلقة إذ كان قصيراً ، ( وقيل إنه سمى الخطيئة : لقصره ) قريباً من الأرض دميماً ، صغير العينين مضغوط اللحيين : وانضم إلى ذلك حرص منه على المال ، وشدة نهم إليه ، حتى كان أحد بخلاء العرب المشهورين ، وهم فيما عدوا أربعة : الخطيئة ، وحميد الأرقط ، وأبو الأسود الدؤلى ، وخالد بن صفوان . كان الخطيئة يطرد أضيافه ، فقد مرّ به رجل ، وهو فى غنم له ، فقال الرجل : يا صاحب الغنم ، فرفع الخطيئة العصا وقال : إنها عجّراء<sup>(١)</sup> من سلم ، فقال : الرجل إني ضيف ، فقال للضيفان أعدتها . وقيل مرّ به ابن الحمامة ، وهو جالس بفناء بيته ، فقال : السلام عليكم ، فقال : قلت ما لا ينكر ، فقال : إني خرجت من أهلى بغير زاد . قال ما ضمنت لأهلك قراك . قال أفتأذن لى أن آتى ظل بيتك أتقياً به ؟ قال : دونك الجبل ينفى<sup>(٢)</sup> عليك . قال : أنا ابن الحمامة . قال انصرف وكن ابن أى طائر شئت .

ونستطيع أن نفسر بهذه الصفات التى قدّمناها بين يديك كثرة تعرضه للطلب من الناس ، وكثرة جشعه ، وقلة اقتناعه بما يصل إليه منهم ولجوءه إلى الهجاء من أجل منعهم أو إعطائهم المصرد ، فقد ذكروا أنه قدم المدينة والناس فى سنة مجدبة ، وفى غضبة من خليفة ، فمشى أشرف أهل المدينة بعضهم إلى بعض وقالوا : قد قدم علينا هذا الرجل وهو شاعر ، والشاعر يظن فيحقق ، وهو يأتى الرجل من أشرافكم فيسأله ، فإن أعطاه جهّد نفسه بهرّها ، وإن حرّمه هجاه ، فأجمع رأيهم على أن يجعلوا شيئاً معداً يجمعونه بينهم ، فكان أهل البيت من قریش والأنصار يجمعون العشرة والعشرين

(١) ذات عقد . (٢) يظل .



والثلاثين ديناراً، حتى جمعوا له أربعمائة ديناراً، وظنوا أنهم قد أغنوه ، فأتوه فقالوا : هذه صلة بنى فلان ، وهذه صلة بنى فلان . فأخذ جميع ذلك ، ثم إذا هو يوم الجمعة قد استقبل الإمام ماثلاً ينادى : من يحملنى على بغلين وقاه الله كبة جهنم .

وفى أخباره : أنه مضى إلى عتيبة بن النهاس ، فسأله فقال له : ما أنا على عمل فأعطيك ، ولا فى مالى فضل عن قومي ، فقال له : لا عليك ، وانصرف ، ثم لام عتيبة قومه ، وقالوا : هذا الخطيئة ، وهو لا بدّ هاجيناً أخت هجاء ، فقال : ردّوه ، ثم أرسل معه وكيله إلى السوق ، وقال له : لا يطلب شيئاً إلا اشترته له ففعل حتى قضى أربه ومضى ، وفيما عتيبة جالس فى نادى قومه إذ أقبل الخطيئة ، فلما رآه عتيبة قال : هذا مقام العائذ بك يا أبا مليكة من خيرك وشرك ، فقال : إني قد كنت قلت بيتين فاسمعهما ثم أشأ يقول :

سُئِلْتُ فَلَمْ تَبْخَلْ وَلَمْ تُعْطِ طَائِلًا      فَسِيَّانٍ لَازِمٌ عَلَيْكَ وَلَا حَمْدُ  
وَأَنْتَ امْرُؤٌ لَا الْجُودُ مِنْكَ سَجِيَّةٌ      فَتُعْطَى وَلَا يُعْدَى عَلَى النَّائِلِ الْوُجْدُ<sup>(١)</sup>

ثم ركض فرسه وذهب .

وحديثه مع الزبرقان بن بدر يدلّ على الشره وقلة الوفاء ، فأما الشره فلأنه تعجل عطاءً بغيض ولم ينتظر الزبرقان حتى يعود إليه كما وعده ، وأما غدره فلأنه ترك جوار الزبرقان من غير إساءة لحقته من الرجل ، ولم يكتف بذلك بل هجاه من غير أن يكون منه إليه منع ، ولكنها النفس الشريرة كالنار تكمن فى الحطب فيؤججها عود تقاب ، وإليك قصته مع الزبرقان ترى فيها نفس الخطيئة ودناءته وشدة جسعه .

قدم الزبرقان على عمر ليؤدّى صدقات قومه ، فلقبه الخطيئة بقرقرى<sup>(٢)</sup> ، وهى أرض باليامة ، وكان مع الخطيئة ابناه أوس وسودة وبناته وامراته ، فقال له الزبرقان :

(١) أعداه على الأمر : ساعده عليه . الوجد : الغنى ، ومعنى لا يعدى على النائل الوجد ، لیس الغنى هو الذى يعين المرء على العطاء ، بل لا بدله من أن يكون الكرم طبعاً فيه حتى يعطى .

(٢) أرض باليامة فيها قرى ومزارع ونخيل .



وقد عرفه ، ولم يعرفه الحطيئة : أين تريد ؟ قال العراق ، فقد حطمتنا هذه السنة . قال :  
وما تصنع بها ؟ قال : وددت أن أصادف رجلاً يكفيني مئونة عمالي وأصفيه مدحى<sup>(١)</sup>  
أبداً ، فقال الزبرقان : قد أصبته ، فهل لك فيه يوسعك لبناً وتمرأ ، ويجاورك أحسن  
جوار وأكرم ، فقال له الحطيئة : هذا وأبيك العيش . قال قد أصبته عندي . قال :  
ومن أنت ؟ قال : أنا الزبرقان بن بدر . قال : وأين محلك ؟ فدلّه عليه وكتب معه  
كتاباً إلى أمه أو زوجه لتحسن إليه ، فلحق الحطيئة بمنزل الزبرقان ، ولقى الإكرام  
والإحسان ، وكان للزبرقان قوم ينازعونه الشرف ، وهم بغيض وإخوته ، وكانوا أشرف  
من الزبرقان إلا أنه استعلاهم بنفسه ، فأعملوا الحيلة ليحولوا الحطيئة إليهم ، ووعدوه  
وأطعموه ، ودسوا إلى امرأة الزبرقان أن الزبرقان يريد أن يتزوج ابنة الحطيئة ،  
وكانت جميلة كاملة ، فظهرت من المرأة جفوة ، وهى فى ذلك مدارية ، وكانت الأطماع  
من بنى أنف الناقة قد اعتلجت بنفس الحطيئة ، فلما احتاج أهل الزبرقان للنجعة ، قال  
لهم الحطيئة تقدموا وأنا لاحق بكم ، ثم لحق ببغيض وقومه ، فبالغوا فى إكرامه وأعطوه  
لقاحاً وكسوة ، فلما قدم الزبرقان سأل عنه فأخبر بقصته ، فجمع قومه وركب فرسه ،  
وأخذ رمحاً ، ووقف بنادى القوم وقال : ردّوا علىّ جارى ، فقالوا : ما هو لك بجار ،  
وقد تركته بمضيعة ، وألم أن يكون بين الحيين حرب ، فحضرهم أهل الحجبا من قومهم  
وانتهى الأمر بأن خيروا الحطيئة ، فاخترار بغيضاً وقومه ، فجاءه الزبرقان ، فقال له :  
يا أبا مليكة أفارقت جوارى عن ذمّ وسخط ؟ فقال : لا ، فتركه وانصرف .

فلو أن فى نفس الحطيئة بقية من وفاء لمدح بغيضاً ، ولم يهيج الزبرقان ، فمداعترف  
له آنفاً بأنه لم يترك جواره عن سخط أو ذمّ ، ولكنه كان مع طمعه دنى النفس  
ساقط المروءة لا يرى الغدر إلا امرأ هيناً ، فقال يمدح بغيضاً ويهجو الزبرقان :

وَاللّهِ مَا مَعَشَرٌ لِّأَمْوَأُ امْرَأً جُنُباً      فِي آلِ لَأَيِّ بْنِ شَمَّاسٍ بِأَكْيَاسِ

(١) أجعله خالصاً له .



ما كان ذنبُ بغيضٍ لأبائكمُ  
 لقد مرَّيتكمو لو أنَّ درَّتكمُ  
 وقد مدَّحتكمو عمداً لأرشدكمُ  
 كما يكون لَكُمْ مَتَّحِي وإمْرَاسِي (١)  
 لما بدأ لي مِنْكُمْ عيبُ أَنفُسِكُمْ  
 ولم يكن لِحِرَاحِي مِنْكُمْ آسِي (٢)  
 أزمعتُ يأساً مُبيناً من نوائِكُمْ  
 ولا يُرَى طارداً لِلنُحْرِ كالِياسِ  
 جارُّ لِقَوْمٍ أَطالوا هُونَ مَنزِلِهِ  
 وغادروهُ مُقيمًا بين أَرْمَاسِ (٣)  
 مَلُوا قِرَاهَ وَهَرَّتْهُ كلابِهِم  
 وجَرَّحُوهُ بِأَنْيَابِ وَأَضْرَاسِ  
 دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِبُغْيَتِهَا  
 وأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي (٤)  
 مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ  
 لا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ  
 ما كان ذَنْبِي أَنْ فَلَّتْ مَعَاوِلِكُمْ  
 مِنْ آلِ لَأْيٍ صَفَاةٌ أَصْلُهَا رَاسِي  
 قَدْ نَاضُلُوكَ فَسَلُّوا مِنْ كِنَانِهِمْ  
 مَجْدًا تَلِيدًا وَنَبْلًا غَيْرَ أَنْكَاسِ (٥)

وكان منذ إقامته فيهم لا يزال يمدحهم ، وهو القائل فيهم :

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذنبا

(١) مري الناقة يمر بها: مسح ضرعها. الدرّة: اللبن. المسح: إمرار اليد على الضرع. الإيباس:

التلطف للناقة بأن يقال لها بس بس لتسكن ويدرّ لبنها .

(٢) المتح: نزع الماء من البئر. أمرس الحبل: أعاده إلى مجراه بعد أن يكون قد نشب بين البكرة والعقو .

(٣) الهون: الذل. الأرماس: جمع رمس، وهو الفبر .

(٤) قال الفراء: إن طاعما وكاسيا في البيت بمعنى مطعوم ومكسو . وعليه في البيت مجاز عقلي . ولا أرى داعيا لهذا مادام في اللغة طعم الرجل بمعنى أكل وكسى بمعنى اكتسى فيكون استعمال اسم الفاعل على أصله .

(٥) أنكاس: جمع نكس، وهو أضعف السهام، وكان العرب إذا أسروا أسيرا خيروه بين التخلية مع جز الناصية وبين الأسر، فاذا اختار التخلية جعلوا شعره المجزوز في كنانتهم فاذا اقتبروا أخرجه، فهذا هو المراد بقوله « مجدا تليدا » .



فقلب اللقب من ذم إلى مدح ، وقد كانوا يطأطئون رءوسهم لهذه الكلمة ، فصاروا إذا سئل أحدهم عن نسبه قال : أنفى يملاً بها فمه .

وسبب تلقبهم بهذا اللقب أن جدّهم قريعاً نحر ناقه ، قسمها بين نساءه ، فبعثت جعفرأ أمه فأتى أباه ، ولم يبق إلا رأس الناقه ، فقال له شأنك بهذا ، فأدخل يده في أنفها وجرها منه ، فسمى أنف الناقه .

وما زال الخطيئة نازلا بالقوم حتى أحيوا ، وكانوا قد وعدوه إذا أصابهم الحيا أن يعطوه مائة من الإبل ، فجمعوها له ودفعوها إليه مع راعيين ، فرحل عنهم وقال :

لا يُبْعِدُ اللهُ إِذْ وَدَّعْتُ أَرْضَهُمْ أَخَى بَغِيضًا وَلَكِنْ غَيْرُهُ بَعْدًا  
لا يُبْعِدُ اللهُ مَنْ يُعْطَى الْجَزِيلَ وَمَنْ يَحْبُو الْجَلِيلَ وَمَا كَدَى وَلَا نَكِيدًا<sup>(١)</sup>  
وَمَنْ تَلَاقِيهِ بِالْمَعْرُوفِ مُبْتَهَجًا إِذَا أُجْرَهَدَّ صَفَا الْمَذْمُومِ أَوْ صَلَدًا<sup>(٢)</sup>  
لَا قِيَّتَهُ ثَلَجًا تَنْدَى أَنَامِلُهُ إِنْ يُعْطِكَ الْيَوْمَ لَا يَمْنَعُكَ ذَاكَ غَدًا<sup>(٣)</sup>  
إِنِّي لَرَأْفِدُهُ وَوَدَى وَمَنْصَرَّتِي وَحَافِظُهُ غَيْبُهُ إِنْ غَابَ أَوْ شَهِيدًا

ويظهر أن الغدر الذي غدره الخطيئة كان لا يزال يحز في ضميره ، فإنه أتى ابن عباس ، وقد كفّ بصره والناس حوله يستمعون له ، فقال يابن عم رسول الله أفنتي . قال : فيم ؟ قال : أتخاف على جناحا ، إن ظلمني رجل فظلمته ، وشتمني فشتمته ، وقصر بي فقصرت به ، فقال ابن عباس : العفو خير ، ومن انتصر فلا جناح عليه ، رأيت أمراً أتاني فوعدني وغرني ومنانى ، ثم أخلفني واستخفّ بجرمتي ، أيسعني أن أهجوه ؟ قال لا يصلح الهجاء ، لأنه لا بد أن تهجو غيره من عشيرته ، فتظلم من لم يظلمك ، وتشتم من لم يشتمك ، وتبغى على من لم يبيع عليك ، والبغى مرتعه وخيم ، وفي العفو ما قد

(١) يحبو : يعطى . أ كدى الرجل : حفر فصادف الكدية (الصخرة العظيمة) ويقال سأله فأ كدى : أى وجدته مثله : ويقال أ كدى الرجل بمعنى نحل . نكد : منع العطاء أو أعطى قليلا  
(٢) اجرهدت الأرض : لم تنبت . الصفا : جمع صفاة ، وهى الصخرة العظيمة لاتنبت . صلدا : صلب  
(٣) ثلجا : فرحا مبتهجا .



علمت من الفضل . قال الحطيئة : صدقت وبررت ، ثم لم يلبث الحطيئة أن عرف ، فقال له ابن عباس : أجروا ؟ قال : نعم . قال ابن عباس : لله أنت أي مردي قذافي<sup>(١)</sup> ، وذائد عن عشيرة ، ومثني بعارفة تؤتاها يا أبا مليكة ، والله لو كنت عرّكت بجنبك بعض ما كرهت من أمر الزبرقان كان خيراً لك ، ولقد ظلمت من قومه من لم يظلمك ، وشممت من لم يشتمك . قال : إني والله بهم لعالم ، ثم أنشأ يقول :

أَنَا ابْنٌ بَجَدْتَهُمْ عِلْمًا وَتَجْرِبَةً      فَسَلِّ بِسَعْدٍ تَجِدْنِي أَعْلَمَ النَّاسِ<sup>(٢)</sup>  
سَعْدُ بْنُ زَيْدٍ كَثِيرٌ إِنْ عَدَدْتَهُمْ      وَرَأْسُ سَعْدِ بْنِ زَيْدٍ آلُ شَمَّاسِ<sup>(٣)</sup>  
وَالزَّبْرَقَانُ ذُنَابَاهُمْ وَشَرُّهُمْ      لَيْسَ الذَّنَابِيُّ أَبَا الْعَبَّاسِ كَالرَّاسِ

فقال له ابن عباس : أقسمت عليك أبا مليكة ألا تقول إلا خيراً . قال : أفعل .



أما موقع قول الحطيئة من الزبرقان ، فقد كان شديداً جداً كان حطاً لكرامته وسلباً لمروءته ، فهم ذلك الزبرقان من قوله : « واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي » ، عرف كما يعرف كل خمير بالأسلوب العربي أن مراده أنك ضعيف الهمة ، زمر المروءة<sup>(٤)</sup> لا مطمع لك في الحياة إلا أن تكون آكلا كاسياً . ذلك هو منتهى أملاك ، ومرتقى سعيك ، فلست للرياسة ، ولا للدفاع من العشيرة ، فكأنه قد سلبه بهذه الكلمة جميع صفات المجد ، وحلى الشرف ، وهو خبت من الحطيئة ، ولؤم ضريبة ، ومعرفة بمواطن الإيلام من النفوس ، يأتيها من أيسر الطرق بلا جلبة ولا ضوضاء ، أترأه كيف جعل

(١) المردي : حجر يرمى به ، ويقال للشجاع هو مردي حرب أو مردي قذافي .

(٢) البجدة : الأصل ، وباطن الشيء ، والصحراء ، ويقال : أنا ابن بجدتها : أي العالم بها والضمير للصحراء .

(٣) الباء في « بسعد » بمعنى عن كقوله تعالى « سأل سائل بعذاب واقع » . وسعد : هي القبيلة الكبرى التي يرجع إليها آل شماس والزبرقان .

(٤) زمر المروءة : قليلها ، ويقال فلان زمر الشعر : أي قليله ، فزمر بمعنى قليل .



هجاءه في صورة نصيح يسديه إلى هذا الذي يعنى نفسه في طلب المجد ، وهو غير قادر عليه ولا يملك أدواته من كرم وشجاعة وغيرها ، فيقول له في لهجة الناصح :

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرَحَّلْ لِتُبَغِيَّتِهَا وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

ويدلك على شناعة هذا الهجاء أن عمر لما اشتكى إليه الزبرقان قال : ما أرى هجاء وهو العالم بموضع الإيذاء في الكلام ، ولكنه يريد أن يدرأ الحدود بالشبهات ، ثم حكم الشعراء ، فكان منهم إجماع على فحش هذا الهجاء ، فإن حسان قال : لم يهجه ولكن سلح عليه وقال لبيد : ما يسرنى أن لى حُمُرُ النَّعَمِ ، وأنه قد قيل في هذا البيت .

ولم يعرف للحطيئة موقف لم يُصِخَّ فيه إلى داعى شرهه إلا حين طلب منه هجاء أوس بن سُعْدَى ، وكان النعمان قد أقدم إليه وفود العرب وقال : أحضروا غداً فإني ملبس أكرمكم حلة ثمينة فتخلف أوس ، فلما جلس القوم لم ير النعمان أوسا فيهم فطلبه ، فلما حضر ألبسه الحلة ، فحسده قوم من أهله وقالوا للحطيئة : اهجه ولك ثلاثاة ناقة ، فقال : كيف أهجو رجلا لا أرى في بيتي أثاثاً ولا مالا إلا من عنده ، ثم قال :

كيف الهجاء وما تنفكُ صالحة من آل لأى بظهر الغيب تأتيني



وقد رأيت أن الحطيئة على هجنة نسبه وقبح منظره ، وإلخافه في السؤال كان هيبياً محشى الجانب ملقى بالإكرام من كل من عرفه ، والاعتذار من كل من سبقت إليه منه جفوة ، وما ذلك إلا لأنه كان سفيهاً حقير الشأن لا يتحرج من عيب ، ولا يترفع عن خسيسه فهو يهجو ، وقد أمن أن يهجو ويؤذى الناس في أعراضهم على حين لا عرض له يحرص على نقاوته ، ولو قال الناس فيه لذهب قولهم هباء . هذا هو السر الذي جعل الحطيئة يخلع عذاره ، ويطلق لسانه في أعراض الناس لا يبالي أين وقع ولو رأى الناس له عرضاً يرمى لوجدوا مكان القول ذا سعة ، فهو كما قال القائل :

نَجَا بِكَ لَوْ مُكَّ مَنَجِي الدُّبَا بِ حَمْتِهِ مَقَاذِيرُهُ أَنْ يُصَادَا





كان الخطيئة فاسد الدين ، وقد تجلى هذا الفساد في ارتداده بعد وفاة رسول الله  
وتهكمه بأبي بكر حين ولي الخلافة ، وقد قال في ذلك :

أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ كَانَ يَبْنِنَا فَيَا عِبَادِ اللَّهِ مَا لِأَبِي بَكْرٍ  
أَيُورِثُهَا بَكْرًا إِذَا مَاتَ بَعْدَهُ وَتِلْكَ لِعَمْرٍُ اللَّهِ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ

كما يتجلى ذلك الفساد أيضاً في نهشه الأعراس ، وقد نهى الدين عنه وفي عودته  
للهجاء بعد أن تاب على يد عمر وعاهده ألا يعود . فلما مات رجع إلى ما كان فيه من  
سب الناس كما ترى ذلك ظاهراً في حديثه مع ابن عباس ، فإنه بعد أن أفتاه بجرمة  
الهجاء لم يبرح مجلسه حتى هجا الزبرقان ، وإنك لترى في وصيته وقد احتضر أن جعل  
للإناث من أولاده مثل حظ الذكور ، وفي بعض الروايات أنه حرمهن ، فلما قيل له :  
إن هذا غير ما قضى الله . قال : لكني هكذا قضيت .



لم يكن الخطيئة صادقاً في قوله حتى يصح أن نتخذ قوله في كل أحواله دليلاً على  
ذات نفسه ، فقد اختلف قوله وناقض فعله في كثير من الأمور ، ولعل السبب في ذلك  
أنه ولع بالمباغة في المدح رجاء لما في أيدي الناس كما بالغ في الهجاء ، وادعى على الناس  
ما ليس فيهم حين يؤس من عطاءهم ، ومن أمثلة تلك المناقضات التي وقعت في شعره ،  
وخالفت فعله قوله :

ولست أرى السعادة جمع مالٍ ولكن التقي هو السعيد  
وما لا بد أن يأتي قريب ولكن الذي يمضي بعيد

فإنك إذا قست هذا القول بما تعلم من جشعه وبخله وفساد دينه تجد أنه يقول بلسانه  
ما لا يوقن بجنانه ، وإلا فما الذي جملة على جمع المال وهو يعتقد أن السعادة في غيره .



وهو الذى يُعَدُّ له من حكمه قوله :

مَنْ يَفْعَلْ أَحْيَرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ (١)

ثم لا تعثر له فى أخباره على عارفة أسداها أو كلمة طيبة يرجو ثواب الله عليها حتى إنه فى وصية وفاته . قالوا له : فما توصى لليتامى ؟ قال : كلوا أموالهم ، وقيل له : ما تقول فى عبيدك وإمائتك ؟ قال : هم عبيد معاقب الليل النهار ، وقيل له أوص للفقراء بشيء ؟ فقال : أوصيهم بالإلحاح فى المسألة ، فإنها تجارة لا تبور .

وقال رجل : دخلت على الحطيئة ، وهو مضطجع على فراشه وإلى جانبه سوداء قد أخرجت رجلها من تحت الكساء ، فقال له : ويحك ! أفى رجلك خف ؟ قال : لا والله ولكنها رجل سوداء ، أتدرى من هى ؟ هى والله التى أقول فيها :

وَأَثَرْتُ إِدْلَاجِي عَلَى لَيْلِ حُرَّةٍ هَضِيمِ الْحَشَا حُسَانَةَ الْمُتَجَرِّدِ (٢)

تَفَرَّقُ بِالْمَدْرَى أَثِيثًا نَبَاتُهُ عَلَى وَاضِحِ الذَّفْرِى أَسِيلِ الْمُقْلَدِ (٣)

والله لو رأيتها يا أخى ما شربت الماء من يدها . فانظر كيف وصفها بالحسن مع موضعها من القبح وسوء رأيه فيها .

ومن كذبه يمدح نفسه بالكرم ، وقد علمت مقدار بخله .

وَقَدْ عَلِمْتُ هَنْدُ عَلَى النَّأْيِ أَنْنِي إِذَا عَدِمُوا يُسْرًا لَنَعَمِ الْمُكَلَّفِ

أَرْدُ الْخَاضِ الْبُزْلِ وَالشَّمْسُ حَيَّةٌ إِلَى الْحَيِّ حَتَّى يُوسِعَ التَّنْصِيفِ (٤)

(١) قال الزخشرى فى أساسه : الجوازى أَلطاف الله وأسباب رحمته وأنشد هذا البيت ثم قال : أو أراد جمع جازية بمعنى الجزاء .

(٢) الادلاج : السير أول الليل والادلاج (بتشديد الدال) السير آخره (وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى) . هضم الحشا : دقيقة الحصر . حسانة : شديدة الحسن . المتجرد : مصدر ميبى بمعنى التجرد ، أو اسم مكان بمعنى الجسم ، وكل ذلك بفتح الراء المشددة . وقد تكسر الراء على معنى اسم الفاعل ويراد به الجسم .

(٣) المدرى : المشط . الأثيث : الكثيف ، والمراد به الشعر . الذفرى : العظم الثابت خلف الأذن ، وتقدير الكلام على عنق واضح الذفرى .

(٤) الخاض : الابل الحوامل ، أو العشار التى أتى عليها من حملها عشرة أشهر ، والواحدة خلفه



وكنْتُ إذا دارتْ رَحَى الْأَمْرِ رُغْمَتُهُ بِمَخْلُوجَةٍ فِيهَا عَنِ الْعَجْزِ مَصْرُفٌ (١)

### شعره

أساس القول في شعره أن نقول : إنه تلميذ زهير وراويته وراوية آله من بعده ، وقد علمنا أن زهيراً كان ينقح شعره ويصفيه ، وأن له الحوليات التي لم يكن يظهرها حتى يأتي عليها الحول وقد ورث عن زهير خير ما يرث تلميذ عن معلمه ، فإن تقوافيه أسر قوافي زهير ، ولقوله نقاء قول زهير ، وخلوه من المعازلة والتعقيد ، ثم له حكمته التي شاعت شيوع حكمه زهير ، حتى قال أبو عمرو بن العلاء : إن أصدق بيت قالته العرب هو قول الخطيئة :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس  
فمبيل له فقول طرفة :

سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامَ مَا كُنْتَ جَاهِلًا وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزُودِ  
فقال من يأتيك بها من زودت أكثر ، وليس بيت قالته الشعراء إلا وفيه مطعن  
إلا قول الخطيئة هذا .

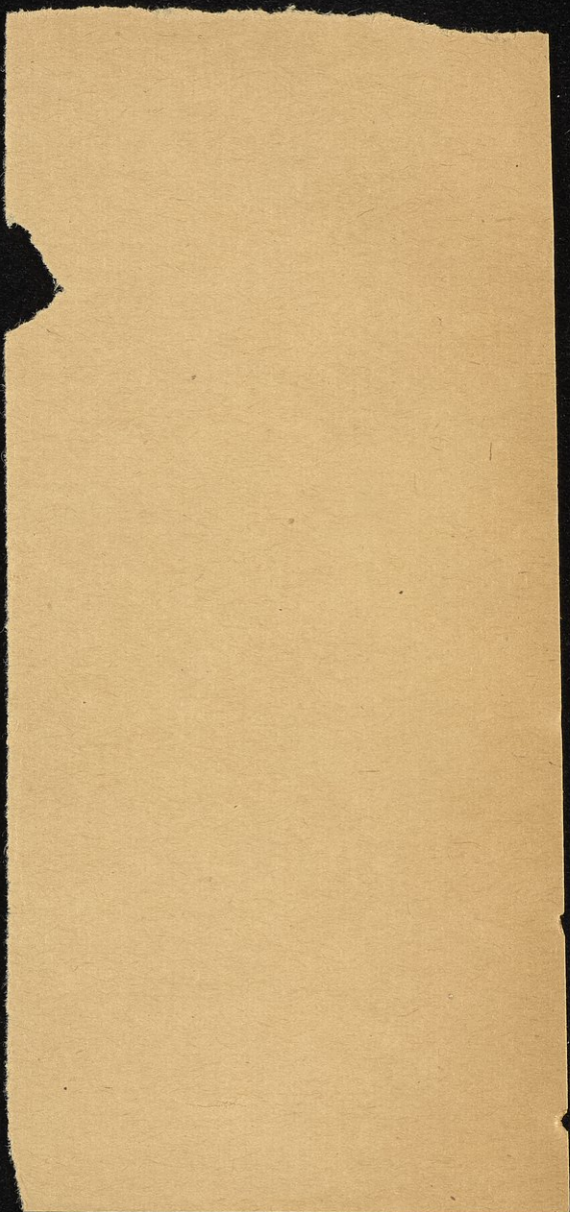
وقد مرَّ بك من حكمته قوله : ( ولست أرى السعادة جمع مال ) .

وإنك لتراه في كلِّ مجال قويّ اللفظ مجتمعه ، شريف المعنى بارعه ، لم يعدّ عليه الناقدون كما عدوا على غيره ، بل لقد عقبوا أقواله بأحكام تجعلها في الذروة من كلام العرب ، فلقد قال حماد الراوية : سمعت أبي يقول ، وقد أنشد قول الخطيئة الآتي : أما إني ما أزعم أن أحداً بعد زهير أشعر من الخطيئة ، وهذا قوله :

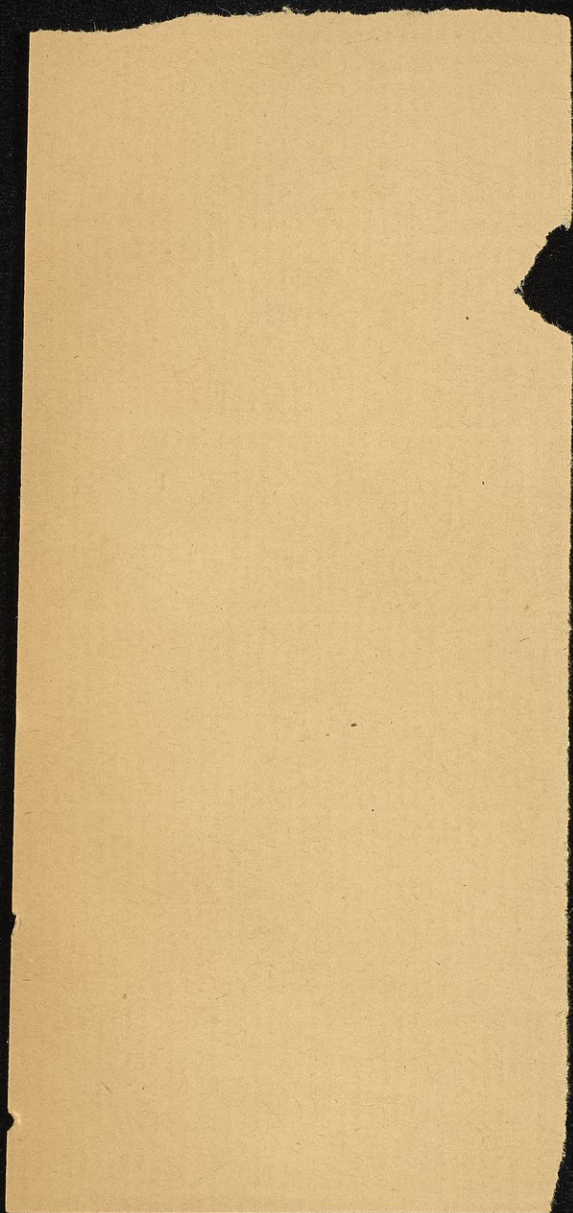
---

بفتح فكسر (واستعمال المفرد نادر) . البزل : جمع بازل وهو الجمل ، أو الناقة في السنة التاسعة وليس بعده سن تسمى . أوسع الرجل : صار ذاسعة . التضيف ( بصيغة الفاعل ) الضيف ، من قولهم : تضيفته أي نزلت ضيفا عليه .  
(١) المخلوحة : العزيمة . مصرف : مصدر ميمي بمعنى الانصراف .











وَفَيْنَانَ صَدَقَ مِنْ عَدِيٍّ عَلَيْهِمْ صَفَاحُ بَصْرَى عُلِّقَتْ بِالْعَوَاتِقِ (١)  
 إِذَا مَا دُعُوا لَمْ يَسْأَلُوا مَنْ دَعَاهُمْ وَلَمْ يُمَسِّكُوا فَوْقَ الْقُلُوبِ الْخَوَافِقِ  
 وَطَارُوا إِلَى الْجُرْدِ الْعِتَاقِ فَأَجْمُوا وَشَدُّوا عَلَى أَوْسَاطِهِمْ بِالْمَنَاطِقِ (٢)  
 أَوْلَيْكَ آبَاءَ الْغَرِيبِ وَعَاثَةَ الْفَصْرِ صَرِيحٍ وَمَثْوَى الْمُرْمِلِينَ الدَّرَادِقِ (٣)  
 أَحَلُّوا حِيَاضَ الْمَوْتِ فَوْقَ جِبَاهِهِمْ مَكَانَ النَّوَاصِي مِنْ وُجُوهِ السَّوَابِقِ (٤)  
 وكان ابن شهرمة يقول : أنا والله أعلم بجيد الشعر ، ولقد أحسن الخطيئة حيث يقول  
 في آل شماس قوم بغيض :

أَلَا طَرَقْتَنَا بَعْدَ مَا هَجَعُوا هِنْدُ وَقَدْ جُزِنَ غَوْرًا وَاسْتَبَانَ لَنَا نَجْدُ  
 وَإِنِ التِّي نَكَبْتَهَا عَنِ مَعَاشِرِ عَلَى غَضَابٍ أَنْ صَدَدْتُ كَمَا صَدُّوا  
 أَنْتَ آلَ شَمَّاسِ بْنِ لَأْيٍ وَإِنَّمَا أَتَاهُمْ بِهَا الْأَحْلَامُ وَالْحَسَبُ الْعَدُّ (٥)  
 فِإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ تَعَادَى صَدُورَهُمْ وَذُو الْجَدِّ مَنْ لَانُوا إِلَيْهِ وَمَنْ وَدُّوا  
 يَسُوسُونَ أَحْلَامًا بَعِيدًا أَنْتَاهَا وَإِنْ غَضِبُوا جَاءَ الْخَفِيظَةُ وَالْجَدُّ (٦)  
 أَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ لَا أَبَا لِأَيِّكُمْ مِِنَ اللَّوْمِ أَوْ سُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا  
 أَوْلَيْكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبِنَى وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْفَوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا (٧)  
 وَإِنْ كَانَتْ النِّعْمَاءُ فِيهِمْ جَزَوْا بِهَا وَإِنْ أَنْعَمُوا لَا كَدَّرُوهَا وَلَا كَدُّوا (٨)

- (١) الصدق : الشدة في القتال . بصرى : مدينة بالشام . صفائح بصرى : الدروع .  
 (٢) المناطق : جمع منطقة ( بكسر الميم ) وهي مايشد على الوسط .  
 (٣) غائثه : جمع غائث . الصريح : طالب النصره . المرمل : الفقير . الدرادق : جمع دردق  
 وهو الصبي الفقير .  
 (٤) عبارة حياض الموت : معناها المنية . السوابق : جمع سابق ، وهو الجواد .  
 (٥) العد : القديم .  
 (٦) الخفيظة : الحمية .  
 (٧) عقدوا : أى عقدوا الألوية للحرب . شدوا : اشتدوا في الحملة .  
 (٨) الضمير في كدروها للنعمة المفهومة من أنعموا . والمراد تكديرها بلن . وكدوا : أى  
 أتعبوا ، والمراد أتعبوا النعم عليه بطلب الشكر .



وإن قال مولاهم على جُلِّ حادِثٍ من الدهرِ رُدُّوا فَضْلَ أَحْلَامِكُمْ رَدُّوا  
مطاعين في الهيجاء مكاشيف للدجى بنى لهم آباؤهم وبنى الجسد  
ولقد بكى عمر من شدة التأثر حين أنشد الحطيئة ، وقد أحضر من سجنه للحاكم  
في أمر الزبرقان :

ماذا تقول لأفراخِ بذي مَرخٍ زُغِبِ الحواصلِ لأماءٍ ولا شجرٍ (١)  
أَلقيتَ كاسِبَهُمْ في قَعْرِ مُظْلِمَةٍ فاغفرْ عليكِ سلامُ اللهِ يا عمر (٢)  
أنتَ الإمامُ الَّذِي مِنْ بَعْدِ صاحِبِهِ أَلقيَ إِلَيْكَ مَقاليدَ النَّهْيِ البَشَرِ (٣)  
لَمْ يُوْثِرْ وِوَكُ بِها إِذْ قَدَموكَ لها لَكِنْ لِأَنفُسِهِمْ كانتَ بِها الأَثَرُ (٤)  
فأَمْنٌ على صَبِيَةِ الرَّمْلِ مَسَكَنَهُمْ بَيْنَ الأَباطِحِ تَعَشَاهُمْ بِها القَرَرُ (٥)  
أَهْلِي فِدَاؤِكَ كَمَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ مِنْ عَرَضِ دَاوِيَةَ تَعَمَى بِها الخَبِرُ (٦)

لقد حاول الحطيئة أن يؤثر في نفس عمر والتمس كل ذرائع التأثير التي عرف أن البشر  
يخضعون لها ، فوصف حال بنيه من صغر وفقر ، ثم التمس التأثير بالمدح الذي يملأ  
النفس كبراً وعظمة . ولكن عمر لم يتأثر من كل هذا إلا بوصف الصبية ، فإن دموعه  
استهلت عند قوله : ماذا تقول لأفراخ ، وهذا عهدنا بعمر . ولو أن خليفة من بني أمية  
سمع هذا القول لرحف إلى الشاعر وقبل بين عينيه وحكمه في ماله كما سنرى عند دراسة  
هذه الدولة ، وبيان مقدار غرام خلفائها بالمدح .

وقال الحطيئة يمدح بغيضاً ، وما أكثر ما قال فيه وفي قومه ! حتى قال المتقدمون :  
إن الحطيئة استفرغ شعره في بني قريع . قال :

- (١) مرخ : واد بالحجاز . زغب : جمع أزغب ، وهو الفرخ يعلوه الريش الأصفر .
- (٢) المظلمة هنا : البئر ، وكان الحطيئة قد حبس فيها .
- (٣) المقاليد : جمع مقلاد كفتح وزنا ومعنى . النهي : جمع نهية ، وهي العقل ، أو النهي مفرد بمعنى العقل أيضاً .
- (٤) الأثر : جمع أثره وهي الفضيل .
- (٥) القرر : جمع قرة وهي البرد .
- (٦) الداوية : الصحراء الواسعة . الخبر : جمع خبير ، وهو العالم بالشيء .



تَزورُ فَنِّي يُعْطِي عَلَى الْحَمْدِ مَالَهُ      وَمَنْ يُعْطِي أَمَانَ الْحَامِدِ مُحَمَّدٍ  
تَزورُ فَنِّي مِنْ يُعْطِيهِ الْيَوْمَ نَائِلًا      بِكَفِيَّةٍ لَا يَمْنَعُهُ مِنْ نَائِلِ الْغَدِ  
مَفِيدٌ وَمِثْلَافٌ إِذَا مَاسَأَلْتَهُ      تَهَلَّلَ وَأَهْتَزَّ اهْتِزَّازَ الْمُهَنْدِ (١)  
مَتَى تَأْتِيهِ تَعَشُّوْا إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ      تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مَوْقِدِ (٢)

قال النقاد ما زال الناس يفضلون قول الأعشى في وصف النار :

تُشَبُّ لِمَقْرُورِينَ يَصْطَلِيَانِهَا      وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْحَقَّاقُ  
حتى قال الخطيئة : متى تأتاه . . . فأخمل بيت الأعشى .



لم يمرّ بك من قوله في الهجاء إلا ما جاء في حديث الزبرقان ، أو التهمك بأبي بكر ،  
ولكنك تستطيع أن تتمثل حقاً إغراقه في الذمّ وروحه الخبيثة فيه من تصويره لبخيل  
في قوله :

كَدَحْتُ بِأُظْفَارِي وَأَعْمَلْتُ مِعْوَالِي      فَصَادَفْتُ جُلُودًا مِنَ الصَّخْرِ أَمْلَسًا (٣)  
تَشَاغَلْتُ لَمَّا جِئْتُ فِي وَجْهِ حَاجَتِي      وَأَطْرَقَ حَتَّى قَلْتُ قَدْ مَاتَ أَوْعَسِي  
وَأَجْمَعْتُ أَنْ أَنْعَاهُ حِينَ رَأَيْتُهُ      يَفُوقُ فُوقَ الْمَوْتِ حَتَّى تَنْفَسًا (٤)  
وَقَلْتُ لَهُ لَا بَأْسَ لَسْتُ بِعَائِدٍ      فَأَفْرَحَ تَعْلُوهُ السَّمَادِيرُ مَلْبَسًا (٥)

وغريب أن يكون هذا من شاعر جاهلي ، وهم لم يعرفوا بغير بساطة الفطرة وسذاجة  
الفكرة ، فالبعد في الخيال إلى هذا الحد يجعل هذا البخيل قد مات من خوف الاستجداء ،

(١) مفيد : مستفيد : أي كاسب . متلاف : مضيع . تهلل : فرح واستبشر .

(٢) تعشو : تقصد .

(٣) كدح : كدّ واجتهد .

(٤) أجمع : عزم . الفواق : ما يأخذ الميت عند الاحتضار .

(٥) أفرخ : سكنن وهدأ . السمادير : ضعف البصر ، أو شيء يترأى للانسان من ضعف بصره

عن سكر أو دوار .



وأنه أجمع أن يشيع في الناس موته ، وأنه بعد ذلك تنفس فتركه ليستعيد روحه ،  
فذلك ما لا نعرفه إلا لمن كان كابن الرومي من شعراء الدولة العباسية ، وقد نشأ في  
المدنية ، وتقلد بدراسة آراء الحكماء .

ومن أمثلة شعر الحطيئة التي تجمع نقاء اللفظ ، وجزالة التركيب ، ودقة الوصف  
قوله يصف أعرابيا جواداً صاحب صيد ألوفاً للقلوات ، ويصف ما كان من نزول  
الضيف به وحيرته لعدم وجدانه ما يطعمه ، ثم ما كان من سمنوح حمر الوحش  
واصطياده منها وسروره بتوقفه لإكرام ضيفه :

وطاوى ثلاثٍ عاصبِ البطنِ مُرْمِلٍ	ببيداءٍ لم يَعْرِفِ بها ساكنٌ رَسْمًا <sup>(١)</sup>
أخى جَفْوَةً فيه من الإنسِ وَحَشَةً	يرى البؤسِ فيها من شراسته نُعْمَى <sup>(٢)</sup>
وأفردَ في شِعْبٍ عجوزاً إزاءها	ثلاثةٌ أشباحٍ تَخَالُهُمْ بِهَمًّا <sup>(٣)</sup>
حفاةٌ عراةٌ ما اغتذوا خُبْرَ مَلَّةٍ	ولا عرفوا للبرِّ مذ خُلِقُوا طَعْمًا <sup>(٤)</sup>
رأى شَبَحًا وَسَطَ الظلامِ فراعهُ	فلما رأى ضيفًا تَشَمَّرَ وَأَهَمًّا
وقال هَيَّا رَبَّاهُ ضَيْفٌ وَلَا قِرَى	بحقك لا تَحْرِمُهُ تا الليلةِ اللَّحْمًا
فقال ابْنُهُ لما رآه بِحَيْرَةٍ	أيا أبتِ اذْبَحْنِي وَيَسِّرْ لهُ طُعْمًا
ولا تعتذرِ بالعدمِ علَّ الذي طَرَا	يظن لنا مالاً فيوسِعنا ذَمًّا <sup>(٥)</sup>
فروى قليلاً ثم أَحْجَمَ بُرْهَةً	وإن هو لم يذْبَحْ فتاه فَقَدْ هَمًّا

(١) الطاوى : الجائع . ثلاث : أى ثلاث ليال .

(٢) أخى جفوة : صاحب جفاء .

(٣) الشعب : الطريق في الجبل . البهم : اسم جنس واحد بهمة ، وهى ولد الضأن ذكر أو أنثى

(٤) الملة : الرماد الحار .

(٥) طرا : مسهل من طراً : أى آتى . يقال وسع الرجل المكان (بجعل الرجل فاعلاً) على

سبيل القلب والأصل وسع المكان الرجل . وعلى الأول يقال أوسع فلان الرجل المكان

فيتعدى لمفعولين ، ومنه قوله : يوسعنا ذمماً ، يجعل « نا » مفعولاً أولاً ، فان اعتبرت مفعولاً

ثانياً خرج الكلام على الأصل .



فبينما عانت على البعد عانةً  
قد انتظمت من خلف مسحليها نظماً<sup>(١)</sup>  
عطاشاً تريد الماء فانساب نحوها  
على أنه منها إلى دمها أظماً  
فأمهلها حتى تروّت عطاشها  
فأرسل فيها من كفانته سهماً  
فحرت نحو ص ذات حبش سمينه  
قد اكنزت لها وقد طبقت شحماً<sup>(٢)</sup>  
فيا بشره إذ جرّها نحو قومه  
ويا بشرهم لما رأوا كلمها يدعى  
وباتوا كراما قد قصّوا حقّ ضيفهم  
وما غرّموا غرماً وقد غنّموا غنماً  
وبات أبوهم من بشاشته أباً  
لضيفهم والأُمّ من بشرها أمّاً

وإننا بوجود هذه القصة العجيبة في شعر الخطيئة نردّ على من يزعم خلوّ الشعر العربي من القصص ، فهذه قصة لا ينكر منكر اتساقها وتسلسل معانيها ، وهو ما يطلبون تحقّقه في القصص .



ونحن وإن كنا قد روينا ظمأك من شعر الخطيئة ، وجعلناك تلمس فيه أنه مدّاح هجاء وصاف متين في كلّ المعاني والأغراض يتناولها أحسن تناول ، لا نحبّ أن نختم قولنا في الخطيئة ، حتى نطلعك على هذه القصيدة في وصفه للجيش وعظمه ، ومقدار بلائه في العدو ، وذلك في معرض مدحه للوليد بن عُقبة أخي سيدنا عثمان بن عفان ، وقد جمع جيشاً للقتال :

أبي لابن أروى خلّتان اصطفاهما قتالٌ إذا يلقى العدو ونائله<sup>(٣)</sup>

(١) عن كضرب ونصر ( ظهر . العانة : القطيع من حمر الوحش ، المسجل : الحمار الوحشي .  
(٢) النحوص : الأنان التي لا ولد لها ، وألتي معناها السمن من الحمل . الحجش : ولد الحمار .  
اكنزت : امتلأ لها .

(٣) أروى : هي أم عثمان والوليد ، وهي بنت كرز بن ربيعة . والكلام في البيت يحتاج إلى تمة وهي مفعول أبي وتقديره : الدم . يعني أن هاتين الخلتين : القتال والنائل أبنا للوليد أن يلحقه عليه دم .



فتى يملأ الشيزى ويروى بكفه سنان الردينى الأصم وعامله (١)  
يؤم العدو حيث كان يجفّل يصم السميع جرّسه وصواوله  
إذا حان منه منزل الليل أو قدت لأخراه فى أعلى اليفاع أوائله (٢)  
ترى عافيات الطير قد وثقت لها يشبع من السخل العناق منازلها (٣)  
بنات الأغرّ والوجهيه ولاحق يقودن بالأشطان ضخماً جحافلها (٤)  
يظل الرداء العصب فوق جبينه يقى حاجبيه ما تثير قنابله (٥)  
وكم من حصان ذات بعل تركتها إذ الليل أدجى لم تجد من تباعله  
وذى عجز فى الدار وسعت داره وذى سعة فى داره أنت ناقله (٦)  
وإنى لأرجوه وإن كان نائياً رجاء الربيع أنبت البقل وابله  
لزغب كأولاد القطار اراث خلقتها على عاجزات النهض حمر حواصلها (٧)

هذه هى حياة الخطيئة ، ويظهر أنه قد عاش طويلاً ، لأنهم يقولون : إنه عمر فى الجاهلية وبقى فى الإسلام حيناً ، فإذا علمنا أنه مات فى خلافة معاوية سنة ٥٩ ، وأن حياته فى الإسلام قليلة ، بالإضافة إلى حياته فى الجاهلية ، نفهم أنه كان من المعمرين ، وإذا

(١) الشيزى : الفصعة . الأصم : المصمت (غير الأجوف) . عامل الرمح : صرّه ومقدمه .

والرمح يقال له ردينى أو سمهرى . وردينة وسمهر كانا رجلاً وامرأته يعملان فى تشييف الرماح فنسبت إليهما .

(٢) اليفاع : مفرد بمعنى التل .

(٣) العافيات : جمع عافية بمعنى طالبة الرزق . السخل : جمع سخله ، وهى ولد الضأن ما كان .

(٤) الأغرّ والوجهيه ولاحق : خيول مشهورة . الأشطان : جمع شطن ، وهى الحبل .

(٥) العصب : من برود العين . القنابل : جمع قنبلة بفتح القاف ، وهى الطائفة من الخيل أو الناس

(٦) أنت ناقله : أى من السعة إلى الضيق .

(٧) راث : أبطاً . وقوله راث خلقتها : أى أبطاً كبرها لضعف غذائها . النهض : النهوض .

الضمير فى حواصلها عائد إلى الخلق . والمعنى أنى أرجو هذا الكريم لأولادى الذين يشبه

أحدهم فرخ القطا الذى أبطاً تكوّنّه فعجز عن النهوض .



أضفنا إلى ذلك أنه راوية زهير ، وأن زهيراً عاش حتى أظله الإسلام ومات في طريقه إلى النبي وهو شيخ فانٍ ، فلا بدَّ أن يكون قد شارف المائة أو زاد عليها .

وله ديوان شعر قد طبع في مدينة بسك سنة ١٨٩٣ م قامت بطبعه الجمعية الألمانية الشرقية ، ثم طبع في مصر والشام بشروح مختلفة ، وله شرح خطي في دار الكتب الملكية المصرية ، وتجد أخباره في ديوان مختارات ابن الشجري ، وفي طبقات الشعراء لابن سلام ، وفي الشعر والشعراء لابن قتيبة ، وفي الأغاني ، والعقد الفريد ، والمستطرف وخزانة الأدب ، وجمهرة أشعار العرب وغيرها .





## العصر الأمويّ

٤١ - ١٣٢ هـ

كان قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه فتحاً لباب فتنة ظلّ المسلمون يقاسون جرائرها أمداً طويلاً . فإن آل بيته وهم بنو أمية امتنعوا عن مبايعة الخليفة الذى بايعه جمهور المسلمين ، وهو على بن أبى طالب رضى الله عنه . وكان السبب الظاهر الذى يديه معاوية كبير الأمويين ووالى عمر ، ثم عثمان على الشام ، أنه يجب قبل تولية خليفة للمسلمين أن يبحث عن قتلة عثمان فيقتلوا به ، فكان من ذلك حجاج فقتل بين على ومعاوية ، ثم تبع ذلك خروج جماعة من رجال على عليه على أثر الدسيسة التى دسها معاوية ورجاله من رفع المصاحف على الرماح والمطالبة بتحكيم كتاب الله ، وكان على يرى خطأ هذا الرأى ، ويعلم مبعث تلك الفتنة ، فلم يقبل التحكيم أولاً ، ثم رضى به إيصاداً لباب من أبواب الشر ، وإطفاء لجانب من فتنة اندلعت ألسنتها من كل ناحية ثم كان من تمام الدسيسة أن ادعى معاوية الخلافة لأن صاحب على من الحكمين خلع علياً وصاحب معاوية أقرّ معاوية . واستمرّ على يقاتل حتى اغتاله أحد الخوارج فى ١٧ رمضان سنة ٤٠ ، وبذلك خلاص الأمر لمعاوية ، لأنه لم يكن من الحسن ابن على الذى بايعه أصحاب أبيه إلا التسليم العاجل لمعاوية حقناً للدماء وإخماداً للثورة . وكان ذلك فى أواخر ربيع الأول سنة ٤١ هـ .



## الخِلافة والملك

انقلبت ولاية المسلمين من خلافة إلى ملك ، فكان من آثار ذلك أن عادت العصبية الجاهلية جذعة فنية واسعة النطاق متعدّدة النواحي ، فهي من ناحية بين بنى هاشم آل النبيّ وأحقّ الناس بولاية أمر الناس من بعده ، وبين بنى أمية أندا هم في شرف الجاهلية الذين لم يكن لهم في بدء الإسلام نصيب من الشرف والمكانة لتأخرهم عن تلبية دعوته . فاتخذوا من قتل عثمان سبيلا إلى استبدادهم بالأمر ، وزحزحة الهاشميين عن مقام يقرهم عليه جمهور الناس . . . ثم هي من ناحية أخرى بين اليمنيين ، ومنهم الأنصار الذين رأوا أن يبقوا على عهد رسول الله بنصرة آل بيته ، وبين المضريين الذين يتألف منهم جيش معاوية بالشام .

كان من هم معاوية أن يحيي العصبية التي عمل النبيّ وخلفاؤه على قتلها ، لأنه يرى في حياتها صرفاً للعرب عن التفكير في اغتصابه للسيادة ، ثم خضدا لشوكتهم بجعل بأسهم بينهم ، وظفرا بعد ذلك باصطناع من يريد اصطناعه منهم . وكذلك فعل فإنه لم يقنع بانحياز المضرية إليه حتى ضمّ قبيلة كلب من اليمنية إلى حظيرته بأن تزوج منها بجَدَل أم يزيد ابنه . حاله به باله

وكان في حياة هذه العصبية حياة لكثير من أمور الجاهلية من المهاجة والمفاخرة . وفاحش الغزل والاجتماع في الأسواق بظاهر الكوفة « الكُناسة » ، أو بظاهر البصرة « المرَبَد » .

وبلغ من شأن هذه العصبية أن رجلا من الأزد كان يطوف بالبيت ، وهو يدعو لأبيه ، فقيل له : ألا تدعو لأمك ، فقال : إنها يمنية . وقال رجل من بنى أسد ابن خزيمة يمدح يحيى بن حيان أخا التَّخَع :

ألا جعل الله اليمانين كلهم  
فدّى لفتى الفتيان يحيى بن حَيَّان



ولولا عُريُّ في من عصبية لقلت وألقاً من معدّ بن عدنان  
ولكنّ نفسي لم تطب بعشيرتي وطابت له نفسي بأبناء قحطان

وقد قوى أمر هذه العصبية حتى صار في كل بلد من بلاد الإسلام حزبان : مضري  
ويعني يتنازعان المنزلة بتقلب الأحوال ، واختلاف العمال ، وبلغ من شأن هذه العصبية  
أن عملت في تولية الخلفاء والأمراء ، فقد نصرت اليمينية الأمويين بعد موت يزيد ،  
وطلبت الخلافة لابنه خالد ، ولكن كبار بنى أمية رأوا تولية مروان بن الحكم على أن  
يكون الأمر بعده لخالد ، فلم يف مروان له . وظلت اليمينية تناصر الأمويين حتى كانت  
أيام هشام ، فكانت القيسية نصيرته ، واستمر الحال كذلك إلى آخر أيام الدولة .  
ولما مات يزيد بن الوليد أقامت القيسية مروان بن محمد خليفة لأنه كان يطالب  
بدم يزيد مستجدياً بذلك عطف القيسية ، وكانت أم يزيد منهم .

وكما أعانت العصبية الأمويين أيام دولتهم ، كانت سبب القضاء على ملكهم ،  
فإن شيعة بنى العباس إنما كانت من اليمينية ومن انضم إليها .  
وكان معاوية يتلمس الذرائع لاستتباب ملكه ، واجتماع الأمر بيده ، فكان يحلم  
على أعدائه فيقبل من العلوى أو العلوية التجبية في مجلسه و بين أمرائه ، وبسمع من  
حجابه ، ثم لا يكون منه إلا إجزال العطية والحمل على أوطأ مركب وهو القائل لعمر  
ابن العاص في بيان سياسته : ولو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت .  
قال عمرو : وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : إنهم شددوا أرخيت ، وإنهم  
أرخوا شددت .

كذلك عمد إلى الألسنة فقطعها بالمال ، فكان يصل العطاء أو يقطعه ويزيد فيه  
أو ينقص على حسب ما تقضى السياسة ، حتى لقد جعل عطاء الحسن والحسين مائتي  
ضعف لما كان عليه أيام عمر بن الخطاب فقد كان خمسة آلاف درهم فجعله ألف ألف . وقد  
صار الحجاز ، وهو موطن أبناء المهاجرين والأنصار مثابة للهو والترف لكثرة ما أغدق  
عليهم معاوية وخلفاؤه من العطاء ليوقومهم في أسر اللهو وليشغلهم عن المطالبة بالخلافة .

أمر هشام  
لهم



ولقد تعمّدوا أن يملئوا عليهم المدينة بأسباب الفساد . فتهاونوا في إقامة حدود الشرع بها حتى شربت الخمر، وارتكبت الفواحش، وصارت أكثر بلاد المسلمين مخنثين ومغنين، ومنها انتشر الغناء في المملكة العربية .

ولم يقف معاوية وخلفاؤه في أمر مال المسلمين عند توزيعه بغير العدل بين مستحقيه بل لقد تعدّوهم إلى من لا يستحق ذلك المال ممن لم يشهد موقعة، ولا كان من أبناء المجاهدين، فجعلوا للشعراء نصيباً في بيت مال المسلمين، وتلك بدعة ابتدعوها ليقطعوا بها أسنة هؤلاء وليلقوا لأنفسهم الرعب في قلوب الناس بما يباليغ به هؤلاء في وصفهم، ويرفعون من شأنهم : وما زال الشعراء يأخذون أعطية من بيت المال حتى ولي عمر بن عبد العزيز، فأبطل ذلك فيما أبطله من مظالم بني أمية .

وفي سبيل تأييد بني أمية لملاكهم حاربوا الخوارج الذين كان خطرهم يشتد حتى يهدّد الدولة في كثير من نواحيها كما تفقّفوا العلويين فشردوهم وعصفوا بهم . وكان ولاتهم يتقرّبون إليهم بتذبيح نسائهم وأولادهم والتمثيل بأبطالهم، وحمل رءوسهم إلى دار الخلافة حيث خزّانة الرءوس .

ولقد كان لهؤلاء الخوارج قول قويّ النزعة قويّة يقينهم في معتقدهم شديد الوقع على مقدار استماتتهم في الدفاع عن آرائهم كما كان المظلومين من العلويين أنين ولقتلام رثاء يخرج من قلوب حزينة أدمها عسف الغانم وقسوة قلب الظالم .

ولقد كان للعصبية التي عمّ أمرها في هذه الدولة أثر عظيم في احتفاظ بني أمية بالصيغة العربية لا يبدلون بها غيرها، ولا يحاولون الخروج منها، بل لقد زادوا تعلقاً بحياتهم الأولى، فأنشئوا أولادهم بالبادية، وثقّفوهم برواية الشعر، وعقدوا المجالس للسمر به، وأرسلوا في طلب رجاله ليسألوا أحدهم عن بيت أو قصيدة، وأكثر من كان يفعل ذلك هشام بن عبد الملك، ثم أجزلوا العطاء على ذلك، فشددت إليهم الرحال، وتنافس الناس في الزلفي إليهم بطريف الأخبار، ونادر الرواية، ووجدت آداب الجاهلية سوقاً نافقة، وحنّ الشعراء والخطباء إلى جزالة الجاهلية . بل لقد أحيوا ما زهد فيه القرآن من الحوشى والغريب . وهذا الفرزدق يرى تقاد الشعر أنه أحياء ثلث العربية في شعره .

انظره في  
الشعر



كذلك كان من أثر هذه العصبية ، وترفع العرب عن أهل البلاد المفتوحة وعدم تعويلهم على غير العربي ، أن اجتهدوا في تحويل الدواوين في كل الأمصار إلى العربية ، فكانت الدولة عربية في كل مظاهرها من جيش وولاية وعمال ، وتركوا محقر الأمور ، ( وهي في نظرهم الزراعة والصناعة ) إلى الموالى وأهل البلاد المفتوحة ، فلم يكن عمل العربي إلا السياسة والرياسة .

### انتشار اللغة في عصر بني أمية

تم على أيدي الخلفاء الرشدين الفتح لأغلب المعمور من الدنيا ، وصاحب الفضل في ذلك هو عمر بن الخطاب الذي كانت جيوشه تقاتل في المشرق والمغرب ، فوصلت شرقاً إلى نهري السند وجيحون ، وفتحت في الغرب مصر وبلاد الشام متوغلين في شمالها . وفي أيام بني أمية وصلت الفتوح إلى الهند والصين شرقاً ، وشملت جميع بلاد الأندلس غرباً . ووصلت إلى السودان جنوباً ، وبلاد سيبريا شمالاً ، وملكوا كذلك جزر البحر الأبيض المتوسط بأساطيلهم ، وحاول معاوية فتح القسطنطينية كما حاول سليمان بن عبد الملك ، فامتنعت عليه لمئاة أسوارها ، وشدة فعل النيران الإغريقية بسفن العرب .

وإلى أغلب هذه البلاد نزع العرب من جزيرتهم تاركين حرّ الصحراء وقحطها إلى بلاد أكلها دائم وظلها ، فأقاموا متوطنين ، وعمروا الأمصار ، وخالطوا أهل البلاد بالتعامل في الأسواق ، وتبادل المتاجر والمصاهرة والتسرى ، فكان العربي يعقد على الأعمية أو يملكها بحكم الفتح ، فيعقب منها الأولاد المهجن<sup>(١)</sup> الذين لا تخلص عربيتهم

(١) في القاموس المحيط جمع المهجين هجن ( بضم ففتح ) وجمع المهجنة هجن ( بضم فسكون ) والمهجن من أبوه عربي وأمه غير عربية . وعكسه المقرف ( بضم الميم وسكون القاف وكسر الراء ) وهو من أبوه أمجى وأمه عربية .



السماعهم رطانة أمهاتهم ، أو حواضهم الروميات ، أو الفارسيات ، أو القبطيات ،  
فينشأ ناشئهم ملثات اللهجة مضطرب اللسكة ، فكان هذا وهنأ دخل على اللغة لم تعهده  
أيام انزواء أهلها في جزيرتهم .

وإلى جانب هذا الفساد الذي طرأ على الملكات استفادت اللغة أنصاراً ، وكثر عدد  
المتكلمين بها ، فإن هؤلاء الأعاجم كان لابد لهم أن يتعلموا لغة أسيادهم بحكم المعاشرة  
والمخالطة تقرباً إليهم وزلفى ، على أنه لم يقف أمر هؤلاء الأعاجم عند حدق التخاطب  
باللغة ، بل إنهم تعلموا العربية دراسة ، وقرءوا القرآن وزاولوا علومه ، وقرضوا الشعر  
ليستفيدوا مما يدره الخلفاء من جزيل العطاء على العلماء والشعراء ، على أن الدين كان  
من عوامل نشر اللغة أيضاً فان جمهرة البلاد المفتوحة كانوا يدخلون في الإسلام تفضيلاً  
له على وثنيتهم أو دياناتهم القديمة ، أو فراراً من أداء الجزية التي يدفعها من يبق على  
دينه من أهل البلاد المفتوحة ، فكانوا يتعلمون العربية لفهم الدين وأداء الصلاة .

وإن هذا الفوز للعربية لم تظفر به لغة من اللغات منذ عمرت الدنيا ، فإن الإسكندر  
الأكبر مثلاً قد استولى حقا على أكثر المعمور في زمنه ولكن ملكه لم يلبث أن تقلص  
فلم يكن لغته تغلب على الداخلين في سلطانه . على أن سلطان المسلمين قد زال عن بعض  
البلاد المفتوحة ، وبقيت فيها اللغة العربية مصاحبة الدين .

## قيام اللغة بمقتضيات الملك والسياسة

لقد كانت دولة بني أمية ملكاً عضوضاً لم يقيم على أساس التقوى ، وتوزيع العدالة  
بين الناس وإعلاء كلمة الله كما كان الشأن في الخلافة أيام الخلفاء الراشدين الذين  
اجتهدوا في ترسم آثار النبي ، والحيولة بين العرب وبين التورط في مفاصد الدنيا وعاجل  
نعيمها ، بل إن بني أمية إنما طلبوا الملك إشباعاً لنهمتهم إليه ، واستعادة لنصيبهم من  
الرياسة الذي كان لهم في الجاهلية ، فخرمهم منه تأخر إسلامهم إلى حين الفتح ، فان



أبا سفيان كبيرهم وأولاده ، ومنهم معاوية ظلوا على الكفر حتى لم يجدوا من الإسلام بدا . لذلك لم يكن أبو بكر يثق ببني أمية ، فحال بينهم وبين الولايات والأعمال وجعل ذلك من نصيب المهاجرين الأولين ، ولقد شكوا إليه حالهم ، فقال لهم : « لقد جنتم الإسلام متأخرين ، فأدركوا إخوانكم بالجهاد » فجاهدوا في حرب الردة .

ولما تولى عمر عرف ما في نفوسهم من التطلع إلى السيادة ، فرمى بهم الروم ، ورجعهم في الشام . واستعمل يزيد بن أبي سفيان ثم أخاه معاوية على الشام ، فعادت إلى بني أمية الرياسة التي كانت لهم في الجاهلية .

( فكانوا جديرين وقد حصلوا على الخلافة أن يجعلوها ملكاً عضواً ، فاستكثروا من الحجاب والحراس ، ولم يظهرها للناس إلا في المواكب الحافلة بالجند تحف بهم ، وقد شهرت السيوف وشرعت الرماح . وكذلك أنشئوا الأساطيل تقاتل في البحر<sup>(١)</sup> كما أتموا عدة جيوشهم في البر حتى لقد قلدوا الفرس في اتخاذ الموسيقى للجيش تفخيماً لأمر الملك وإرهاباً بساطنهم ، وكذلك اتخذوا البريد لتسرع الأخبار من أطراف المملكة ، وأول من اتخذ معاوية وجعل مقره دمشق ، ثم يفرج عنها إلى نواحي المملكة . كذلك ضربوا النقود ، وأنشئوا ديوان الخاتم ، وديوان الخراج إلى غير ذلك من مظاهر الملك التي كانت على أيامهم يقتبسونها من فرس وروم ومصريين ، لا يتحرجون من شيء منها ، ولا يتناهون عن بدعة فيها لم يعملها السلف الصالح .

لقد استشيرت اللغة العربية في تسمية هذه المستحدثات والمصطلحات ، فنهضت بما طلب منها . فمن ألفاظ في تمييز الجند من مرتزقة ومتطوعة ومهاجر وأعرابي إلى أسماء لأنواع

(١) لما أُلح معاوية على عمر أن يأذن له في ركوب البحر ورجعه في الفتنة من وراء ذلك كتب عمر إلى عمرو بن العاص أن يصف له البحر فكتب إليه : إن رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ليس إلا السماء والماء . إن ركذ أحزن القلوب ، وإن نار أزاغ العقول نرداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، هم فيه دود على عود ، إن مال غرق وإن نجا برق « معنى برق : تحير لا يطرف ، أو دهش فلم يبصر وبابه فرح أو نصر » .



الأدوات المستعملة في الحرب ، كالدبابة ، والكبش ، والعرّادة ، والمنجنيق ؛ وأسماء  
الحمّلات ، كالشواتي ، والصوائف ؛ إلى مصطلحات الدواوين ، كقولهم : الثغور ،  
والعواصم ، والأقاليم ، والقصببات ، والعمل ، والولاية ، والحكومة ، والسكّة ،  
والتوقيع ، والوظيفة ، والمرصد ، ودار الضرب ، والدفاتر ، والجرائد ، والخرائط . كما  
عربوا ألفاظاً سمعوها من جيرانهم ، وكانوا محتاجين إليها في معيشتهم ، فمن ذلك الطّست ،  
والطبق ، والفيروز ، والبلور ، والكعك ، واللوز ، والدولاب ، والميزاب ، والجاموس ،  
والفرسخ ، والبند ، والشكّر ، والطنبور ، والغالية<sup>(١)</sup> . ولقد كان من نهوض اللغة  
بمقتضيات الملك أن حوّلت دواوين الخراج إلى العربية ، وكانت منذ عهد الخلفاء  
الراشدين تكتب في العراق بالفارسية ، وفي الشام بالرومية ، وفي مصر بالقبطية . ففي أيام  
عبد الملك بن مروان تمكّن الحجاج من تحويل ديوان العراق إلى العربية على يد صالح  
ابن عبد الرحمن مولى بني تميم ، وأبوه من سبى سجستان . وكان صالح يكتب بالعربية  
والفارسية لزيدان فروج بن بيري <sup>وليس</sup> كاتب الحجاج . فلما قتل في فتنة ابن الأشعث وهو  
خارج من موضع كان فيه إلى منزله استكتب الحجاج مكانه صالحاً ، فأبدى للحجاج  
أنه يستطيع نقل الديوان إلى العربية ، فعزم عليه الحجاج أن يفعل . فقال له الفرس الذين  
خافوا انقطاع أرزاقهم من هذا العمل : كيف تصنع بدهويه وششويه ؟ فقال : أكتب  
عُشراً ونصف عُشراً ، فقيل له : وكيف تصنع بويّد ؟ فقال أكتب : أيضاً فقال له قائلهم :  
قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية ، وبذلت له الفرس مائة ألف درهم  
على أن يظهر العجز عن ذلك ، فأبى إلا نقل الديوان فنقله . فكان عبد الحميد بن يحيى  
يقول : لله درّ صالح ما أعظم منته على الكتاب ( أي من العرب ) .

أما ديوان الشام فقد كان بالرومية والذى كان عليه سُرجون بن منصور من عهد  
معاوية إلى أيام عبد الملك ، ثم إن عبد الملك أحس من سرجون بإدلال لاستقلاله بأمر  
هذا الحساب ، وقد أمره مرّة بشيء فتراخى فيه فأحفظه ذلك ، واستشار كاتبه على

(١) نوع من الطيب ، وأول من سماه هو سليمان بن عبد الملك .



الرسائل سليمان بن مسرور ، فقال : لو شئت لحوّلت الديوان من الرومية إلى العربية ، فقال افعل وأنظره سنة ، فلما وقف سُرجون على عمل سليمان ، قال لكتاب الروم : اطلبوا الرزق من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله عنكم .

أما ديوان مصر فقد كان بالقبطية ، وحوّل في أيام الوليد بن عبد الملك على يد عبد الله بن عبد الملك بن مروان أمير مصر ، فصرف عنه أنتناش ، وجعل عليه ابن يربوع الفزاري من أهل حمص .

وبذلك خلصت أعمال الدولة للعرب ، وقد كان ديوان الجند والرسائل ، وجميع مرافق الدولة عربية لم يكن ينقصها إلا ديوان الخراج حتى حوّل .

## طروء اللحن على اللغة

تمتاز اللغة العربية من بين أغلب اللغات بميزة الإعراب ، وهو مراعاة أواخر الكلمات ، وتغيير حركاتها باختلاف الأساليب . وتلك المراعاة دقيقة لا تتم إلا للملكة سليمة لم تشبها شائبة . وهي سليقة العرب الخالص الذين سلموا من المخالطة ، وعاشوا في وسط الجزيرة آمين لؤثة الألسنة ، متجانسين عن مخالطة الفرس في ريف العراق أو الروم في مشارف<sup>(١)</sup> الشام ، أو الهند في البحرين ، أو القبط على حدود مصر . فتغلب وبكر جاوروا الفرس ، وعبد القيس وأزدعُمان خالطوا الهند ، واللخميون وقضاعة وغسان عاشروا الروم ، فكانت لغاتهم غير نقية لأثر الجوار ، أما قریش وثقيف وهذيل وكنانة وغطفان وأسد وتيمم ، فهم أفصح العرب وأصرحهم لغة لبعدهم عن المخالطة ، وهؤلاء هم الذين سلمت لغتهم من اللحن ولم يجرب على أحدهم خطأ ، ولذلك قيل : إن العربيّ الفصيح لا يخطئ ، لأن الاعراب جزء من لهجته لا ينفصم عنها . وقد قال

(١) مشارف الشام : قرى من أرض العرب تدنو من الريف منها السيوف المشرفية .



ابن جنى في الخصائص : إذا اتفق شيء من مخالفة الوجوه المعروفة في الاعراب ، فإن كان العربي فصيحاً حمل ذلك على أنه قد وقع إليه من لغة قديمة قد طال عهدا وعفا رسمها وتآبدت معالمها . وقد قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقبله . وقال : إنما نحن بالإضافة إلى من كان قبلنا كقبل في أصول رقل (نخل طويل) .

وإذا كان قد وقع لحن على أيام النبي ، فإنما ذلك على أسنة قوم طارئین على العرب من الموالى والمتعربين ، كسلمان الفارسي ، وكان يرتضخ لكنة فارسية ، وبلال مولى أبي بكر وكان يرتضخ لكنة حبشية ، وصهيب ، وكان يرتضخ لكنة رومية . فقد حدث أن رجلا لحن بحضرة النبي ، فقال : « أرشدوا أخاكم فقد ضل » ، كما حدث أن كاتب أبي موسى الأشعري كتب عنه كتابا إلى ابن الخطاب فلحن ، فأرسل إليه عمر أن قنع كاتبك سوطاً . وكان ما كتبه هو قوله في أول الكتاب : « من أبو موسى . . . » .

كان ذلك قليلا معدوداً في أيام الخلفاء الراشدين لقلّة اختلاط العرب وقرب عهدهم بالبدواة ، وسلامة الملكات ، فلما انساحوا في البلاد ، وخالطوا أهلها ، ونشأ أولادهم من السبايا يسمعون عجمة أمهاتهم وحواضنهم ، وكثر الداخلون في الإسلام من أهل البلاد المفتوحة ، وأقبلوا على العربية يتعلمونها ليُرَضُّوا أسياهم من العرب ، وليقرءوا بها القرآن وقيموا الصلاة ، فشا اللحن ، وتعدى الأعاجم وأبناءهم إلى العرب الخالص لكثرة ما كانوا يسمعون من الخطأ ، ففسدت ملكاتهم حتى كان الخلفاء وكبار الدولة يدرءون هذا السيل الجارف ، والعيب اللاحق عن أبنائهم بتشتتهم في الصحراء ، أو إحضار المعلمين من أفصح الناس وأعلمهم ليروضوهم على الفصاحة منذ الحداثة .

وما زال رجال هذه الدولة يرون اللحن عاراً لازماً لا تمحى سوءته ولا تزول سبته . لذلك قال عبد الملك بن مروان ، وقد سئل عن سبب إسراع الشيب إليه : شيبني ارتقاء المنابر وتوقع اللحن . وهو القائل : الإعراب جمال للوضع وهجنة للشريف .



وكانت جماهير العرب تحضر مجلسه ، وتنادى كل طائفة باسم قبيلتها ، فيقال مثلاً : لتقم همدان ، ولتقم تميم : أى من حضر من رجال هذه القبائل . فكان عبد الملك يستسقط من يلحن .

♣ واستأذن عليه رجل من عليّة أهل الشام ، وبين يديه قوم يلعبون بالشطرنج ، فقال : يا غلام غطّها ، فلما تكلم الرجل لحن ، فقال عبد الملك : يا غلام اكشف عنها الغطاء . ليس للالحن حرمة .

ولقد عدّوا من اللحنين : عبد الله بن زياد وكانت أمة فارسية . والوليد بن عبد الملك أشفق عليه أبوه ، فلم يرسله إلى البادية ، فترجى بالمصر ، وتعلّم العربية بالصناعة فعرض لكلامه اللحن ، وخالد بن عبد الله القسرى ، وكانت أمه نصرانية ، وكان من أبلغ الناس وأخطبهم ، ولكن عدّ عليه بعض اللحن .

كذلك كانت السلامة من اللحن شرفاً عظيماً يعدّ من مفاخر الرجل ، ولقد ذكروا أن أربعة لم يلحنوا في جدّ ولا هزل : الشعبي ، وعبد الملك ، والحجاج ، وابن القرية ، وكان الحجاج أفصحهم ، على أنه قد نسب للحجاج لحن في بعض المواطن ، فقد قال للشعبي يوماً : كم عطاءك ؟ فقال ألفين . قال الحجاج : ويحك ! كم عطاؤك ؟ قال ألفان ، قال الحجاج : فلم لحنتم فيما لا يلحن فيه مثلك ؟ قال : لحن الأمير فلحنتم ، وأعرّب فأعربت ، ولم أكن ليلحن الأمير فأعرّب أنا عليه ، فأكون كالمقرع له بلحنه ، والمستطيل عليه بفضل القول .

وكان اللحن يقع في محادثتهم وحوارهم ومعتاد كلامهم ، فكان محتتملاً مع الغضاضة وقد أسرعوا بوضع النحو لتلافيه ، فلما طمّت المصيبة بوقوع اللحن في القرآن ، ولم يكن وضع النحو كافياً لتداركه ، أعملوا الحيلة ، فاهتدوا إلى ما سنبينه في موضوع الشكل والإعجام .



## أمثلة من اللحن وضعف الملكة

كان الوليد بن عبد الملك لائقه ، فدخل عليه أعرابي ، فقال له الوليد : من ختنك ؟ قال : رجل من الحى لا أعرف اسمه ، فقال عمر بن عبد العزيز : إن الأمير يقول : من ختنك ؟ فقال : هو ذا بالباب ، فقال الوليد لعمر : ما هذا ؟ قال : النحو الذى كنت أخبرتك عنه ، فقال : لا جرم لأصلى بالناس حتى أتعلمه .

سمع أعرابي رجلا يقول : أشهد أن محمداً رسول الله ، فقال : يفعل ماذا ؟ وجاء رجل إلى زياد ، فقال : إن أئينا هلك ، وإن أئينا غصبنا ميراثنا من أبانا ، فقال زياد ما ضيعت من نفسك أكثر مما ضيعت من ميراثك ، فلا رحم الله أباك حين ترك ولدك مثلك .

اختصم رجلان إلى عمر بن عبد العزيز فجعل يلعنان ، فقال الحاجب : قسا فقد أديتما أمير المؤمنين ، فقال عمر : أنت والله أشد إيذاء لى منهما .

قال الحجاج ليحيى بن يعمر : أتسمعى الحن ، قال : فى حرف واحد . قال : فى أى ؟ قال : فى القرآن . قال ذلك أشنع ، ثم قال : وما هو ؟ قال تقول : « قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ أُقْرَبْتُمْوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ » فترفع أحب .

وقال بشر بن مروان (وعنده عمر بن عبد العزيز) للغلام له : ادع لى صالحاً ، فقال الغلام : يا صالحاً ، فقال : بشر ألق منها ألف ، فقال له عمر : وأنت فزد فى ألفك ألفاً .

صعد يزيد بن عبد الملك المنبر ، فقال فى سب على : لُصَّ بن لُصَّ ، فقال أعرابي كان تحت المنبر : فى قوله أعجوبتان ، أنه رعى علياً بأنه لُصَّ ، وأنه بلغ من جهله أن ضمَّ لام لُصَّ .



وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه : يا أمير المؤمنين . اقتل أبي فديك<sup>(١)</sup> ، وقال مرة  
لغلامه : يا غلام ردّ الفرسان الصادان عن الميدان .

وخطب يوماً فقراً في خطبته : ليتها كانت القاضية<sup>(٢)</sup> (بالرفع) ، فقال عمر بن العزيز :  
علينا وأراحنا الله منك .

قال يوسف بن خالد التيمي لعمر بن عبيد : ماتقول في دجاجة ذبحت من قفأها ؟  
فقال له عمرو : « أحسن » . قال من قفأها ، قال « أحسن » ، قال من قفأها ، قال  
له من عناك هذا ؟ قل من قفأها واسترح وسمع يوسف هذا يقول حتى يشجبه ، وهي  
مضمومة ، وكان يقول : هذا أحمر من هذا يريد أشد حمرة منه .

وقال رجل لبعض الأعراب : كيف أهلك ( وكسر اللام ) ، فقال قتلاً بالسيف  
إن شاء الله . فهمّ العربي أنه يسأله عن موته ، ولو قال « أهلك » لأجابه .

وقيل إن أوّل لحن سمع بالبادية قولهم : هذه عصاتي ، وأوّل لحن سمع بالعراق :  
حيّ على الفلاح بكسر الياء وهي مفتوحة .

( ومن ضعف الملكة والعجز عن تأدية المعنى بألفاظه الموضوعه له ، وذلك أنكى من  
اللحن وأدلّ على الارتضاح بالعجمة ، قول عبد الله بن زياد يوماً للجند : « افتحموا  
سيموفكم ، وقد عيّر به ذلك يزيد بن مفرّغ<sup>(٣)</sup> بقوله :

ويوم فتحت سيفك من بعيد أضعت وكان أمرك للضياع

ومثل ذلك ما وقع لخالد بن عبد الله القسري ، فقد عدّوا عليه أنه قال مرة : أطعموني  
ماء ، وقد عيّر به ذلك يحيى بن نوفل ، إذ يقول :

بلّ المنابر من خوف ومن وهل واستطعم الماء لما جدّ في الحرب

وألحن الناس كلّ الناس قاطبة وكان يولع بالتشديق في الخطب

وقال المبرّد عن خالد القسريّ « كان متقدماً في الخطابة ومتناهيّاً في البلاغة ، فخرج

(١) أحد الخوارج تنسب إليه طائفة الفديكات .

(٢) سمي مفرّغاً لأنه راهن على أن يشرب عسا من لبن فشربه حتى فرغه .



عليه المغيرة بن شُعْبَةَ بالكوفة في عشرين رجلاً فمطعوا به ، فقال خالد وهو على المنبر :  
أطعموني ماء فغير بذلك ، فكتب إليه هشام في رسالة يعيره بذلك ، وقال يحيى بن نوفل :

لأعلاج ثمانية وعبد لئيم الأصل في عدد يسير  
هتفت بكل صوتك أطعموني شراباً ثم بلت على السرير

وذكر عن يزيد بن المهلب أنه لم تؤخذ عليه زلة في لفظ إلا واحدة . فإنه قال على المنبر  
( وقد ذكر عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ) ، فقال هذه الضبعة  
الرجاء ، فاعتدت عليه لحناً ، لأن الأنتى ضبُع والذكر ضِبْعان

وبسبب من اللحن وضعف الملكة تلك اللكنة ، وهي العجز عن وضوح اللفظة  
وصحة مخارج الحروف ، فقد حكوا أن زيادا النبطي وكان شديد اللكنة دعا غلامه ثلاثاً ،  
فلما أجابه قال : « من لدن دأوتك ، قفلت لبي إلى أن جئتني ماذا كنت تصناً » ،  
يريد دعوتك وتصنع . وكانت أمّ نوح وبلال ابني جرير أعجمية ، فقالت يوماً :  
« يا نوح جردان دخل في عجان أمك » ، تريد أن الجرذ أكل عجيناها . وأهدى إلى  
زياد حمار وحشي ، فقال له مولاه أهدوا لنا همار وهش ، فقال زياد : « أي شيء  
تقول » . قال : اهدوا لنا عيراً « بقلب العين همزة » ، فقال زياد الثاني شرّاً  
من الأوّل .

وقال بعض الشعراء في أمّ ولد له يذكر لكنتها :

أكثر ما أسمع منها في السحر تذكيرها الأنتى وتأنيث الذكر  
\* والسوءة السواء في ذكر القمر \*

ومن لكنة عبید الله بن زياد أنه أملى على كاتب له ، فقال : اكتب الهاصل ألف  
كر ، فكتبها بالماء كما لفظ بها ، فأعاد عليه الكلام ، فأعاد عليه الكاتب ، فلما فطن  
لاجتماعهما على الجهل ، قال : أنت لا تهسن أن تكتب ، وأنا لا أهسن أن أملى  
أكتب الجاصل ألف كر فكتبها بالميم .



## وضع النحو

يعدّ العرب أسبق الأمم إلى وضع قواعد النحو ؛ فإن الرومان واليونان والفرس وغيرهم لم يفكروا في مثل ذلك إلا بعد قرون مرّت على انتقالهم من البداوة ، والذي حدا بالعرب إلى هذا الإسراع هو ما امتازت به لغتهم من حركات الإعراب ، فإن الفساد إلى هذه أسرع لدقة فروعها ولكثرة دواعيها .

بدأ العرب بوضع النحو ولم يقضوا في الإسلام إلا نصف قرن . ويروون في أمر وضعه روايات مختلفة ، فبعضها يدلّ على أن علياً كرم الله وجهه هو الذي فكّر في ذلك إذ يذكرون أن أبا الأسود دخل عليه ، فوجد في يده رقعة ، فقال له : ما هذه يا أمير المؤمنين ، فقال : إني تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمرء ، « يعني الأعاجم » ، فأردت أن أضع شيئاً يرجعون إليه ، ويعتمدون عليه ، ثم ألقى الرقعة إلى أبي الأسود ، فإذا فيها : الكلام كله اسم وفعل وحرف . فالاسم ما أنبأ عن المسمى والفعل ما أنبأ به والحرف ما أفاد معنى . ثم قال عليّ لأبي الأسود : انح هذا النحو ، وأضف إليه ما وقع إليك . واعلم يا أبا الأسود أن الأسماء ثلاثة : ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر ، وإنما يتفاضل الناس يا أبا الأسود فيما ليس بظاهر ولا مضمر . وأراد بذلك الاسم المبهم . قال أبو الأسود : ثم وضعت بابي العطف والنعت ، ثم بابي التعجب والاستفهام ، إلى أن وصلت إلى باب إن وأخواتها ، فلم أذكر لكنّ ، فلما عرضتها على عليّ عليه السلام أمرني بضمّ لكنّ إليها . وكنت كلما وضعت باباً عرضته عليه إلى أن حصلت ما فيه الكفاية ، فقال لي : ما أحسن هذا النحو الذي نحوت ، فسمى النحو من ذلك .

ومن هذه القصة ترى أن علياً يعدّ واضع النحو ، لأنه أوّل من فكّر فيه ، ونهج لأبي الأسود طريق الوضع بتقسيمه الكلام والاسم إلى أقسامهما .



ويذكرون غير ذلك وهو أن بنتاً لأبي الأسود نظرت في السماء ، ثم قالت لأبيها :  
ما أحسن السماء ؟ فقال : نجومها ، فقالت : إنما أردت أن السماء حسنة ، فقال لها :  
قولى ما أحسن السماء ! ثم لما أصبح دخل على عليّ كرم الله وجهه ، فقصّ عليه قصة  
ابنته ، وقال : إننى أخاف أن يفسد لسان العرب بمخالطة هذه الحمراء . فأذن له عليّ  
في أن يضع النحو ، فكان أول ما وضعه أبو الأسود الدؤلى باب التعجب ، ثم أتبعه بكثير  
من الأبواب سداً لما كان يسمع من الخطأ ، فوضع باب العطف وإن . . .

وذكر ابن الأثير في المثل السائر : أن أبا الأسود دخل على ابنته بالبصرة ، فقالت  
له : يا أبت ما أشدّ الحرّ ؟ فقال لها : شهر ناجر . قالت له : إنما أخبرتك ولم أسألك .  
فأتى عليّاً كرم الله وجهه ، فقال له : ذهبت لغة العرب ، ويوشك إن تطاول عليها  
الزمن أن تضمحل ، فقال له : وما ذاك ؟ فأخبره بالخبر ، فقال : هلمّ صحيفة ، ثم أملى  
عليه : الكلام لا يخرج عن اسم وفعل وحرف .

ويقال إنه أتى زياد بن أبيه ، وقال له : إنى أرى العرب قد خالطت الأعاجم ،  
وتغيرت ألسنتها أفأذن لى أن أصنع ما يقيمون به ألسنتهم ؟ فقال لا ، فلما خرج من  
عنده دخل رجل على زياد ، فقال : أيها الأمير : مات أبانا وخلف بنون ، فقال زياد :  
ردوا علىّ أبا الأسود . وقال له : اصنع ما كنت نهيتك عنه .

وعلى هذه الروايات يكون أبو الأسود هو صاحب علم النحو ، لأنه أول من فكّر  
فيه ، ويكون عليّ عليه السلام بمكان المساعد إن صحّ أنه قال له : الكلمة اسم وفعل  
وحرف ، وعلى هذا فأنح يا أبا الأسود .

ومما روينا نرى أن الفضيلة في وضع هذا العلم ترجع إلى أحد رجلين عرفا بالفضل :  
فأما أحدهما وهو عليّ فهو إمام مشهور بعلمه ، وقد دعا له رسول الله حين أرسله إلى اليمن  
قاضياً ، فقال : « اللهم اهد قلبه وثبّت لسانه » ، وهو حلال المشكلات في الفقه  
ومسائل الميراث ، والذي يقول عنه رسول الله : « أقضاكم عليّ » ، ويقول عنه عمر  
ابن الخطاب رضى الله عنه : « لو لا عليّ لهلك عمر » ، كما يقول : « لا يفنين »



أَحَدُهُ بِالْمَسْجِدِ وَعَلِيٌّ حَاضِرٌ» . وأما ثانيهما : فهو أبو الأسود الدؤلي المشهور بالذكاء  
المشارك في كل فن من فقه وشعر وحديث وبيهة حاضرة ودهاء مشهور . فليس بكثير  
عليهما أن يتعاونوا في وضع النحو ، وهو الذي حفزت إليه ضرورة فساد اللسان ، فأقضت  
على ولاة الأمر مضاجعهم خوفاً على القرآن ، ولسنا بحاجة إلى أن نقول ما يدعيه بعض  
من أن أبا الأسود لم يضع النحو إلا بعد أن عاش السريان بالعراق وتعلم لغتهم ، ونقل  
نحوها للشبه القريب بين اللغتين ، مستدلين بأن أقسام الكلمة في العربية هي عينها في  
السريانية ، وهذا هو والله العجب ! ! فإن أقسام الكلمة في جميع اللغات واحدة  
لا تختلف ، ولو أن أبا الأسود نقل نحو السريانية إلى العربية لوجب أن ينقله جملة ،  
ولكن المروي عنه أنه كان يضع أبواباً لما يقع تحت سمعه من الخطأ .

ولم يقف أمر الوضع في النحو عند ما فعله أبو الأسود ، فقد أخذ عنه جماعة ،  
منهم : عنبة الفيل ، وميمون الأقرن ، ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ،  
ويحيى بن يعمر وكلهم من البصرة ، فنشأ علم النحو بصرياً ، ودرس في مساجدها ،  
ونشأ فيما حولها ، حتى أُلّف فيه عبد الله بن أبي إسحق الحضرمي كتاباً في الهمز ،  
وكان رئيس الناس وواحد في هذا العلم في عصره .

وبقيت الكوفة لا تشغل بالنحو حتى أظلت القوم الدولة العباسية ، فظهرت في  
الكوفة طبقة أخذت عن أبي عمرو بن العلاء ومعاصريه من البصريين .

وقد غلا ابن فارس غلواً قبيحاً حين زعم أن العرب العاربة كانوا يعرفون النحو  
والعروض بمصطلحاتهما ، وكان ذلك بتوقيف من قبلهم حتى ينتهي الأمر إلى الموقف  
الأول ، وهو الله سبحانه وتعالى الذي علم آدم الأسماء كلها . قال ثم أتت الأيام على  
هذين العالمين ، وقلا في أيدي الناس حتى جدّد النحو أبو الأسود ، وجدّد العروض  
الخليل بن أحمد .

وهذا قول ظاهر البطلان لا يستحق الاحتفال لدحضه .



## الشكل

لم يكن الخطر الذي وصل إلى العرب مضبوطاً بالحركات والسكنات ، بل كان خلواً منها ، فكلمة حمل مثلاً تصلح أن تكون فعلاً أو اسماً ، وكان التميز بالقرائن ودلالة السياق .

ولما انتشر الإسلام واختلط العرب بالعجم ، ونشأت النابتة من الهجناء والمقرفين ، وخشى أن يتطرق الخطأ إلى القرآن ، فكروا في تدارك هذا اللسان قبل استفحال الفساد . وحدثت عدة حوادث استفزتهم إلى النهوض لصيانة القرآن واللغة . فوضع أبو الأسود الدؤلي النحو بمعونة سيدنا عليّ . وتعلم من أبي الأسود كثيرون ، منهم : يحيى بن يعمر ، ونصر ابن عاصم ، ولكن ما وضعه أبو الأسود من الضوابط لم يصدّ التيار الجارف ، فطلب زياد بن سُمَيَّة أو ابن أبيه أو ابن أبي سفيان كما كان يكنيه بنو أمية ، وكان عامل البصرة من قبل معاوية ، طلب من أبي الأسود أن يضع طريقة لإصلاح اللسان ، وقال له : إن هذه الحمراء قد كثرت وأفسدت من أسنة العرب ، فلو وضعت لنا شيئاً يصلح به الناس كلامهم ، ويعربون به كتاب الله ، فامتنع أبو الأسود أن يضع ذلك ضمناً بما يعرف ، ولأنه موتور من بني أمية لعزله عن البصرة بعد موت عليّ رضي الله عنه ، وكان من شيعته وواليه عليها . فاحتال زياد على أبي الأسود بأن جعل رجلاً يقعد في طريقه ، ويتعمد اللحن في القرآن ، ففعل الرجل ذلك ، وقرأ : « **إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ** » ( بكسر اللام ) ، فاضطرّ أبو الأسود أن يجيب زياداً إلى طلبه ، وقال له : ابغني كاتباً ، فأرسل له ثلاثين اختارهم واحداً ، وقال له : خذ صبغاً يخالف لون المداد ، فإذا رأيتني فتحت شفتي بالحرف فانقط واحدة فوقه ، وإذا كسرتهما فانقط واحدة أسفله . وإذا ضممتها فاجعل النقطة بين يدي الحرف . ( وكان الساكن يترك بلا نقط ) ، فإذا أتبعته شيئاً من هذه الحركات غنة ، فانقط



تقطّنين ، وما زال يقرأ بنأَن ، والكاتب يعمل بما أمره حتى أتمّ القرآن . وكان الصبغ الذى اتخذه الكاتب أحمر ، ولون المداد أسود .

واتبع الناس طريقة أبى الأسود ونوعوا فيها ، فكانوا إذا رأوا الحرف الذى بعد المنون حرف حلق وضعوا تقطّنين إحداهما فوق الأخرى علامة على أن النون مظهرة وإلا وضعوها متجاورتين علامة على الإدغام أو الإخفاء . وهذا مثال يبيّن لك طريقة أبى الأسود فى الشكل :

سلام .. قولاً من رب رحيم

هذا كلّ ما عمله أبو الأسود فى ضبط الحروف بالشكل ، وقد زاد أهل المدينة للحرف المشدّد علامة على شكل القوس طرفاه من أعلى هكذا : ( س ) يوضع فوق الحرف المفتوح ، وتحت المكسور ، وعلى شمال المضموم ، ويضعون نقطة الفتحة فى داخل القوس والكسرة تحت حدبته والضمّة على شماله هكذا : ( ن ب س ) ثم استغنوا عن النقطة ، وقلّبوا القوس مع الضمة والكسرة ، وأبقوه على أصله مع الفتحة ( ن س ب ) .

ثم زاد أتباع أبى الأسود علامات أخرى ، فوضعوا السكون جرّة أفقية فوق الحرف منفصلة عنه (-) .

هذا هو ما انتهى إليه تصوير الشكل فى عهد الدولة الأموية ، ثم حدث تغيير فى صورة الشكل على يد الخليل بن أحمد فى الدولة العباسية .

ولم تشتهر طريقة أبى الأسود إلا فى المصاحف ، أما الكتب والرسائل فكان شكلها نادراً ، لأن المكتوب إليهم كانوا يعدّون ذلك تجهيلاً لهم حتى قال بعضهم : شكل الكتاب سوء ظنّ بالمكتوب إليه .

وفى دار الكتب الماسكية بالقاهرة مصحف كوفى عثر عليه فى جامع عمرو بن العاص وهو من أقدم المصاحف فى العالم ، مشكول على طريقة أبى الأسود .



## الإعجام

الإعجام تمييز الحروف المتشابهة بوضع نقط لمنع اللبس بين المتشابه منها ، كالباء والتاء والتاء مثلاً ، فالهمزة فيه للسلب : أى إزالة العجمة . والمشهور أن اختراع الإعجام كان فى زمن عبد الملك بن مروان ، والتحقيق أنه كان قبل الإسلام ، فقد روى ابن عباس : أن عامر بن جَدْرَة هو الذى وضع الإعجام . ونحن نجد الباء والتاء والتاء مع اختلافها فى النطق صورة واحدة ، وكذلك الجيم والحاء والحاء والذال والذال الخ ، ويبعد كل البعد أن تكون الحروف موضوعة من أوّل أمرها على هذا اللبس الذى لا تستطيع القرأَن تمييزه بسهولة . على أنه عثر على كتب كتبت قبل زمن عبد الملك فيها إعجام بعض الحروف كالباء وما يشبهها .

ويمكن التوفيق بين الرايين بأن المراد بحدوث الإعجام فى زمن عبد الملك أنه تكامل ووصل إلى التمام .

فكان الناس إلى أيام الحجاج بالعراق بعد أن مضى على مصاحف عثمان نيف وأربعون سنة يصحفون القرآن ، ويجرفون كثيراً من الآيات عن مواضعها ، فمنهم من يقرأ : وما يجحد بآياتنا إلا كل جبار كفور ، والأصل : ختار . ومنهم من يقرأ : عذابي أصيب من به من أساء ، والأصل : أشاء . وقرأوا : هم أحسن أثاثاً وزياً ، والأصل : ورثياً ، كذلك قرءوا : والذين كفروا فى غرّة وشقاق ، والأصل : فى عزّة ، وقرأوا : وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها أباه ، والأصل : إياه . ففرغ الحجاج إلى كتابه ، وسألهم وضع علامات للتمييز بين الحروف ، ودعا نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر تلميذى أبى الأسود لهذا الأمر . وقد قرروا بعد البحث والتروى والاقدام والاحجام إدخال هذا الإصلاح ، وهو تمييز الحروف المتشابهة بإهمال بعض وإعجام آخر .



ولما كان هذا الإصلاح يستدعى اشتباه نقط الشكل بنقط الإعجام قرّروا أن يكون نقط الشكل بالمداد الأحمر كما فعل أبو الأسود ، ونقط الإعجام بلون المداد المستعمل في كتابة الحروف . وقد توقف الناس في قبول ذلك العمل كما توقفوا قديماً عن العمل بإصلاح أبي الأسود ، ولكن شدّة الحجاج جعلتهم يخضعون لرأيه ، وعمّ الإعجام جميع الكتابة في القرآن وغيره حتى عدّ إهماله خطأ يلام عليه فاعله ، وفي دار الكتب أيضاً مصاحف اجتمع فيها شكل أبي الأسود ، وإعجام نصر بن عاصم .

### (تدوين العلوم)

مضى زمن النبيّ وعصر الخلفاء الراشدين ، ولم يكن العرب قيدوا شيئاً من العلوم غير القرآن الكريم . ويرجع امتناعهم عن ذلك إلى أسباب :

أوّلها : أنهم يرون في القرآن غنية عن كل شيء ، فقد قيل : إن عمرو بن العاص لما رأى مكتبة الإسكندرية أرسل بخبرها إلى عمر ، فقال له : إن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنى ، وإن كان فيها ما يخالفه فلا حاجة إليه ، فتقدّم بإعدامها ، فأحرقها عمرو .

وثاني هذه الأسباب : أنهم كانوا منصرفين إلى الفتح ، وإعلاء كلمة الله ، على أن الصبابة من علوم الجاهلية وأشعارها أغفلوها كذلك ، لاشتغالهم بالدعوة إلى الدين وتأييده قال عمر رضی الله عنه : كان الشعر علم القوم ، ولم يكن لهم علم أصحّ منه ، فجاء الإسلام ، فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهيبت عن الشعر وروايته . فلما كثرت الإسلام ، واطمأنت العرب في الأمصار راجعوا رواية الشعر ، فلم يثوبوا إلى ديوان مدوّن ، ولا كتاب مكتوب ، وألقوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقلّ ذلك ، وذهب عنهم أكثره .

وأما ثالث الأسباب : فهو أنهم لقرب عهدهم من البداوة كانوا ذوى ملكات



صحيحة وحواظ قوية ، فلم يشعروا بالحاجة إلى التدوين ، وهذا هو شأنهم الذي غبروا عليه مدّة جاهليتهم يحفظون أنسابهم وأخبارهم وأشعارهم لا يعتمدون في ذلك إلا على قوّة حفظهم .

وتضاربت أقوال المؤرخين في بيان رأى رسول الله وأصحابه في التدوين ، فمنهم من ينقل أقوالاً يستنبط منها حظره على المسلمين ، ومنهم من ينقل ما يؤيد الدعوة إليه والحثّ عليه . فقد روى أصحاب الرأى الأول عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن الكتابة ، وقال : إنما ضلّ من كان قبلكم بالكتابة كما ورد أنه رأى في يد عمر ورقة من التوراة ، فغضب وقال : ألم آتكم بها بيضاء نقية ، والله لو كان موسى حيّاً ما وسعه إلا اتباعي .

ويروى أصحاب الرأى الثانى أن رسول الله لما فتح مكة قام فخطب ، فقال له رجل من اليمن يقال له أبو شاة : يا رسول الله اكتبوا لى ، فقال رسول الله : اكتبوا لأبى شاة كما يروى عن عبد الله بن عمرو قال : كنت أكتب كلّ شىء أسمعته من رسول الله أريد حفظه ، فنهتنى قريش عن ذلك وقالوا : أكتب كلّ شىء تسمعه ورسول الله يتكلم فى الرضا والغضب ، فأمسكت عن الكتابة ، ثم ذكرت ذلك لرسول الله ، فأوماً بأصبعه إلى فيه وقال : اكتب فوالذى نفسى بيده ما يخرج منه إلا حقّ .



والذى نراه فى هذه المرويّات المتناقضة فى ظاهرها أن النهى فيها إنما كان عن كتابة الأديان ، لأن فى ذلك إحياء لها ، وهو يناقض عمل رسول الله . أما كتابة غير ذلك من الحديث أو القرآن فليس بمستساغ فى عقل أن ينهى عنه رسول الله ، وفى أول سورة من القرآن حضّ على الكتابة . قال تعالى : « أقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علقٍ . أقرأ وربك الأكرم الذى علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم » ، ورسول الله هو الذى حارب الأمية فجعل فداء الأسرى من الكتاب يوم بدر



تعليم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة . أما ما حدث من تخرج الصحابة والتابعين عن كتابة الحديث فإنما كان مبالغة منهم في توقي الابتداع وخوفاً من اختلاط الحديث بالقرآن . فلما شاعت الفتن ، واجترأ الناس على رسول الله ينسبون إليه ما لم يقل ، لم ير الأئمة بدءاً من الإذن بتدوينه ، وقد أمن اختلاطه بالقرآن .

## العلوم المدونة في هذا العصر

لقد ذكروا أن معاوية استدعى رجلاً من اليمن اسمه عبيد بن شريعة الجرهمي ، فسأله عن أخبار القدماء وملوك العرب والعجم وتبلبل الألسنة ، فأجابه عن كل ذلك ، فأمر معاوية أن يدون ذلك وينسب إلى عبيد ، فكان هذا أول كتاب ألف في التاريخ ، وقد عاش الرجل إلى أيام عبد الملك وعمل كتباً أخرى منها : كتاب الأمثال ، وكتاب الملوك الماضين كما ذكروا أن وهب بن منبّه المتوفى سنة ١١٦ هـ وضع كتاباً في الأخبار . كذلك يقال : إن زياد بن أبيه ألف كتاباً في نسبه ومثالب العرب ، ودفعه إلى ولده وقال : استظفروا به على العرب فإنهم يكفون به عنكم .

وقيل : إن واصل بن عطاء المتوفى سنة ١٣١ هـ له كتاب في المرجئة ، وآخر في التوبة ، وكتاب في خطبته التي أخرج منها الراء ، وكتاب معاني القرآن .

كذلك ألف يونس الكاتب كتباً في الأغاني ونسبها إلى المغنين ، وقد أخذ الغناء عن معبد وابن سريج . وفي علم النحو وضع عبد الله بن إسحق الحضرمي كتاباً في الهمز كان يمليه على تلاميذه .

أما الحديث فلم يدون إلا في أيام عمر بن عبد العزيز . استخار الله أربعين يوماً ثم أمر ابن شهاب الزهري ، أو ابن جريج ، أو أبا بكر بن حزم بجمع الحديث وتدوينه ، فكان ذلك ، وبعث بما جمع إلى الأمصار ، ثم فقد هذا المدون ولم يوقف له على أثر .



وكان الدافع لعمر إلى تدوين الحديث هو ما كان من اجتراء الناس على رسول الله باختلاق الأحاديث لابطال حجة خصومهم أو لاكتساب تأييد العامة فيما يحتاجون فيه إلى تأييد . وقد ذكروا أن المهلب بن أبي صفرة وضع أحاديث كثيرة ليشد بها أزر المسلمين ، ويضعف أمر الخوارج مع أنه معدود من الأتقياء ، ولعله كان يعد ذلك من خدع الحرب ، وهي يباح فيها ما لا يباح في غيرها ، وأمثال ابن المهلب كثير وبعض مختلق الحديث كان يفعل ذلك نكاية في الإسلام . فقد ذكروا أن عبد الله بن المقفع اعترف بأنه دس على المسلمين أربعة آلاف حديث كما ذكروا أنه لما أخذ عبد الكريم ابن أبي العوجاء أحد وُضاع الحديث لتضرب عنقه ، قال : قد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث أحرم فيها وأحلل . وأن البخاري اختار أحاديثه ، وهي سبعة آلاف ، فيها ثلاثة آلاف مكررة من ستمائة ألف حديث ، وقد تجرّد العلماء لبيان الصحيح والفاقد من الحديث ولكن ذلك لم يكن إلا في العصر العباسي .

أما علم التفسير فقد ظلّ الصحابة والتابعون يتناقلون ما سمعوه عن النبي من بيان مشكل القرآن ، وتوضيح غامضه ، وتمييز ناسخه ومنسوخه إلى نهاية القرن الأوّل .

ولابن عباس المتوفى سنة ٦٨ هـ تفسير مدوّن ، وفي دار الكتب الملكية المصرية بضع نسخ منه ، ولكن يظهر أنه إنما نقل عنه بالرواية ولم يدوّن في أيامه ، والمشهور أن أوّل من دوّن التفسير مجاهد المتوفى سنة ١٠٤ هـ .

ولم تقف همّتهم في هذا العصر عند العلوم العربية أو الدينية ، بل إنهم ترجموا في الطب والكيمياء ، فقد ذكروا أن ما سرّجويّه السرياني اليهودي متطبب البصرة نقل كتاب أهرون بن أعين من السريانية إلى العربية ، وكان ذلك في الدولة الأموية . كما ذكروا أن خالد بن يزيد بن معاوية ، وكان يدعى حكيم بن مروان كان فاضلاً في نفسه ، وله همّة ومحبة للعلوم شغل نفسه بطالب الكيمياء ، فأفنى في ذلك عمره وأسقط نفسه ، وله كلام في صناعة الكيمياء والطب وكان بصيراً بهذين العلمين متقناً لهما ، وقد أخذ هذه الصنعة عن رجل من الرهبان يسمى مريانس ، وقد استبعد ابن خلدون



أن يكون من العرب في هذا العهد من يشتغل بهذه العلوم . قال في مقدمته عن علم الكيمياء : « وربما نسبوا بعض المذاهب والأقوال فيها إلى خالد بن يزيد بن معاوية ربيب مروان بن الحكم ، ومن المعلوم البين أن خالداً من الجيل العربي والبدواة إليه أقرب ، فهو بعيد من العلوم والصناعات جملة ، فكيف له بصناعة غريبة المنحى ، مبنية على طبائع المركبات وأمزجتها ، وكتب الناظرين في ذلك من الطبيعات والطب لم تظهر بعد ولم تترجم » . واستغراب ابن خلدون لا موجب له ، فإن الذى ننفيه عن العرب في ذلك العصر إنما ينفي عن جملتهم وجمهورتهم ، وقيام فرد بالإقبال على علم أو علوم غريبة تشغف بها النفس غير مستبعد خصوصاً إذا كان القائم بذلك له من ذات يده وفراغ باله ما يمكنه من محاولته على يد معلم ماهر كعالم خالد الراهب ، والأمراء في كل عصر لا بد لهم من اشتغال بعلم أو هو تزجية للوقت وقتلا للسأم .

### وصف الكتب المدونة في هذا العصر

ولم تكن تلك الكتب التى عرفت في هذا العصر على الحالة التى نرى عليها الكتب اليوم ، أو على ما صارت عليه في العصر العباسى من التقسيم والتبويب ، وحسن التنسيق - التسمية والعنونة - ولكنها كانت محض روايات لأثر فيها للاستنباط أو الاستدلال ، ولا عمل للمؤلف فيها إلا الجمع لما وصلت إليه يده وانتهى إليه سماعه ، فالحديث الذى دوت في أيام عمر بن عبد العزيز كان مجموعة أحاديث بسندها ليس لها نصيب من التبويب الذى عرفناه في البخارى ومسلم اللذين هما من عمل الدولة العباسية فيما بعد . فالذى كان يطلق عليه اسم كتاب في ذلك العصر هو مجموعة من الأوراق في موضوع واحد لا صبغة لها إلا الرواية والسند في حديث أو غيره .

وبعض هذه الكتب بقيت إلى عهود متأخرة ، فابن النديم صاحب الفهرست المتوفى سنة ٣٨٥ هـ يقول : إنه رأى صحف أبي الأسود الدؤلى في النحو كما رأى كتاب



عبيد بن شَرِيَّة . وابنُ خَلِّكان المتوفى سنة ٦٨١ يقول : إنه رأى كتاب ابن مُنْبِه في تاريخ اليمن .

وفي وصف حركة العلم والاشتغال به في هذا العصر يقول ابن خلكان عن ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ إنه كان إذا جلس في بيته وضع حوله كتبه ، فيشتغل بها عن كل شيء من أمور الدنيا . فقالت له امرأته يوماً : والله لهذه الكتب أشدّ عليّ من ثلاث ضرائر ، وإن أبا عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤ هـ كانت كتبه التي كتب عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف ، ثم إنه تقرّأ ( تنسك ) فأخرجها كلها ، فلما رجع إلى علمه الأوّل لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن عرب الجاهلية .

### (عناية الخلفاء والأمراء باللغة والأدب)

إن العصبية التي بنيت عليها سياسة الدولة الأموية قد عادت على اللغة والأدب بأجلّ نفع ، فإن من آثارها أن أغرم رجال هذه الدولة بحديث آبائهم من العرب يرفعون من ذكركم ، ويمجدون أعمالهم ، ويعددون أيامهم ، ويسجلون مفاخرهم . ولم يكن من سبيل إلى ذلك إلا رواية شعرهم ، وإحياء ما درس من أخبارهم .

وكان الإسلام قد شغل العرب عن ذلك أيام النبي والخلفاء الراشدين ، فانقطع ما كان متصلاً من رواية هذه الأخبار ، وكاد ينسى ما كان محفوظاً من تلك الأقوال . فكان عمل الخلفاء والأمراء جهاداً كبيراً ، وسعيّاً مشكوراً في سبيل إحياء ما درس ، وتأبّدت معالمه من تلك الآداب ، فبدلوا العطاء الكثير لمن أحيا لهم منها شيئاً ( برواية قصيدة ، أو تحقيق كلمة ، أو نسبة بيت لقائله .

ولقد كان الخليفة أو الأمير يأرق ، فلا يخطر بباله إلا شيء من ذلك ، فينطلق حاجبه ينادي في الناس لعله يرى طلبه سيده ، أو يرسل الشرط في جوف الليل إلى



فلان الراوية لياتوه به من ساعته . أو يطلب بالبريد من عامل على أطراف مملكته حمل ذلك الأديب الذي يؤمل في علمه ردّ شبهته ، فإذا اطمان الرجل بمجلس الخليفة وسأله فروى ظمأه ، أجزل له العطاء وقرب منزلته .

فمن أجل ذلك كان العلماء لا يألون جهداً في إحياء أدب هذه اللغة بالمدارس والبحث ، ومشافهة الأعراب واستخبارهم ، يتلقونهم بالبصرة أو الكوفة ، أو يخرجون إليهم في البادية ، فما يدعون صبياً ، ولا شيخاً ، ولا فتاة ، ولا عجوزاً إلا حاوروهم واستنشدوهم ، ثم يرجعون وقد امتلأت جبابهم بالعلم الذي يؤملون رواجه والإثراء به عند رجال هذه الدولة .

ولقد كان الخلفاء والأمراء أنفسهم علماء مُلمِّين ، ورواة ثقات يعلمون جلساءهم ما يجهلون ويرشدونهم إلى ما لا يفهمون . وقد أعدوا لهذه المذاكرات مجالس يحشدون لها العلماء والأدباء ، وتجري بين أيديهم مناظراتهم ، ويكون لهم الرأي في تصويب وتخطئة ، ولكنهم لم يكونوا يكتفون بهذه المجالس . بل لقد امتلأت كتب الأدب بما يدل على أن هذه اللغة وآدابها كانت موضوع سمرهم ، وحديث موائدهم ، بل هي العنصر الذي ملأ أوقات فراغهم وشغلهم ، لا يصدّهم عنها غضب ، ولا يلهيهم طرب ، ولم يكتفوا بأن يهبوا في سبيلها المال الجزيل والجاه العظيم بل لقد وهبوا الأرواح لأصحابها لأدب راعهم ، أو شعر ترنحت له أعظافهم ، فيؤمنون الخائف ، ويرفعون السيف عن المقتول ، وينقلب حنقهم عليه صفحاً ورضاء .

وإن هذا لغرام ما سمعنا بمثله في الناس ، لذلك كان من نتائجها المحتومة أن اجتمع لدينا لهذه اللغة أدب لا يظن أن مثله اجتمع لأمة عن أيام بداوتها ، فحفظت الأمة العربية بهذا الأدب صورة صادقة من بداوتها . وشأن البداوة في كل أمة ألا يبقى منها إلا حديث خرافة ، ولقد كان من سعادة اللغة أن الذين كانت عنايتهم بها أتم من خلفاء هذه الدولة هم أطول خلفائها أعماراً في الخلافة ، وهم : معاوية ، وعبد الملك بن مروان ،



وهشام بن عبد الملك ، وكل منهم حكم زهاء عشرين سنة ، فكان مجموع مدتهم ثلاثة أرباع عمر هذه الدولة .

## ( أمثلة من عناية الخلفاء والأمراء بالأدب واللغة )

١ - أشد عبد الملك يوماً قول عمر بن حطان<sup>(١)</sup> يمدح عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي كرم الله وجهه :

يا ضربةً من كريمٍ ما أراد بها      إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا  
إني لأفكر فيه ثم أحسبه      أو في البرية عند الله ميزانا<sup>(٢)</sup>

ثم قال جلسائه : من يعرف قائلها ؟ فسكت القوم جميعاً ، فقال لروح بن زباع : سل ضيفك . قال نعم أنا سألهم ، وما أراها تخفى على رجل فيهم ما سألته عن شيء قط إلا وجدته به علماً . فلما راح إلى ضيفه ذكر لهم البيتين ، وكان عمر بن حطان من ضيوفه يكتنم خبره خوفاً من الخليفة ، فقال له : قائلها عمر بن حطان في ابن ملجم قاتل علي ؟ فقال له : فهل فيها غير هذين البيتين تفيدنيه ؟ قال نعم :

للهِ دَرُّ المرادى الذى سفكت      كفاه مهجة شر الخلق إنسانا  
أوسى عشيّة غشاه بضربته      مما جناه من الأثام عريانا

ثم أتبع البيتين بقوله : صلوات الله على علي ، واعن الله عمر بن حطان وابن ملجم ، فلما أصبح روع غداً على أمير المؤمنين فأخبره بالحديث ، فقال له ضيفك هذا هو عمر بن حطان ،

(١) عمران بن حطان السدوسى شاعر فصيح من الشراة ودعاتهم والمقدمين فيهم ، وكان في آخر أيامه من القعدة لأن عمره طال فضعف عن القتال فكان يدعو بلسانه . وهو من البصرة فلما اشتهر بالخروج طلبه الحجاج فهرب إلى الشام ثم طلبه عبد الملك فهرب إلى عمان وما زال يتنقل حتى مات .

(٢) فكر (من باب ضرب) كأفكر وتفكر . حسب بمعنى الظن (كفرح) والمضارع بالوجهين



فقل له : إن الخليفة أمرني أن آتيه بك ، فأظهر عمران السرور بذلك ، ثم فرّ خوفاً من عبد الملك لأنه كان خارجاً عليه .

٢ - نَصَدَ عبد الملك يوماً الموائد يطعم الناس ، فجلس رجل من أهل العراق على بعض تلك الموائد ، فنظر إليه خادم عبد الملك فأنكره وضايقه ، فقال له الأعرابي : دعني أتهمناً بزاد أمير المؤمنين ولا تنغصني به ، ثم إن عبد الملك وقف على تلك المائدة ، فقال من القائل :

إِذَا الْأَرْضَى تَوَسَّدَ أَبْرَدِيَهُ خُدُودُ جَوَازِيٍّ بِالرَّمْلِ عَيْنِ (١)

وما معناه ؟ ومن أجاب فيه أجزناه . والخادم يسمع ، فقال العراقي للخادم : أتجب أن أشرح لك قائله وفيم قاله ؟ قال نعم . قال : يقوله عدى بن زيد في البطيخ الرَّمْسِيَّ . فقال ذلك الخادم . فضحك عبد الملك وقال له : من ذلك على هذا ، قال : هذا العراقي فعل الله به ، فقال عبد الملك للعراقي : أنت لقتته هذا ؟ قال : نعم ، لأنه كدر على طعامك بازدرائه لي ، ثم قال له عبد الملك : فكيف الصواب ؟ قال يقوله الشَّامُخُ (٢) ابن ضِرَارٍ العُظْفَانِي فِي صِفَةِ البَقْرَةِ الوحشية قد جرئت بالرطب عن الماء ، قال صدقت وأجازته ، ثم قال له . ما حاجتك ؟ قال : تنحى هذا عن بابك فإنه يشينه .

٣ - قال حماد الراوية : كنت منقطعاً إلى يزيد بن عبد الملك . فكان هشام

(١) الأَرْضَى : شجر أحمر السيقان . الأبردان : الظل والقيء ، أو الغداة أو العشي . الجوازي : المكثفة بالعشب الأخضر عن الماء . العين : جمع عيناء ، وهي التي عظم سواد عينيها في سعة (فائدة) كما تقصد العرب بالأبردين الظل والقيء أو الغداة أو العشي تقصد بالأبيضين اللبن والماء أو الحبز والماء أو الشحم واللبن . وبالأحمرين الحمر واللحم . ويكون تقدير البيت إذا توسدت خدود البقر الأَرْضَى فِي الغداة أو العشي . . . ويكون نصب أبرديه على الظرفية . وبعد البيت :

بعثت إليك راحلتى تشكى  
هزالاً بعد محفدها السمين  
والمحفد : السنام .

(٢) الشامخ : شاعر مخضرم وهو أحد من هجا قومه وعشيرته ومن عليهم بالقرى . قال فيه الحطيئة إنه أشعر عُظْفَان ، وكان يجيد وصف القوس والحمار الوحشي ، وكان أرجز الناس على البديهة



يجفوني لذلك ، فلما أفضت الخلافة إلى هشام خفته ، فكشيت في بيتي مدة لا أخرج إلا لمن أثق به من إخواني سرًّا ، فلما لم أسمع أحدا يذكرني سنة أمنت فخرجت فصليت الجمعة ، فإذا شرطيان يقولان : يا حماد أجب الأمير يوسف بن عمر ، فقلت في نفسي : من هذا كنت أحذر ، وحاولت أن آتي أهلي أودعهم فلم يمكناني ، فلما صرت إلى الأمير يوسف رمي إلي كتابا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر أما بعد : فإذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به غير مرَّوعٍ ولا متعتعٍ ، وادفع إليه خمسمائة دينار وجملا يسير عليه إلى دمشق . فلما صرت إلى هشام استداناني فدنوت ، ثم قال لي : أتدرى فيم بعثت إليك ؟ قلت لا . قال بعثت إليك لبيت خطر ببالي لم أدر قائله . قلت وما هو ؟ قال :

فَدَعَوْا بِالصَّبُوحِ يَوْمَا فَجَاءَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ

فقلت هذا يقوله عدى بن زيد<sup>(١)</sup> في قصيدة له . قال فأنشدنيها ، فأنشدته :

بَكَرَ الْعَاذِلُونَ فِي وَضْحِ الضُّبْحِ يَقُولُونَ لِي أَلَا تَسْتَفِيْقُ

وَيُلُومُونَ فِيكَ يَا بِنْتَ عَبْدِ اللَّهِ وَالْقَلْبُ عِنْدَكُمْ مَوْثُوقُ

لَسْتُ أَدْرِي إِذَا كَثُرُوا الْعَدْلَ فِيهَا أَعْدُوْ يَلُومُنِي أَمْ صَدِيْقُ

فدعوا بالصَّبُوحِ يَوْمَا فَجَاءَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ<sup>(٢)</sup>

قَدَّمْتُهُ عَلَى عُقَارٍ كَعَيْنِ الدُّ دِيكِ صَنِي سُلَافِهَا الرَّأْوُوقُ<sup>(٣)</sup>

مُرَّةٌ قَبْلَ مَرْجِهَا فِذَا مَا مَرْجَتْ لَدَّا طَعْمَهَا مَنْ يَدُوْقُ

(١) عدى بن زيد: شاعر جاهلي نصراني قروي كان من أهل اليمامة ثم تحوّل جده إلى الحيرة ولم أصابه في بلاده . وفيها نشأ عدى واتصل بملوكها حتى لقد كتب في ديوان كسرى بالعربية وكان يعرف الفارسية ، وليس من الفحول قالوا عنه: إنه بين الشعراء كسهيل في النجوم يعارضها ولا يجرى معها .

(٢) الصبوح : شراب الصبح .

(٣) العقار : الحمر لعاقرتها (ملازمتها) الدنّ أو لعقرها شاربها: أى قيدها إياه عن المشى .



وطفًا فوقها ففقايعُ كالذُرِّ رِ صِغَارٌ يُثِيرُهَا التَّصْفِيقُ<sup>(١)</sup>

ثم كان الزَّاجُ ماءً سَحَابٍ لَا صَرَى آجِنٌ وَلَا مَطْرُوقٌ<sup>(٢)</sup>

فطرب هشام ، ثم قال أحسنت : فسل حاجتك كائنة ما كانت ، فقال حماد فقلت : إحدى الجاريتين لجاريتين كانتا واقفتين في خدمة الخليفة ، فقال : هالك ، ثم بت في ضيافة الخليفة ، فلما أصبحت إذا بعدة من الخدم بيد كلٍّ منهم بَدْرَةٌ<sup>(٣)</sup> ، فقال لي أحدهم أمير المؤمنين يقرئك السلام ، ويقول لك : انتفع بهذا المال فأخذته والجاريتين وانصرفت .

٤ — قال عبد الملك يوما لجلسائه ، وكان يتجنب غير الأدباء : أى المناديل أفضل ، فقال قائل منهم : مناديل مصر كأنها غرقيء البيض ، وقال آخر : مناديل اليمن كأنها أنوار الربيع ، فقال عبد الملك : ما صنعتما شيئاً أفضل المناديل كما قال أخوتيم ، يعنى عبدة بن الطيب :

لَمَّا نَزَلْنَا نَصَبْنَا ظِلَّ أَخْبِيَةِ      وَقَارَ لِلقَوْمِ بِاللَّحْمِ المَرَاجِيلُ  
وَرَدُّ وَأَشَقَرُّ مَا يُؤُونِيهِ طَابِخُهُ      مَا غَيْرَ الغُلَى مِنْهُ فَهُوَ مَا كُولُ<sup>(٤)</sup>  
نَمَّتْ قُمْنَا إِلَى جُرْدٍ مُسَوِّمَةٍ      أَعْرَافُهُنَّ لِأَيْدِينَا مَنَادِيلُ

قال في الكامل : وإنما أخذ الشاعر هذه الأبيات من بيت امرئ القيس ، فإنه جمع ما فيها في بيت واحد مع فضل التقدّم :

نَمَشُّ بِأَعْرَافِ الجِيَادِ أَكُفْنَا      إِذَا نَحْنُ قُمْنَا عَنِ سِوَاءِ مُضَهَبٍ  
والمضهب الذي لم يدرك .

(١) الفقايع : هبات صغار مستديرة تتولد من مزج الحجر بالماء واحدها فقاعة . التصفيق مزج الحجر بالماء .

(٢) الصرى : الماء يطول مكته . آجن : متغير اللون والطعم . المطروق : الذى خوضته الابل وبولت فيه .

(٣) البدره : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم . أو سبعة آلاف دينار .

(٤) ما يؤنيه : أى يؤخره حتى يبلغ أناه : أى إدراكه ، والعرب لاتنضج اللحم لاستعجالها للضيف . ولأن ذلك مستحب عندها . الورد : الأحمر . الأشقر ! الذى بين الحمرة والبياض .



٥ — كتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يعظم أمر قَطْرِيَّ بن الفجاءة المازني ، فكتب إليه عبد الملك : أوصيك بما أوصى به البكري زيدا ، فقال الحجاج لحاجبه : ناد في الناس من أخبر الأمير بما أوصى به البكري زيدا فله عشرة آلاف درهم ، فقال رجل للحاجب : أنا أخبره فأدخله عليه ، فقال له : ما قال البكري لزيد ؟ قال : قال موسى بن جابر البكري لابن عمه زيد :

أَقُولُ لَزَيْدٍ لَا تُتَرَتِرْ فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ الْمَنَايَا دُونَ قَتْلِكَ أَوْ قَتْلِي (١)  
فَإِنْ وَضَعُوا حَرَبًا فَضَعَهَا وَإِنْ أَبَوْا فَشَبَّ وَقُودَ الْحَرْبِ بِالْحَطَبِ الْجَزَلِ (٢)  
فَإِنْ عَضَّتِ الْحَرْبُ الضَّرْسُ يُنَابِهَا فَعَرَضَةُ نَارِ الْحَرْبِ مِثْلُكَ أَوْ مِثْلِي (٣)

فقال الحجاج : صدق أمير المؤمنين عُرْضَةُ نار الحرب مثلي أو مثله .

٦ — جيء إلى الحجاج بالأسرى بعد حرب ابن الأشعث ، فوقفوا بين يديه ، وجعل يقتلهم ، ثم صاح به رجل : « والله يا حجاج لئن كنا قد أسأنا بالذنب ، فما أحسنت بالعضو ، ولقد خالفت الله فينا وما أطعته ، فقال له : « كيف ؟ ويلك ! » . قال : لأن الله تعالى يقول : « فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَمْخَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مِمَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا » ، وقد قتلت فأخنت حتى تجاوزت الحد ، فامنن ولا تقتل ، فقال الحجاج : « ويلك ! ألا كان هذا الكلام قبل هذا ؟ » ، ثم أمر رفع السيف وأمن الناس .

٧ — فرَّ الكُمَيْتُ الشاعر المتشيعُّ لبني هاشم من سجن هشام ، فكان شديد الحق عليه لتشيعة وفراره من سجنه ، ثم احتال الكميت حتى دخل على هشام ، فقال له : يا كميت ، أأست القائل :

- (١) الترترة : التزلزل والتقلقل ، وهي أيضا استرخاء في الكلام والبدن .  
(٢) الوقود بالفتح والضم : شبوب النار . وبالفتح خاصة : الحطب كالوقيد والوقاد .  
(٣) يقال هو عرضة لذلك : أى مقرون له قوى عليه . وجعلته عرضة لذلك : أى نصبته له ، والمعنيان مناسبان هنا : أى نحن تقاوم نار الحرب ، أو نحن معرضون لها .



قَقْلُ لَيْبِي أُمِّيَّةَ حَيْثُ حَلُّوا      وَإِنْ خِفْتَ الْمُهَنْدَ وَالْقَطِيعَا (١)  
أَجَاعَ اللَّهُ مَنْ أَشْبَعْتُمُوهُ      وَأَشْبَعَ مَنْ بَجَّوْرِكُمْ أُجِيعَا  
بِمَرْضِي السِّيَاسَةِ هَاشِمِيَّ      يَكُونُ حَيًّا لِأُمَّتِهِ رَبِيعَا

فقال : لا تريب يا أمير المؤمنين ، إن رأيت أن تمحو عنى قولى الكاذب . قال :  
بماذا ؟ قال : بقولى الصادق :

أَوْرَثْتَهُ الْحِصَانَ أُمَّ هِشَامٍ      حَسَبًا ثَاقِبًا وَوَجْهًا نَضِيرَا (٢)  
وَتَعَاطَى بِهِ ابْنُ عَائِشَةَ الْبَدَا      رَفَأْتَسَى لَهُ رَقِيْبًا نَظِيرَا  
وَكَسَاهُ أَبُو الْخَلَائِفِ مَرَوَا      نُ سَنَاءَ الْمَكَارِمِ الْمَأْتُورَا  
لَمْ تَجْهَمْ لَهُ الْبِطَاحُ وَلَكِنْ      وَجَدْتَهَا لَهُ مَعَانَا وَدُورَا (٣)

وكان هشام متكئا فاستوى جالسا وقال : هكذا فليكن الشعر ، ثم قال : رضيت عنك  
يا كميث ، فقبل يده ، وأمر له بأربعمائة ألف درهم وثلاثين ثوبا شاميا ، وكتب إلى خالد  
ابن عبد الله القسرى عامله على العراق ينهيه عن التعرض للكميث ، ويأمره بإخلاء سبيل  
امراته ، وأن يعطيها عشرين ألفا وثلاثين ثوبا .

٨ - وصفت لعبد الملك جارية لرجل من الأنصار ذات أدب وجمال ، فساومه  
فيها ، فامتنع وامتنعت ، ثم أضعف لصاحبها الثمن وأخذها على كره منها ، فأعجب بها  
عبد الملك ، وأمرها بلزوم مجلسه والقيام على رأسه ، فبينما هى عنده ومعه ابنه الوليد  
وسليمان ، وقد أخلاها لهذا كره إذ أقبل عليهما ، فقال : أى بيت قالته العرب أمدح ؟  
فقال الوليد : قول جرير فيك :

السُّمُّ خَيْرٌ مِنْ رَكِبِ الْبَطَايَا      وَأُنْدَى الْعَالِيْنَ بَطُونٌ رَاحَ

- (١) القطيع : السوط أو القضيبي تتخذ منه السهام ويصح إرادة المعنيين .  
(٢) أم هشام ، هى بنت إسماعيل الخزومي ، وهى زوج عبد الملك وكانت له أيضا عائشة وهى بنت  
طلحة التيمي وقد ولدت له أبا بكر واسمه بكر .  
(٣) البطاح : أراد بها الأماكن المقدسة : أى الكعبة وما حولها . المعان : المباءة والنزل .



وقال سليمان : بل قول الأخطل :

شَمْسُ الْعِدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ وَأَعْظَمُ النَّاسِ أَخْلَامًا إِذَا قَدَرُوا

فقلت الجارية : بل قول حسان :

يُعْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرُّ كِلَابُهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ

فأطرق عبد الملك ، ثم قال : وأى بيت قالته العرب أرق ، فقال الوليد قول جرير :

إِنَّ الْعَيْوَانَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ قَتَلْنَا مُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا

فقال سليمان : بل قول عمر بن أبي ربيعة :

حَبَّذَا رَجَعَهَا إِلَيْهَا يَدَيْهَا مِنْ يَدَيِ دَرْعِهَا تَحُلُّ الْأَزْرَا

فقلت الجارية : بل بيت حسان :

لَوْ يَدِبُّ الْحَوْلِيُّ مِنْ وَلَدِ النَّزْرِ عَلَيْهَا لِأَنْدَبَهَا الْكُلُومُ

ثم قال عبد الملك : أى بيت قالته العرب أشجع ؟ فقال الوليد قول عنترة :

إِذْ يَتَّقُونَ بِيَ الْأَسِنَّةِ لَمْ أَحِمْ عَنْهَا وَلَكِنِّي تَضَاقِقُ مَقْدَمِي

فقال سليمان : بل قوله :

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا فَالَمَوْتُ مِنِّي سَابِقُ الْأَجَالِ

فقلت الجارية : بل بيت كتب بن مالك :

نَصِلُ الشُّيُوفَ إِذَا قَصْرُنَ نَحَطُونَا قَدَمَا وَنَلْحِقُهَا إِذَا لَمْ تَلْحَقِ

فقال عبد الملك : أحسنت ، ومازى شيئاً فى الإحسان إليك أبلغ من ردك إلى أهلك ،

فأجل كسوتها ، وأحسن صلتها ، وردّها إلى أهلها .

٩ - ضمّ مجلس عبد الملك جماعة من خواصه وسماّره ، وكلهم من أهل الأدب ،

لأنه كما علمت كان يتجنب غيرهم فى مجالسه . فقال « أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِحُرُوفِ الْمَعْجَمِ فِي

بَدَنِهِ ، وَهُوَ عَلِيٌّ مَا يَتَمَنَّى ، فقام إليه سُؤْيِدُ بْنُ غَفَلَةَ ، فقال : أنا لها يا أمير المؤمنين ،

فقال : قل ما عندك ، فقال :



«أنف . بطن . ترقوة . ثغر . جمجمة . حلق خد . دماغ . ذكر . رقبة . زند .  
ساق . شفة . صدر . ضلع . طحال ظهر . عين . غُدْبَة<sup>(١)</sup> . فم . قفا . كف . لسان .  
منخر . نُغْنَعُ<sup>(٢)</sup> هامة . وجه . يد . فهذه حروف المعجم ، والسلام على أمير المؤمنين » .  
فقال بعض الجالسين وقال : أنا أقولها في جسد الإنسان ثلاثا . فقال عبد الملك :  
قل ولك ما تمنى ، فقال :

« أنف . أذن . أسنان - بطن . بصر . بز - ترقوة . تمرة . تينة<sup>(٣)</sup> - ثغر . ثنايا .  
ثدى - جمجمة . جنب . جبهة - حلق . حنك . حاجب - خد . خصر . خاصرة -  
دبر . دماغ . دُرْدُرُ<sup>(٤)</sup> - ذكر . ذقن ذراع - رقبة . رأس . ركبة - زند . زردمة<sup>(٥)</sup> .  
زغب<sup>(٦)</sup> - ساق . سرّة . سبابة - شفة . شعر . شارب - صدر . صدغ . صلعة -  
ضلع . ضفيرة . ضرس - طحال . طُرَّة<sup>(٧)</sup> . طرف - ظهر . ظفر . ظَلَمَ<sup>(٨)</sup> - عين .  
عنق . عاتق - غُدْبَة . غلصمة . غنة - فم . فك . فؤاد - قلب . قدم . قفاً - كتف .  
كفّ . كعب - لسان . لحيّة . لوح - مرفق . منكب . منخر - نُغْنَعُ<sup>(٩)</sup> تغنوغ .  
ناب . نَنَ<sup>(١٠)</sup> . هامة - هيف . هيئة - وجه . وجنة . ورك - يمين . يسار . يافوخ .  
ثم نهض مسرعا وقبل الأرض بين يدي عبد الملك ، فقال أعطوه ما يتمنى .

- 
- (١) الغدبة : لحم غليظة تحت لهازم الانسان .
  - (٢) النغنع : اللحم في الحلق عند اللهازم .
  - (٣) التينة : الدبر .
  - (٤) الدردر : مغارز الأسنان في الصبي .
  - (٥) الزردمة : الغلصمة ، أو موضع الابتلاع .
  - (٦) الزغب : صغار الشعر .
  - (٧) الطرة : الناصية .
  - (٨) الظلم : بريق الأسنان .
  - (٩) الفرج .
  - (١٠) الشعر الضعيف .



## مصر (مجامع العلم والأدب)

كان في عهد هذه الدولة مجامع للعلم وأخرى للأدب . تقوم الأولى على علوم الدين من تفسير للقرآن ورواية للحديث و بيان للفرائض والوعظ ، ولم يكن يؤيدها في الغالب ، ولا يدفع إليها إلا رغبة كبار الصحابة والتابعين في نشر الإسلام وتلقيه الناس فيه . فلم يكن للدولة ولا للقائمين بالأمر بذل في سبيل ذلك ولا تشجيع عليه .

أما مجامع الأدب فكانت زاخرة بالشعر والرواية عن العرب تزدهم فيها الأقدام ، ويجري التنافس ، ويدكيها اشتراك الخلفاء فيها ، ومساجلتهم لرجالها ، وإغداقهم على المبرزين منهم . وإذا كانت مجامع العلم ، وهي حلقات الدروس في مساجد الأمصار، وفناء الكعبة ، ومسجد رسول الله بالمدينة ، فإن مجالس الأدب هي دور الخلفاء والولاة والمساجد ، وكناسة الكوفة ، ومربد البصرة .

## مجامع العلم

لما كثرت البلاد المفتوحة ، واستقرت في يد العرب ، وكانت كثيرة الخيرات وفيرة الغلات رغب العرب في النزوح إليها للاستمتاع بخيراتها . فكان من ذلك أن انبث في البلاد أصحاب رسول الله الذين عقلوا عنه الدين ، وفهموا معاني القرآن ، وأحصوا حديثه ورأوا فعله ، فالتفت حولهم الناس يتلقون عنهم ، ويرهفون آذانهم لما فاتهم من حكمة رسول الله وأدبه ، وكانت الأمصار إذ ذاك هي : المدينة ، ومكة ، والبصرة ، والكوفة ، ودمشق ، والفسطاط . وقد أتاح الله لكل مصر من هذه الأمصار علما أو علماء كانوا هداة أهلها ، وخلفوا فيها تلاميذ لهم اقتصدوا بأرائهم ، واصطبغوا بصبغتهم ، وشاعت في كل مصر آراء ، أوراقت علوم توافق النزعة التي امتاز بها



ذلك الصحابي والتابعي الذي كان محدّث الناس بهذا المصر .

كان للمدينة ومكة الشأن الأول بين الأمصار في نشر الدين . فأما مكة فلها شرف البيت ونشأة النبي والإسلام بها وكونها مثابة الحاج . وأما المدينة ، فلكونها مهاجر النبي ، وبها كان جلّ التشريع الإسلامي ، وهي مركز الخلافة أيام أبي بكر وعمر وعثمان . ولكن المدينة كانت أعظم شأنًا من مكة (على عظم شأنها) إذ كان بالمدينة جلّ الصحابة الذين سمعوا من الرسول ، وحضروا غزواته ولازموا مجلسه ، فقد بقوا بالمدينة لم يبرحوها ، ولم يعد إلى مكة من كان بها من المهاجرين . تخرجوا من ذلك والتماساً للبركة بما لازمه الموضوع الذي شرف برسول الله حيًّا وميتًا .

فكانت المدينة ثم مكة أكثر قصاداً من طلاب العلم لكثرة من بهما من حملة الشرع والذين حضروا التنزيل ، فكان من كبار العلماء بالمدينة زيد بن ثابت الذي كان مترسماً في القضاء والفتيا والقراءة والفرائض ، وكان من فضله أن يأخذ ابن عباس بركابه ويقول : هكذا يفعل بالعلماء والكبراء . ثم من علماء التابعين بها سعيد بن المسيّب تلميذ زيد بن ثابت ، وعروة بن الزبير ، وأخيراً أنجبت المدينة مالك بن أنس .

وكان من كبار رجال مكة معاذ بن جبل الذي خلفه رسول الله بمكة بعد الفتح يعلم أهلها ويفقههم ، وعبد الله بن عباس أعلم الناس بتأويل القرآن ، ومنهم سفيان ابن عيينة الذي أخذ عنه الإمام الشافعي قبل أن يتحول إلى المدينة .

ونزل بالكوفة من أصحاب رسول الله كثير كان من أشهرهم : علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، ولكن علياً كان مشغولاً بالسياسة والحروب فلم يجلس للتعليم ، وابن مسعود ، وهو الذي أرسله عمر بن الخطاب إلى الكوفة لتعليم أهلها ، فكان له تلاميذ علموا الناس من بعده ، واجتمع بهم من قدموا من المدينة فيما بعد ، فكانت في الكوفة حركة علمية كبيرة ، ومن علمائها شريح القاضي والشعبي والأشتر النخعي . ومن علماء الكوفة فيما بعد ( في عصر العباسيين ) الإمام أبو حنيفة النعمان .

وفي البصرة كان أوّل من علم الناس بها أبو موسى الأشعري ، وهو يني قدم مكة



فأسلم وهاجر إلى الحبشة ، وكان يعدّ من أعلم الصحابة ، وكذلك علم بها أنس بن مالك الذي كان صبياً حين قدم النبي المدينة وخدمه عليه الصلاة والسلام عشر سنوات ، وكان آخر من مات بالبصرة من الصحابة ، واشتهر بالحديث أكثر من الفقه ، وإنما أتاه ذلك من ملازمته للنبي . ومن تلاميذه الحسن البصرى وابن سيرين ، وقد ماتا في سنة واحدة هي سنة ١١٠ هـ .

وفي الشام : كان معاذ ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الدرداء ، وقد أرسلهم عمر حين طلبهم يزيد بن أبي سفيان لاحتياج أهل الشام إلى من يعلمهم القرآن ، ويفقههم في الدين ، ثم بعث عمر بعدهم عبد الرحمن بن غنم ، فتخرّج على أيديهم كثيرون من التابعين ، كعمر بن عبد العزيز ، ورجاء بن حيوة والأوزاعي إمام أهل الشام الذي انتشر مذهبه في المغرب والأندلس ، ولكن زاحمه فيها مذهب الشافعي ومالك .

وكان في مصر ممن نزل بها : عبد الله بن عمرو بن العاص ، وهو من أكثر الناس حديثاً عن رسول الله ، وكان يدوّن كل ما يسمع ، ومن اشتهر بمصر بعد الصحابة : يزيد بن حبيب وهو نوبي من دققة ، وكان علمه في أخبار الفتن والحروب ، وخاصة ما يتعلق بفتح مصر ، ومن تلاميذه : الليث بن سعد ، وكان صاحب المذهب الذي اتبعه المصريون ، ثم اندرس كما درس مذهب الأوزاعي بالشام .

ومما تجب ملاحظته أن أكثر هؤلاء الذين أذاعوا العلم وأشاعوه في الأمصار ، وأصدروا الفتيا ، واستنبطوا الشرع من القرآن وحديث النبي كانوا من الموالى ، وذلك أنه لما تمّ الفتح اشترك الموالى والعرب في التلقى عن الصحابة ، وكان الموالى أكثر إقبالا على العلم لأنهم نسل أمم متمدنة عرفت العلم ، ودرجت عليه ، واكتسبت فيه حذقا وسرعة قبول له . ثم إنهم كانوا يطلبون العلم ليرفعهم في نظر أسيادهم ، وليستروا به وصمة الرق . فمنهم سعيد بن جبير مولى بنى والبة ، وكان أسود ، ومحمد بن سيرين ، والحسن البصرى كان أبواهما من سبى ميسان ، وعكرمة مولى بن عباس ، ونافع



ابن الأزرق مولى ابن عمر، وربيعة الرأي، وأبو فروج من الموالى، ويزيد بن حبيب مولى الأزرق، وهو بربرى من أهل دقلة .

## مجامع الأدب

أما الأدب فهو الذى بذل خلفاء هذه الدولة عنايتهم به ، فراجت أسواقه ، وحفلت مجامعه ، وإنما حملهم على العناية به غرامهم بشعر الجاهلية وأخبارها ، ثم رغبتهم فى المدح والإشادة بالذكر ، فتنافس الشعراء بالزلفى إليهم ، وتساوموا إلى الغاية التى ترضيهم . فكانوا يعرضون شعرهم على نقدة الكلام ليعرفوا موقعه من النفوس ، وتظهر لهم شهرة يتقدمون بها إلى الخليفة أو الأمير ، فإذا تم لأحدهم بلوغ هذا الأمل فقد ضمن الرزق الوفير والجاه العريض .

وقد كان الشاعر ينبغ ويتسامع به الناس ، فيحرص الخليفة أو الأمير على إشخاصه إليه ليضمه إلى أنصاره ويزيد فى رجاله . وتند زاد الناس عناية بالأدب أن الخلفاء أنفسهم كانوا يساهمون فى معرفته ، ويستطيعون تذوقه والحكم عليه ، بل لقد نصبوا أنفسهم لتعليم جلسائهم وإطرافهم بما لم يسمعو به . فكان عمل الشاعر أو الأديب الراوية يجمع بين الرغبة والرغبة ، لأنه سيقف أمام ناقد بصير يردّ عليه خطاه ، ويعيب عليه تقصه ، ثم هو بعد ذواريجية تجعله يهتز للحكمة ، ويملك سمعه اللفظ الجيد ، ويستولى على مشاعره المدح البالغ ، فإن استطاع شاعر أو أديب الوصول إلى قلب الخليفة من إحدى هذه النواحي لم يبق بينه وبين الغنى إلا أمر الخليفة خدامه أن يحشوا فاه درًا ، أو يملئوا أوعيته تبرًا ، ثم يصير من جند الخليفة ، وإن لم يحمل سلاحا فيكتب فى ديوان الجند ، ويستحقّ الرزق الذى يجرى عليه كل عام .

فهل يكون هذا جزاء الشعر أو الأدب ، ثم يقعد عن التماسهما من يستطيع

إليهما سيلا .



ولقد كان للعصبية التي أحيها بنو أمية بين القبائل أثر فيما للأدب من رواج ،  
فإن كل قبيلة تتعصب لشاعرها وتنصره ، وتحتج له فيكثر النقاش والجدل ، وتمتلي  
الحافل والأسواق بالمفاضلة التي ربما انتهت إلى الحاصمة والقتال .

وكانت مجامع الأدب هي مجالس الخلفاء والولاة ، يجتمع فيها كل أديب نابه ، أو  
شاعر نابغ ، وربما بعثوا في طلب الراوية من أقصى مكان ليسمع منه الخليفة أو الوالي  
رأيه في شاعر ، أو ليستطلع رأيه في رواية بيت أو مغزاه . كذلك كانت المساجد من  
مواضع مدارس الشعر ، لابل المسجد الحرام نفسه ، فقد ورد بالأغاني ما يأتي :

بيننا ابن عباس بالمسجد الحرام ، وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه  
إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين مصبغين موردين أو ممصرين<sup>(١)</sup> حتى دخل مجلس  
فأقبل عليه ابن عباس ، فقال : أنشدنا ، فأنشد :

أمن آل نغم أنت غاد فبكر  
غداة غد أم راح فبجر

حتى أتى على آخرها ، فأقبل عليه نافع ، فقال له : يا ابن عباس ، إنا نضرب إليك  
أكباد الإبل من أقصى البلاد ، نسألك عن الحرام والحلال ، فتتناقل عنا ، ويأتيك  
غلام مترف من قريش ، فينشدك :

رأت رجلا أمّا إذا الشمس عارضت  
فيخزي وأما بالعشي فيخسر

فقال : ليس هكذا . قال فكيف قال ؟ قال :

رأت رجلا  
فيضحى . . . . . فيخسر

فقال نافع : ما أراك إلا قد حفظت البيت . قال : أجل ، بل إن شئت أن أنشدك  
القصيدة فعلت . قال : فإني أشاء ، فأنشده القصيدة .

ومن المجامع الحافلة ، والمشاهد الجامعة سوق الكوفة (الكناسة) وسوق البصرة (المربد) ،  
فكانت تتألف فيهما حلقات المناشدة والمفاخرة ومجالس الرواية ، وكان كل شاعر يقصد

(١) المصمر : المصبوغ بالمر ، وهو صبغ أحر .



السوق ومعه روايته المناضلة عنه . وكان لفحولهم حلقات خاصة أشهرها في المربد حلقة الفرزدق وراعى الإبل .

وقد كان بين الكوفة والبصرة تنافس شديد في العلم والأدب ، ومناظرات بين رجالهما ، ولكن شهرة البصرة كانت باللغة وعلمها من نحو وغيره لقربهم من البادية التي عرف أهلها بالفصاحة وصدق اللهجة .



أما الكوفة فقد اشتهرت بعلم الشعر وروايته ، وقيل في سبب ذلك : إن المختار ابن عبيد الله وقف في أثناء حروبه بالعراق على أشعار مدفونة تحت القصر الأبيض فاستخرجها ، فكانت في يد الكوفيين يتنقلون بها على البصريين ، وكان الذي دفنها فيما ذكروا النعمان بن المنذر ملك الحيرة . وبقيت الكوفة في النحو عالة على البصرة ، ولم ينبغ فيها من علمائه أحد إلا في العصر العباسي .

### (النثر في العصر الأموي)

لقد استفادت اللغة العربية بالإسلام فوائد جميلة تحدثنا عنها في كلامنا عن العصر الماضي وما كان من تأثير القرآن ، وحديث النبي في مادة اللغة وشفاء أساليبها ، وتعدد مناحي القول فيها : وما نقول في هذا العصر إلا أن كل فائدة من تلك الفوائد قد تضعف أثرها وجل شأنها ، وما نشبه ما كان من ذلك إلا بغرس كانت في أيام الخلفاء الراشدين باكورتها ، واليوم تتابع أثماره ، وزادت غلته . فهذا القرآن الكريم كان على عهد النبي والخلفاء بعده لا يحفظ الرجل منه إلا الآيات يصلح بها ، وقليل من المسلمين إذ ذاك من حفظ سوراً بأجمعها .

قال أنس بن مالك : كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ في أعيننا ، وأقام



ابن عمر على حفظ البقرة ثمان سنين ، وكان عثمان وابن مسعود وغيرهما من القراء إذا تعلموا من النبي عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما بها من العلم والعمل . والسبب في ذلك حداثة العهد ، واشتغال الناس بالفتوح ، وضعف وسائل النشر ، ولكنك ترى في آخر أيام الخلفاء الراشدين أن عثمان كتب نسخاً من المصاحف ، وبعث بها إلى الأمصار ، ولا شك أن الكتابة في عهد الأمويين كانت أعم ، فضمن ذلك انتشار القرآن أكثر مما كان . على أن الناس حين هدهوا من الفتوح واستراحوا من القتال ، جلسوا لتلقي العلم ، فكان ابن عباس بمكة ، وزيد بن ثابت بالمدينة ، وغيرهم في الأمصار يعلمون الناس ، ويشرحون لهم المشكل من آيات القرآن ، ويبينون ناسخه ومنسوخه ، فكانت لدراسة القرآن سوق أنفق من سوقها أيام صدر الإسلام .

وهكذا الشأن في حديث رسول الله ، كثرت الحاجة إليه والاستدلال به في كل ما كان يقع للمسلمين أو يجري بينهم من خلاف ، فكان المحدثون يروونه للعامة ، ويلقونهم إلى ما حواه من أدب وحكمة ، وانتهى الأمر بجمعه أيام عمر بن عبد العزيز . ولا يفوتنا أن نقول : إن الوعظ وإن كان حاصلًا من الخلفاء وغيرهم في صدر الإسلام لم يصر إلى السكثرة التي كان عليها أيام بني أمية ، فإن معاوية ( وقد اتبعه خلفاؤه ) رتب الوعظ في المسجد يعظون الناس ، ويذكرونهم بأخترتهم ، ومدار القول عند هؤلاء إنما هو آيات القرآن ، وحديث النبي ، فهما فيما نرى كانا في عصر بني أمية أشيع وأكثر تداولًا ، فجدير أن يكون أثرهما أقوى ونفعهما أجدى .

وإذا عزونا إلى مخالطة العرب غيرهم واطلاعهم على أحوال الأمم فضلًا في حصافة عقولهم ، فقد كانت هذه المخالطة أتم ، وذلك الاطلاع أوسع في عصر بني أمية ، فإن العرب فيه أقاموا بين ظهرائي الفرس والروم والقبط في البصرة والكوفة بالعراق ، وفي دمشق وما حولها بالشام ، وفي انسطاط إلى بلاد النوبة بمصر ، وعاملوهم وصاهروهم ، ونشأت من نسلهم ناشئة تحمل صفات العرب ومزايا تلك الأمم السابقة إلى الحضارة ، فكان لهذه الناشئة أثر في تقدم العرب ، ورواج العلم ، وشيوع الحضارة .



غير أن هنوات دخلت على اللغة من أثر ذلك الاختلاط ، ولكنها لم تتعد العرض إلى الجوهر ، فقد لحنوا وغيروا الإعراب ، وهذا لم يكن في الغالب إلا من المتعربين من الموالي . أما العرب أنفسهم فقد قلّ ذلك فيهم . ولقد كان من هؤلاء اللحنين من كان بليغاً قوياً الملكة ، بل خطيباً جزل القول بعيد المدى ، فإن الجاحظ يقول عن خالد ابن عبد الله القسري : إنه كان مولعاً بالتشديق في الخطب ، وما كان الجاحظ يستسيغ قبول ما تناقله الناس من لحنه لموضع فصاحته ، لولا أن هذا النقل صح عن الوليد ، وكان كذلك فصيحاً رويت له الخطب المرتجلة .

على أن العصر الأموي ، أفاد النثر في بعض مناحيه فائدة جديدة ، وهي شدة الأسر والعودة إلى صلابة الجاهلية مع هجر عنجهيتها ، فقد علمت أن الأمويين أحبوا الآداب الجاهلية من شعر ونثر وأخبار ، فكان من أثر ذلك أن وجد متعصبون للقول الصلب ، والعبارة الشديدة التي رأينا أهل العصر الأول قد عدلوا عنها كلّ العدول . وإنك إذا ناظرت بين قول الحسن البصري ، أو ابن سيرين ، وقول الحجاج ، أو زياد ، رأيت الفرق ظاهراً ، فإن الأولين لنزعتهم الدينية جارياً أسلوب القرآن ، فجاء قولهما سهلاً ليناً ، في حين أن قول الحجاج أو زياد غليظ شديد نزعا فيه إلى صلابة الجاهلية ليناسب قولهما عملهما في أخذ الناس بالقمع والعلبة عليهم بالسلطان .

### (الكتابة في عصر بني أمية)

عرفت ما كان لها في العصر الماضي من بساطة المظهر ، والإيجاز في الأغلب الشائع ، والسهولة التي تكاد تنسيك أنها كتبت في أقرب العصور إلى العصر الجاهلي . كذلك بان لك خلوها من التكلف بجميع أنواعه من سجع ، ومحسن لفظي ومعنوي ، إلا ما وقع عفواً خاطر . وكان من بساطة مظهرها أن يبدأ الكاتب باسمه لا يتحرّج من ذلك ولو كتب إلى الخليفة ، بل لقد كتبوا إلى رسول الله فقدّموا أسماءهم كما فعل أبو بكر



والعلاء الحضرمي وغيرها . وقد بقيت هذه صورتها حتى كانت أيام الوليد ، فاستمتع ما توغلوا فيه من مظاهر الملك من حجابة وحراسة وقصور أن أنف الوليد أن يكتب إليه مع تأخير اسمه ، فصاروا يكتبون إلى أمير المؤمنين فلان من فلان ، فحرت بذلك السنة إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز ، ويزيد الكامل فإنهما عملا بسنة رسول الله ، ثم رجع الأمر إلى رأى الوليد .

وما زالت الجزالة مظهرها ، والإيجاز وصفها الغالب في بدء العصر ، ثم جعلت تتدرج في اللين والتوسع في الأساليب بكثرة الترادف على حسب ما صارت إليه الدولة من نعيم ، وما اقتبس العرب من نظام الفرس في كتاباتهم . فقد نشأ من الكتاب من حذقوا العربية بعد نشأتهم في لغتهم ، كما حكوا عن سالم مولى هشام بن عبد الملك أحد الواضعين لنظام الرسائل ، وأستاذ عبد الحميد الكاتب ، ولا شك أن من أجاد لغتين استطاع أن يروى اناساً من إناء أناس . وقد ذكروا عن عبد الحميد أنه أول من جعل الكتابة صناعة عتيقة لها نظامها في البدء والختم ، وتكرار التعميد في فصول الكتاب ، والتوسع في الأسلوب بالترادف وغيره .

و كما اقتضت الحضارة التفعيم في القول والاتساع فيه ، اقتضت كذلك كثرة الأعمال لدى الخلفاء والعمال أن يبالغوا في الإيجاز في ردودهم ، أو ما يبدونه من رأيهم فيما يقدم إليهم من شكايات أو مطالب ، فكثرت ذلك النوع المسمى بالتوقيع<sup>(١)</sup> يكتبونه في آخر

(١) يطلق التوقيع على معان :

١ - الإصابة .

٢ - رمى لاتباعه ، كأنك تريد أن توقعه على شيء .

٣ - الدبر الذي يكون في ظهر الدابة ويقال بعير موقع .

٤ - إقبال الصيقل على السيف بميقته يجلوه . وفي الاصطلاح أن يكتب على حواشي الكتاب

أو القصة المرفوعة إلى السلطان ما يفيد الاطلاع عليها وإيراد الرأي فيها . وأول توقيع

عرف كان لعمر بن الخطاب . فقد كتب إلى سعد بن أبي وقاص في بنين : ( ابن ما يكنك

من هواجر وأذى المطر ) ووقع لعمر بن العاص ( كن لرعتك كما تحب أن يكون لك أميرك )



الرسالة أو الشكاية ليدلوا على أنهم قرءوها ، فيكون رأيهم واضحاً في تلك الكلمة المحملة التي يدلون بها الرسالة :

١ - كتب ربيعة بن عسل اليزر بوعى إلى معاوية يسأله أن يعينه في بناء داره بالبصرة باثني عشر ألف جذع ، فوقع على رسالته ( دارك في البصرة أو البصرة في دارك ! ) .

٢ - وكتب مسلم بن عقبة المرسي إلى يزيد بن معاوية بالذي فعل بأهل المدينة في وقعة الحرّة ، فوقع في أسفل الكتاب : « فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ » .

٣ - وكتب قتيبة بن مسلم إلى سليمان بن عبد الملك يتهده بالخلع ، فوقع سليمان « الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

٤ - كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه يستأذنه في مرمة مدينته فوقع : « ابنها بالعدل ونق طرقها من الظلم » .

٥ - وكتب إليه عامله على الكوفة أنه فعل في أمر فعل عمر بن الخطاب فوقع له : « أَوْلَيْكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ » .



ولا تساع الدولة وكثرة أعمال الخلفاء ، لم يستمرّوا يكتبون الرسائل بأيديهم ، أو يملونها على الكتاب ، بل تركوا ذلك إلى من قام به من أبناء العرب ، أو الموالي الذين أجادوا العربية ، وما زالت الكتابة يعظم أمرها حتى صارت في آخر عهد الدولة صناعة محكمة لها نظامها وقوانينها ، وكثر الكتاب ، وتعدّد رؤسائهم ، كما تعدّدت الدواوين ، ولم يكن منها في العصر الماضي إلا ديوان الجيش ، وأوّل من اتخذ عمر لما اتسعت الفتوح ، وزاد عدد المقاتلين عن الحصر ، وديوان الخراج ، وقد نشأ في كلّ مصر منذ دخول العرب فيه ، وهو ديوان كلّ عمله حساب ، ليس فيه أثر للتنوّق في اللغة أو التفاضل في الأسلوب ، ومع ذلك فقد تبدّل كما تعرف في زمن عبد الملك بن مروان .



وقد زاد معاوية ديوان الخاتم ، وهو ديوان يختم فيه الرسائل التي تصدر عن الخليفة حتى لا يطلع عليها إلا من ترسل إليه ، وسبب إنشاء هذا الديوان : أن معاوية أحال رجلا على زياد أمير العراق بمائة ألف درهم ، ففضى الرجل فجعل المائة مائتين ، فلما رفع زياد حسابه إلى معاوية أنكرك ذلك وقال : ما أحلته إلا بمائة ألف ، ثم وضع ديوان الخاتم ، فصارت التواقيع تصدر منه مختومة لا يدري أحد ما فيها ولا يمكن تغييرها .



وإننا لنرى في هذا العصر مظهراً للكتابة لم نعهده في العصر الماضي وهو الرسائل الإخوانية، ونريد بها تلك الرسائل التي تكون بين الناس في عتاب، أو شوق، أو شكر، أو استمناع . وذلك أثر لانتشار العلم والكتابة ، ولاتساع رقعة المملكة ، وتوزع الناس فيها مع اشتباك المصالح واتصال الأواصر ، وقد كثرت هذه الرسائل في أواخر هذا العصر ، ولا غرو إذا رأيت فيها طرفا من التنوّق ومسحة من الابتداع ، فإن التقسيم والازدواج، بل السجع لتظهر فيها واضحة، وذلك فيها بمثابة إرهاب لما تتابع بعد ذلك، وتزايد في العصر العباسي ، ولا شك أن ختام عصر فاتحة للعصر الذي يليه .

## الخطابة في العصر الأموي

لعلك على ذكر لما قلناه في حديثنا عن خطابة صدر الإسلام من الأسس التي تعتمد عليها الخطابة . وما أشرنا إليه من توافرها في ذلك العصر . فاعلم أن هذه الأسس بقيت في عصر بني أمية، بل لقد زاد بعضها زيادة بينة .

فأما حرية القول ، فقد ضمنها معاوية للناس في قوله : إنا لا نحول بين الناس وبين أسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا ، وقوله : إن لم تكن إلا كلمة يشتق بها مشفق ، جعلتها تحت قدمي ودبر أذني . وهذه الحرية التي تسامح فيها معاوية أو اضطرت إليها



اضطراباً لما يعلم من شدة الشكائم ، هي التي أفسحت المجال لتكون هذه الأحزاب السياسية ، وأنت تعلم أن الحرب أولها الكلام .

نعم ، إن الأمويين حاربوا هذه الأحزاب من شيعة وخوارج وزبيريين وغيرهم ، ولكن قتالهم لم يكن إلا بعد استفحال أمرهم واستغلاظ شوكتهم . ولقد كان معاوية وخلفاؤه أعلم الناس بطبيعة العرب ، وأنه لا يستطيع أن يأخذ عليهم مذاهب القول ، أو ليس من هؤلاء العرب من رأى المغيرة بن شعبة يصعد المنبر والياً من قبل أمير المؤمنين معاوية فخصبه !! وليس منهم الذى كان يردّ على الخليفة قوله وهو يخطب وحوله الحرس الأشداء والجند المدججون بالسلاح ، حتى اضطرب عبد الملك أن يقول ، وهو على المنبر لمن قال له اتق الله : « من قال لى اتق الله بعد يومى هذا ضربت عنقه » أو ليس منهم الذى يقول للحجاج ، وقد كان منه ما أغضب الأمير : إن صدقناك أرضينا الله ، وإن غششناك أغضبنا الله ، فغضب الأمير أهون علينا من غضب الله ، وسأل الحجاج رجلاً عن أخيه محمد ، فقال الرجل : تركته عظيماً سمياً ، فقال له : ليس عن هذا سألتك . قال : تركته غشوماً ظلوماً . قال : أما تعلم أخراك الله أنه أخى . قال : أترأه بك أعزّ منى بالله .

وذكروا أن أعرابياً شهد أمام معاوية بشيء كرهه ، فقال له معاوية : كذبت يا أعرابى ، فقال الأعرابى : الكاذب والله منزّم فى ثيابك ، فقال معاوية وتبسم : هذا جزاء من عجل .

أما الأسّ الثانى وهو تمام الملكة ، فليس ينكر أنها لم تكن عند الأمويين مثلها عند أهل العصر السابق ، ولكن النقص عند هؤلاء لم يتناول إلا العرض وهو الإعراب ، فأما قوة البيان ، فقد كانت فى أوائل العصر شائعة فى العرب الخالص ، حتى إن منهم من ساموا السابقين فى البلاغة وقوة العارضة ، على أن الأمويين كانوا يجتهدون فى السموّ بأنفسهم عن المصير إلى ضعف الملكة ، فكانوا يكثرّون من المذاكرة لكلام العرب ، وينشئون أولادهم بالبادية ليحتفظوا بالبلاغة العربية إذ كانوا يرونها فخرهم وميزتهم ،



وهؤلاء الذين نعدّهم لحانين لم يكونوا يناقضى الملكة في التعبير، فإن خالد القسرى، والوليد بن عبد الملك معدودان من فصحاء الخطباء، وقد مرّ بك رأى الجاحظ فيهما. وقد قال بكر بن عبد العزيز الدمشقي، سمعت الوليد بن عبد الملك يقول على المنبر: إذا حدثتكم فكذبتم فإطاعة لي عليكم، وإذا غرّبتم فحجّرتكم<sup>(١)</sup> فلا طاعة لي عليكم، فيقول مثل هذا الكلام، ثم يقول لأبيه: يا أمير المؤمنين اقتل أبي فدّيك، وصعد عبد الله بن زياد المنبر بعد موت يزيد بن معاوية، وحين بلغه أن سلمة بن ذؤيب الرياضي قد جمع الجموع يريد خلعه، فقال: يا أهل البصرة انسبوني، فوالله ما مهاجر أبي إلا إليكم، وما مولدى إلا فيكم، وما أنا إلا رجل منكم، والله لقد وليكم أبي وما مقالتكم إلا أربعون ألفاً، فبلغ بها ثمانين ألفاً، وما ذريتكم إلا ثمانون ألفاً، وقد بلغ بها مائة وعشرين ألفاً، وأتم أوسع الناس بلاداً، وأكثرهم جنوداً، وأبعد مقادراً، وأغنى الناس. انظروا رجلاً تولّونه أمركم، يكفّ سفهكم، ويجي لكم فيئكم، ويقسمه فيما بينكم، فإنما أنا رجل منكم. ولكن لا ينكر أن هذه الملكة أخذت تضعف في أواخر العصر، ولكنه ضعف لا يخرج بأصحابه إلى العجز والانهار.

وأما الأسّ الثالث وهو دواعي الخطابة، فقد زادت في هذه الأيام باتساع المملكة وتعدّد الأحزاب السياسية، ونشوء الفرق الدينية، وتكاثر الوفود على أبواب الملوك، وحاجة الأمة إلى الوعظ لضعف الوازع الديني، ولحلمهم على الطاعة لأولى الأمر حتى رأينا معاوية أوّل من رتب الوعظ بالمساجد. كما نشأ من التابعين قوم أهل ورع وصلاح لم يغبوا الناس وعظاً وإرشاداً كمحمد بن سيرين والحسن البصري.

ولقد بلغ من شأن الخطابة وظهور الحاجة إليها في هذا العصر أن كانوا يعلمونها الفتيان الناشئين ويدربونهم عليها حتى لا يتأخروا عن موافقها إذا قدموا على أمير أو تكلموا في حفل، والرجل عندهم إنما كان قدره في أسلة لسانه، وقوله دليل جنانه.

حكى الجاحظ في البيان والتبيين. قال ما معناه: مرّ بشر بن المعتمر على إبراهيم

(١) التجمير: إيالة التعريب.



ابن جبلة ، وهو يعلم الفتیان الخطابة ، فوقف عليه وكأنه لم يعجبه كلام إبراهيم ، فدفع إلى الفتیان صحيفة من تحميره وتقيقه ، فإذا فيها من كلام كثير .

ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة مقاما ، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات ، فإن كان الخطيب متكلماً تجنب ألفاظ المتكلمين الخ . فهذا يدل على أن شأن الخطابة عظيم في هذا العصر حتى رأوا الحاجة ماسة إلى تعلمها .

ولقد ظهر في خطابة هذا العصر تلك العوامل التي كانت تتنازع الأمة ، فقد علمت أن دولة بني أمية لم تقم على الدين لعلمهم أن مظهره لا يقبل منهم ، وفي الأمة أمثال الحسن والحسين وعبد الله بن الزبير وغيرهم من كبار الصحابة ، لذلك جعل الأمويون معوّلهم على السياسة ، فبان ذلك في خطاباتهم ، فلم يحفلوا فيها باقتباس آيات القرآن كما كان يفعل السلف الصالح ، حتى لقد غلا بعضهم ، فترك حمد الله في أولها كما فعل زياد في خطبته البتراء ، وقد كان أشهى إليه أن يتمثل ببيت شعر من أن يحلى خطبته بشيء من كلام الله ، على حين ترى النزعة الدينية عند مثل مصعب بن الزبير تحمله على أن يجعل بعض خطبه كلها من القرآن الكريم كما خطب ، فلم يزد على قوله :  
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . طَسْمُ . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ  
مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا  
شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ  
( وأشار بيده نحو الشام ) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ  
أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ( وأشار بيده نحو الحجاز ) وَنُمْكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرِي  
فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ( وأشار بيده نحو العراق ) .





محدث

وقد تجلت ظاهرة في خطابة هذا العصر ، وهي التوفيق في السبِّ والغلوِّ في الشتم ، وما جرَّ عليهم ذلك إلا الإمعان في الخلاف السياسي ، ومطاوعة شهوة الانتقام ، فقد ولع الأمويون بسبِّ عليٍّ ، وكان ذلك ديدنهم لا تخلو خطبة لهم من النيل منه . والعجيب في ذلك أنهم خاطوا الدين بالسياسة ، فكان سبُّ عليٍّ ملتزما في خطب الجمع ولم يعدل عنه إلا عمر بن عبد العزيز ، فإنه جعل مكان السبِّ قوله تعالى : « **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** » .

أما عادات الخطابة فقد بقيت إلى هذا العصر كما كانت في الذي قبله حتى كان عبد الملك بن مروان يقول : لو أقيمت الخيزرانة من يدي لذهب شطر كلامي ، وأراد معاوية سبحان وائل على الكلام ، فلم ينطق حتى أتوه بمحصرة فرطلها في يده فلم تعجبه حتى أتوه بمحصرته من بيته فخطب بها .

## أشهر الكتاب والخطباء في العصر الأموي

لا نستطيع الفصل في هذا العصر بين الكاتب والخطيب ، وذلك بأن أغلب من تولوا الكتابة والخطابة كانوا من ذوى الملكات القوية التي تواتى صاحبها في أي أنواع القول ، ولم يكن قد أتى بعد ذلك العهد الذي لا يستطيع فيه الكاتب أن يرتجل القول ، اللهم إلا في أخريات هذا العصر فإنه قد اشتهر قوم بالكتابة وحدها ، ولم تعرف لهم مواقف للخطابة كعبد الحميد الكاتب ، ولعل ذلك يرجع إلى مهنته ، ونوع العمل الذي كان يتقلده ، فإن عمله كان في النظر في الرسائل وتسويدها ، فلم يفرغ لموقف الخطابة حتى نعرف بلاءه فيه .



كذلك كان الحال في العصر الماضي ، ويرجع ذلك كله إلى تمام الملكة التي تواتى صاحبها في كلِّ ما يحاول منها . فأما في العصر العباسي فاضعف الملكات وحاجتها إلى الاكتساب والمران نرى كتابا لا يحسنون موقف الخطابة ، وربما كانوا في نهاية البلاغة ، ولكن طبعهم لا يواتيهم إلا مع الروية ، واستجماع الخاطر ، وذلك خلاف ما تحتاج إليه الخطابة من حضور الذهن والاعتماد على البديهة .

ومن أشهر رجال هذا العصر في الخطابة والكتابة : معاوية ، ويزيد ابنه ، وعبد الملك ، والوليد ، وسليمان ابنه ، ومحمد بن عبد العزيز ، وسجبان وأئبل ، والحجاج . ومن الشيعة : الخزاز بن عبيد الله الثقفي ، والكُمَيْتُ بن زَيْد . ومن الخوارج : الطرِّمَّاحُ ، وقَطْرِيُّ بن الفُجَاءَةِ ، وأبو حَمَزَةَ الخَارِجِيُّ . ومن رؤساء القبائل : صَعَصَعَةُ بن صُوحان ، والأحنف بن قيس ، ومن بني هاشم : أمثال الحسين ابن عليّ ، وابنه عليّ ، وحفيده زيد .

## الحجاج بن يوسف

[نسبه] : هو أبو محمد الحجاج بن يوسف الذي ينتهي نسبه إلى ثقيف هو أبو القبيلة المشهورة .

وتجد المؤرّخين كلاما عن ثقيف هذه ، فبعضهم يرجعها إلى مضر ، وبعضهم يجعلها من قحطان ، وبعض يقول إنها من بقايا ثمود ، ولعلّ هذا القول الأخير لم يقصد به إلا تشنيع اسم الحجاج من الذين كرهوا بطشه وأصقوا به كلّ قبيح ، واقدردّ عليهم الحجاج حين هتفوا بهذا النسب ، فصعد المنبر يوما ، وقال : يزعمون أنا من بقايا ثمود ، فقد كذبهم الله بقوله : « وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى » ، وكرّر هذا الردّ مرّة أخرى فقال : لأن كنا بقايا ثمود لما نجما مع صالح إلا خيارهم .



وقيل إن أمه سمته كليباً على عادة العرب من تسميتهم بكليب وصخر وفهر وحرب  
ثم لقبته الحجاج تفاؤلاً أن يكون ورعاً كثير الحج .

α [أبواه] : أما أبوه فهو يوسف بن الحكم بن أبي عقيل ، كان من مشايخ ثقيف ، وكان  
نبيلاً جليل القدر . يدلّ على ذلك ما ورد من أنه خرج من مصر ، يريد عبد الملك  
ابن مروان ، ومعه ابنه الحجاج ، فأقبل سليم بن عمرو قاضيها ، وكان من أروع الناس  
وأتقاهم ، فقام إليه يوسف وقال : إن كانت لك حاجة إلى عبد الملك فأعلمني بها ، فقال  
له : حاجتي أن يعزّلي عن القضاء ، فقال يوسف : والله لوددت قضاء المسالمين كلهم  
مثلك فكيف أسأله هذا . والذي نقصده من هذه القصة أن نذكر أن الحجاج استنكر  
أن يقوم أبوه لهذا الرجل ، فقال له أبوه : هذا قاضي أهل مصر وقاصمهم ، فقال الحجاج  
يفقر الله لك يا أبت ، أنت ابن أبي عقيل تقوم إلى رجل من كندة أو تحميمه ، فقال له  
أبوه يا بني ، إني أرى الناس ما يرحمون إلا بهذا وأشباهه ، ( يريد أنه ورع تقيّ ينفع  
الناس بصلاحه ) .

وهذه القصة تمثل لك مقام أبيه وجلال شأنه ، ويصحّ أن يكون الحجاج مغالياً  
بقدر أبيه ، ولكنه لا يفعل ذلك إلا وفي أبيه فضل وله مقام يرفعه به الحجاج عن  
القيام لرجل والسلام عليه ، وفي قصد الرجل لأمر المؤمنين دليل ثان على نباهة شأنه  
وهذا يجعلنا نستبعد ما ولع به الناس من دعوى أن أبا الحجاج كان معلم صبيان ، وأن  
الحجاج نشأ في عمل أبيه يعلم معه ، وفي الحجاج يقول الشاعر مشيراً إلى ذلك :

أَيْنَسَى كَلَيْبُ زَمَانَ الْهَزَالِ وَتَعَالِيَهُ سُورَةَ الْكُوْتْرِ  
رَغِيْفُ لَهُ فَلَكُ دَائِرُهُ وَأَخْرُ كَالْقَمَرِ الْأَزْهَرِ

يريد أن خبز المعلمين مختلف في الصغر والكبر على قدر بيوت الصبيان . ولقد زاد أعداء  
الحجاج ، فنسبوا إليه أحقر الصناعات ، فقال بعض : كان دباغاً ، وقال آخرون : كان  
بائع زبيب .

أما أمه فقد تمثل في الحديث عنها ما كان يضره الناس من عداوة الرجل ، فبعضهم



يجعلها زوج الحارث بن كَلْدَةَ طبيب العرب المشهور ، وأنه طلقها لأنه دخل عليها سحرًا ، فوجدها تتخلل ، فبعث إليها بطلاقها ، وقال لها : إن كنت بادرت الغداء فأنت شرهة ، وإن كنت بت والطعام بين أسنانك فأنت قدرة ، فقالت كل ذلك لم يكن ، ولكني تخلت من شظايا سواك ، ثم تزوجها بعده يوسف أبو الحجاج وبعضهم يقول : إن أمه هي المتمنية ، وكانت تحت المغيرة بن شعبه ، وإن عمر طاف ليلة ، فسمع امرأة تنشد :

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى حَمْرٍ فَأَشْرَبَهَا      أَمْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى نَعْمٍ بِنِ حَجَّاجٍ

فقال عمر : لا أرى معي في المدينة رجلا تهتف به العواتق في خدورهنّ على بنصر ابن حجّاج ، فأتى به فإذا هو أجل الخلق وجهًا وأحسنهم شعرًا ، فجزّ شعره ، وسيره إلى البصرة ، وكانت هذه المرأة زوج المغيرة فطقتها فتزوجت يوسف أبا الحجاج .

[ منشأ الحجاج ] : نشأ بالطائف ، وهي مدينة على مرحلتين من مكة ، وكانت واحة كثيرة الفواكه طيبة الهواء ، ولعلّ نشأة الحجاج بها هي التي جرّت عليه ما لهج به الناس من وصمه بالدباغة ، أو بيع الزبيب ، أو تعليم الصبيان ، لأن هذه الأعمال هي شأن أهل المدن غالبًا . ولقد أثرت في الحجاج نشأته بالطائف ، فإنها توسطها وقرّبها من مكة وإحاطة الصحراء والبدو بها حاز الحجاج فضيلة الإبانة ، وتمت فيه ملكة الفصاحة ، وهي كما تعلم ملكة كانت كاملة فيه ، وقد مرّ بك أنه أحد الأربعة الذين لم يلحنوا في جدّ أو هزل .

## عصر الحجاج

لعلك تتساءل عن السبب الذي أنشأ الحجاج بهذه المثابة من الغلظة حتى أسرف في القتل ، فخص له العراق عشّ النفاق والغدر الذي لم يجتمع قبله إلا لرجل واحد كان أشبه بالحجاج في الغلظة والشدة من الصخر بالصخر وهو زياد بن أبيه . هذا الحجاج



الذي يقال : إن قتلاه مائة ألف أو يزيدون ، وأنه مات وفي سجنه عشرون ألفاً ، وكان سجنه غير مسقوف صيفاً وشتاء .

ولسنا ننكر أن يكون للعصر أثر ظاهر في حياة العائشين فيه ، ولكنه ليس في نظرنا كل شيء ، فقد رأينا كثيراً من النابغين لم يكن لعصرهم أثر ظاهر فيهم ، بل كان أحدهم نسيج وحده فيما تهيأ له ، فقسوة الحجاج يرجع بعضها إلى ما تأثر به من أحوال عصره كما يرجع كثير منها إلى تركيب نفسه والغلظة والقسوة من الأخلاق مثل : الذكاء والبلادة في النفس تتبع التركيب الذي برأ الله عليه الخلق يؤثر في ذلك بالزيادة والنقصان ما أفادته الوراثة والبيئة .

وإذا كان العصر يؤثر في نفس الناشئ ، فسنذكر لك من تاريخ الزمن الذي أظل الحجاج نبذاً يجعلك تحيط به وتعرف جماته .



كانت ولادة الحجاج إبان قيام الدولة الأموية سنة ٤١ وعاش ٥٤ سنة ، فيكون قد نشأ بين صلصلة السيوف ، وخفق البنود ، وحنين القسى ، وجلبة الجيوش ، ولعله إن لم يكن رأى شيئاً من ذلك يكون قد سمع أخباره : والأذن كالعين توفى القلب ما كان .

مضت أيام معاوية لم يكن فيها من اتلاقل ما يزعج . نعم ناواه الخوارج والشيعة بالعراق ، فرماهم بالمغيرة بن شعبه في الكوفة ، ثم زياد بن أبيه في البصرة وخراسان ، ثم ضم إليه الكوفة فيما بعد ، فاستقام لمعاوية الأمر .

ولكن الفتنة اشتعلت وتطير لهبها أيام يزيد ابنه ، فإن الخوارج زادت شوكتهم وامتنع عن المبايعة له بالمدينة الحسين بن علي ، وبمكة عبد الله بن الزبير ، وذلك لما عرف الناس عن يزيد من اللهو والغرام بالصيد . ومما زاد الفتنة اشتعالاً قتل الحسين في طريقه للكوفة على يد عمرو بن سعد بن أبي وقاص .



وفى عهد يزيد انتهكت حرمة المدينة على أثر وقعة الحرّة ، وأبيحت ثلاثة أيام ، وكانت جند الشام تمثل بأشرافها ، وتطلب منهم البيعة ليزيد على أنهم عبيده ومن أبى قتل . وقد كثر عدد القتلى فى هذه الفتن حتى لقد قتل سائب خاثر المغنى ، واستعظم يزيد نفسه ما أتته جيوشه حين علم أن القتل تناول أمثال سائب . كذلك توجه هذا الجيش إلى مكة ، فحاصرها ورمها بالمنجنيق ، فتصدت جوانب الكعبة ، ثم ارتد عنها لموت يزيد ، فقويت شوكة عبد الله بن الزبير حتى بايعه أهل مصر مع العراق والحجاز ، ولم يبايع خليفة بنى أمية معاوية الثانى ثم مروان بن الحكم إلا أهل الشام .

جرت هذه الحوادث الأخيرة والحجاج شاب يربى على العشرين ، فكان يعى ما يجرى حوله ، وانضم ذلك إلى غلظته المركبة فى طبعه ، فتمت له الأسباب التى هيأتها لما جرى على يديه .

## الحجاج قبل الولاية

كان اتصال الحجاج بروح بن زنباع فعمل فى شرطته ، وكان روح من عبد الملك بمثابة الوزير .

أراد عبد الملك أن يخرج لقتال زفر بن الحرث ، وقد دعا لابن الزبير بعد موت يزيد ، فشكا إلى روح ما يلقاه من الجند من توان فى طاعته ، وأنهم لا ينزلون بنزوله ، ولا يرحلون برحيله ، فقال له روح : إن فى شرطتى رجلا لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لم يرمهم خلافا أو توانياً ، وهو الحجاج بن يوسف ، فقال عبد الملك : قد قلده ، فكان ما حدث به روح ، ولكن قوما من جند روح ، لداتهم ولموضع سيدهم من أمير المؤمنين كانوا يظهرون خلافا ، فرّ الحجاج بعد رحيل العسكر فلم يجدهم ارتحلوا فهدم عليهم خيمتهم وأحرقها بما فيها من أثاثهم ، فشكوا إلى روح ، وبلغ الخبر



عبد الملك فطلبه وقال : من فعل هذا بغلمان روح ؟ فقال : أنت يا أمير المؤمنين أمرتنا بالاجتهاد فيما علينا ، ففعلنا ما أمرت وبهذه الفعلة يرتدع من بقي من أهل العسكر ، وما على أمير المؤمنين أن يعرض عليهم ما ذهب ، وقد قامت الحرمة وتم المراد ، فأعجب به عبد الملك ، وأقره على عمله .

## طموح الحجاج

كان الحجاج عظيم الطموح شديد الرغبة في السمو إلى الدرجات العلا ، وقد تدرع إلى ذلك بالإخلاص في الخدمة والحرص على رضا مولاه عبد الملك وتعظيمه في مشهده ومغيبه ، فقد أوفده عبد الملك مع رجاء بن حيوة إلى زفر بن الحارث يدعوه إلى الصلح فحضرت الصلاة ، فقام رجاء فصلى مع زفر ، وصلى الحجاج وحده ، وسئل عن ذلك ، فقال : لا أصلى مع منافق خارج على أمير المؤمنين ، فلما سمع عبد الملك ذلك عرف إخلاصه ورفع درجته ، فولاه بلداً يسمى تبالة من أعمال اليمن ، فلما كان قريباً منها سأل عنها ، فقيل له إنها وراء هذه الأكمة ، فقال : أف للبلدة تسترها أكمة ، ورجع عنها ، فقيل المثل : أهون من تبالة على الحجاج ، واستعفى عبد الملك من ولايتها وبقي ملازماً خدمته .

كذلك تدرع الحجاج إلى تحقيق مطامعه من العظمة ورفعته الشأن بالإقدام والتفاني في خدمة الخليفة عبد الملك ، فإنه يقال : إن عبد الملك لما فرغ من قتال مصعب بن الزبير ورجع إلى الشام قال : من لعبد الله بن الزبير ( وكان ممنوعاً بمكة ) ، وندب الناس لقتاله ، فقام الحجاج وقال : يا أمير المؤمنين أنا له ، أبعثنى إليه ، فلقد رأيته بالمنام كأني سلخته وجرّده من جلده فبعثه إليه . فكان من الحجاج أن استحل كل موبقة ، واستباح كل معصية في سبيل إرضاء عبد الملك ، فإنه حاصر مكة وضرها



بالمجنيق ، وكان ذلك سنة ٧٢ هـ ، ولما اشتدت الحال على أهل مكة تفرقوا عن ابن الزبير ، وخرجوا بالأمان من الحجاج ، وكان ممن فارق ابن الزبير ابنه حمزة وحبيب ، ولما رأى ابن الزبير أنه لم يبق معه إلا قليل لا يغنون شيئاً دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر ، فقال : يا أماه ! خذني الناس حتى ولدي وأهلي ، ولم يبق معي إلا اليسير ، ومن ليس عنده غناء أكثر من صبر ساعة والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟ قالت : أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق ، وإليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلاعب بها غلمان بني أمية . وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت أهلكت نفسك ومن قتل معك ، وإن قلت كنت على حق ، فلما وهن أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ، ولا أهل الدين . كم خلودك في الدنيا ؟ القتل أحسن ، فقال : يا أمي أخاف إن غلبني أهل الشام أن يثلوا بي ويصلبوني . قالت يا بني ، إن الشاة لا تتألم بالساح ، فامض على بصيرتك واستعن بالله ، فقبل رأسها وقال : هذا رأيي والذي خرجت به دائماً إلى يومى هذا . ماركنت إلى الدنيا ، ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله . وأن تستحل حرمانه ، ولكني أحببت أن أعلم رأيك فقد زدتنى بصيرة .

ثم خرج فقاتل حتى قُتل وصلب ، ولم ينزل إلا بأمر عبد الملك ، ثم كافأ عبد الملك الحجاج بأن ولاه الحجاز إلى سنة ٧٥ هـ ، ومما يدل على طموح الحجاج أنه لم ير في ولاية الحجاز إشباعاً لأطماعه العظيمة ، فكتب إلى عبد الملك يقول : إني قد حزت الحجاز بشمالى ، وبقيت يمينى فارغة ، فبعث إليه عبد الملك بعهد العراق .



## ولاية الحجاج العراق

لم يكن نجاح الحجاج فيما مضى من أعماله إلا مقدمة لما تجلى من شدته وحقه لأساليب القمع والضرب على أيدي العائنين بالفساد، فإن العراق كان منذ قديم عهده مثار الفتنة ومبعث الشر. اجتمع فيه الخوارج والشيعة، واشتدت به العصبية، وطال من أهله الخروج على الخلفاء والتمرد على طاعتهم والطرده لولاتهم. ويشمل العراق بلاد خراسان، وطالما امتنع بها الولاة والقواد وخلعوا طاعة الخلفاء لعلمهم بوعورة الطريق إليهم. وقديماً أفلقت هذه البلاد بال معاوية، فرمى أهلها بالمغيرة بن شعبة، وزياد ابن أبيه الذي كان قدوة الحجاج ومثله الذي يحتذيه في الشدة وسياسة القهر.

أقبل الحجاج وهو يعلم من أهل العراق كثيراً من خلافهم وعنادهم، وشدة شكيمتهم، فقابلهم بالشدّة، واستعان عليهم بالقول الذي زلزل عليهم المجالس حتى سمعوا صلصلة السيوف، وقبقة الخيول، وصوت الغارات من بين أفاظه، وإن لفصاحة الحجاج ليدياً محودة الأثر في نجاحه، فإن القول تأثيراً قد يتجاوز تأثير السيف، وبخاصة في مثل هؤلاء، وهم عرب يقيمهم الكلام ويقعدهم.

قصد الحجاج إلى الكوفة في أثنى عشر ركباً على النجائب حتى دخلها فجأة، وقد انتشر النهار، فدخل المسجد مُعْتَمِلاً بعمامة خزٍّ أحمر قد غطى بها وجهه وهو متقلد سيفاً متنكباً قوساً يؤمّ المنبر، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ومكث ساعة لا يتكلم، فقال الناس بعضهم لبعض: قَبَّحَ اللهُ بنى أمية تستعمل مثل هذا على العراق، حتى قال عمير ابن ضابن البرجمي ألا أحصيه لكم؟ فقالوا أمهل الرجل حتى ننظر. فلما رأى عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه، ونهض فقال:



## خطبة الحجاج بالكوفة تحفظ

أَنَا ابْنُ جَلَا<sup>(١)</sup> وَطَلَّعُ الثَّنَائِيَا مَتَى أَضَعُ الْعِمَامَةَ<sup>(٢)</sup> تَعْرِفُونِي  
والله ي أهل العراق : إني لأرى رءوساً قد أينعت وحن قِطَافها<sup>(٣)</sup> وإني لصاحبها، وكأني  
أنظر إلى الدماء بين العمام واللحي<sup>(٤)</sup> ، ثم قال<sup>(٥)</sup> :

(١) ابن جلا . قال بعض النحاة : إنه فعل محكي وحده أو مع ضميره المستتر . ويرده أنه ليس في نسب سحيم قائل الشعر من تسمى بهذا الاسم . وقال قوم : إنه وصف بالجملة لمخدوف أى ابن رجل جلا الأمور . وفات هؤلاء أن الجملة لا يوصف بها إلا إذا كان الموصوف أبعضا من متقدم مجرور بمن نحو منا ظعن ومنا أقام أو بنى نحو ماني قومه يفصله : أى أحد ، وإن كان هذا ليس بلازم . والذي يحسن هو أن يقال إن جلا اسم مقصور من الجلاء ، فالمعنى أنا ابن الواضح الأمر ويؤيد هذا أنهم يقولون ابن جلا وابن أجلى . وقيل جلا وأجلى معناها الصبح . هذا ما يرجحه الشيخ المرصفي رحمه الله في شرحه للكامل . ونرى أنه يعكز عليه عدم تنوين جلا ولا موجب لمنع الصرف في الكلمة . لذلك قول : لا مانع أن يكون جلا علما محكيا ، وقد قال صاحب لسان العرب : ابن جلا رجل مشهور بالفتك فيكون سحيم قد قال ذلك على التشبيه : أى أنا كبن جلا في الغارة والشدة .

(٢) العمامة : من معانها خوذة الحرب . ووضع هنا ، اما بمعنى جعلها على الرأس ، والمعنى أنه إذا استعد للحرب ولبس الخوذة رأى الناس منه عجبا ، وإما أن يكون بمعنى خلع ويؤيد هذا العادة العربية وهى أن الرجل إذا قتل له قتيل لا تُلْعَى رأسه عمامة وستر بها رأسه وخرج لطلب الثأر وما يزال هكذا مثلما حتى يأخذ بالثأر فيضع أوزار الحرب ومن بينها العمامة . ويساعد على هذا أن الحجاج أنشد البيت وهو يزيغ لثامه عن وجهه . قال ثعلب : العمامة تلبس في الحرب وتوضع في السلم . وعليه يكون المعنى متى أضع العمامة تعلمون أني الشجاع الذى لم أتم عن ثأرى . وقائل هذا البيت هو سحيم بن وثيل الرياحي شاعر مخضرم عاش في الجاهلية ٤٠ سنة وفي الاسلام ٦٠ سنة .

(٣) ينع ( كضرب ومنع ) أدرك . شبه رءوس العصاة المخالفين لأولياء أمورهم بالثمار التي تم نضجها فلم يبق إلا أن تقطف وتزال عن أغصانها .

(٤) إنما تكون الدماء بين العمام واللحي من الضرب بالسيوف في الجباه وأحرار الوجوه

(٥) قال : أى أنشد ، لأن قائل هذه الأبيات هورويشد بن رميض الغزني ، والشعر مقول في شريح ابن ضبيعة غزا اليمن فغم وسبا ثم ضل وهو راجع فساق بأصحابه سوفا عنيفا حتى نجوا .



هَذَا أَوَانُ الشَّدِّ فَاشْتَدَّى زَيْمٌ      قَدْ لَفَهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقٍ حُطْمٍ (١)  
 لَيْسَ بِرَاعِي إِبِلٍ وَلَا غَنَمٍ      وَلَا بِجِزَارٍ عَلَى ظَهْرٍ وَضَمٍّ (٢)  
 قَدْ لَفَهَا اللَّيْلُ بَعْصَلِيَّ      أَرْوَعَ خَرَّاجٍ مِنَ الدَّوَى (٣)  
 مَهَاجِرٍ لَيْسَ بِأَعْرَابِيٍّ (٤)

ثم قال (٥) :

قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِيهَا فَشَدُّوا      وَجَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فَجَدُّوا  
 وَالْقَوْسُ فِيهَا وَتَرْمَعُ رُدُّ      مِثْلُ ذِرَاعِ الْبَكْرِ أَوْ أَشَدُّ  
 لَا بُدَّ مِمَّا لَيْسَ مِنْهُ بُدُّ

إِنِّي وَاللَّهِ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ مَا يَقْتَعِعُ لِي بِالسَّنَانِ (٦) ، وَلَا يَغْمِزُ جَانِبِي كَتَغْمَازِ

- (١) زيم : اسم ناقة أو فرس . السواق الحطم : الذي لا يبقى من السير شيئاً .  
 (٢) الوضم : ما يقطع عليه اللحم « القرمة » والمراد أنه ليس بضعيف الشأن كأحد هذين :  
 الراعي والجزار .  
 (٣) العصلي : الشديد القوى العصب ، وزيادة اللام في عصلي للدلالة على القوة . الأروع : الذكي .  
 الدوى : الصحراء لاعلم بها ولا أمانة وهي متسعة تسمع لها دويًا وهو صوت يكون من  
 وقع أخفاف الابل . وجهلة العرب يظنون صوت الجن . والدوى : الصحراء ونسبت إلى  
 نفسها كقولهم دهر دوارى أى دوار ، وخارجى مبالغة في خارج أحد الخوارج . والمراد  
 بخراج من الدوى أنه خراج من كل شدة متغلب على كل صعوبة ولا صعوبة أشد من الصحراء  
 (٤) قال في لسان العرب : كل من أقام من العرب بمباديهم أو حواضرهم ولم يلحقوا بالنبي ولم  
 يتحولوا إلى أمصار المسلمين التي أحدثت في الاسلام وإن كانوا مسلمين فهم غير مهاجرين  
 وليس لهم في النى نصيب ويسمون الأعراب . وفيه أيضا قال الأزهري : المهاجرة  
 خروج البدوى من باديته إلى المدن ، وكذلك كل محل يسكنه منتقل إلى قوم آخرين .  
 (٥) لم تقف على قائل هذه الأبيات وهي لاشك لغير رويشد وليست من نسق الأبيات السابقة  
 وإن كانت مثلها من الرجز .  
 (٦) القعقة : صوت الجلود اليابسة . الشنان : جمع شن ، وهو الجلد اليابس ( كسهم وسهام ) .  
 والمراد لأفزع مما لا يفزع ذوى العقول .



التين<sup>(١)</sup> ، ولقد فُرِزْتُ عَنْ ذِكَاءٍ<sup>(٢)</sup> وَفُتِّشْتُ عَنْ تَجْرِبَةٍ . وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ  
أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ نَثْرَ كِنَانَتِهِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَعَجَمَ عِيدَانَهَا ، فوجدني أمرها عودًا ، وأصلبها  
مكسرًا<sup>(٣)</sup> ، فرماكم بي لأنكم طالما أوضعتم<sup>(٤)</sup> في الفتنة ، وأضطجعتُم في مراقد  
الضلال ، والله لأخز منكم حزمَ السَّلمةِ<sup>(٥)</sup> ، ولأضربنكم ضربُ غرائبِ الإبلِ<sup>(٦)</sup>  
فإنكم لكأهل قريّةٍ كانت آمنة مطمئنةً يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان  
فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباسَ الجوعِ والخوفِ بما كانوا يصنعون . وإني والله  
ما أقولُ إلاّ وفيتُ ، ولا أهُمُّ إلاّ أمضيتُ ، ولا أخلقُ إلاّ فريتُ<sup>(٧)</sup> ، وإن  
أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم ، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب  
ابن أبي صُفرة ، وإني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلفَ بعد عطائه ثلاثة أيام  
إلاّ ضربتُ عنقه .

ثم قال : يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ، فقرأ : باسم الله الرحمن الرحيم .  
من عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالكوفة من المسلمين : سلام عليكم ، فلم يقل أحد  
شيئًا ، فقال الحجاج : أكفّ يا غلام ، ثم أقبل على الناس ، فقال : سلّم عليكم

(١) رواية صباح الأعشى : التين وهو الحية العظيمة ، والتين والحية لنا اللبس . والمراد لست  
بضعيف لين الجانب .

(٢) فر الدابة : كشف عن أسنانها . الذكاء : تمام السن أو حدة القلب ، والمراد هنا المعنى الثاني .

(٣) الكنانة : جعبة السهام . عجم العود : عضه ليبلو صلابته . أمرها : من المرارة وهي طعم شجر  
المرار . المكسر : اسم مكان وهو موضع الكسر . وهذه العبارة تمثيل لإفراغ الفكرة فيمن  
يختارهم أمير المؤمنين من الرؤساء الذين بصرتهم الحروب .

(٤) الإيضاع : السرعة في السير .

(٥) السلمة : شجرة شاكة يعسر خرط ورقها فيشد بعضه إلى بعض ثم يضرها الخابط فيتناثر ورقها

(٦) غرائب الإبل : أي الغريبة عن مواطنها ، وهي تضرب حين تدخل بين الإبل ويكون ضربها بلا

شفقة لأنها لاتهم الضارب .

(٧) خلق الصانع الأديم : قدره لما يريد منه قبل القطع ، والمعنى لا أعزم إلا صممت .



أمير المؤمنين ، فلم تردوا عليه شيئاً هذا أدب ابن نهية<sup>(١)</sup> . أما والله لأودَّ بَنَكُمُ غيرَ هذا الأدب أو لتستقيمن . أقرأ يا غلام ، فلما بلغ قوله : السلام عليكم ، لم يبق في المسجد أحد إلا قال : وعلى أمير المؤمنين السلام ، ثم نزل فوضع للناس أعطيَّاتهم ، فجعلوا يأخذون حتى أتاه شيخ يُرْعَشُ كِبَرًا ، فقال أيها الأمير : إني من الضعف على ماترى ، ولى ابنٌ هو أقوى منى على الأسفار ، فقال الحجاج : تفعل . فلما ولى الرجل . قال قائل أتدرى من هذا أيها الأمير ؟ قال لا . قال : هذا عميرُ بنِ ضابيِّ البرجميِّ<sup>(٢)</sup> الذي يقول أبوه :

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي تَرَكَتُ عَلَى عُمَانَ تَبْكِي حَلَالُهُ

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولا فكسر ضلعين من أضلعه . فقال الحجاج رُدَّوه ، فلما رُدَّ قال له : هَلَّا بعثت إلى أمير المؤمنين بدلًا يوم الدارِ ، إنَّ في قتلك أيها الشيخ لصلاحا للمسلمين ، يا حَرَسِيَّ اضرب عنقه ، فوَقعت الرَّهْبَةُ للحجاج في قلوب الناس ، فكان الرجلُ يضيق عليه أمره ، فيرتحل ويأمر وليه أن يَلْحَقَه بزاده ، وفي ذلك يقول عبد الله بن الزبيرِ الأَسَدِيَّ . من شعراء الدولة الأموية ، وهو من أسد خزيمة لا أسد قریش :

تَجَهَّزَ فِيمَا أَنْ تَزُورَ ابْنَ ضَابِيٍّ عَمِيرًا وَإِمَامًا أَنْ تَزُورَ الْمُهَلْبِيَّ  
هُمَا خَطَبَاتَا خَسَفِ نَجَاؤُكَ مِنْهُمَا رُكُوبُكَ حَوْلِيًّا مِنَ الْبُلُجِ أَشْهَبَا<sup>(٣)</sup>

(١) رجل كان على شرطة البصرة قبل الحجاج .

(٢) ضابيُّ البرجميِّ شاعر كان على أيام عثمان ، وهو الذي قدمنا حكاية استعارته للكلب وسببه لأصحابه وعقاب عثمان له فاضطعن على عثمان وحاول قتله فشدد عليه عثمان العقاب ( معاهد التنصيص وطبقات الشعراء ) .

(٣) الحولى : الذى مضى عليه الحول . البلج : جمع أبلج وهو الأبيض . ويروى من التلج . والمعنى أنه أشد شبهة من التلج ، وصياغة التفضيل من اللون على رأى الكوفيين .



فَأَصْحَى وَلَوْ كَانَتْ خُرَّاسَانُ دُونَهُ      رَأَاهَا مَكَانَ السُّوقِ أَوْ هِيَ أَقْرَبًا (١)  
فَمَا إِنْ أَرَى الْحِجَابَ يُغْمَدُ سَيْفَهُ      مَدَى النَّهْرِ حَتَّى يَبْرُكَ الطُّفْلُ أَشْيَبًا

فتتابع الناس على المهلب حتى ازدحموا عنده .

ثم خرج من الكوفة إلى البصرة فخطب مثل خطبته بالكوفة ، فقال : **تَفَضَّلْ**  
أيها الناس : من أعياه داؤه ، فعندى دواؤه ، ومن استطال أجله فعلى أن  
أُجَلَّه ، ومن ثَقُلَ عليه رأسه وضعتُ عنه ثِقْلَهُ ، ومن استطال ماضى عمره قصرتُ  
عليه باقيه . إن للشيطان طَيْفًا (٢) ، وللسلطان سَيْفًا ، فمن سَقَمَتْ سريرته صَحَّتْ  
عقوبته ، ومن وضعه ذَنْبُهُ رفعه صَلْبُهُ . ومن لم تسعه العافية (٣) لم تضق عليه الهلكة ،  
ومن سبقته بادرةً فهُ (٤) سبق بدنه (٥) بسفك دمه ، إني أنذِرُ ثم لا أنظر (٦) ، وأحذر  
ثم لا أعذر ، وأتوعد ثم لا أعفو ، إنما أفسدكم ترنيق (٧) ولا تم ، ومن استرخى لبيه (٨)  
ساء أديه . إن الحزم والعزم سلباني سوطي ، وأبدلاني به سيفي ، فقامه في يدي ، ونجاده  
في عنقي ، وذبابه (٩) قلادة لمن عصاني ، والله لا أمر أحدكم أن يخرج من باب من  
أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه .

- (١) دونه : أى دون المهلب : أى قبله أو قريبة منه . السوق : هو سوق حكمة بالكوفة . أقرب منصوب على أنه ظرف متعلق بخبر هي ، والتقدير أوهى كائنة أقرب من السوق أو على أنه مفعول ثانٍ لرأى بمعنى ظن ، ويكون قد وضع الضمير المرفوع « هو » في موضع المنصوب .
- (٢) الطيف : مس الشيطان . وقرئ - إذا مسهم طيف من الشيطان ، أو طائف - . وأصل الطيف : الجنون أو الغضب ومس الشيطان يحدث هذا .
- (٣) العافية : السلامة .
- (٤) البادرة : ما يخرج من الفم عن غير قصد في غضب أو غيره .
- (٥) المراد بسبق بدنه أنه يقتل سريعاً فيكون بدنه إلى الموت أسرع من خروج البادرة من فمه .
- (٦) نظره « ككتب » تأني عليه . وأنظره : أخره .
- (٧) الترنيق : الضعف في الأمر والمراد التسهل .
- (٨) اللب : ما يشد في صدر الدابة لينع استرخاء الرجل .
- (٩) ذباب السيف حده .





وفي سنة ٧٩ هـ ولي الحجاج عبيد الله بن أبي بكره سجستان ، ومحاربة رتبيل ،  
وقد كان مصالحا للعرب يدفع لهم خراجا ، ولكنه امتنع ، فتوغل عبد الله في بلاده ،  
فأصيب وهلك جنده إلا أقلهم ، فرأى الحجاج أن يبجز جيشا كشيفاً ، فجز أربعين  
ألفاً جعل عليهم عبد الرحمن بن الأشعث ، فسار حتى دخل بلاد رتبيل ، وحاز من  
أرضه أرضاً عظيمة ، وملاً يديه من غنائه ، ثم حبس الناس عن الوغول في الأرض ،  
واكتفى بما تمّ عامه هذا ، وكتب للحجاج بذلك ، فحماه كتاب الحجاج :

حفظ أما بعد ، فإن كتابك أتاني ، وفهمت ما ذكرت فيه ، وكتابك كتاب أمرى  
يجب الهدنة ، ويستريح إلى المودعة . قد صانع عدداً قليلاً قليلاً قد أصابوا من المسلمين  
جنداً كان بلاؤهم حسناً وغناؤهم في الإسلام عظيماً ، لعمرك يا بن أم عبد الرحمن إنك حين  
تكف عن ذلك العدو مجتدي وحدي لسخى النفس عن أصيب من المسلمين ، إني  
لم أعدد رأيك الذي زعمت أنك رأيته رأى مكيدة ، ولكني رأيت أنه لم يملك  
عليه إلا ضعفك ، والتيات رأيك ، فامض لما أمرتك به من الوغول في أرضهم ،  
والهدم لخصومهم ، وقتل مقاتلهم ، وسبي ذراريهم .

فلم يرض عبد الرحمن هذه الغلظة من الحجاج ، وخلع طاعته ، وأخذ البيعة على  
الناس لقتاله ، وصالح رتبيل على أنه إن ظهر فلا خراج عليه أبداً ، وإن هزم لجأ إليه  
وحماه . ثم خرج ابن الأشعث لقتال الحجاج ، فكتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره  
بخبيره ويستنجده فأنجده ، وانهت المواقع بهزيمة ابن الأشعث والتجائه إلى رتبيل ،  
فكتب إليه الحجاج يهدده إن لم يسلمه إليه ، فالتحق ابن الأشعث بأن ألقى بنفسه  
من قصر عالٍ ، وضرب رتبيل أعناق بضعة عشر من رجاله ، وأرسل بالراءوس  
إلى الحجاج .



وكان الحجاج مشغولاً كذلك بقتال الخوارج ، وكان يحاربهم قبل توليته على العراق المهلب بن أبي صفرة ، فزال يرأسه ويستحنه حتى تغلب عليهم ، وقدم عليه ، فأكرمه الحجاج وأجلسه معه على السرير وقال : يأهل الكوفة ، أتم عبيد المهلب ، ثم قال أنت والله كما قال لقيط الأيادي :

وَقَدْ لَدُّوا أَمْرَكُمُ اللَّهُ دَرُّكُمْ رَحْبَ الدَّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلَعًا (١)  
 لَا يَطْعَمُ النُّومَ إِلَّا رَيْثَ يَبْعُهُ هَمٌّ يَكَادُ حَشَاهُ يَقْصِمُ الصَّلَاةَ (٢)  
 لَا مُتْرَفًا إِنْ رَخَاءَ الْعَيْشِ سَاعِدَهُ وَلَا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَعًا (٣)  
 مَا زَالَ يَجُوبُ هَذَا الدَّهْرَ أَشْطَرُهُ يَكُونُ مُتَّبِعًا طَوْرًا وَمُتَّبَعًا (٤)  
 حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَرْزِ مَرِيرَتِهِ مُسْتَحْكِمِ الرَّأْيِ لَا قَحْمًا وَلَا ضَرَعًا (٥)

وهؤلاء الذين تغلب عليهم المهلب هم الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق ، وقد خرج غيرهم وكان رئيسهم شبيب بن زيد . وقد تعدى أمره حتى دخل الكوفة مرتين ، وفي الثانية بنى بها مسجداً ، ولكن الأمر انتهى بتغلب الحجاج وغرق شبيب .



ولذلك هدأت الأحوال ، واستتب الأمر لبني أمية ، وما لأحد من فضل في ذلك

مثل ما للحجاج حتى استحق أن يقول عنه عبد الملك : إن الحجاج جلدة ما بين عيني ، ثم يقول الوليد بعد أبيه : إن كان الحجاج جلدة ما بين عيني أبي فإنه جلدة وجهي كله .

(١) يقال : فلان رحب بكذا إذا كان مطيقاً له . اضطلع بالأمر : احتمله .

(٢) الريث هنا : المقدار . يقصم : يكسر .

(٣) الرخاء بالفتح : سعة العيش ، وبالضم : الريح اللينة .

(٤) شطر الناقة : جانب ضرعها ، ولها شطران وفي كل شطر خلفان .

(٥) استمر الحبل : قوى فتله . الشزر : القتل ما يلي اليسار وهو أقوى له . المريرة الحبل . القحم :

الكبير السن جداً . الضرع : الصغير السن الضعيف .





وبعد : فهل يحمد للحجاج ما قام به من إزهاق الأرواح وإزعاج الأمنين والقتل  
بالشبهة في سبيل جمع الكلمة للخليفة العربي ، بل جمع أمر الإسلام وحفظه من  
التبدد ، فإن الأمر لو ترك لغلغ الخوارج والخالعون للطاعة ، فزالت الدولة ولم يبق  
مكانها دولة أخرى لتشعب الآراء واختلاف المذاهب ، ولكن مهما حمدنا للحجاج  
سعيه ، فإننا لا ننسى أنه قتل الإبياء في الأمة العربية ، فذلت النفوس واستخذت ،  
واستعدت لاستبداد الأعاجم الذي صار فيما بعد في العصر العباسي .

## أخلاق الحجاج

لا يفوتنا أن ننهي إليك حديثاً عن شيء من أخلاق الحجاج يساعد على تصوّر  
النجاح الذي صار إليه ، فإن الشدة التي اشتهر بها لا تكفي للوصول إلى ما وصل إليه  
الرجل . فكم من شدة صاحبها الطيش ، وسوء النظر في العواقب ، فلم تعقب إلا وبالاً ،  
لذلك نميل إلى الاعتقاد بأن نجاح الحجاج مدين كذلك لصفات من شأنها أن تهض  
بالرجال إلى ما يحاولون من مجد ، وهاهي تلك بعض صفاته .

[ الكرم ] : حكى أنه لما دخل المدينة فرّق عشرة آلاف دينار ، ثم قال :  
أتيناكم وقد غاض الماء لكثرة النوائب فاعذرونا ، فقال رجل : لا عذر الله من يعذرك  
وأنت أمير المصريين وعظيم القريتين ، فقال صدقت ، واقترض أموالاً من التجار ففرقها  
في الناس . ولما تولى العراق كان يطعم كل يوم على ألف مائدة يجتمع على كل  
مائدة عشرة أنفس ، ويطف به في محفة<sup>(١)</sup> على أيدي الرجال يشرف على القوم ،

(١) مركب للنساء كالمهودج إلا أنه لا يقب .



وكان يرسل الرسل إلى الناس لحضور الطعام ، فلما طال ذلك عليه قال : أيها الناس ، رسلي إليكم الشمس ، إذا طلعت فاحضروا للغداء ، وإذا غربت فاحضروا للعشاء ، فكانوا يفعلون .

[ الدهاء ] : حكى عبد الله بن ظبيان قاتل مصعب بن الزبير قال : كنت يوماً واقفاً على باب الحجاج ، فإذا به خرج وحده وكانت القائلة ، ما بالباب أحد ، فوقع في نفسي أن أقتله ، فنظر إليّ فقال : هل لقيت يزيد بن أسلم يعني كاتبه ؟ قلت : لا . قال : القه ، فإن عهدك على الرىّ معه ، فطمعت وكففت عنه ، وتوجهت إلى يزيد فلم يكن عنده عهد بشيء ، وإنما قال الحجاج ذلك حذراً وشغلاً لى عما أردته به . وبنى هو وعبد الملك في بعض المساجد بابين ، ف وقعت صاعقة أحرقت باب عبد الملك فداخله حسد للحجاج ، فكتب إليه إنما مثل أمير المؤمنين ومثلى كمثل ابني آدم إذ قربا قربانا ، فتقبل من أحدهما ، ولم يتقبل من الآخر .

دخل عليه قاتل الحسين رضى الله عنه ، فقال له : كيف قتلته ؟ قال دَسَرْتُهُ بالرمح دَسْرًا<sup>(١)</sup> ، ثم هَبَرْتُهُ بالسيف هَبْرًا<sup>(٢)</sup> ، ووكلت رأسه إلى أمير غير وِكل ، فقال الحجاج : أما والله لا تجتمعان في الجنة ، وكان قصد الحجاج رضا أهل العراق وأهل الشام ، فخرج أهل الشام يقولون : صدق الأمير لا يجتمع من شق عصا المسلمين ، وخالف أمير المؤمنين هو وقتاله في طاعة الله في الجنة ، وقال أهل العراق : صدق الحجاج لا يجتمع والله ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتاله في الجنة .

[ الحلم ] : حكى أنه خرج إلى ظاهر الكوفة منفرداً ، فرأى رجلاً فقال : ماتقول في الحجاج ؟ قال : زعموا أنه من ثمود وكفى بسوء سيرته شراً ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، فقال الحجاج : أتعرفنى ؟ قال : لا . قال : أنا الحجاج . قال الرجل :

(١) دسره بالرمح : طعنه .

(٢) هبره بالسيف : قطعه قطعاً كبيراً .



أُتعرَفني أيها الأمير؟ قال لا. قال: أنا مولى بني عامر أجن في الشهر ثلاث مرّات، وهذا اليوم أشدُّ الصَّرَعِ عليّ، فضحك من قوله وعفا عنه.

كان عنده بعض ندمائه وقد أدركت الحجاج سنة من النوم، فعطس النديم عطسة مُنكَرَةً، ففزع الحجاج وقال: ما أردت بهذه العطسة إلا أن تروّعني، فقال: أيها الأمير إنها عادتني، فقال: والله إن لم تأتني بشاهد على ذلك ضربت عنقك، ففرج الرجل، فأتى ببعض أصحابه، فقال: أيها الأمير، إني أشهد بأنه عطس يوماً عطسة وقع منها ضرره، فضحك الحجاج حتى استلقى، وكان قليل الضحك إلا أن يغلب على أمره.

[حجة الصدق]: روى الجاحظ قال: خطب الحجاج يوم الجمعة فأطال الخطبة، فقال رجل: إن الوقت لا ينتظر، والرب لا يعذر، فأمر بحبسه، فأتاه أهل الرجل وكلموه فيه وقالوا: إنه مجنون، فقال: إن أقرّ بالجنون خليت سبيله، فقيل له: أقرّ بالجنون، فقال: لا، والله لا أزعم أنه ابتلاني وقد عافاني، فلما بلغ ذلك الحجاج أطلق سراحه لصدقه.

ومما يحكي من ذلك أيضاً ما قيل من أنه جلس لقتل أصحاب عبد الرحمن ابن الأشعث، فقام رجل فقال: أصلح الله الأمير، إن لي عليك حقاً. قال: وما حقك؟ قال سبّك عبد الرحمن يوماً، فرددت عليه. قال الحجاج فمن يعلم ذلك؟ قال الرجل: أنشد الله رجلاً سمع ذلك إلا شهد به، فقام رجل من الأسرى فقال: قد كان ذلك أيها الأمير. قال: خلوا عنه. ثم قال للشاهد: وأنت فما منعك أن تنكر كما أنكروا. قال: لتقديم بغضى إياك. قال: ويخلى عنه لصدقه.



## أمثلة من كلام الحجاج بحفظ

كتب إليه الوليد يقول : صف لي سيرتك ، فكتب إليه :

إني أيقظت رأبي ، وأمنتُ هواي ، فأدريت السيد المطاع في قومه ، ووليتُ  
الحربَ الحازمَ لأمره ، وقلدتُ الخراجَ الموفرَ لأمانته ، وصرفتُ السيفَ إلى النطفِ<sup>(١)</sup>  
المسيء ، فخاف المريبُ صولةَ العقابِ ، وتمسكَ المحسنُ بحظه من الثواب .

مات للحجاج ابن اسمه محمد في غداة يوم الجمعة ، فلما كان العشى أتاه بريد اليمن  
ب وفاة أخيه محمد ، ففرح أهل العراق ، وقالوا : انقطع ظهر الحجاج ، وهيض جناحه ،  
فصعد المنبر ، فقال :

أيها الناس : محمدان في يوم واحد . أما والله ما كنت أحبُّ أنهما معي في الحياة  
الدنيا لما أرجولهما من ثواب الله في الآخرة ، وأيم الله ليوشكن الباقي مني ومنكم أن يفتي  
والجديد أن يبلى ، والحي منكم ومنى أن يموت ، وأن تدال الأرض منّا كما أدلنا  
منها فتأكل من لحومنا ، وتشرب من دماننا كما مشيننا على ظهرها ، وأكلنا من  
ثمارها ، وشربنا من مائها ، ثم نكون كما قال الله تعالى : « وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ  
مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ » . ثم تمثل بالبيتين :

عزائي رسولُ الله من كلِّ ميِّتٍ      وحسبي ثوابُ الله من كلِّ هالكٍ  
إذا ما لقيتُ الله عني راضياً      فإن سرورَ النفسِ فيما هنالكِ

وأرجف الناس بموته ، فصعد المنبر فقال :

إن طائفةً من أهل العراق ، أهل الشقاق والنفاق ، نزغ الشيطان بينهم ، فقالوا  
مات الحجاج ومات الحجاج فمه ، وهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت ، والله ما يسرني

(١) النطف : التلطف بالعب المتهم بالريبة .



أَلَّا أَمُوتَ ، وَأَنَّ لِي الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَمَا رَأَيْتَ اللَّهُ رَضِيَ بِالتَّخْلِيدِ إِلَّا لِأَهْوَنِ خَلَقَهُ عَلَيْهِ  
إِبْلِيسَ . وَلَقَدْ دَعَا اللَّهَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ<sup>(١)</sup> ، فَقَالَ : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا  
لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي » ، فَأَعْطَاهُ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا الْبَقَاءَ ، فَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ  
أَيُّهَا الرَّجُلُ ، وَكَلِمَ ذَلِكَ الرَّجُلُ كَأَنِّي وَاللَّهُ بِكُلِّ سِحٍّ مِنْ مَنَائِمَتَا ، وَبِكُلِّ رَطْبٍ يَابَسًا ،  
وَتُقِلَّ فِي ثِيَابٍ أَكْفَانَهُ إِلَى ثَلَاثِ أَذْرُعٍ طُولًا فِي ذِرَاعٍ عَرَضًا ، وَأَكَلَتْ الْأَرْضَ لَحْمَهُ ،  
وَمَصَّتْ صَدِيدَهُ ، وَانصَرَفَ الْحَبِيبُ مِنْ وَلَدِهِ يَقْسِمُ الْخَبِيثَ مِنْ مَالِهِ ، وَإِنَّ الَّذِينَ  
يَعْقِلُونَ يَعْلَمُونَ مَا أَقُولُ .

لَمَّا قَتَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ارْتَجَّتْ مَكَّةُ بِالْبُكَاءِ ، فَصَعِدَ الْحِجَابُ الْمُنْبَرُ فَقَالَ :  
أَلَا إِنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ كَانَ مِنْ أَحْبَابِ هَذِهِ الْأُمَّةِ حَتَّى رَغِبَ فِي الْخِلَافَةِ ، وَتَنَازَعَ فِيهَا ،  
وَخَلَعَ طَاعَةَ اللَّهِ ، وَاسْتَكْبَرَ بِحَرَمِ اللَّهِ ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ مَانِعًا لِلْعَصَاةِ لَمَنْعَ آدَمَ حُرْمَةُ<sup>(٢)</sup> الْجَنَّةِ  
لَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَهُ بِيَدِهِ ، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلَائِكَتُهُ ، وَأَبَاحَهُ جَنَّتَهُ . فَلَمَّا عَصَاهُ أَخْرَجَهُ مِنْهَا  
بِخَطِيئَتِهِ ، وَآدَمَ عَلَى اللَّهِ أَكْرَمَ مِنْ ابْنِ الزُّبَيْرِ ، وَالْجَنَّةُ أَعْظَمُ حَرَمَةً مِنَ الْكَعْبَةِ .

## خطبة دير الجماجم<sup>(٣)</sup> كحف

خطب الحجاج بعد وقعة دير الجماجم ، فقال :  
يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ اسْتَبَطَنَكُمْ<sup>(٤)</sup> فَخَالَطَ اللَّحْمَ وَالْدَمَ وَالْعَصَبَ وَالْمَسَامِعَ

(١) هو سليمان عليه السلام .

(٢) أي لوقته الجنة ( وقد كان فيها ) من أن يقع عليه غضب ربه حين عصا .

(٣) دير الجماجم بظاهر الكوفة على سبعة فراسخ منها على طرف البر للسالك إلى البصرة ، وسمى دير  
الجماجم لأنه كانت تصنع به الجماجم وهي الأقداح من الخشب وبهذا الموضع كانت الوقعة بين الحجاج  
وعبد الرحمن بن الأشعث وانهزم فيها ابن الأشعث .

(٤) استبطن الأمر : دخل باطنه .



والأطراف والأعضاء والشَّعَافَ (١) ، ثم أفضى إلى المِخَاخِ والأَصْمَاخِ ، ثم ارتفع  
 فَعَشَّشَ ، ثم باض ففَرَّخَ ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً ، وأشـمركم خلافاً ، واتخذتموه دليلاً  
 تتبعونه وقائداً تطيعونه ، ومُؤامراً (٢) تستشيرونه : فكيف تنفعكم تجربة أو تعظم  
 وقعة . أو يحجزكم إسلام ، أو ينفعكم بيان ؟ أَلَسْتُمْ أَصْحَابِي بِالْأَهْوَازِ (٣) حيث رُمِّمُ  
 المسكر ، وسعيتم بالعدر ، واستجمعتم (٤) للكفر ، وظننتم أن الله خذَل دِينه وخلافته ،  
 وأنا أرميكم بطرفي . تتسللون لَوِإِذَا (٥) ، وتتهزمون سِراعاً . ثم يوم الزاوية ، وما يوم  
 الزاوية ! بها كان فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم ، وبراءة الله منكم ، ونكوص (٦)  
 وليسكم عنكم إذ وليتكم كالإبل الشوارد إلى أوطانها ، النوازع إلى أعطانها ، لا يسألُ  
 المرء عن أخيه ، ولا يلوئى الشيخ على بنيه ، حتى عَضَّكُمُ السِّلَاحُ ، وقصمتكم  
 الرماح . ثم دَيْرُ الْجَمَاجِمِ وما دَيْرُ الْجَمَاجِمِ !! ! بها كانت المعارك والملاحم ، بضرب  
 يزيلُ الهامَ عن مَقِيلِهِ (٧) ، ويصرفُ الخليلَ عن خَلِيلِهِ ، يأهلُ العِراقِ ، والكفَرَاتِ  
 بعد الفَجَرَاتِ ، والغدَرَاتِ بعد الخِطَرَاتِ (٨) ، والثَّوْرَةَ بعد الثَّوْرَاتِ ، إن بعثكم إلى  
 شعوركم عَلَّيْتُمْ (٩) وَجَبَّيْتُمْ . وَإِنْ أَمِنْتُمْ أَرْجَيْتُمْ ، وَإِنْ خِفْتُمْ نَاقَتُمْ ، لا تذكرون  
 حَسَنَةً ولا تشكرون نعمة ، يأهلُ العِراقِ : هل استخفكم ناكثٌ ، أو استغواكم غاوٌ ، أو

(١) الشفاف : حجاب القلب أو حبه .

(٢) أمره : شاوره .

(٣) الأهواز : سبع كور أو توسع بين البصرة وخراسان ، لكل اسم خاص ، ولا يسمى واحدها هوزاء ،  
 ولعل الحجاج أراد أقربها إلى البصرة ، وهو الذي يغلب عليه اسم الأهواز كما في مصور المرحوم  
 أمين بك واصلف .

(٤) اجتمعتم . (٥) اللواذ بالئىء (مثلة) : الاستتار به والاحتضان به ، واللواذ أيضاً المراوغة .

(٦) نكص عن الأمر : أحجم ، وعلى عقبيه : رجع عما كان فيه من خير .

(٧) مقيله : مكانه .

(٨) الخترة : الخديعة .

(٩) غل : خان في الغنيمة .



استغفركم عاصي ، أو استنصركم ظالم<sup>(١)</sup> ، أو استعضدكم<sup>(٢)</sup> خالع<sup>(٣)</sup> إلا اتبعتموه  
وأكرمتموه ونصرتموه وزكيتموه . ي أهل العراق : قلما شغب شاغب ، أو نعب ناعب ،  
أو زفر زافر ، إلا كنتم أتباعه وأنصاره . ي أهل العراق : ألم تنهكم المواعظ ،  
ولم ترزكم الوقائع . ثم التفت إلى أهل الشام ، فقال : ي أهل الشام ، أنا لكم كالظالم<sup>(٣)</sup>  
الرامح<sup>(٤)</sup> عن فراخه ، ينفى عنها المدر ، ويباعد عنها الحجر ، ويكئها من المطر ، ويحميها  
من الضباب ، ويحرسها من الذئب . ي أهل الشام : أتم الجنة والرداء ، وأتم  
العدوة والحذاء<sup>(٥)</sup> .

ومن وعظ الحجاج مارواه المبرد في الكامل قال : كان الحجاج بن يوسف يقول  
على المنبر :

أيها الناس : أقدعوا هذه الأنفس فإنها أسألُ شيء إذا أُعطيت ، وأمنعُ شيء  
إذا سُئلت ، فرحم الله امرأً جعل لنفسه خطاماً وزماماً ، فقادها بخطامها إلى طاعة الله ،  
وعطفها بزمامها عن معصية الله ، فإنني رأيت الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر  
على عذابه .

وكان يقول : إن امرأً أتت عليه ساعة من عمره لم يذكر فيها ربه ، أو يستغفر من  
ذنبه ، أو يفكر في ميعاده لجدير أن تطول حسرته يوم القيامة .

(١) استعانكم . (٢) خالع : ثائر جان .

(٣) الظليم : ذكر النعام .

(٤) الرامح : الضارب برجله .

(٥) الحذاء . القدوة ، من حذاه إذا فعل فعلة .



## الأدب في حياة الحجاج

لعلك غير ناس مامرّ بك من كون الحجاج أحد الأربعة الذين لم يلحنوا في جدّ أو هزل ، كما تذكر بلاءه في إعجام حروف الهجاء العربي وعمله على تحويل ديوان العراق إلى العربية هذا إلى ما سنذكره موزعاً في أبواب المذكرة من إحيائه للأدب وسماعه من الشعراء والمبالغة في مشوبتهم وتوجيههم ، وإرسالهم إلى الخليفة مشفوعين برأيه ، فقد فعل ذلك بجرير حتى صار من شعراء الخليفة ، كذلك سنجدّك عن رأيه الصائب وقريخته النقادة عند ما مدحته ليل الأخيالية بقولها : غلام إذا هزّ القناة سقاها . فقال لها : قولى همام لا غلام .

أما الشهادة القائمة على بلاغته وقوّة تأثيره ، فهي خطبه وكتبه التي مرّ بك كثير منها وقد عرفت تأثير هذه الخطب ، وتلك الكتب في إلزام الطاعة ، وتمهيد الثورة وهي وإن كانت لا تحتاج في إثبات فضلها إلى دليل ، ولكننا نسوق لك رأياً لأحد معاصري الحجاج تدرك منه كيف كان وقع كلامه واختلاله للألباب ؟ . يقول مالك ابن دينار : ما رأيت أحداً أبين من الحجاج إنه كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحه عنهم ، وإساءتهم إليه ، حتى إنى لأحسبه صادقا ، وأظنهم كاذبين . أأنت ترى أن مالكاً يظهر لك حيرته من تأثير الحجاج بكلامه ، وكيف أنه يعتقد ظلمه لهم وإساءته إليهم ؟ ، حتى إذا سمع كلامه انقلب اعتقاده إلى حين . ولا شك أن هذا من فضل البيان كالتصوير البارع الذي يريك الصورة خارجة وليست بخارجة ، أو داخلية ، وليست بداخلية .

وإن المتتبع لكلام الحجاج يرى له مسحة خاصة ، وأساليب استقلّ باستعمالها من بين معاصريه ، وأحسن استخلاصها من كلام العرب وعاداتهم ، فصار له فضل شيوعها وتداولها . ولعل لنشأته البدوية أثراً كبيراً في اهتدائه إليها ، فما كنا نرى



لغيره مثل قوله : « لأعصبنكم عصب السامة » ، و « مايقعق لي بالشنان » ، و « لأضربنكم ضرب غرائب الأبل » ، وكذلك عرف الحجاج بالاستشهاد بالرجز ، والإكثار من رواية غريب الشعر .

عبد الحميد الكاتب ) α

[ نسبه ] : هو عبد الحميد بن يحيى مولى بنى عامر ، والموالى فى الدولة الأموية حديث يجب أن تتف عليه لتستطيع فهم ما أحاط بعبد الحميد من ملابسات .

### الموالى فى عصر بنى أمية

هم فى الأصل الذين صاروا سبياً للعرب ، ففرقوهم فى المحاربين يتولون أمرهم ، فيسترقونهم أو يعتقونهم ، وينسب المولى إلى أسياده الذين ملكوا رقه ، فيعيش مستظلاً بظلمهم ، وتنشأ ذريته على ذلك الولاء .

ولقد اقتضت سياسة بنى أمية الغض من شأن من ليس عربياً ، فاضطهدوا هؤلاء الموالى حتى حاربوا فى جيوشهم بلا عطاء ، أو أعطوه موهمة مصر دأ محسوباً .

ولم يكن جميع الموالى من طبقة واحدة ولا أمة واحدة ، بل كان منهم من الفرس والروم ، ومنهم من ينتهى نسبه إلى ملوك الدولتين ، أو الأشراف فىهما كما كان منهم الحبش والسودان والترك والبربر ، وكل من فتح العرب بلادهم . لذلك كان أثر هؤلاء الموالى عظيماً ، فأفادوا الأمة العربية بما حملوا معهم من نظام ، ودرية ، وذكاء ، وعلم ، وصناعة ، ولو أن بنى أمية أفسحوا المجال لهؤلاء الموالى ، واطمأنوا إليهم ، ولم يقصوهم عن أعمال الدولة لعجلوا للأمة العربية بما كان فى العصر العباسى الذى كانت سياسية خلفائه تقضى بالاطمئنان إلى هؤلاء والإفضاء إليهم بتدبير شئون الدولة .



لقد كان من أثر اضطهاد الأمويين للموالى أن أقبل هؤلاء على العلم ، يحصلونه ، واللغة العربية يحذقونها ليجعلوا ذلك زلفى إلى أسيادهم ، ولينالوا به نصيباً من عظمتهم ، وليستروا به مسبة الرقّ وعاره ، فكان منهم أئمة الدّين ، ومصاييح الهدى ، وأعلام اللغة على حين شغل العرب بالرياسة وتدير الملك ، وولاية الأمصار والدفاع عن الملك ، أو القيام بمناهضته .

ولقد كان عبد الحميد بن يحيى أحد هؤلاء الموالى الذين أفادوا العربية بذكائهم الموروث ، وجدّهم الذى طلبوا به المنزلة فى العرب ، واجاه عندهم .

### حياة عبد الحميد

نشأ بالشام والدولة الأموية مدبرة ، وأمورها مضطربة ، والخلافة قد ذهبت هيبتها ، وتطلع إليها كلّ طامع ، فكثرت لذلك الحروب ، وتوالى خلع الطاعة ، وشغل الخلفاء بالدانى عن القاصى حتى عششت الدعوة إلى العباسيين ، وأفرخت فى خراسان ، ثم اكتسحت الدولة الأموية أسرع اكتساح لضعف المقاومة ، ولصيرورة الدولة إلى الشيخوخة المبكرة ، إذ لم يكن قد مضى عليها فى الحكم غير تسعين سنة ، وهى فى أعمار الدول قليلة ، ولكنّ الأمويين عجل إليهم الضعف بما أسرفوا فى الظلم ، وعسفوا فى الجباية ، حتى قلت مواردهم ، وضعف شأنهم .

كان أوّل أمره يعلم الصبيان ، ويتنقل فى البلاد ، حتى عرف فضله مروان بن محمد ، وكان والياً على الجزيرة وأرمينية ، فاتخذة كاتباً له ، فلزم خدمته ، وأخلص له ، وحرص مروان على الانتفاع به ، فلما صارت الخلافة إليه سنة ١٢٧ هـ أبقاه كاتب الدولة اعترافاً له بسابقة خدمته ، والتماساً للانتفاع بذكائه وبلاغته . ويروى أنه كان فى مجلس مروان حين وصل إليه خبر الخلافة ، فسجد مروان ومن معه شكراً لله ، ولم يسجد عبد الحميد ،



فقال له مروان : لم لا تسجد ؟ فقال : على أن كنت معنا فطرت عنا . قال : إذن تطير معي ، فقال عبد الحميد : الآن يطيب السجود ، وسجد .

لبث مروان خليفة خمس سنين عانى فيها كلَّ شدّة ، فقد خرج عليه عبد الله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالكوفة ودعا لنفسه ، وانضمَّ إليه من الشيعة عدد عظيم ، ولكن ثورة عبد الله هذا قد أخذها والى العراق عبد الله بن عمر ابن عبد العزيز ، وكان الناس يحبونه لسيرة أبيه ومعدلته .

أما الشام فقد كانت أمصاره دائماً الاضطراب على مروان ، فانقضَّ عليه أهل حمص ، ثم أهل الغوطة ، ثم أهل فلسطين ، فانصر مروان على كلِّ هؤلاء ، ثم حسن بعض الدعاة لسليمان بن هشام بن عبد الملك أن يطالب بالخلافة ، فطالب أهل الشام ، فأتوه من كلِّ وجه ، وكانت موقعة هائلة بين سليمان ومروان ، فانهزم سليمان ، وأحصيت القتلى ، فكانت ثلاثين ألفاً .

ولقد طمع الخوارج في ضعف الدولة ، فاستولوا على الكوفة ، وكانت لهم مع مروان جولات استمرت مدة طويلة .

وفي ربيع الأوّل سنة ١٣٢ هـ بويع بالكوفة لأبي العباس السفاح أوّل خلفاء العباسيين ، فأرسل الجند تتعقب مروان حتى التقوا على نهر الزاب ، فقتل من جنود مروان كثير وانهزم إلى مصر ، فتبعه العباسيون حتى عثروا به في دير بقرية بوسير من مصر ، وقتل لليلتين بقيتا من ذى الحجة سنة ١٣٢ هـ ، وانتهت بقتله دولة بني مروان . ولا شك أن عبد الحميد قاسى مع مروان حرّ هذه النار ، فإن ما عرف له من الوفاء جعله لا يتخلى عن خدمته ، وقد طلب منه مروان حين اشتدَّ عليه الطاب ، وتتابعت هزائمهم ، أن يتحوّل إلى العباسيين ، وقال : إن القوم محتاجون إليك لأدبك ، وإن إعجابهم بك يدعوك إلى حسن الظنّ بك ، فاستأمن إليهم ، وأظهر الغدر بي فلعلك تنفنى في حياتي أو بعد مماتي ، فقال عبد الحميد :

أَسِرَّ وَفَاءً ثُمَّ أَظْهَرُ غَدْرَةَ فَمَنْ لِي بِغَدْرِ يُوسِعُ النَّاسَ ظَاهِرُهُ



ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إن الذي أمرتني به أنفَع الأمرين إليك وأقبحهما بي ، ولكني سأصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك . فلما قتل مروان استخفى عبد الحميد ، فغمز عليه عند صديقه ابن المقفع ، وفاجأها الطلب ، وهما في بيت ، فقال الذين دخلوا : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كلٌّ منهما : أنا ، خوفاً على صاحبه إلى أن عرف عبد الحميد . فأخذ ، وسلمه السفاح إلى عبد الجبار صاحب شرطته ، فكان يحمي طستاً ويضعه على رأسه حتى مات سنة ١٣٢ هـ .

### تعلم عبد الحميد وعمله

نشأ عبد الحميد كما ينشأ أولاد الموالى مقبلين على الدراسة ، فتخرَّج في علوم زمانه من قراءة القرآن ، ورواية الشعر ، والإمام بالحساب والأخبار وتلك عدة الكاتب في تلك الأيام . وقد استوفى عبد الحميد كلَّ ما يستعدُّ به أهل زمانه من المرتزقة بالعلم ، وساعده على ذلك طبع مواتٍ وذكاء موروث ، وكان أستاذه الذي تخرَّج عليه هو ختنه سالم مولى هشام بن عبد الملك ، وقد عرف سالم هذا بمجدق اللغة اليونانية والنقل منها . ولئن فات عبد الحميد أن يكون عارفاً بغير العربية ، فإنه لم يفته أن يتلمذ لهذا الرجل ، فيعرف منه أسرار تلك اللغة ، ويجري على يديه ذلك الإبداع الذي عرف به في تنويع بدء الرسائل واختتامها . ومراعاة فروق تلتزم فيها على تعدد أنواعها ، فيكون لصورة العهد خلاف صورة التولية وللإخوانيات غير ما للديوانيات مما سنفصله في موضعه من هذه الترجمة .

وقد سبق سالم تلميذه بشيء من هذا ، ولكن عمل عبد الحميد كان أتمَّ وأوفى ، فاستحقَّ أن يقال عنه : « بدئت الرسائل بعبد الحميد . »

لما انتقل عبد الحميد مع مروان إلى دار الخلافة اشترك معه في عمله المضني من مناهضة



الواثين على الخلافة ، وكان يكتب له كتبه إلى المواليين ، وتهديده إلى الخارجيين ، وعهوده للولاة والقضاة .

ولقد ذكروا أنه كتب عن مروان كتاباً إلى صاحب الدعوة بخراسان يدعو إليه ، وضمنه ما لو قرئ لأدّى الى وقوع الخلاف والفشل في صفوف العباسيين ، وقال لمروان : قد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره ، فإن يكن ذلك وإلا فاهلاك ، وكان الكتاب لكبره يحمل على جمل ، فلما وصل الى أبي مسلم أمر بإحراقه ولم يقرأه ، وكتب على جذاذة منه الى مروان :

محا السيفُ أسطارَ البلاغةِ وانتحى عليك لُيُوثُ الغَابِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

وكان لإنشاء الرسائل ديوان وفيه كتاب لمكان العمل من الاتساع ، ولصيرورة الدولة إلى نظام مستقرّ وعمل موزع كما هو الشأن في الأمم التي قطعت في الحضارة شوطاً . وكان عبد الحميد سيد هؤلاء الكتاب ورئيسهم . وهذه رسالته إلى الكتاب يوصيهم فيها بمعرفة كتاب الله والفرائض ، وعلم العربية ، ورواية الأشعار ، وحذق التاريخ ، والحساب ، وتجويد الخطّ ، ثم يعطف على أدب النفس بالرفق في المعاملة ، وحسن الصحبة ، وسترى ذلك فيما ننقل إليك منها .

### أثر عبد الحميد في الكتابة

يقولون إن عبد الحميد أول من أطال التحميدات في أوائل الكتب وكررها في فصولها . وأنه رسم لها رسوماً في بدئها وختامها ، وجعل للإطناب مواضع ، وللإيجاز أخرى ، فكان بذلك شيخ كتاب الرسائل على الإطلاق .

لقد أطال عبد الحميد التحميدات حقاً ، فإنه بعد أن كانت صيغة الحمد كما مرّ بك في رسائل العصر الماضي تذكر بعبارة واحدة في جملة واحدة ، توسع فيها عبد الحميد حتى



صاغها في عبارات طويلة ، وكذلك كان التحميد مرة واحدة في الكتاب ، فلما أطال عبد الحميد الرسائل كان يبدى فيه ويعيد ، فيجعله في أوّل الرسالة ، ثم يعيده مرة أو مرّات في فصولها على حسب طولها . كذلك جعل للكتابة رسوما تراعى ، وهذه الرسوم لم تكن كلها له بل منها ما كان العمل جارياً عليه سابقاً ، ولكن فضل عبد الحميد أن فصل ذلك وبناه على أسس وشرطه بشروط . فكان بدء ولاية العهد غير بدء الأخبار عن فتح ، فالأوّل يبدأ بعد البسملة بقولهم هذا ما عهد ، وهي الصورة القديمة التي كتبها عمر ، وظلت سنة من بعده ، والثاني يبدأ بالحمد ابتهاًل الله على ما وهب . وكان خطاب المسلم الطائع غير خطاب أهل الملل الأخرى . فالأوّل يحمد فيه الله إلى المرسل إليه ، والثاني يقال فيه : سلام على من اتبع الهدى . وقد نصوا على أن عبد الحميد اخترع صورة التعقب بالحمد بعد البسملة مفصّولا عنها بأما بعد ، فيقول مثلاً : بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فالحمد لله .

كذلك كان الختام مختلفاً بصورته القديمة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وقد لا تذكر بركاته ، وقد يختم بإن شاء الله ، فيقولون : فإن رأيت أن تفعل ذلك فعلت موقفاً إن شاء الله أو ( فرأيت في ذلك موقفاً إن شاء الله ) وقد يكون بالحسبة كقولهم : حسبنا الله ونعم الوكيل ، أو حسبي الله ونعم الوكيل ، وأكثر ما يكون ذلك في المشاركات والمناشير ونحوها ، وتختتم العهود بمثل ، وكفى بالله شهيداً ، وتختتم التعزية في الإخوانيات بقولهم : إنا لله وإنا إليه راجعون .

كذلك جعل عبد الحميد للإطّباب مواضع فجعله في أخبار الفتوح ، فكانت تبنى على إشباع القول ، وتكثير الألفاظ للتعريف بقدر النعمة ، وتفخيم أمر الملك ، كذلك كانت الكتابة تطال في الحث على التهيؤ للعدوّ ، فيبسط فيها القول بوصف العزائم ، وقوّة المهّم ، وإثارة الحمية ، وسرعة الحركة ، وطى المراحل ، وتخييل أسباب النصر ، والوثوق بمعونة الله . وكذلك تطال في الوعد والوعيد والإحماد والاذمام من الخليفة إلى



من يكتب إليه ، لينشرح صدر المشمر المحسن وينبسط أمهه ، وليهرب المقصر ، ويزلزل به موقفه فيسهل ارتداعه ، وإقراره بالطاعة وعودته إلى الحضيرة .

وكان الإيجاز في الكتابة إلى نواب الملك بالاستيحاء من العدو ، فلا يعتمد إلى تهويل أمر العدو فتضعف القلوب ، ولا تهوينه فيحصل الاغترار . كذلك يلجأ إلى الإيجاز في أمر لا يراد إعلانه من مثل هزيمة ، أو تغيير رسم ، أو تكليف رعية ، أو أن تكون الكتابة إلى الوالي أو المرءوس في أمر أو نهى .

ولسنا نرى فضل عبد الحميد يقف عند هذا النظام الذي أجراه على الرسائل وقيدها ، فإنه وإن دلّ على ذكاء وصدق حسّ وإدراك لحقائق الفروق في التعبير ، فليس يدلّ على الملكة القوية ، والمقدرة التامة ، وحسن التصوير للمعنى ، والوصول به إلى قلب السامع ، وغير ذلك من صفات البلاغة التي تمت في عبد الحميد ، وتجمعت له خصائصها . وإن أدلّ على فضل عبد الحميد أن نقول إنه لم يتكأده لفظ ، ولم يستعص عليه معنى ، ولم يعتره فتور ، بل كانت معانيه وألفاظه تجري جريان العذب على شفاه الظمأى ، وأنك تقرّأ له الرسالة فتطول عليك ، وتخشى عليه أن يصير إلى الوهن ، أو ينتهى إلى السقوط ، فتراه في آخرها كشأنه في أولها سلاسة وعدوبة وتدققا في المعاني ، وتنويعا في الأساليب .

هذا هو فضل عبد الحميد الذي جاء فوجد الكتابة مقيدة ، فكف قيودها ، ومتعثرة فأجراها على أذلالها ، وضيقة العطن ومنقطعة النفس ، فأطال من أنفاسها ومد من روحها . فهذا هو الاختراع في الكتابة ، وهذا هو الابتداع الذي يصح أن نذكره لمن نريد أن نجعله شيخ الكتاب وسيدهم ، وهو جدير بهذا الوصف بعد ما بان لك أنه استطاع مالم يفعله الأوائل ، وأنه حافظ على فضيلة السابقين من الجزالة والأحكام ، وزاد عليها الإسباغ وإطالة الذيل .

وإن الناظر في رسائل عبد الحميد ليرى الرجل واسع التفكير ، مستقصيا للمعاني مرتباً لها ، متوغلا في غامضها متناولاً لسهلها وصعبها ، وذلك شأن من تتقف أحسن تثقيف



وحصف فكره أتم حصافة . ولا يكون ذلك إلا بمواتاة الطبع وحدة الذكاء ، ثم بالعلم  
النظري الواسع المدى . وهذا ما يحملنا على اعتقاد أن عبد الحميد إن فاته معرفة لغة غير  
العربية لم يفتسه أن وعى كل ما ترجم إليها على يد ختنه أو غيره من النقلة ، وقد كان  
النقل من اللغات بدأ في هذه الأيام ، فإن المقفع نقل كثيراً من كتب الفرس ، وأشهرها  
كليلة ودمنة ، فلم يفت عبد الحميد الاطلاع على كل ما ترجم في أيامه .

في كتاب صبح الأعشى جزء ٢ ص ١٨٤ : قال أبو هلال العسكري : ومن  
عرف ترتيب المعاني ، واستعمل الألفاظ على وجوهها بلغة من اللغات ، ثم انتقل إلى لغة  
أخرى تهيأ له فيها من صنعة الكلام ما تهيأ له في الأولى . ألا ترى أن عبد الحميد  
الكاتب استخراج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي وحوّلها إلى  
اللسان العربي .

### آراء الناس في عبد الحميد

كان أحمد بن يوسف يقول : في رسائل عبد الحميد ألفاظ محكمة ، وتجارب  
محنة . وقال إبراهيم بن العباس الصولي : كان الكلام معاناه ما تمنيت كلام أحد من  
الكتاب يكون لي مثل كلامه . وقال أبو جعفر المنصور غلبتنا بنو أمية بثلاثة :  
بالحجاج ، وعبد الحميد ، والمؤذن البعلبكي .

وقال قاضي القضاة ابن خلكان : كان في الكتابة وفي كل فن من العلم والأدب  
إماما ، وعنه أخذ المترسلون ، ولطريقته لزموا ، ولآثاره اقتفوا ، وهو الذي سهل  
سبل البلاغة .

وسأله يوما بعض المعجبين بأدبه عن سرّ نبوغه في الكتابة فقال : حفظ كلام  
الأصلع ( يريد علياً كرم الله وجهه ) ، وقال ابن نباتة<sup>(١)</sup> في كتابه : سرح العيون ،

(١) ابن نباتة هو جمال الدين محمد بن محمد بن نباتة المصري المتوفى سنة ٧٦٨ هـ وهو شارح الرسالة  
الهزلية لابن زيدون ، وهو شاعر له ديوان شعر مطبوع .



في شرح رسالة بن زيدون : هو أول من اتخذ التحميدات في فصول الكتب ،  
واسـتعمل في بعض كتبه الإيجاز البليغ ، وفي بعضها الإسهاب المفرط على  
ما اقتضاه الحال .

## نماذج من كلام عبد الحميد الكاتب

ليس لعبد الحميد الكاتب كتاب يجمع رسائله كما هو الشأن في رسائل البلغاء ،  
كبديع الزمان والصابي وأضرابهما : ولكنك تجدها موزعة في الكتب ، وفي دار  
الكتب الملكية مجموعة خطية فيها بعض رسائله ، ومن أشهر تلك الرسائل رسالته  
إلى الكتاب ، وهي برمتها في مقدمة ابن خلدون فارجع إليها كاملة هناك ، ولكننا  
ننقل إليك بعضا منها فيه غنية .

## رسالة عبد الحميد إلى الكتاب

قال في أولها : أما بعد حفظكم الله ، يأهل صناعة الكتابة وحاطكم ووقفكم  
وأرشدكم ، فإن الله عزّ وجلّ جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه  
عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافا ، وإن كانوا في الحلقة سواء .  
وصرفهم<sup>(١)</sup> في صنوف الصناعات ، وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم ، وأبواب  
رزقهم ، فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات ، أهل الأدب والمروءات ، والعلم  
والرزانة ، بكم تنتظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم أمورُها ، وبنصائحكم يُصلح الله  
للخلق سلطانهم ، وتعمُرُ بلدانهم ، لا يستغنى الملك عنكم ، ولا يوجد كافٍ<sup>(٢)</sup> إلا منكم ،

(١) صرفهم : وجههم .

(٢) كاف : قادر على الأمر ناهض به .



فوقعكم من الملوك موقع أسمعهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يبصرون ،  
وألسنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يبطشون ، فأمتعكم الله بما خصكم من  
فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم ما أضفاه<sup>(١)</sup> من النعمة عليكم .

## ومنها

فتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب ، وتفهموا في الدين ، وابدءوا بعلم  
كتاب الله عز وجل والفرائض ، ثم العربية ، فإنها ثقاف<sup>(٢)</sup> ألسنتكم . ثم أجدوا الخط  
فإنه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم  
وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم . ولا تضيعوا النظر في  
الحساب ، فإنه قوام كتاب الخراج ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سائيتها ودنيها ،  
وسفساف<sup>(٣)</sup> الأمور ومحارها . فإنها مذلة للرقاب ، مفسدة للكتاب . ونزهوا صناعتكم  
عن الدنيا ، واربتوا بأنفسكم عن السعاية والتميمة وما فيه أهل الجهالات .



ومن رسائله رسالة الشطرنج<sup>(٤)</sup> ، وهي ما كتبه عن الخليفة إلى الأمصار  
الولاية بالضرب على أيدي المستهترين بهذه اللعبة . وقد شاعت إذ ذاك حتى صرفت  
الناس عن أمور معاشهم ومعادهم ، وسنقلها إليك برمتها لأنها غير شائعة فيما بين يديك  
من الكتب قال :

(١) أسبغه وأطاله .

(٢) الثقاف : ما يقوم به الرمح .

(٣) السفساف : الخفير من الأمور .

(٤) في القاموس أنه بكسر الشين ولا تفتح ، وقيل الكسر أفصح .



## رسالة الشُّطْرَنْجِ

أما بعد ، فإن الله شرع دينه بإنهاج سبيله ، وإيضاح معامله باظهار فرائضه ، وبعث رسله إلى خلقه دلالة لهم على ربوبيته ، واحتجاجا عليهم برسالاته ومقدما إليهم بإنذاره ووعيده - ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة - ثم ختم بنبيه صلى الله عليه وحيه ، وقفى به رسله ، وابتعثه لإحياء دينه الدارس مرتضياً له ، حين انطمست الأعلام محتفية ، وتشتت السبل متفرقة ، وَعَفَتِ الآثَارُ دَارِسَةً ، وسَطَعَ رَهَجٌ <sup>(١)</sup> الفتن وابتدأ قتام الظلم . واستهد الشرك ، وأسدف الكفر ، وظهر أولياء الشيطان لطموس الأعلام ، ونطق زعيم الباطل بسكته الحق ، واستطرق الجور ، واقطر سلب <sup>(٢)</sup> الفتنة ، واستضرم لِقَاحَهَا <sup>(٣)</sup> ، وطبقت الأرض ظلمة كفر وغيابة فساد ، فصعد <sup>(٤)</sup> بالحق مأموراً ، وبلغ الرسالة معصوما وقلج الإسلام وأهله دالاهم على المرشد ، وقائدا لهم إلى الهداية ، ومنيفاً لهم أعلام الحق ضاحية ، ومرشداً لهم إلى استفتاح باب الرحمة وإعلان عروة النجاة ، موضحاً لهم سبل الغواية ، زاجراً لهم عن طريق الضلال محذراً لهم من الهلكة ، موعزاً إليهم في التقدمة ، ضارباً لهم الحدود على ما يتقون من الأمور ويخشون ، وما إليه يسارعون ويطلبون ، صابراً نفسه على الأذى والتكذيب ، داعياً لهم بالترغيب والترهيب ، حريصاً عليهم متحننا على كآفتهم ، عزيزاً عليه عنهم <sup>(٥)</sup> . رءوفا بهم رحياً ، تَقَدَّمَهُ شَفَقَتَهُ عَلَيْهِمْ وَعِنَايَتَهُ بِرَشْدِهِمْ إِلَى تَجْرِيدِ الطَّلَبِ إِلَى رَبِّهِ فِيمَا فِيهِ بَقَاءُ النِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامَةِ أَدْيَانِهِمْ ، وَتَخْفِيفِ آصَارِ <sup>(٦)</sup> الْأَوْزَارِ عَنْهُمْ ، حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ

(١) الرهج : الغبار .

(٢) السلب من الرجال : الطويل ، ومن الخيل ما عظم وطالت عظامه .

(٣) استضرم : أوقد . لِقَاحُ النَّارِ : ما تمد به من حطب .

(٤) الفاعل ضمير يعود على النبي .

(٥) العنت : المشقة .

(٦) آصار : جمع إصر بمعنى الذنب .



صلى الله عليه وسلم ناصحاً منتصحاً ، أميناً مأموناً . قد بلغ الرسالة ، وأدى النصيحة ، وقام بالحق ، وعدل عمود الدين حتى اعتدل ميله . وأذل الشرك وأهله ، وأنجز الله له وعده ، وأراه صدق أسبابه في إكمالته للمسلمين دينه ، واستقامة سننه فيهم ، وظهور شرائعه عليهم . قد أبان لهم موبات الأعمال ومفطعات<sup>(١)</sup> الذنوب . ومُنَهِّزات<sup>(٢)</sup> الأوزار ، وظلم الشبهات ، وما يدعو إليه تقصان الأديان ، وتستهويهم الغوايات ، وأوضح لهم أعلام<sup>(٣)</sup> الحق ، ومنازل المرشد ، وطرق الهدى ، وأبواب النجاة ، ومعالق العصمة . غير مدخر لهم نصحاً ولا مبتغى في إرشادهم غمنا .

فكان فيما تقدم إليهم فيه نهيه ، وأعلمهم سوء عاقبته ، وحذرهم إضره ، وأوعز إليهم ناهياً وواعظاً وزاجراً الاعتكاف على هذه التماثيل من الشطرنج ، والمواصلة عليها لما في ذلك من عظيم الإثم ، وموبق الوزر مع مشغلتها عن طلب المعاش ، وإضرارها بالعقول ومنعها من حضور الصلوات في مواقيتها مع المسلمين . . وقد بلغ أمير المؤمنين أن ناساً ممن قبلك من أهل الإسلام قد ألهجهم<sup>(٤)</sup> الشيطان بها وجمعهم عليها ، وألف بينهم فيها ، فهم معتكفون عليها من لدن صبحهم إلى نهمهم ملهية لهم عن الصلوات شاغلة لهم عما أروا به من القيام بسنن دينهم ، واقترض عليهم من شرائع أعمالهم . مع مداعتهم فيها ، وسوء لفظهم عليها ، وأن ذلك من فعلهم ظاهر في الأندية والمجالس غير منكر ولا معيب ، ولا مستفزع عند أهل الفقه ، وذوى الورع والأديان والأسنان ، منهم فأكبر أمير المؤمنين ذلك وأعظمه وكرهه واستكبره ، وعلم أن الشيطان عند ما يئس من بلوغ إرادته في معاصي الله عز وجل بمصر المسلمين ، وجمعهم صُراحا وجهاراً ، أقدم بهم على شبهة مهلكة ، وزين لهم ورطة موبقة ، وغرهم بمكيدة إرادة استهوائهم بالخدع ، واحتياهم<sup>(٥)</sup> بالشبه ، والمرصد الخفية المشككة . وكل مقيم على معصية الله ، صغرت أو

(١) أفضع الأمر كفضع (ككرم) .

(٢) بهظه الأمر : نقل عليه ، ولم أعر على أبهظه ولعله استعمالها مزوجة لمفطعات .

(٣) أعلام : جمع علم ، وهو ما ينصب في الطريق لهداية السائر .

(٤) ألهجهم : جعلهم يلهجون بها أى يديعون ذكرها ، والمراد أنهم مولعون بها .

(٥) اجتاله : حوله عن قصده . ويحتمل أن يكون واحتيالهم أى اصطيداهم .



كبرت مستحلاً لها مُشيداً بها<sup>(١)</sup> مظهراً لارتكابه إياها ، غير حذر عقاب الله عزّ وجلّ  
ولا خائف مكروهاً فيها ولا رعب من حلول سطوته عليها حتى تلحقه المنية فتختلجه<sup>(٢)</sup>  
وهو مصرّ عليها غير تائب إلى الله منها ، ولا مستغفر من ارتكابه إياها . فكم قد أقام  
على موبات الآثام ، وكبائر الذنوب حتى مرّ به مُحَرَّم<sup>(٣)</sup> أيامه .

وقد أحبّ أمير المؤمنين أن يتقدم إليهم فيما بلغه عنهم وأن يندرهم ويوعز إليهم ،  
ويعلمهم ما في أعناقهم عليها ، ومالمهم في قبول ذلك من الحظّ وعليهم في تركه من الوزر  
فأذن بذلك فيهم وأشدّه في أسواقهم وجميع أنديةهم وأوعز إليهم فيه وتقدم إلى عامل  
شرطتك في إنهاك<sup>(٤)</sup> العقوبة لمن رفع إليه من أهل الاعتكاف عليها . والظهار للعب بها  
وإطالة حبسه في ضيق وضنك . وطرح اسمه من ديوان أمير المؤمنين ورأيه<sup>(٥)</sup> .  
ولا يجدنّ أحدٌ عندك هواده<sup>(٦)</sup> في التقصير في حقّ الله عزّ وجلّ والتعدّي لأحكامه  
فتحلّ بنفسك ما يسوءك عاقبة ومغبة . وتعرض به لِغَيْرِ<sup>(٧)</sup> الله عزّ وجلّ ونكاله .  
واكتب إلى أمير المؤمنين ما يكون منك ان شاء الله والسلام .

## صورة تحميد له في كتاب فتح

الحمد لله العليّ مكانه ، المنير برهانه ، العزيز سلطانه ، الثابتة كلماته ، الشافية آياته ،  
النافذ قضاؤه ، الصادق وعده ، الذي قدر على خلقه بملكه<sup>(٨)</sup> ، وعزّ في سماواته بعظمته ،

(١) رافعاً صوته .

(٢) تنتزعه . (٣) خرّم الشيء وخرمه : فرق أجزاءه ، ومعنى مخزم أيامه : أيامه القليلة ، لأن الجميع  
إذا تصدع قلّ .

(٤) إنهاك العقوبة : المبالغة فيها .

(٥) أي الحسن .

(٦) الهواده : اللين والضعف .

(٧) غير (كعنب) : أحداث الدهر .

(٨) ملك ( مثلثة ) : أي قدرة .



وَدَبَّرَ الْأُمُورَ بَعْلَمَهُ ، وَقَدَّرَهَا بِحِكْمِهِ عَلَى مَا يَشَاءُ مِنْ عَزْمِهِ ، مُبْتَدِعًا لَهَا بِإِفْسَائِهِ إِيَّاهَا ، وَقَدْرَتَهُ عَلَيْهَا وَاسْتَصْغَارَهُ عَظِيمَهَا . نَافِذًا إِرَادَتَهُ فِيهَا ، لَا تَجْرِي إِلَّا عَلَى تَقْدِيرِهِ ، وَلَا تَنْتَهِي إِلَّا إِلَى تَأْجِيلِهِ ، وَلَا تَقَعُ إِلَّا عَلَى سَبْقِ مَنْ حَتَمَهُ كُلَّ ذَلِكَ بِلَطْفِهِ وَقَدْرَتِهِ ، وَتَصْرِيفِ وَحْيِهِ لَا مَعْدَلَ لَهُ عَنْهَا ، وَلَا سَبِيلَ لَهَا غَيْرَهُ ، وَلَا عِلْمَ أَحَدٍ بِخَفَايَاهَا وَمَعَادَاهَا إِلَّا هُوَ ، فَإِنَّهُ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ الصَّادِقِ : « وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ » .

## إِخْوَانِيَاتِهِ

كُتِبَ إِلَى أَخِيهِ فِي مَوْلُودٍ وَكَانَ أَوَّلَ مَا رَزَقَهُ اللَّهُ .  
أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّهُ لَيْسَ مِمَّا أَعْرَفَ مِنْ مَوَاهِبِ اللَّهِ نِعْمَةً خُصِّصَتْ بِمَزِيَّتِهَا . وَأُصْفِيَتْ بِخُصْمِيَّتِهَا كَانَتْ أَسْرَى مِنْ هِبَةِ اللَّهِ لِي ، وَلِدَا سَمِّيْتِهِ فَلَانَا ، وَأَمَلْتُ بِبِقَائِهِ بَعْدَى حَيَاةِ وَذِكْرِي وَحَسَنَ خِلَافَةِ فِي حُرْمَتِي وَإِشْرَاكَ لِي فِي دَعَائِهِ ، شَافِعًا لِي إِلَى رَبِّهِ عِنْدَ خُلُواتِهِ فِي صَلَاتِهِ وَحِجِّهِ ، وَكُلَّ مَوْطِنٍ مِنْ مَوْاطِنِ طَاعَتِهِ ، فَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى شَخْصِهِ تَحَرُّكًا بِهِ وَجَدِي ، وَظَهَرَ بِهِ سُرُورِي ، وَتَعَطَّفْتُ <sup>(١)</sup> عَلَيْهِ مِنْ أُنْسَةٍ <sup>(٢)</sup> الْوَالِدِ ، وَتَوَلَّتْ عَنِّي وَحْشَةُ الْوَحْدَةِ . فَأَنَا بِهِ جَذَلٌ فِي مَغْيِبِي وَمَشْهَدِي ، أَحْوَلُ مَسَّ جَسَدِهِ بِيَدِي فِي الظُّلْمِ ، وَتَارَةً أَعَانَتْهُ وَأَرْشَفَتْهُ ، لَيْسَ يَعْدِلُهُ <sup>(٣)</sup> عِنْدِي عَظِيمَاتِ الْفَوَائِدِ وَلَا مُنْفِسَاتِ <sup>(٤)</sup> الرِّغَائِبِ ، سَرَنِي بِهِ وَاهَبَهُ لِي عَلَى حِينِ حَاجَتِي ، فَشَدَّ بِهِ أَرْزِي ، وَحَمَلَنِي مِنْ شُكْرِهِ فِيهِ مَا قَدِ آدَنِي

(١) تعطف : انعطف وانحنى .

(٢) الأُنْسَةُ : الأُنْسُ بِالسُّمِّيِّ .

(٣) عدله ( كضرب ) : ساواه .

(٤) شَيْءٌ مُنْفَسٌ كَمُخْرَجٍ : يَتَنَافَسُ فِيهِ .



بثقل حمل النعم السالفة إلى به المقرونة سراؤها في العجب بما يتداركني من رقة الشفقة عليه مخافة مجاذبة المنايا إياه ، ووجلا من عواصف الأيام عليه .

فأسأل الله الذي منّ علينا بحسن صنعه<sup>(١)</sup> في الأرحام ، تأديبه بالذكاء ، وحراسته بالعافية ، وأن يرزقنا شكر ما حملنا فيه وفي غيره ، وأن يجعل ما يهب لنا من سلامته ، والمدّة في عمره مُرَصِّداً<sup>(٢)</sup> بالزيادة ، مقرونا بالعافية ، محوطاً من المكروه ، فإنه المنان بالمواهب والواهب المعنى ، لا شريك له .

حماني على الكتاب إليك لعلم ما سررتُ به علمي بحالك فيه وشركتك<sup>(٣)</sup> إياي في كلّ نعمة أسداها إلىّ ولي النعم (وأهل الشكر أولى بالمزيد من الله جلّ ذكره) . والسلام عليك .

وكتب عن مروان إلى هشام يعزّيه عن امرأة من حظاياها :  
إن الله أمتع أمير المؤمنين من أنيسته وقرينته متاعاً مدّه إلى أجل مسي . فلما تمت له مواهب الله وعاريته قبض إليه العارية ، ثم أعطى أمير المؤمنين من الشكر عند بقائها والصبر عند ذهابها أنفوس منها في المنقلب ، وأرجح في الميزان ، وأسنى في العوض ، فالحمد لله رب العالمين ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

وكتب إلى أهله وهو منهزم مع مروان :  
أما بعد : فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكُره والسرور ، فمن ساعده الحظّ فيها سكن إليها ، ومن عضته بنابها ذهبها ساخطاً عليها وشكاها مستزيدا لها ، وقد كانت أذقتنا أفويق<sup>(٤)</sup> استحليناها ، ثم جمحت<sup>(٥)</sup> بنا نافرة ورمحتنا<sup>(٦)</sup> مؤلّية فلح عذبها ، وخشن ليّنها ، فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنا من الإخوان ، فالدار نازحة ،

(١) أي حياته وصيائه ، وذلك صنع من الله جميل وإحسان كبير .

(٢) مقروناً . (٣) شركة (كفرح) شاركة .

(٤) أفويق : جمع أفواق وهي جمع فيقة . والفيقة : ما تجمع من اللبن بين الحلبين .

(٥) جمعت الدابة : غلبت راكبها .

(٦) رمحت الدابة : رفت .



والطير بارحة<sup>(١)</sup> . وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعداً وإليكم وجداً ، فإن تمّ البلية إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم نرجع إليكم بذلّ الإسار والذلّ شرّاً جار . نسأل الله الذي يعزّ من يشاء ، ويذلّ من يشاء أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة في دارأمنة تجمع سلامة الأبدان والأديان ، فإنه ربّ العالمين وأرحم الراحمين .

ومن أمثلة إيجازه ما كتبه موصياً بشخص : حقّ موصل كتابي إليك<sup>(٢)</sup> كحقه على إذ جعلك موضعاً لأمله ، ورآني أهلاً لحاجته ، وقد أنجزت حاجته فصدّق أمله<sup>(٣)</sup> . ومنها ما كتبه إلى أحد عمال مروان ، وقد أهدى إلى الخليفة عبداً أسود ، فأمره بالإجابة ذاماً مختصراً ، فكتب : لو وجدت لونا شراً من السواد ، وعدداً أقلّ من الواحد لأهديته .

## نماذج من خطابة هذا العصر

قدم معاوية المدينة عام الجماعة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد فإنني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتي ، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة . ولقد رُضت<sup>(٤)</sup> لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة ، وأردتها<sup>(٥)</sup> على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفاقاً شديداً . وأردتها على سُنَيَات<sup>(٦)</sup> عثمان ، فأبّت على ، فسلكت بها

(١) البارح من الطير ماصر من ميامنك إلى مياسرك وهو يشاءم به .

(٢) للجملة تنمة تفهم من المقام ، وأصلها حق موصل كتابي إليك عليك : أي إن حقه عليك كحقه على .

(٣) أي اجعله صادقاً .

(٤) راض نفسه على الأمر : حملها عليه .

(٥) أردتها : حملتها .

(٦) سنَيَات عثمان : سنواته الشديدة والتصغير للتعظيم . قالوا وقع في السنيات البيض وهي سنوات

اشتددن على أهل المدينة ، وقيل أيضاً أصابتنا سنة حمراء : أي جذب .



طريقاً لى ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ومشاركة جميلة ، فإن لم تجدوني خيراً ،  
فإني خير لكم ولاية . والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم  
إلا ما يستشفي به القائل بلسانه ، فقد جعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي . وإن لم  
تجدوني أقومُ بحكم كلّه فاقبلوا مني بعضه ، فإن أتاكم مني خير فاقبلوه ، فإن السيل اذا  
جاء أثرى<sup>(١)</sup> وإن قل أغنى<sup>(٢)</sup> . وإياكم والفتنة فإنها تفسد المعيشة وتكدر النعمة .



كان آخر خطبة خطبها معاوية أن صعد المنبر ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قبض على  
لحيته وقال : أيها الناس أنا من زرع قد استحصد وقد طالت عليكم إمرتي حتى مللتكم  
ومللتموني ، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقى . وإنه لا يأتاكم بعدى إلا من هو شر مني كما  
لم يأتكم قبلي إلا من كان خيراً مني . وإنه من أحب لقاء الله أحب لقاءه . اللهم  
إني قد أحببت لقاءك فأحب لقاءى . ثم نزل فما صعد المنبر بعدها حتى مات .



لما قتل عبد الملك بن مروان مصعب بن الزبير دخل الكوفة ، فصعد المنبر فحمد  
الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :  
أيها الناس : إن الحرب صعبة مرّة ، وإن السلم أمن ومسرّة<sup>(٣)</sup> ، وقد زبنتنا<sup>(٤)</sup>  
الحرب وزبناها فعرفناها وألفناها . فنحن بنوها وهى أمنا . أيها الناس : فاستقيموا<sup>(٥)</sup>  
على سبيل الهدى ، ودعوا الأهواء المرديّة ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين .

(١) أثرى : كثر المال وجعل الناس أغنياء .

(٢) أى أغنى عن المسألة .

(٣) رواية صبح الأعشى من ومبرة .

(٤) دفعتنا .

(٥) فى الكلام حذف والتقدير إذا عرفتم حالنا فاستقيموا .



ولا تُكَلِّفونا أعمال المهاجرين الأولين ، وأتمم لا تعملون أعمالهم . ولا أظنكم  
تردادون بعد الموعظة إلا شراً ، ولن نزداد بعد الإعذار<sup>(١)</sup> إليكم والحجة عليكم إلا عقوبة ،  
فمن شاء منكم أن يعود لمثلها فليعد ، فإنما مثلي ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة :

من يَصِلْ نارى بلا ذنب ولا ترة<sup>(٢)</sup>      يَصِلْ بنار كريمٍ غَيْرِ غَدَّارٍ<sup>(٣)</sup>  
أنا النذيرُ لكم متى مجاهرةً      كى لا ألامَ على نَهْيٍ وإِنذارٍ<sup>(٣)</sup>  
فإن عَصَيْتُم مَقالى اليومَ فاعترفوا      أن سوف تلقون خزيًا ظاهرَ العار  
لَتَرَجِعَنَّ أحاديثًا مُلَعِنَةً      لهوَ المقيمِ ولهوَ المُدْلِجِ السارى<sup>(٤)</sup>  
من كان فى نفسه حَوْجاءَ يطالبها      عندى فَإِنى له رهنٌ بِإِصحارٍ<sup>(٥)</sup>  
أقيمُ عَوَجَتَهُ إن كان ذا عَوْجٍ      كما يَقومُ قِدَحَ النَّبْعَةِ البارى  
وصاحبُ الوترِ لَيْسَ الدَّهْرُ مُدْرِكَهُ      عندى وإِنى لَدَرَاكُ بأوتار



ويروى أنه لما أتى عبد الله بن الزبير خبر قتل مصعب بن الزبير خطب الناس ،  
فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إنه أتانا خبر قتل المصعب فسررنا به واكتأبنا له . فأما  
السرور فلما قدر له من الشهادة وحيز له من الثواب . وأما الكآبة : فلوعة يجدها الحميم  
عند فراق حميمه ، وإنا والله ما نموت حَبَجًا<sup>(٦)</sup> كمينة آل العاص ، وإنما نموت والله  
قتلا بالرماح ، وقصعا<sup>(٧)</sup> تحت ظلال السيوف ، فإن يهلك المصعب فإن فى آل الزبير  
خلفاً منه .

(١) الإعذار : تقديم ما يعذر معه المرء لو عاقب وأخذ وذلك بالنصح والارشاد .

(٢) ترة : نأر . يصل نارى : يتعرض لى .

(٣) على نهى : أى ترك نهى .

(٤) ملعنة : يلعنها كل إنسان . الدلج والدلجة والإدلاج : السير من أول الليل . والادلاج : السير  
من آخره . والسرى : المشى ليلا عامة .

(٥) الإصحار : الخروج إلى الصحراء . يقال أنا رهن بكذا أى مرهون له : أى ثابت عليه

(٦) الحبيج : انتفاخ البطن .

(٧) قصعه : ضربه .





خطب عمر بن عبد العزيز يوما ، فكان من خطبته قوله :  
ما الجزع مما لا بد منه ، وما الطمع فيما لا يرجي ، وما الحيلة مما سيزول ؟ . وإنما  
الشيء من أصله ، فقد مضت قبلنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ، وإنما  
الناس في الدنيا أغراض تنتضل فيهم المنايا ، وهم فيها نهب المصائب مع كل جرعة  
شَرَق ، وفي كل أكلة غَصَص . لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يُعَمَّر مَعَمَّرٌ يوما من  
عمره إلا يهدم آخر من أجله ، وأتم أعوان الختوف على أنفسكم . فأين المَهْرَب مما هو  
كائن ، وإنما تنتقل في قدرة الطالب ، فما أصغر المصيبة اليوم مع عظيم الفائدة غداً ،  
وأكبر خيبة الخائب فيه ، والسلام .

### خطبة زياد<sup>(١)</sup> البتراء

قدم زياد البصرة واليا لمعاوية على العراق وخراسان وسجستان ، والفسق بالبصرة  
ظاهر فاش ، فخطب أهلها خطبة بتراء لم يحمد الله فيها ، وهي :  
أما بعد ، فإن الجهالة الجهلاء<sup>(٢)</sup> ، والضلالة العمياء<sup>(٣)</sup> ، والغنى الموفى بأهله على

(١) ولد زياد للسنة الأولى من الهجرة . وكان منذ صغره ذكيا سديد الرأي استباحه معاوية بعد  
قتل علي فجعله أخاه . وتوفي سنة ٥٣ هـ .

وقيل في نسبه : إن الحارث بن كلدة طبيب العرب كانت له أمة تسمى سمية وعبد يسمى  
عبيدا وكان روميا فزوج العبد من الأمة فولدت له زيادا . وقد استكتبه أبو موسى الأشعري  
والى البصرة من قبل عمر ثم ظهر نبوغه . واعترف أبو سفيان بأنه ابنه حملت به أمه وأبوسفيان  
مشرك ورأى على فيه إباء ولسانا . ثم استباحه معاوية بعد موت علي .

(٢) الجهلاء : الشديدة .

(٣) العمياء : التي يعى فيها الناس ونسبة العمى إليها مجاز عقلي .



النار ما فيه سفهاءكم ، ويشتمل عليه حُفَاءُكُمْ : من الأمور العظام يَنْبَتُ فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تسمعوا ما أعدّه من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول ، أف تكونون كمن طرفت<sup>(١)</sup> عينه الدنيا ، وسدّت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية . ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تسمقوا إليه من ترككم الضعيف يقهر ، ويؤخذ ماله ، ما هذه المواخير<sup>(٢)</sup> المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة في النهار المبصر والعدد غير قليل ؟ ألم يكن منكم نهاية تمنع الغواة عن دلج<sup>(٣)</sup> الليل وغارة النهار ؟ قربتم القرابة وبعادتم الدين ! تعتذرون بغير العذر ، وتُعْضُونَ على المختلس . كل أمرى منكم يذب عن سفيهه صنيع من لا يخاف عاقبة ، ولا يرجو معاداً ، ما أتم بالعلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ماترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كُنُوساً<sup>(٤)</sup> في مكائس الريب . حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً . إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوّله : لين في غير ضعف وشدة في غير عنف . وإني أقسم بالله لا أخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدير ، والمطيع بالعاصي ، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم حتى يلقى الرجل منكم أخاه ، فيقول : أنج سعد فقد هلك سعيد<sup>(٥)</sup> ، أو تستقيم لي قناتكم . إن كذبة المنبر بلقاء<sup>(٦)</sup> مشهورة ، فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حات لكم معصيتي ، وإذا

- 
- (١) طرفه عن الشيء : صرفه عنه وامرأة مطروفة بالرحال منصرفة عن زوجها إليهم . وطرفت عينه الدنيا صرفته إليها وإلى زخرفها . وقيل المعنى جعلته لا يبصر شيئاً أى لا يعنى بغيرها .  
(٢) المواخير : جمع ماخور وهو بيت الريبة .  
(٣) دلج الليل : السير في أوله . والمراد مطلق السير فيه ، والكلام كناية عن التلصص .  
(٤) كنوس : جمع كانس وهو الظي يدخل كناسه . المكائس : جمع مكائس وهو الكناس .  
(٥) مثل يضرب في تتابع الشر . وأصل المثل أن ضبة بن طابحة كان له ابنان سعد وسعيد ففرت له إبل نخرجا في بغائها فوجدها سعد فردها أما سعيد فإنه ظفر به الحارث بن كعب فقتله وكان ضبة إذا رأى سوادا بالليل قال أسعد أم سعيد .  
(٦) البلق : سواد وبياض وارتفاع التججيل إلى الفخذين ، والمراد واضحة مشهورة .



سمعتموها منى فاغتمزوها في ، واعلموا أن عندى أمثالها . من نَقِبَ منكم عليه ، فأنا ضامن لما ذهب منه ، فأَيُّ ودلج الليل فإني لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، وقد أجلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر الكوفة ، ويرجع إليكم فإيأى ودعوى الجاهلية<sup>(١)</sup> فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه ، وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة : فمن غرّق قوماً غرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نقب بيتنا نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً . فكفّوا عنى ألسنتكم وأيديكم أكف عنكم يدي ولساني ولا يظهرن من أحد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كانت بيني وبين أقوام إحن<sup>(٢)</sup> ، فجعلت ذلك دبر أذني وتحت قدمي ، فمن كان محسناً فليزدد في إحسانه ، ومن كان مسيئاً فليززع عن إساءته . إني لو علمت أن أحداً قد قتلته السل من بغضى لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك له سترأ حتى يبدي لى صفحته<sup>(٣)</sup> . فإن فعل ذلك لم أناظره<sup>(٤)</sup> . فاستأنفوا أمركم ، وأعينوا على أنفسكم<sup>(٥)</sup> ، فرُبَّ مبتئس بقدمنا سيسر ، ومسرور بقدمنا سيبتئس . أيها الناس : إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خوّلنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولىنا ، فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناسحتكم لنا . واعلموا أنى مهما قصرت عنه فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجياً عن طالب حاجة ولو أتانى طارقاً لبيل ، ولا حابساً عطاء ، ولا رزقا عن إبانه ، ولا مجمرأ لكم بعثاً فادعوا الله بالصلاح لأمتكم ، فإنهم ساستكم المؤدّبون ، وكهفكم الذى إليه تأوون ومتى يصلحوا تصالحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ، ولا تدرکوا

(١) دعوى الجاهلية هي الدعوة إلى العصبية والتفاخر بها وقولهم يا فلان .

(٢) إحن : جمع إحنة وهي الحقد .

(٣) صفحة الشيء : جانبه .

(٤) أناظره : أتجهل عليه .

(٥) أى ساعدونا على قيادة أنفسكم وإخضاعها بقهركم لها وإحكام أمرها .



حاجتكم ، مع أنه لو استجيب لكم فيهم لكان شرّاً لكم . أسأل الله أن يعين كلاً على كلّ ، وإذا رأيتموني أنفذ فيكم أمراً فأنفذوه على أذلاله<sup>(١)</sup> ، وإيّم الله إن لي فيكم لصراً عي كثيرة ، فليحذر كلّ امرئ منكم أن يكون من صرعى .

فقام إليه عبد الله بن الأَهمم ، فقال : أشهد أيها الأمير ، لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب ، فقال : كذبت ذلك نبىّ الله داود صلوات الله عليه . ثم قام الأحنف بن قيس فقال : إنما الثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنّا لم نثنى حتى نبتلي ، فقال زياد : صدقت . ثم قام أبو بلال مرداس بن أمية ، وهو يهمس ويقول : أنبأنا الله بغير ما قلت . قال الله : وإبراهيم الذى وقى الأتزرُ وازرة ويزر أخرى وأنّ ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأنت تزعم أنك تأخذ البرىء بالسقيم ، والمطيع بالعاصى ، والمقبل بالمدبر . فسمعهما زياد ، ثم قال : (إنّا لا نبلغ فيك وفى أصحابك ما نريد حتى نخوض إليكم الباطل خوفاً) .

### خطبة أبي حمزة الخارجي

دخل أبو حمزة الخارجي مكة ، ( وهو أحد أساك الإباضية<sup>(٢)</sup> وخطبأهم ) ، فصعد المنبر متوكئاً على قوس له عربية ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :  
أيها الناس : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يتأخر ولا يتقدم إلا بإذن الله وأمره ووحيه . أنزل الله له كتاباً بين له فيه ما أتى وما ينفي ، فلم يكن فى شكّ من دينه ولا شبهة فى أمره ، ثم قبضه الله إليه ، وقد علم المسلمون معالم دينهم ، وولّى أبا بكر صلاتهم ، فولاه المسلمون أمر دينهم حين ولّاه رسول الله أمر دينهم . فقاتل أهل الردة وعمل بالكتاب والسنة ، فمضى لسبيله رضى الله تعالى عنه ، ثم ولّى عمر بن الخطاب

(١) أذلال : جمع ذل بالكسر أو جمع لامفرد له . والمعنى على أصله ومجراه .

(٢) نسبة إلى عبد الله بن إباض من زعماء الخوارج .



رضى الله عنه ، فسار سيرة صاحبه وعمل بالكتاب والسنة ، وجبى الفئء ، وفرض الأعطية ، وجمع الناس في شهر رمضان ، ووجد في الحجر ثمانين ، وغزا العدو في بلادهم ومضى لسبيله رضى الله تعالى عنه . ثم ولي عثمان بن عفان فسار ست سنين بسيرة صاحبيه وكان دونهما ، ثم سار في الست الأواخر بما أحبط به الأوائل ، ثم مضى لسبيله رضى الله تعالى عنه . ثم ولي على بن أبي طالب فلم يبلغ من الحق قصدا ، ولم يرفع له منارا ، ثم مضى لسبيله رضى الله تعالى عنه ، ثم ولي معاوية بن أبي سفيان لعين رسول الله وابن لعينه اتخذ عباد الله خولا<sup>(١)</sup> ، ومال الله دولا<sup>(٢)</sup> ودينه دغلا<sup>(٣)</sup> . ثم مضى لسبيله فالعنوه لعنه الله . ثم ولي يزيد بن معاوية : يزيد الحنور ، يزيد القرود ، ويزيد الفهود . الفاسق في بطنه ، المأبون في فرجه . (ثم اقتصمهم خليفة خليفة ، فلما انتهى إلى عمر بن عبد العزيز أعرض عنه ولم يذكره) ثم قال : ثم ولي يزيد بن عبد الملك ، الفاسق في بطنه ، المأبون في فرجه الذي لم يؤنس منه رشد ، وقد قال الله في أموال اليتامى : « فَإِنْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » ، فأمر أمة محمد أعظم . يأكل الحرام ، ويشرب الخمر ، ويلبس الحلة قومت بألف دينار قد ضربت فيها الأبخار<sup>(٤)</sup> ، وهتكت الأستار ، وأخذت من غير حلها . حباة عن يمينه ، وسلامة<sup>(٥)</sup> عن يساره تغنيانه حتى إذا أخذ الشراب منه كل مأخذ قد ثوبه ، ثم التفت إلى إحداها ، فقال : ألا أطير؟ نعم فطر إلى لعنة الله ، وحرىق ناره ، وأليم عذابه . أما بنو أمية ففرقة ضلالة و بطشهم بطش جبرية<sup>(٦)</sup> يأخذون بالظنة ، ويقضون

(١) الحول : العبيد والاماء وغيرهم من الحاشية لا واحد له يقال للمفرد والجمع والمذكر والمؤنث وقيل الواحد خائل .

(٢) الدولة : العقبة في المال (تبادلة) والمراد باتخاذ دولا أن يعطى هذا مرة وهذا مرة .

(٣) ادغل : ما يدخل في الأمر فيفسده ، والمراد أنهم اتخذوا دين الله وسيلة للائساد والظلم بدل أن يكون وسيلة للاصلاح والعدل .

(٤) الأبخار : جمع بشر وهو جمع بشرة وهي ظاهر جلد الانسان أو غيره .

(٥) حباة وسلامة : مغنيتان سند كرها في باب الغناء في آخر الكتاب .

(٦) الجبرية خلاف القدرية ، وقيل التسكين لحن أو هو الصواب والتعريك للازدواج .



بالهوى ، و يقتلون على الغضب ، و يحكمون بالشفاعة ، و يأخذون الفريضة من غير موضعها و يضعونها في غير أهلها ، و قد بين الله أهلها فجعلهم ثمانية أصناف ، فقال : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ » ، فأقبل صنف تاسع ليس منها فأخذها كلها . تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله .

وأما هذه الشيع فشيعة ظهرت بكتاب الله وأعلنت الفرية على الله ، لم يفارقوا الناس ببصر نافذ في الدين ، ولا بعلم نافذ في القرآن ، يتقون المعصية على أهلها ويعملون إذا ولوا بها ، يصرون على الفتنة ، ولا يعرفون المخرج منها . جفاة عن القرآن ، أتباع كهان ، يؤملون الدول في بعث الموتى ، ويعتقدون الرجعة إلى الدنيا . قلدوا دينهم رجلا لا ينظر لهم - قاتلهم الله أنى يؤفكون - . ثم أقبل على أهل الحجاز ، فقال : يا أهل الحجاز ، أتعبروننى بأصحابى ، و تزعمون أنهم شباب ، وهل كان أصحاب رسول الله إلا شباباً ؟ أما والله إنى لعالم بتناجركم فيما يضركم فى معادكم ، ولولا أشنغالى بغيركم عنكم ما تركت الأخذ فوق أيديكم . شباب والله مكهولون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم . أنضاء عبادة واطلاخ سهر ، فنظر الله إليهم فى جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، موصول كلالهم بكلالهم كلال الليل بكلال النهار . قد أكلت الأرض رؤسهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك فى جنب الله ، حتى إذا رأوا السهام قد فوسقت<sup>(١)</sup> والرماح قد أشرعت<sup>(٢)</sup> ، والسيوف قد انتضيت<sup>(٣)</sup> ، ورعدت الكتبية بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتبية لوعيد الله . ومضى الشباب منهم

(١) فوتت : ركبت فى الأقواس للرمى .

(٢) أشرعت الرماح : سددت وصوبت .

(٣) انتضيت : سات وأخرجت من أعمادها .



فُدِّمًا<sup>(١)</sup> حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخصَّبتُ بالدماء محاسن وجهه ،  
فأسرعتُ إليه سبعُ الأرض ، وانحطت إليه طيْرُ السماء ، فكُم من عين في مناقير طير  
طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكُم من كفّ زالت عن معصمها  
طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله . ثم قال : ( أَوْهَ أَوْهَ أَوْهَ ) ،  
ثم بكى ونزل .

## نماذج من كتابة هذا العصر

كتب الحجاج إلى عبد الملك في شأن عروة بن الزبير ، وكان عروة عاملاً على  
الين ، ولجأ إلى عبد الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فإنَّ لَوَذَانَ المعترضين بك وحلول الجانحين إلى  
المكث بساحتك ، واستلاتهم دَمَتْ أخلاقك ، وسعة عفوك كالعارض<sup>(٢)</sup> المبرق  
لأعدائه ، لا يعدم له شأماً<sup>(٣)</sup> ، رجاء استمالة عفوك ، وإذا أُذِنِي الناس بالصفح عن  
الجرائم كان ذلك تمريناً لهم على إضاعة الحقوق مع كلِّ ضالٍّ ، والناس عبيد العصا هُم  
على الشدَّة أشدَّ استباقاً منهم على اللين . ولنا قبلَ عُرْوَةَ بن الزُّبَيْرِ مالٌ من مال الله ،  
وفي استخراجِه منه قطع لطمع غيره ، فليبعث به أمير المؤمنين إن رأى ذلك والسلام .  
فكتب إليه عبد الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فإنَّ أمير المؤمنين رَأَى مع ثقته بنصيحتك خابطاً  
في السياسة خبط عشواء الليل ، فإنَّ رأيك الذي يسوّل لك أن الناس عبيد العصا هو  
الذي أخرج رجالا العرب إلى الوثوب عليك ، وإذا أُخْرِجَتِ<sup>(٤)</sup> العامة بعنف

(١) القدم : المضي أمام أمام .

(٢) العارض : السحاب .

(٣) الشأم : الناظر إلى البرق أين اتجه .

(٤) أخرجت : ضيق عليها .



السياسة كان أوشك<sup>(١)</sup> وثوبا عليك عند الفرصة ، ثم لا يلتفتون إلى ضلال الداعي ولا هداه ، إذا رجوا بذلك إدراك الثأر منك ، ولقد وَلِيَتِ العِراقَ قَبْلَكَ ساسَةً وهم يومئذ أحمرى أنوفاً<sup>(٢)</sup> وأقرب من عَمَمِاءِ الجَهالةِ ، وكانوا عليهم أصلح منهم عليك ، ولِلشَّدَةِ وَاللِّينِ أَهلونَ ، وَالإِفْراطُ فِي العَفْوِ أَفضلُ مِنَ الإِفْراطِ فِي العَقوبةِ ، وَالسَّلَامُ .  
وكتب الحجاج إلى قطري بن الفجاءة :

بسم الله الرحمن الرحيم . من الحجاج بن يوسف إلى قطري بن الفجاءة .  
سلام عليك ، الموحَّد اللهُ ، والمصلَى عليه مُحَمَّدٌ عليه السَّلَامُ . أما بعد ، فإنك مرَّقتَ مِنَ الدِّينِ مَروقَ السَّهْمِ مِنَ الرِّمِيَّةِ قَدْ عَلِمْتَ حِينَ تَجَرَّهْتُمْ<sup>(٣)</sup> ذَلِكَ أَنَّكَ عاصِ اللهُ ، وَلَوْلَا أَمْرُهُ ، غَيْرَ أَنَّكَ أَعْرَابِيٌّ جِلْفٌ أَمْيٌّ تَسْتَطْعِمُ الكِيسِرَةَ وَتَسْتَنفِي بِالثَّمرةِ وَالأمورَ عَلَيْكَ حَسرةً ، خَرَجْتَ لِتَنأُولَ شَعْبَةٍ ، فَلاحقَ بِكَ طَعَامٌ صَلَّوْا<sup>(٤)</sup> مَا صَلَّيْتَ بِهِ مِنَ العَيْشِ يَهزُونَ الرِّماحَ وَيَسْتَنشِئُونَ<sup>(٥)</sup> الرِّياحَ عَلى خَوْفٍ وَجَهْدٍ مِنْ أَمورِهِمْ . وَمَا أَصْبَحُوا يَنْتَظِرُونَ أَعْظَمُ مِمَّا جَهِلُوا مَعْرِفَتَهُ . ثُمَّ أَهْلَكَهُمُ اللهُ بِنَزْحَتَيْنِ<sup>(٦)</sup> ، وَالسَّلَامُ .

فأجابه قطري : من قطري بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف :  
سلام على الهداة من الولاة الذين يرعون حريم الله ويرهبون نعمة ، فالحمد لله على ما أظهر من دينه ، وأظلم<sup>(٧)</sup> به من أهل السفالة وهدى به من الضلالة ، ونصر به عند استخفافك بحقه . كتبت إلى تذكر أني أعرابي جلف أستطعم الكيسرة وأشتفي

(١) أوشك : أصرع .

(٢) أقوى غضبا .

(٣) تجرَّهْتُمْ : أخذ معظمه .

(٤) صلبى الرجل النار : قاس حرها .

(٥) استنشأ الذئب الريح : شمها . والمراد باستنشأ الريح تعرّف ماتحماله من دلالة على الحصب والغيث وذلك لما هم فيه من جهد .

(٦) النزح : استخراج ماء البئر ، والمراد هنا استفاد قوتهم بهجتين لاغير .

(٧) الظلم : العرج ، وأظلمه جعله يعرج . والمعنى أن أهل السفالة غير مستقيمين في أمورهم كما لا يستقيم الأعرج في مشيته .



بالترة ، ولعمري يابن أم<sup>(١)</sup> الحجاج إنك لميت في جبلتك ، مُطْلَخِمٌ<sup>(٢)</sup> في طريقتك ،  
واه في وثيقتك ، لا تعرف الله ولا تجزع في خطيئتك ، يئست واستيأست من ربك .  
فالشيطان قرينك لا تجاذبه وثاقتك ولا تنازعه خناقك . فالحمد لله الذي لو شاء أبرز لي  
صَفْحَتَكَ ، وأوضح لي طاعتك . فوالذي نفس قَطْرِي بيده لعرفت أن مقارعة الأبطال  
ليست كتصدير المقال . مع أني أرجو أن يُدْحِضَ<sup>(٣)</sup> الله حججتك ، وأن يُمْتَعِنِي مهجتك .

كتب عروة بن الزبير إلى الوليد بن عبد الملك يشفع لكعب بن قيس :

بسم الله الرحمن الرحيم لولم يكن لكعب من قديم حرمة ما يغفر له عظيم جريرته  
لوجب ألا تحرمه التَّهْمِيُّوْ بظلال عفوك الذي تأمله القلوب ، ولا تَتَمَلَّقُ به الذنوب ،  
وقد استشفع بي إليك ، فَوَثِّقْ له منك بعفو لا يَحْلِطُه سُخْطٌ . فحقق أمله في صدق  
نفسى فيك تجد الشكر وافيًا بالنعمة .

كتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى بعض إخوانه :

أما بعد : فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأى فيك ، وذلك أنك ابتدأتني  
بإلطف عن غير خبرة ، ثم أعقبته جفاء عن غير جريرة ، فأطمعنى أولك في إخوانك ،  
وأيأسنى آخرك من وفائك ، فلا أنا في اليوم مجمع لك اطراحا ، ولا أنا في غد وانتظاره  
منك على ثقة . فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأى في أمرك عن عزيمة الشك  
فيك ، فاجتمعنا على ائتلاف . أو افترقنا على اختلاف ، والسلام .

وكتب وهو في السجن إلى أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة يستعطفه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من الأسير في يديه بلا ذنب إليه ، ولا خلاف عليه .  
أما بعد : فأتاك الله حفظ الوصية ، ومنحك نصيحة الرعية ، وأهملك عدل القضية .  
فإنك مستودع الودائع ، ومولى الصنائع ، فاحفظ ودائعك بحسن صنائعك ، فالودائع

(١) نسبة الرجل إلى أمه كناية عن عدم معرفة أبيه : أى انه ابن زنية .

(٢) اطلختم كاطرختم : بمعنى كل بصره . والمعنى أنه ضال لا يصرهدى والصواب .

(٣) يقال دحضت الحجة : أى بطلت ، وأدحضتها أى أبطلتها .



عارية ، والصنائع مرعية . وما النعم عليك وعلينا فيك بمنزور نداها ، ولا بمبلوغ مداها .  
فنبه للتفكير قلبك ، واتق الله ربك ، وأعط من تمسك من هوتحتك ماتحب أن يعطيك  
من هو فوقك : من العدل والرأفة ، والأمن من الخافة ، فقد أنعم الله عليك بأن فوض  
أمورنا إليك ، فاعرف لنا اين شكر النعمة ، واغتفر مس الشدة ، والرضاء بما رضيت ،  
والقناعة بما هويت ، فإن علينا من سَمَك<sup>(١)</sup> الحديد وثقله<sup>(٢)</sup> أذى شديداً ، مع معالجة  
الأغلال ، وقلة رحمة العمال الذين تسهيلهم الغلظة وتيسيرهم الفظاظة ، وإيرادهم<sup>(٣)</sup> علينا  
الغموم ، وتوجيههم إلينا الهموم . زيارتهم الحراسة ، وبشارتهم الأياسة . فإليك بعد الله  
ترفع كربة الشكوى ، ونشكو شدة البلوى ، فتى تمل إلينا طرفاً ، وتولنا منك عطفاً  
تجد عندنا نصحاً صريحاً ، ووعداً صحيحاً لا يُصَيِّعُ مثلك مثله ، ولا يَنفِيْ مثلك أهله .  
فارع حرمة من أدركت بجرمته ، واعرِف حجة من فَلَجَّتْ بِجِجْتِهِ ، فإن الناس من  
حوضك رِوَاءٍ<sup>(٤)</sup> ونحن منه ظمَاءٌ . يشون في الأبراد<sup>(٥)</sup> ونحن نَحْجَلُ<sup>(٦)</sup> في الأقياد  
بعد الخير والسعة ، والخفض والدعة . والله المستعان وعليه التُّكْلَانُ . صريح الأخبار ،  
مَنْجَى الأبرار ، الناس من دولتنا في رِخَاءٍ ونحن منها في بِلَاءٍ . حين أمن الخائفون ،  
وَرَجَّعَ الهاربون رزقنا الله منك التَّجَنُّنَ ، وظاهر علينا من التَّجَنُّنِ ، فإنك أمينٌ  
مستودعٌ ، ورائدٌ مُصْطَنَعٌ ، والسلام ورحمة الله .

(١) السمك : الغلظ والثخانة .

(٢) الثقل (كعنب) : ضد الخفة ، أما الثقل (كحمل) فهو هو في المعنى .

(٣) أى مايوردونه علينا ويأتوننا به هو الغم .

(٤) رواء : جمع ريان وكذلك ظماء .

(٥) الأبراد : جمع برد ، وهو الحلة .

(٦) الحجل والحجلان : المشى المتقارب الخطأ .



## ٤ صفة الإمام العادل

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن البصرى لما ولى الخلافة . أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل ، فكتب إليه الحسن ، رحمهما الله ورضى عنهما :

أعلم يا أمير المؤمنين أن الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفه كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله الرفيق ، الذى يرتاد لها أطيب المرعى ويذودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر .  
الإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده<sup>(١)</sup> يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً ، ويكتسب لهم فى حياته ، ويدخر لهم بعد مماته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة ، البرة الرفيعة بولدها ، حملته كرهاً<sup>(٢)</sup> ووضعت كرهاً ، وربته طفلاً ، تسهر بسمه ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة ، وتقطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتعلم بشكايته . والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده . والإمام العدل يا أمير المؤمنين ، هو القائم بين الله وبين عباده يسمع كلام الله ويسمعهم ، وينظر إلى الله ويُرِيهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد أتمنه سيده واستحفظه ماله وعباله ، فبدد المال ، وشرّد العيال ، فأفقر أهله ، وفرق ماله واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الجبائث والفواحش ، فكيف بها إذا أتاها من يلبسها ، وإن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتصّ لهم . واذكري يا أمير المؤمنين

(١) الولد بالتحريك وبالضم والكسر : واحد وجمع وقد يجمع على أولاد . والكاتب هنا قد استعمله جمعاً .

(٢) الكره بالضم : الكراهة . وبالفتح المشقة وهو المراد هنا .



الموت وما بعده وقلة أشياحك<sup>(١)</sup> عنده وأنصارك عليه فتزوّد له ولما بعده من الفرع الأكبر. واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه يطول فيه ثبوتك، ويفارقك أحباؤك، ويسلمونك في قعره فريداً وحيداً، فتزوّد له ما يصحّبك يوم يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه. واذكري يا أمير المؤمنين إذا بُعِثَ ما في القبور وحُصِّلَ ما في الصدور، فالأسرار ظاهرة، والكتائب لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها. فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهلٍ قبل حلول الأجل، واقطع الأمل لا تحكّم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون في الله إلاّ ولا ذمّةً، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك، ولا يعرفنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك لا تنظرُ إلى قدرتك اليوم، ولكن أنظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسورٌ في حبال الموت وموقوف بين يدي الله في جمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنّت الوجوه للحى القيوم. إني يا أمير المؤمنين إن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهى من قبلي، لم ألك شفقة ونصحاً، فأنزل كتابي إليك كدأوى حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

## الأجوبة والمحاورات

لقد عرفت الأمة العربية منذ جاهليتها بفضل بيانها وحدة أذهانها، فكان الكلام أكبر عملهم. به عرف فصحاؤهم، وتقدّمت إلى الملوك وفودهم، وسعى سفراؤهم،

(١) الأشياح: جمع شيعه، وشيعه الرجل أنصاره يقال للواحد والجمع.



وتحدثت أنديتهم . وكان أكثر هذا القول بديهة وارتجالا لمكان الملكة فيهم ، وغلبة الطبع عليهم ، ولفطرتهم التي جعلتهم يتناولون أمورهم من قريب لا يتكفون ولا يتعمقون ، فإذا وصف أحدهم فإنما يصف من الشيء ظاهره ، وإذا حدث فإنما يصور مشاعره . وإذا عجبنا من محاوراتهم وأجوبتهم في جاهليتهم ، وراعنا منها حسن القصد ، وتمام الإيجاز ، وإصابة المعزّ وتطبيق المفصل ، فقد كانت في عصر بني أمية أدعى إلى العجب إذ بان فيها أثر الحصافة ودقة الفكر ، للعلم والحكمة اللذين أفادوهما من الإسلام . وقد طرأ على العرب ما أشعل بينهم جذوة الحوار ، وشحذ أذهانهم للجدال ، فإن الكلام في الخلافة ، وحدث الفتن منذ قتل عثمان ، إلى قيام الخوارج ، إلى انشعب الرأي بين متشيعين لعلّي ، وممالئين لمعاوية ، إلى ما كان من نقاش في الأدب ، وتفضيل لشاعر على شاعر ، كل أولئك جعل للمحاورات والأجوبة في عهد الدولة الأموية شأنًا غير شأنها قبل ذلك لعظم ما تتعلق به ، وأهمه النزاع على الملك ، أو الخلاف في الدين .

وإن أول خلاف حدث في الإسلام واستوجب الحوار هو الخلاف بين الأنصار والمهاجرين في أيهم أحق بالخلافة : هل هم القرشيون قرابة النبي وقومه ، أم أنصاره الذين آزره وأداءوا دينه ؟

ثم كان خلاف آخر يوم قتل عثمان ، يقول بنو أمية بوجوب القصاص أوّلا من قتلة عثمان ، ثم ينظر الناس في اختيار خليفة لهم ، ويرى عليّ ومن تابعه أنه لا يقيم الحدّ على القتلة إلا خليفة يتولّى جميع شئون المسلمين ، ومنها إقامة هذا الحدّ ، فخلافة عليّ التي بايعه عليها الناس ماضية يجب على جميع المسلمين الدخول فيها ، وإلا عدّوا خارجين على الجماعة .

ثم كان خلاف ثالث يوم التحكيم بين عليّ ومعاوية وظهور الخوارج الذين يخطّون عليّا في قبوله ، وهم الذين دعوه أوّلا إليه ، وقد قالوا بتكفير عليّ ، وطالبوه بالإقرار على نفسه بالكفر حتى يعودوا إلى حظيرته ، وقد ناقشهم عليّ ، وأرسل إليهم ابن عباس



يحاوهم في آرائهم ، ولكنهم كانوا معاندين ظهر لهم الحق ، ولم ينزلوا على حكمه ، وقد كثرت فرقتهم على خلاف بينهما في المعتقد : فمنهم من يكفر مرتكب الكبيرة ، ويقول إن العمل جزء من الإيمان ، ومنهم من كفر جميع المسلمين ، وحرّم أكل ذبائحهم ومصاهرتهم .

كان أوّل خروج الخوارج إلى حروراء ( قرية بقرب الكوفة ) ، وهناك أمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي ، وقد حاربهم علىّ في وقعة النهروان ، وقتل منهم كثيراً ولكنه لم ييدهم . ثم انقسموا قسمين : قسما بالعراق ، وأهمّ مراكزه « البطائح » ومن هؤلاء نافع بن الأزرق وقطرى ، وهم الذين حاربهم المهلب . وفرعا بجزيرة العرب وهؤلاء قد استولوا على اليمامة ، وحضرموت ، والطائف . ومن رؤسائهم : أبو طالت ونجدة بن عامر ، وأبو فديك .

ومما تناوله الخوارج بالبحث صحة خلافة الخلفاء ، فأقروا خلافة أبي بكر وعمر ، وستّ سنوات من خلافة عثمان ، وخلافة علىّ قبل التحكيم . ثم تناولوا شروط الخلافة فقالوا: يجب أن يكون انتخاب الخليفة باختيار حرّ ، وليس من الضروري أن يكون قرشياً . على أن منهم من قال بعدم الحاجة إلى إمام . ثم تناولوا بحوثاً دينية ، فجعلوا العمل جزءاً من الإيمان ، فن اعتقد بوحدانية الله ، ونبوة محمد ثم لم يعمل فهو كافر .

وأشهر فرقتهم : الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق ، وقد كفروا جميع المسلمين ما عداهم ، وأحلوا دماءهم وقالوا : بحرمة التقية ، ووجوب الجهاد ، وتكفير القعدة ، ( وهم الذين يدينون برأى الخوارج ، ولا يرون القتال في سبيل ذلك ) ما داموا قادرين على القتال . ومنهم النجيدات أتباع نجدة بن عامر ، ومن رأيهم أن الكذب أعظم من الزنا وشرب الخمر . ومنهم : الصفريّة أتباع زياد بن الأصفر . ومنهم : الإباضية وهم أتباع عبد الله بن إباض ، ولا يزال بعض من هؤلاء بالمغرب إلى اليوم ، وهؤلاء لم يغالوا في الحكم على مخالفيهم كالأزارقة بل قالوا بجلّ التزواج ، والتوارث بينهم وبين بقية المسلمين .



كذلك كان من الفرق الإسلامية فرق الشيعة التي كانت ترى آل البيت أولى بالخلافة من غيرهم لرحمهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن هؤلاء من غلا في تفضيل علي حتى ادعى له الألوهية .

بدأت فكرة التشيع بالقول بأن قرابة النبي أولى بميراثه الديني ، وهو ولاية أمر المسلمين ، فكان العباس وعلى أولى بالخلافة . ثم اتسع قولهم في الإمامة فقالوا إنها ركن الدين ، ولا يجوز للنبي إغفالها ، وإن محمداً عليه الصلاة والسلام أوصى لعلي ، ولذلك عرف علي عندهم بالوصي ، ثم تبع القول بذلك القول بعصمة الإمام ، ولم يكتفوا بذلك ، بل لقد ألهه بعضهم وقالوا عن علي : إنه حل فيه جزء إلهي اتحد بجسده ، وبه كان يعلم الغيب ، وقد نسبوا إليه أنه أخبر بخلافة العباسيين ، وبمقتل الحسين ، وولاية الحجاج ، ومصير الخوارج ، بل اعتقد بعضهم أنه كتب على مسك جفر ( جلد جدى ) أخبار ما يكون إلى يوم القيامة ، وأن هذا الكتاب هو الذي ظفر به ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين بالمغرب ، كما تبع ذلك أيضاً أن قالوا بالرجعة ، وقائل ذلك هو عبد الله بن سبأ فإنه قال لما قتل علي لو جئتموني بدماعه ألف مرة ما صدقت موته . وهذا القول مقتبس من قول اليهود في النبي إلياس ، ومن قول النصارى في عيسى . وعلى أساس هذه النظرية قامت أكبر فرق التشيع ، وهي « الإمامية » ، وهي على العموم تقول بعودة الإمام المنتظر .

كذلك كان من فرق المسلمين المرجئة والمعتزلة والجماعة أهل السنة . أما المرجئة فقد نشأت بعد الخوارج والشيعة ، ونواة هذه الفرقة هم الغزاة الذين عادوا إلى المدينة بعد قتل عثمان ، فوجدوا الناس قد قسموا أحزاباً ، واستمر الخلاف بينهم ، فانتحى هؤلاء ناحية ، ورأوا رأياً فيه مسالة للجميع ، فهم لا يخطئون خارجياً ولا شيعياً ، ولا أمويًا ، ويرجئون أمرهم إلى الله يوم القيامة . وقيل إن اشتقاقها من الرجاء لأنهم يرجون لكل مسلم غفران الله . وقد بحث المرجئة بعض أمور في الدين ، فقالوا : إن الإيمان هو الاعتقاد بالقلب ، وإن أعلن المرء الكفر بلسانه .



وأما المعتزلة فقد كان من أوائلهم جَعْدُ الجُهَنِيِّ ، وَغَيْلَانُ الدَّمَشْقِيُّ الَّذِي صَلَبَهُ هِشَامُ  
ابن عبد الملك ، وَيُرْوَى : أَنَّ غَيْلَانَ هَذَا رَأَى يَوْمًا رُبْعَةَ الرَّأْيِ ، فَقَالَ لَهُ : أَنْتَ الَّذِي  
تَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَعْصَى ؟ فَقَالَ لَهُ رُبْعَةٌ : وَأَنْتَ الَّذِي تَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ يَعْصَى .  
قَسْرًا ؟ وَأَهْمٌ مَا يَرَاهُ الْمُعْتَزَلَةُ الْقَوْلَ بِنَفِي الْقَدْرِ ، وَبِنَفِي صِفَاتِ اللَّهِ لِأَنَّهَا تَدْعُو إِلَى التَّشْبِيهِ .  
بِالْمَخْلُوقَاتِ ، وَنَفِي الرَّؤْيِيَةِ فِي الْآخِرَةِ ، وَقَدْ جَرَى الْخِلَافُ فِي مَسْأَلَةِ مَرْتَكِبِ الْكَبِيرَةِ ،  
فَقَالَ الْخَوَارِجُ : إِنَّهُ كَافِرٌ ، وَقَالَ أَهْلُ السَّنَةِ : إِنَّهُ مُؤْمِنٌ عَاصٍ ، وَقَالَ الْمُعْتَزَلَةُ : إِنَّهُ فِي  
مَنْزِلَةِ بَيْنِ الْمَنْزِلَتَيْنِ : لَا مُؤْمِنٌ وَلَا كَافِرٌ ، وَعَلَى أَثَرِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ رَأْسَ الْمُعْتَزَلَةِ وَأَصْلُ  
ابن عطاء لأنه اعتزل بأصحابه مجلس الحسن البصرى .

وقد فشا الجدل بين هذه الفرق فشوًّا ظاهرًا ، فقد حكى أن الخوارج في حرب  
المهلب كانوا يضعون السيف من حين إلى حين ، ويجادلون خصومهم ، ويدعون إلى  
مذهبهم ، ويحكي صاحب الأغاني : أن ثابتَ قُطْنَةَ لم يقل بالارجاء إلا بعد أن  
سمع جدال الخوارج مع المرجئة في خراسان . ويحكي أن شيعيًا ومرجئًا اختصما إلى أول  
طالع عليهما فطلع الدلال ( الخنث ) ، فقالا له : أيهما خير : الشيعي أم المرجي ؟ فقال  
ما أدري إلا أن أعلاي شيعي وأسفلي مرجي . وقد وصل هذا إلى الشعراء ، فكان  
ذو الرمة قدريا سنيا ، وكان رؤبة جبريا ( يقول بنفي استطاعة المرء ، وأنه كالريشة في  
مهبِّ الريح ) ، وأنهما اختصما ، فقال رؤبة : والله ما خص طائرًا أخصًا ، ولا تفرمص  
سبع قرموصًا إلا بقضاء الله وقدره ، فقال ذو الرمة : ما قدر الله على الذئب أن يأكل  
حلوبه عياييل ضرائك .

ويقول الراجز :

أيها المضمّر هَمًّا لَا تُهَمُّ      إِنَّكَ إِذَا تَقَدَّرَ لَكَ الْحَمَى تُحَمِّمُ  
ولو عَلَوَتْ شَاهِقًا مِنَ الْعَلَمِ      كَيْفَ تَوْقِيكَ وَقَدْ جَفَّ الْقَلَمُ



كذلك كان في هذا العصر حوار في الشعر والأدب ، فإن العناية بهما جعلت لهما  
المجالس التي يشتد فيها الخلاف حتى بلغ من احتدام الجدل والتعصب لشاعر على



شاعر إن كان للشعر فرق ، كما كان للدين فرق ، فكان أنصار الفرزدق يسمون الفرزدقيين ، وأنصار جرير يسمون الجريريين .

ولقد رويت عن شعراء بني أمية من بدائع البدائء في الشعر مثل ماروى لغيرهم في النثر ، وقد كان الخلفاء يثيرون في كثير من الأحيان هذه المحاورات ، فيأتي الشعراء بالعجب العجاب .

وإنا لنناقلون إليك من كل ما مضى أمثلة لتقف على جملتها ، وترك التفاصيل إلى ما تفرق في كتب الأدب تعثر عليه في مطالعتك .

## أمثلة من المحاورات والأجوبة

١ - يقول الطبري : خرج القوم مع عليّ إلى صفين ، وهم متوادون فرجعوا متباغضين أعداء ما برحوا معسكرهم بصفين حتى فشا فيهم التحكيم<sup>(١)</sup> ، ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق ويتشائمون ، ويضطربون بالسياط . يقول الخوارج : يا أعداء الله ،

(١) لما رأى معاوية رجحان كفة عليّ بصفين استشار عمرو بن العاص فأشار عليه أن يرفع المصاحف على الرماح فلما رآها أصحاب عليّ قالوا ما هذا ؟ فقال أصحاب معاوية نحكم بيننا وبينكم كتاب الله فأدرك عليّ مرمى الخديعة في هذا ولكن أصحابه لم يسمعوا لقوله وقالوا لا يطلب منا تحكيم كتاب الله ثم نرفض ذلك فقبل على التحكيم واختير من رجال عليّ أبو موسى الأشعري ، ومن رجال معاوية عمرو بن العاص . واتفق الحكماء على خلع الخليفين وترك الأمر للامة فتقدم أبو موسى وقال أيها الناس انا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصحح لأمرها وألم لشعها من أمر قد أجمع عليه رأي ورأي عمرو وهو أن نضع عليا ومعاوية وتستقبل الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا وإني قد خلعت عليا ومعاوية فاستقبلوا أمركم . ثم تنحى وأبيل عمرو فقام مقامه ثم قال قد سمعتم مقال هذا وإنه قد خلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأقر صاحبي معاوية فانه وليّ عثمان والمطالب بدمه وأحق الناس بمقامه . وكان عقد التحكيم قد أمضى في ١٥ صفر سنة ٣٧ هـ وأجل الحكماء إلى رمضان .



أدهنتم في أمر الله وحكمتم ، ويقول الآخرون : فارقتم إمامنا ومزقتم جماعتنا . فلما دخل على الكوفة لم يدخلها معه الخوارج وأتوا حروراء ، فبعث إليهم على عبد الله بن عباس ، فقال ما نقتم من الحكمين ، وقد قال الله عز وجل : « إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا » ، فكيف بأمة محمد صلى الله عليه وسلم . فقالوا له : أمّا ما جعل حكمه إلى الناس وأمر بالنظر فيه والإصلاح له ، فهو إليهم كما أمر به . وأمّا ما حكم فأمضاه ، فليس للعباد أن ينظروا فيه ، فإنه حكم في الزاني مائة جلدة ، وفي السارق بقطع يده ، فليس للعباد أن ينظروا في هذا . قال ابن عباس : فإن الله عز وجل يقول : « يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ » ، فقالوا له : أو نجعل الحكم في الصيد والحديث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين ، ثم قالوا : إن هذه الآية بيننا أعدل . عندك ابن العاصي بالأمس يقاتلنا ويسفك دماءنا ، فإن كان عدلا فلسنا بعدول ، وقد أمضى الله الحكم في معاوية وحزبه أن يقتلوا أو يرجعوا ، وقبل ذلك مادعوناهم إلى كتاب الله فأبوه ، ثم كتبتم بينكم وبينهم كتابا ، وجعلتم بينكم وبينهم المودعة والاستفاضة ، وقد قطع الله الاستفاضة والمودعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت « براءة » إلا من أقر بالجزية . ثم حضر على المجلس ، فسألهم ما أخرجكم علينا ، فقالوا : حكومتكم يوم صفين ، فقال : أنشدكم الله ، ألسنت نهيتكم عن قبول التحكيم ، فرددتم على رأيي ، ولما أبيتتم إلا ذلك ، اشترطتم على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ، وأن يميتا ما أمات القرآن ، فإن حكما بحكم القرآن ، فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما في القرآن ، وإن أيبا فنحن من حكمهما براء . قالوا له : خبرنا أتراه عدلا تحكيم الرجال في الدماء ؟ قال : إننا لسنا حكمتنا الرجال وإنما حكمتنا القرآن قالوا : خبرنا عن الأجل ولم جعلته بينك وبينهم ؟ قال : ليعلم الجاهل ، ويتثبت العالم ، ولعل الله يصلح في هذه الهدنة هذه الأمة ، وانتهى الأمر بأن طلبوا من علي الحكم على نفسه بالكفر وأن يتوب ، فيعودوا إليه فلم يقبل علي . . انتهى حديث التحكيم .



٢ - قال معاوية لابن الزبير تنازعتني هذا الأمر كأنك أحقّ به مني . قال : لم لا أكون أحقّ به منك يا معاوية ، وقد اتبع أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإيمان ، واتبعت الناس أباك على الكفر ، فقال : غلطت يا ابن الزبير بعث الله ابن عمي نبياً فدعا أباك فأجابته ، فما أنت إلا تابع لى ضالاً كنت أم مهدياً .

٣ - جلس يوماً عبد الملك بن مروان ، ومعه خالد وأمّية ابنا عبد الله بن الوليد وأدخلت عليه الأموال التي جاءت من عند الحجاج ، فقال : هذا والله التوفير ، وهذه الأمانة لا ما فعل هذا ، وأشار إلى خالد . استعملته على العراق ، فاستعمل كل ملط<sup>(١)</sup> فاسق فأدّوا إليه العشرة واحداً ، وأدّى إلينا من العشرة واحداً . واستعملت هذا على فارس ، ( وأشار إلى أمّية ) ، فأهدى إلى بردونين حطمين<sup>(٢)</sup> . فإن استعملتكم ضيعتم ، وإن عزلتكم قلتم استخفّ بنا وقطع أرحامنا ، فقال خالد : استعملتني على العراق وأهله رجلان سامع مطيع مناصح ، وعدوّ مبغض كاشح ، فأما السامع المطيع المناصح ، فإنما جزيناه ليزداد ودّاً إلى ودّه . وأما المبغض الكاشح فإنما واريناه ضعفه وسللنا حقه ، وكثرنا لك المودّة في صدور رعيتك . وإن هذا جبي الأموال ، وزرع لك البغضاء في قلوب الرجال ، فيوشك أن تنبت البغضاء ، فلا أموال ولا رجال . فلما خرج ابن الأشعث قال عبد الملك : هذا والله ما قال خالد .

٤ - أتى الحجاج بامرأة من الخوارج ، فقال لأصحابه : ما تقولون فيها ؟ قالوا : عاجلها القتل . قالت الخارجية : لقد كان وزراء صاحبك خيراً من وزرائك ، فقال لها : ومن صاحبني ؟ قالت : فرعون استشارهم في موسى ، فقالوا : أرجى وأخاه .

٥ - تكلم الناس عند معاوية في يزيد ابنه ، إذ أخذ له البيعة وسكت الأحنف ، فقال له : مالك لا تقول يا أيما بحر ؟ قال . أخافك إن صدقت ، وأخاف الله إن كذبت .

(١) الملط : الخبيث لا يرفع إليه شيء إلا سرقة .

(٢) الحطم : المتكسر في نفسه (الضعيف) .



٦ — قال معاوية لعقيل بن أبي طالب : إن علياً قطعك ووصلتك ، ولا يرضيني منك إلا أن تلعنه على المنبر . قال : أفعل ، فصعد المنبر ثم قال : أيها الناس ، إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن علياً فالعنوه ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ثم نزل ، فقال له معاوية : إنك لم تبين من لعنت . قال : والله لازدت حرفاً ، ولا نقصت آخر ، والكلام على نية المتكلم .

٧ — قال معاوية لابن الطفيل : أنت من قتلة عثمان ؟ قال : لا ، ولكني ممن حضره ولم ينصره . قال : فما منعك أن تنصره ؟ قال : لم ينصره المهاجرون والأنصار فلم أنصره ؟ قال : لقد كان حقه واجباً ، وكان عليهم أن ينصروه . قال : فما منعك من نصرته يا أمير المؤمنين وأنت ابن عمه ؟ قال : أو ما طلبى بدمه نصرته له ، فضحك ابن الطفيل وقال : مثلك ومثل عثمان ، كما قال الشاعر :

لَأَعْرِفَنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ تَنْدُبِي      وَفِي حَيَاتِي مَارُودَتِي زَادِي

٨ — قال مسلمة بن عبد الملك يوماً لنصيبة : أمدحت فلانا ؟ قال : نعم . قال : أو حرمك ؟ قال : فعل . قال : فهلا هجوته ؟ قال : لم أفعل . قال : ولم ؟ قال : لأنني كنت أحق بالهجاء منه ، إذ رأيتُه موضعاً لمدحي ، فأعجب به مسلمة ، وقال : سلني . قال : لا أفعل . قال : ولم ؟ قال : لأن كفك بالعطية أجود من لساني بالمسألة ، فوهب له ألف دينار .

٩ — اجتمع الفرزدق وجريز عند عبد الملك ، فقال الفرزدق : النّوّار طالق ثلاثاً إن لم أقل شعراً لا يستطيع ابن المراغة<sup>(١)</sup> أن ينقضه أبداً ولا يجد في الزيادة عليه مذهباً ، فقال عبد الملك : ما هو ؟ قال :

فإني أنا الموتُ الذي هو واقعٌ      بنفسيك فانظر كيف أنت مزاوله

(١) المراغة في الأصل الأتان لاتمتع الفجولة عن نفسها . وقد سمي الفرزدق أم جريز المراغة تشبيهاً لها بتلك الأتان : أي انها مراغة للرجال ، وقيل سميت المراغة لأنها ولدت في مراغة الابل وهي مكان تمرغها وهذا كناية عن الحسة وأنها من الإماء خدام الابل ورعاتها .



وَمَا أَحَدٌ يَا بْنَ الْأَتَانِ بَوَائِلٍ مِنْ الْمَوْتِ إِنْ الْمَوْتُ لَأَشَكَّ نَائِلُهُ

فأطرق جرير قليلا ، ثم قال : أم حزره طالق ثلاثا إن لم أكن نقضته وزدت عليه ، فقال عبد الملك : هات ، فقد والله طلق أحدا كما لا محالة ، فأُشَد :

أَنَا الْبَدْرُ يَغْشَى نُورَ عَيْنَيْكَ فَالْتَمَسْ  
بِكَفِّكَ يَا بْنَ الْقَيْنِ هَلْ أَنْتَ نَائِلُهُ  
أَنَا الدَّهْرُ يَفْنَى الْمَوْتَ وَاللَّهْرُ خَالِدٌ  
فَجِئْتِي بِمِثْلِ الدَّهْرِ شَيْئًا يُطَاوِلُهُ

فقال عبد الملك : فضلك والله يا أبا فراس وطلق عليك ، فبانث التوار من الفرزدق ، وندم عليها ، فقال :

نَدِمْتُ نَدَامَةَ الْكُسْعِيِّ لَمَّا غَدَتَ مِنِّي مُطَلَقَةً نَوَارُ (١)  
وَكَانَتْ جَنَّتِي فَخَرَجْتُ مِنْهَا كَادِمَ حِينٍ أَخْرَجَهُ الضَّرَارُ

١٠ - اجتمع جرير والفرزدق والأخطل في مجلس عبد الملك ، فأحضر بين يديه كيسا فيه خمسمائة دينار ، فقال لهم ليقل كل منكم بيتا في مدح نفسه ، فأيكم غلب ، فله الكيس ، فبدأ الفرزدق ، فقال :

أَنَا الْقَطِرَانُ وَالشُّعْرَاءُ جَرَبِي وَفِي الْقَطِرَانِ لِلْجَرَبِيِّ شِفَاءُ

فقال الأخطل :

فَأَنْ تَكُ زِقَّ زَامِلَةٍ فَأَيُّ أَنَا الطَّاعُونَ لَيْسَ لَهُ دَوَاءُ (٢)

فقال جرير :

أَنَا الْمَوْتُ الَّذِي آتَى عَلَيْكُمْ فَلَيْسَ لِهَارِبٍ مِنِّي نَجَاءُ

(١) الكسعي أعرابي كانت له قوس فرمى بها ليلا ووطن أنها لم تصب فاغتاظ وحطمها فلما أصبح وجدها قد أبلت أحسن بلاء فندم على تحطيمها وقال :

ندمت ندامة لو أن نفسي تطاوعني إذا لقطعت خمسي  
تبين لي سفاه الرأي مني لعمر أيبك حين كسرت قوسي

(٢) الزق : السقاء من جلد ! الزاملة : الناقة أو غيرها : يحمل عليها .



فقال عبد الملك : فلعمرى إن الموت يأتي على كل شيء .

١١ — دخل إياسُ الشام وهو غلام ، فتقدم خصما له ، وكان خصمه شيخاً ، إلى بعض قضاة عبد الملك ، فقال له القاضى : أتتقدم شيخاً كبيراً ؟ قال : الحقُّ أكبر منه . قال : اسكت . قال : فمن ينطق بحجتي ؟ قال ما أراك تقول حقاً حتى تقوم . قال : لا إله إلا الله . أحقُّ هذا أم باطل ؟ فقام القاضى من فوره ودخل على عبد الملك فأخبره بالخبر ، فقال له : اقض حاجته وأخرجْه من الشام لا يُفسد على أهلها .

١٢ — روى المبرّد قال : « يروى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية أتى أخاه خالداً ، فقال : يا أخى . لقد هممت اليوم أن أفتك بالوليد بن عبد الملك ، فقال خالد : بئس والله ما هممت به فى ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين . فقال : إن خيلى مرّت به فعبيت بها وأصغرنى ، فقال خالد : أنا أكفيك . فدخل خالد على عبد الملك والوليد حاضر ، فقال يا أمير المؤمنين : الوليد بن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين مرّت به خيلى ابن عمه فعبيت بها وأصغره ، وعبد الملك مطرق ، فرفع رأسه فقال : « إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَظَ أَهْلِهَا أُذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » ، فقال خالد : « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا » ، فقال عبد الملك : أفى عبد الله تكلمنى ؟ والله لقد دخل على . فما أقام لسانه لحناً ، فقال خالد : أفعلى الوليد تعول ؟ قال عبد الملك : إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان . فقال خالد : وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالد ، فقال له الوليد : اسكت يا خالد ، فوالله ما تعدّ فى العير ولا فى النّفير فقال خالد : اسمع يا أمير المؤمنين . ثم أقبل عليه وقال : ويحك فمن فى العير والنّفير غيرى : جدّى أبو سفيان صاحب العير ، وجدى عُتبة بن ربيعة صاحب النّفير . ولكن لو قلت غنيّاتٌ وحبيباتٌ ، ورحم الله عثمان لقلنا صدقت .

يشير بذلك إلى ما كان من إطراد رسول الله للحكم بن العاص جدّ عبد الملك



ابن مروان ولجؤه إلى الطائف ، فكان يرعى غنيمات ، ويأوى إلى حُبيلة ، وهي الكرمة حتى ولّى عثمان فردّه . ويقال : إنه كان استأذن رسول الله في ردّه إذا ولي أمر المسلمين . روى ذلك الفقهاء . » ( . )

## الشعر في العصر الأموي

عرفت مما قدمنا كيف كان شأن الآداب في العصر الأموي ومبلغ عناية الخلفاء بها ومقدار مساهمتهم فيها وتشجيعهم عليها ، حتى باتت الجوائز وفقاً على البراعة فيها ، كما دارت مجالس سمرهم عليها ، ولما كان الشعر عروس الآداب عند العرب كان له في هذه الدولة أرفع مكانة وأجل خطر .

وترجع العناية الخاصة بالشعر إلى شدة تأثيره في الجماهير وذيوعه في الأنديّة ، فجعله خلفاء هذه الدولة وسيلة لإذاعة محامدهم ، وتأييد سلطانهم ، وتقخيم شأنهم كما اتخذوه أداة للتفريق بين القبائل ، فأباحوا المهاجاة بل أوعزوا بها وحموا المعتدى فيها . وإن شيوع التغني بالشعر في هذا العصر ضاعف من شأنه وقوى من تأثيره ، فزاد الحرص عليه ، والتماس الفائدة من ورائه .

وقد كان للعبية التي أحيها رجال هذه الدولة أثر كبير في شيوع الشعر ، فإن القبيلة عادت تحتاج إلى شاعر يذود عنها ، ويذيع محامدها ، ويردّ على مناوئها كما كانوا يجعلون شاعرهم رسولهم إلى الخليفة ، فإن حلّ من قلبه ورضى عنه عدت القبيلة ذلك سموا المكاتبة ووسيلة لداتها . أما الخليفة فكان يعمد إلى شاعر القبيلة إن عناه أمرها فيجزل عطاءه ليجمع قلوب القبيلة حوله ويجعلهم عوناً .

واستتبع التعصبُ لبني أمية من كلِّ من ناله خيرهم وشمله برّهم أن يتعصب عليهم من لم يصب مثل ذلك منهم ، أو كان له هوى مع مناوئهم ، وهم كثيرون : من خوارج ، وشيعة ، ومهاجرين ، يرون لأنفسهم سبقاً إلى الإسلام يجعلهم أولى بالخلافة منهم .



وليس يخفى أن الشعر وهو مرآة الأمة ظهر فيه في هذا العصر ما بان في حياة الأمة من تهاون بأمر الدين . فشاع الغزل ووصفت الحجر ، وأخش في الهجاء .  
هذا مجمل شأن الشعر في هذه الدولة ، وهو قول سنفصله فيما يلي عند تناول كل شأن من شؤنه .

## العناية بالشعر

كانت العناية بالشعر في هذا العصر متعددة المناحي . فعناية من الخلفاء بموضوعه ، وحرص على روايته ، وعقد مجالس لدراسته والتحكيم بين قائله ، ثم عناية منهم أيضاً بقائله وجود عليهم وترفيه لحالمهم ، وقد سنّ الخلفاء في ذلك سنة عابها عليهم كل ورع تقى ، وتلك هي فرض أعطية للشعراء من بيت المال ، وهو وقف على المجاهدين في سبيل الله ، ومن ذكرهم الله في آية الفء ، وليس منهم هؤلاء الشعراء . ولقد أجاب الخلفاء بهذا المال دواعي الأريحية عند ما كان يعجبهم من شاعر مبالغة في مدحهم أو هجاء لأحد أعدائهم ، وقد كان ذلك منهم جوداً دلّ على رغبة في إظهار عظمة الدولة وواسع غناها . ولقد استمرّ هذا البذل حتى ولّى الخليفة الورع عمر بن عبد العزيز ففجع الشعراء في آمالمهم ، وقد وقفوا ببابه عند توليته حتى طال بهم الوقوف ، فكلمه في شأنهم عدى ابن أرطاة ، وكان أثيراً عنده ، فقال له : إن الشعراء بيا بك ، وأقوالهم باقية ، وأسنتهم مسنونة . قال يا عدى : مالى وللشعراء ؟ قال يا أمير المؤمنين إن النبي صلى الله عليه وسلم قد مدح وأعطى ، وفيه أسوة لكل مسلم . ثم سأله عنم بالباب من الشعراء ، فجعل كلما ذكر له شاعراً عدّ عليه من قوله ما يفسقه به أو يكفره ولم يأذن إلا للجرير ، فلما مثل بين يديه ، قال له : اتق الله يا جرير ، ولا تقل إلا حقاً ، فأنشأ يقول :

كم باليامة من شعثاء أرملةٍ      ومن يتيمٍ ضعيفٍ الصّوتِ والبصرِ (١)

(١) الأرملة : من فقدت زوجها مع الفقر خاصة أو ليس هذا شرطاً .



من يمدك تكفى فقد والده  
يدعوك دعوة ملهوف كان به  
خليفة الله ماذا تأمرن بنا  
مازلت بعدك في هم يورقني  
ما ينفع الحاضر المجهود بادينا  
إنا لئرجو إذا ما الغيث أخلفنا  
أتى الخلافة إذ كانت له قدراً  
هذى الأرامل قد قضيت حاجتها  
قال : يا جرير ، والله لقد وليت هذا الأمر وما أملك إلا ثلاثئة ، فإتة أخذها عبد الله ،  
ومائة أخذتها أم عبد الله ، يا غلام أعطه المائة الباقية ، فقال : يا أمير المؤمنين إنها  
لأحب مال كسبته إلى ، ثم خرج وهو يقول : خرجت من عند أمير المؤمنين يعطى  
الفقراء ، ويمنع الشعراء ، وإني عنه لراض ، ثم أنشأ يقول :  
رأيت رقى الشيطان لا تستفرزه وقد كان شيطاني من الجن راقيا  
لكن الحال بعد هذا الخليفة عاد إلى ما كان عليه . فاتصلت للشعراء أرزاقهم ، وجلس  
الخلفاء لسماع المديح ، وفتحوا بيت مال المسلمين لصلة الشعراء .  
وقد تبع عناية الخلفاء بالشعراء أن اعتنى به قائلوه ، فبالغوا في تجويده ليناوا على  
قدر ذلك منزلة ومالا وأقبلوا عليه يحاولونه ويتخرجون فيه ليناوا الغنى به . وكان منتهى  
أمل البدوى أو المتأدب أن ينبغ في الشعر حتى يقدم به على أمير أو خليفة ، فيعود  
بالحقائب البجر من عطائه .  
وكان من الشعراء من شغلهم فكرة غلبت على الرغبة في المال فلم يقولوا الشعر  
يلتمسون به عطاء وعابوا على المتورطين في هذا من الشعراء كما فعل عمران بن حطان ،  
فقد وقف على الفرزدق ، وهو ينشد شعره ، فقال له :

(١) في رواية النشر والنشرة : التوبة .

(٢) لسنا إليكم : أى واصلين . منتظر : انتظار . (٣) الحضر : ضد البادى .

(٤) لا يقال رجل أرملة وإنما هو وصف خاص بالمرأة إلا أن يشاء الشاعر أن يتظرف كما فعل جرير



أيها المادح العبادَ ليعْطَى إن الله ما بأيدي العباد  
فاسأل الله ما طلبت إليهم وأرجُ فضل المقسم العواد  
لا تقل للجواد ما ليس فيه وتسمم البخيل باسم الجواد

وعمرانُ هذا هو الذي آلى على نفسه ألا يكذب في شعره ، فقالت له امرأته يوماً  
أما حلفت أنك لا تكذب في شعر؟ قال : أو كان مني ذاك؟ قالت : نعم . قلت :  
فكذلك مجزأة بن ثور كان أشجع من أسامة  
أ يكون رجل أشجع من أسد؟ فقال لها : ما رأيت أسداً فتح مدينة قط ، ومجزأة  
ابن ثور قد فتح مدينة .

وقد لظمت من ذلك عناية ثالثة ، وهي عناية جمهور الناس بالشعر وميز طيبه من  
خبثه ، والحكم لمجيد على مقصر ، لما رأوا من اشتغال الخلفاء به ، وأنه صار وسيلة  
الغنى ومفتاح الثروة ، وفعّلوا ذلك أيضاً لمكان العصبية فيهم فكل قبيلة تتعصب  
لشاعرها ، وكل حزب يغلب بشأن لسانه ، فكانوا يجتمعون في الأسواق ، فيفتاخروا أو  
يتهاجى الشعراء ، ويتعصب الأشياع حتى ينتهي بهم الأمر إلى التجاليد بالسيف أحياناً  
كما كان يحصل بين شبيعة سديف ، وشبيعة شبيب ، فيخرجون إلى ظاهر مكة للمفاضلة  
التي ربما انتهت بالاستياف . وبلغ أن أشياع الشاعر يُنسبون إليه ، فيقال : جرير يون  
وفرزدقيون ، وسديفيون ، وشبيليون .

و بلغ من شأن الشعر أن امرأة خافت هجاء الفرزدق على نفسها حين تناول قومها  
بني جعفر بن كلاب ، فعادت بقبر أبيه ، فلم يذكر لها اسماً ولا نسباً ، وإنما قال :  
عجوز تصلى الحس عادت بغالب فلا والذي عادت به لا أضرها  
ومن تأثيره أيضاً : أنه لما ولي الحجاج تميم بن زيد السند دخل البصرة ، فجعل يخرج معه  
من أهلها من شاء ، فخرج معه ابن لعجوز ، فجاءت إلى الفرزدق وقالت : إني استجرت  
بقبر أبيك ، وأنت بمحصباته منه ، فقال لها : ما شأنك؟ قالت : خرج تميم بن زيد  
بابن لي ، ولا قرّة لعيني ، ولا كاسب لي غيره . فقال لها : ما اسم ابنك؟ قالت :  
خُنيس ، فكتب إلى تميم :



تميم بن بدر لا تكونن حاجتي      بظهر فلا يعيها على جوابها  
وهب لي خنيساً واحتسب فيه منة      لعبرة أم مايسوع شرابها  
أتنتى فعاذت يا تميم بغالب      وبالخفرة السافى عليها ترابها  
وقد علم الأقوم أنك ماجد      وليث إذا ما الحرب شب أوارها

فلما ورد الكتاب على تميم اشتبه في الاسم أحنيس أم حبيش ، فقال : انظروا من له  
مثل هذا الاسم في عسكرنا ، فأصيب ستة مابين خنيس وحبيش ، فأعيدوا إلى أهلهم .

### أسلوب الشعر ومعانيه

لا نستطيع أن نحكم على أسلوب الشعر في هذا العصر حكماً واحداً ينطبق عليه جملة ،  
فإن عوامل كثيرة أثرت فيه فظهر لكل عامل أثره . فمن تلك العوامل القرآن وحديث  
رسول الله يدعو إلى إسجاح القول ، وتزويق حاشيته ، ويهدان في عنجهية الجاهلية  
ومكاثرتها بالاغراب لأنهما حقاً للناس أن البلاغة قد تنهى في سمو ، وهي بعيدة  
كل البعد عن تلك الوحشية والعنجهية ، فكان من شأن القرآن والحديث أن يكون  
لأسلوبهما أنصار من شعراء هذا العصر .

كذلك كان من تلك العوامل ماجد في هذا العصر خاصة من غرام بالجاهلية ،  
وإحياء لآدابها ودراسة لما روى عن شعرائها ، فكان ذلك جديراً أن يترك في النفوس  
ميلاً إلى نزعة الجاهليين في قولهم بعد أن صرفهم الإسلام عنها .

كذلك كان لمعيشة البادية شأن غير سكنى الحضر ، فالبدوى في الإسلام هو هو  
في الجاهلية لم تختلف أمام عينيه مناظر الحياة ، ولا تبدل أسلوب المعيشة ، اللهم إلا مانال  
نفسه من تهذيب لدخوله الدين ، وتأدبه بمجمل آدابه ، وقراءته ما تيسر من قرآنه .  
أما الحضري : فهو يعيش في رغد العيش ، ويرى مناظر الحياة وآثار المدنية ، ويدرس  
الدين ، ويسمع الوعظ ، ويتلقى الحديث ، ويحفظ القرآن ، ويفهم معناه .



ويعتبر من مزايا العصر الأموي في الشعر الإكثار من الأراجيز، فإنها بعد أن كانت قليلة لا يقول منها الأعرابي في العصر الجاهلي إلا المقطوعات القصيرة في وصف ظبي أو ثور وحشي، صاروا في هذا العصر يطولونها ويستخدمونها في أغراض الشعر من مدح ونحو وهجاء ورثاء، ونشأ من كبار الرُّجَّاز أبو النجم العجلى والعجاج وابنه رؤبة.

هذه هي العوامل التي نعزو إليها اختلاف الأسلوب في شعر هذا العصر، فترى شاعراً متوعراً لأنه انتطع إلى البادية لم يرم منها، ولم يشهد للحضارة موقفاً يكون له في نفسه أثره، كما نرى آخر سهلاً يكاد يسيل عدوبة ورقة لما أثرت فيه الحضارة وأفاده التثقيف.

فيحسن في الحكم على أسلوب الشعر في هذا العصر أن نقول إجمالاً: إن فيه النزعتين نزعة الإسلام والجاهلية، ثم نحكم على الشعراء أحكاماً مناسبة لكل شاعر على حسب ما هيأته بيئته التي أحاطت به، فإنه ليس من الحكمة أن نجتمع بين عمر ابن أبي ربيعة والفرزدق مثلاً في قرن، ونطلق عليهما قولاً واحداً، وهما من التباين في الأسلوب بحيث لا ياتقيان، والفرزدق هذا هو الذي كان مغرماً بالغريب يتبعه حتى قال أهل النقد: إنه أحياناً ثلث اللغة في شعره.

أما معاني الشعر فإن عمدة الشعراء فيها على معاني أهل الجاهلية لم يزدوا عليها شيئاً كثيراً، وإن كانوا في إيرادها قد توخوا ما لم يستطعه الجاهلي من ترتيب الفكرة كما أنهم أكثروا من الحكمة والمثل، وتوسعوا في المعاني بما أفادهم الإسلام وما توالى على نظرهم من مظاهر الحضارة لمن عاش في المدن. أما من عاش في البادية فقد بقيت معانيه هي معاني الجاهلية لم يتزحزح عنها كذى الرمة مثلاً وقف عليه الفرزدق وهو في إبله ينشد الشعر، فقال له: كيف ترى ما تسمع يا أبا فراس؟ قال: ما أحسن ما تقول. قال: فإلى لا أذكر مع الفحول؟ قال: قصر بك عن غايتهم بكاؤك في الدمن، ووصفك الأبعاد والعطن.



على أن من شعراء هذه الدولة من كان أعجمي المولد ، والنشأة كزياد الأعجم أصله من أصبهان ، وأبي العباس الأعمى ، وموسى شهوات ، فإن أصلهما من أذربيجان ، ولا شك أن هؤلاء قالوا الشعر العربي متأثرين بعقيلتهم الفارسية .

ولشعراء هذا العصر معان لم يعرفها الجاهليون ولا الإسلاميون ، لأنها إنما كانت نتيجة الحضارة والانغماس في الترف ، فقد أكثر الوليد بن يزيد من وصف الخمر ، وأتى فيها بما كان مستعمداً أبي نواس فيما توسع فيه بعد من وصفها ، ومن قول الوليد فيها :

مِنْ قَهْوَةٍ زَانَهَا تَقَادُمُهَا      فَهِيَ عَجُوزٌ تَعْلُو عَلَى الْحَقَبِ  
فَهِيَ بَغَيْرِ الْمَزَاجِ مِنْ شَرِّرٍ      وَهِيَ لَلْمَزْجِ سَائِلُ الذَّهَبِ

## أغراض الشعر

أكثر أغراضه في هذا العصر هي أغراضه في العصر الجاهلي مع التوسع في كل غرض لما صاروا إليه من كثرة في معانيهم ، وزيادة في مادة لغتهم وحضارة عاشوا فيها . ولأسباب خاصة بهذا العصر كان بعض الأغراض يطغى طغياناً زائداً ، على ما فصله في الكلام عن كل غرض وحده .

أما الأغراض التي كانت في هذا العصر ولم تكن في الجاهلية ، فهي ما أحدثه الإسلام خاصة من القول في الزهد ، و بيان العقيدة ، و وصف البلاد المفتوحة ، و تناول السياسة بوصف جور الحكام ، و التعريض باغتصاب الخلافة ، و ذكر مناقب المبعدين عنها من مستحقها ، وإطراء زهدهم ، ورتاء قتلاهم .

وسنذكر فيما يلي أغراض الشعر التي أكثر تداولها في هذا العصر ، ونفصل القول فيها مع قياسها بما كان منها قبل ذلك .



## النسيب<sup>(١)</sup>

لا شك أن النسيب وهو وصف المرأة والتمدح بمحاسنها ، وذكرا ما يقع بينها

(١) الرأى عندى أنه لافرق بين: التغزل، والغزل، والنسيب، والتشبيب، ويؤيد قولنا ماورد فى كتب اللغة قال فى لسان العرب : الغزل حديث الفتيان والفتيات . وهو عن ابن سيده : اللهو مع النساء . والتغزل التكلف لذلك . وأقول ان تغزل الغزل من الحديث إلى حكايته ومن اللهو إلى الحديث عنه فى الشعر مجاز سهل المأخذ .

وفى اللسان أيضا « نسب بالنساء ينسب : شب بهن فى الشعر وتغزل .

وشب بالمرأة قال فيها الغزل . والنسيب هو أن يشب بها: أى ينسب . والتشبيب : النسيب بالنساء » كما يؤيده قول ابن رشيق فى العمدة : النسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد . أما قوله : « والغزل إلم النساء والتخلق بما يوافقهن وليس مما ذكرته ( يريد النسيب والتغزل والتشبيب ) فى شىء ، فمن جعله بمعنى التغزل فقد أخطأ ، وقد نبه على ذلك قدامة وأوضحه فى كتابه نقد الشعر » .

وقد بنا لك سابقا مايصح أن يكون قد جرى على كلمة غزل وتغزل من التجوز الذى صاروا فيه بمعنى قول الشعر فى حديث النساء والسكف بهن .

ونقل لك هنا عبارة قدامة فى الكلام عن النسيب قال .

نعت النسيب . أقول إن كثيرا من الناس يحتاج إلى أن يعلم أولا ما النسيب ؟ ، ونحن نحمده فنقول : ان النسيب ذكر خلق النساء وأخلاقهن وتصرف أحوال الهوى به معهن . وقد يذهب على قوم أيضا موضع الفرق بين النسيب والغزل ، والفرق بينهما أن الغزل هو المعنى الذى إذا اعتنقه الانسان فى الصبوة إلى النساء نسب بهن من أجله فكأن النسيب ذكر الغزل والغزل المعنى نفسه ، والغزل إنما هو التصانى والاستهتار بمودات النساء ، ويقال فى الانسان إنه غزل إذا كان متشكلا بالصورة التى تليق بالنساء وتجانس موافقاتهن لحاجته بالوجه الذى يجذبهن إلى أن يملن إليه ، والذى يميلن إليه هو : الشمائل الحلوة ، والمعاطف الطريفة ، والحركات اللطيفة والكلام المستعذب والمرح المستغرب . ويقال لمن يتعاطى هذا المذهب من الرجال والنساء متشاج ، وأما هو متفاعل من الشجى : أى منسبه عن قد شجاه الحب .

واذ قد بان أن الذى قلناه على ما قلناه فيجب أن يكون النسيب الذى يتم به الغرض هو ماكثر فى الأدلة على التمالك فى الصبابة ، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة وما كان فيه من التصانى والركة أكثر مما يكون من الحشن والجلادة ، ومن الحشوع والذلة أكثر مما يكون فيه من الإباء والغز ، وأن يكون جماع الأمر فيه ماضدًا التحافظ والعزيمة ووافق الانحلال والرخاوة فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض ، وقد يدخل فى النسيب التشوق والتذكر لمعاهد الأحبة بالرياح الهابطة ، والبروق اللامعة ، والحائم الهانفة ، والحيلالات الطائفة ؛ وآثار الديار العافية ، وأشخاص الأطلال الدائرة ، وجميع ذلك إذا ذكر احتيج أن تكون فيه أدلة على عظيم الحسرة ومضى الأسف والمنازعة .



وبين المغرم بها من لقاءٍ وتحيةٍ وحديثٍ ، والشكوى من اللوعة بها ، وفقدان الصبر عنها على ما في ذلك من عفةٍ وعهرٍ واعتدالٍ وإفحاشٍ ، كل ذلك كان شأن الشاعر الجاهلي ، فإن معيشة البادية من سفور المرأة ، واشتراكها في أمور الحياة وخلو الرجل من الأعمال يجعل هذا النسب أمراً لازماً للحياة البدوية ، ولقد شاع في ذلك العصر حتى صار لازمة لقول الشعر يبدأ به الشاعر قصيدته ، ولو لم يكن محبباً فيذكر اسماً مستعاراً ، ويتخيل وقائع يذكرها على عادة العشاق ، ولقد ذكروا أن زهيراً كان عفيفاً يتحرج من النسب ، ولكنه اضطر أن ينسب ، فذكر اسم امرأته : « أم أوفى » في معلقته .

وقد نظر قوم إلى الغزل في العصر الأموي ، فأوا شعراء يتغزلون ولا يتولون في شيء غير الغزل ، فتكون القصيدة وقفاً على هذا الغرض لاتتمدها إلى غيره . بل لقد وقف بعضهم نفسه على الغزل لا يقول غيره ، فاتخذوا من ذلك سبيلاً إلى القول بأن الجاهلي لم يعرف هذا النوع من الغزل ، ولم يقل فيه وإنما كان غزله تابعاً لأغراضه الأخرى من مدح أو فخر أو غيرها .

ولقد كان داعيتهم إلى هذا الرأي أنهم لم يجدوا غزلاً مستقلاً في شعر الجاهلين ، ولكن فقدانهم لرواية ذلك لا يدعوننا إلى إبطال تلك الطبيعة التي هي أليق بالعربي في باديته ، لما قدمنا من خلو الرجل من العمل ومشاركة المرأة له في حياته وسفورها أمامه في غالب شأنها . والحب طبعي في النفس والتعبير عنه زفرة لا يستطيع كظمها ونزعة لا يمكن كبتها ، فلا بد أن يكون الجاهليون قد عمدوا إلى الغزل غرضاً أصيلاً وأكثروا منه حتى صار التزامه في بدء القصائد نتيجة لهذا الإكثار منهم في قوله ، على أنه قد روى لهم فيه قول مستقل .

فمن ذلك قول المرقش الأكبر ، وقد علق ابنة عمه وحال دونها إقتاره ، فقال فيها :

سَرَى لَيْلًا خِيَالًا مِنْ سُلَيْمِي فَأَرَقَ نِي وَأَصْحَابِي هُجُودُ  
فَبِتُّ أَدِيرُ أَمْرِي كُلَّ حَالٍ وَأَذْكُرُ أَهْلَهَا وَهَمُّ بَعِيدُ



على أن قد سما طرفي لنارٍ      يُشَبُّ لها بذى الأَرْضَى وَقوُدُ  
حواليتها مهًا جَمُّ التَّرَاقِي      وآرامٍ وَغِزْلَانٌ رُقوُدُ<sup>(١)</sup>  
نواعم لا تعالج بُؤْسَ عَيْشٍ      أوَانِسُ لا تَرَوُحُ ولا تَروُدُ<sup>(٢)</sup>  
يرحن معا بِطَاءِ المَشْيِ بَدَأُ      عليهن المَجَاسِدُ والبُرودُ<sup>(٣)</sup>  
سكنن ببلدةٍ وسكنتُ أخرى      وَقُطِعَتِ المَوَاتِقُ والعُهودُ  
فما بآلي أفي وَيُحَانُ عَهْدِي      وَمَا بآلي أَصَادُ ولا أَصِيدُ

كذلك يقول قيس بن الحداذية<sup>(٤)</sup> في نَعْمٍ ، وكنيتها أم مالك ، وقد افترق أهلها :

سَقَى اللهُ أَطْلالاً لِنُعْمٍ تَرادَفَتْ      بَيْنَ النَوَى حَتَّى حَلَنَ المَطَالِيَا  
فإِنَّ كَانَتِ الأَيَّامُ يا أُمَّ مالِكِ      تُسَلِّبُكُمْ عَنِّي وَتُرْضِي الأَعادِيَا  
فلا يَأْمَنَنَّ بَعْدِي امرؤٌ فَجَعَلَنِي      عَنِ العَيْشِ أَوْفَجَعَ الخُطوبِ العَوافِيَا  
نَظَرْتُ وَدُونِي يَدْبُلُ وَعِمْيَاةُ      إلى آلِ نَعْمٍ مَنظَرًا مُتَنابِيَا  
شَكَوْتُ إلى الرَّحْمَنِ بَعْدَ مَزارِها      وَمَا حَمَلَتْنِي وَانقَطَعَ رِجائِيَا  
وَقَدِ أَيْقَنْتُ نَفْسِي عَشِيَّةَ فارِقُوا      بِأَسفَلِ وادِي الرُّوضِ أَنْ لا تَلَاقِيَا  
إِذا ما طَوَّأكَ الدَّهْرُ يا أُمَّ مالِكِ      فَشَأْنُ المَنايَا القاضِيَاتِ وَشانِيَا

ولقد علمت أن الإسلام زهد العرب في النسب ، وحرم عليهم الفاحش منه ، فلما جاءت الدولة الأموية ونزعتها جاهلية ووازع الدين قد ضعف أثره في القلوب ، والخلفاء

(١) جم العظم : كثير لحمه .

(٢) ترود : تختلف إلى المرعى مقبلة مدبرة .

(٣) بد : متفرقات . الجسد ( كمنبر ) الثوب يلي الجسد . البرد : ثوب يلتحف به .

(٤) شاعر جاهلي ، والحداذية أمه من قبيلة يقال لها بنو حداد . وكان قيس فانتكا شجاعا صلوكا خليعاً . خلعتة خزاعة بسوق عكاظ وأتمهت على نفسها فلا تحتمل جريرة له ، وكان قيس يهوى أم مالك بنت ذؤيب الخزاعي . وكانت بطون خزاعة خرجوا جالين إلى الشام ومصر ثم رأوا في الطريق البرق وأدركهم من قال لهم إن بلادهم أخصبت فرجع بعض واستمر بعض ، وكان في الماضين في ارتحالهم أهل ناعم .



يرون من تمام سياستهم إطلاق الألسنة بالقول أكثر الشعراء من القول في الغزل ، فكان منهم عشاق برح بهم الحب وملكهم جمال المرأة ، وقد صقلتها المدنية وورثت من الجمال الفارسي والرومي نصيبا ، فكثرت العشق وساعد عليه أيضاً صيرورة الحمية والغيرة الجاهلية إلى الاعتدال ، فتحدثت النساء إلى الرجال في غير حرج كبير . بل لقد أرسلن إلى من عرفنه غزلاً يستزرنه ليصبن من اللهو وليكون من حظهن ذكر يشيع على لسانه . ولم تترفع عن ذلك نساء الخلفاء لما انطبع في المرأة من حب الثناء ، فقد ذكروا أن أم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك هي التي اقترحت على وضاح اليمين أن يشبب بها ، فلما فعل قتله الخليفة . وذكروا من قصتها في ذلك أنها قدمت مكة حاجة ومعها من الجوارى من لم ير مثله حسنا ، وكتب الوليد يتوعد الشعراء جميعاً إذا ذكروا أحداً من تبعها ، وقدمت قراءات للناس وتصدى لها أهل الغزل والشعر ، ووقعت عينها على وضاح اليمين فهو يته وكان جميلاً ، وأرسلت إليه وإلى كثير أن انسأبى . فأما وضاح اليمين فإنه ذكرها وصرح بالنسب بها ، فوجد عليه الوليد ، واحتال لقتله . وأما كثير فإنه عدل عن ذكرها ونسب بإحدى جوارىها . كذلك اقترحت أم محمد بنت مروان بن الحكم وأخت عبد الملك على عمر بن أبي ربيعة أن يشهرها في شعره ، وبعثت إليه ألف دينار ، فأبى أن يؤجر على التشبيب ، وابتاع بالجائزة حللاً وطيباً وأهداها إليها فردتها ، ومن قوله فيها :

أَيْهَا الرَّائِحُ الْمَجِدُّ ابْتِكَارًا      قَدْ قَضَى مِنْ تِهَامَةَ الْأَوْطَارًا  
 مِنْ يَكُنْ قَلْبُهُ حَمِيحًا سَلِيمًا      ففَوَادَى بِالْحَيْفِ أَمْسَى مُعَارًا<sup>(١)</sup>  
 لَيْتَ ذَا الدَّهْرِ كَانَ حَتْمًا عَلَيْنَا      كُلَّ يَوْمَيْنِ حِجَّةً وَاعْتِمَارًا<sup>(٢)</sup>



وكان من شعراء الغزل في هذا العصر قوم تيمم الحب ، وذهب بالبابهم العشق ، فجاء شعرهم زفرات تكاد تحترق لها صدورهم . وهؤلاء هم المسمون بالعدريين وإمام هؤلاء

(١) الحيف : غرة بيضاء في الجبل الذي خلف أبي قبيس ، وهو موضع بني وبه سمي مسجد الحيف .

(٢) ترتيب البيت هكذا : ليت الدهر كان حجة واعتمارا في كل يومين منه واجبا علينا ذلك .



جميل بن مَعْمَرٍ صاحب بَيْثِنَةَ ، ومنهم قَيْسُ بن الملوِّح صاحب لَيْلى ، وقَيْسُ بن ذَرِيحٍ صاحب لُبْنَى على القول بوجود الأخيرين ، وأن حديثهما غير موضوع .

فمن قول جميل في بَيْثِنَةَ :

إِذَا قُلْتُ مَا بِي يَا بَيْثِنَةَ قَاتِلِي      مِنْ الْحَبِّ قَالَتْ ثَابِتٌ وَيَزِيدُ  
وَإِنْ قُلْتُ رُدِّي بَعْضَ عَقْلِي أَعْشُ بِهِ      مَعَ النَّاسِ قَالَتْ ذَاكَ مِنْكَ بَعِيدُ  
فَلَا أَنَا مَرْدُودٌ بِمَا جِئْتُ طَالِبَا      وَلَا حُجْبُهَا فِيمَا يَبِيدُ وَيَبِيدُ  
وَقُلْتُ لَهَا يَبْنِي وَيَبْنِكِ فَاعْلَمِي      مِنْ اللَّهِ مِيثَاقٌ لَهُ وَعَهْدُ  
وَقَدْ كَانَ حُيَّيْكُمْ طَرِيفًا وَتَالِدَا      وَمَا الْحَبُّ إِلَّا طَارِفٌ وَتَلِيدُ  
وَإِنْ عَرَّوْضَ الْوَصْلَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا      وَإِنْ سَهَلَّتْهُ بِالْمَنَى لَصْعُودُ<sup>(١)</sup>  
فَأَفْنَيْتُ عَيْشِي بَاتِنْتَارِي نَوَالِمَا      وَأَبْلَيْتُ هَذَا الدَّهْرَ وَهُوَ جَدِيدُ  
وَمَنْ قَوْلِ مَجْنُونٍ لَيْلِي ، وَقَدْ جَعَلَ يَمُرُّ      بَيْتَهَا فَلَا يَسْأَلُ عَنْهَا وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا ، فَإِذَا  
جَاوَزَهُ قَالَ :

أَلَا أَيُّهَا الْبَيْتُ الَّذِي لَا أُرُوزُهُ      وَإِنْ حَلَّهُ شَخَّصْتُ إِلَى حَبِيبُ  
هَجَرْتُكَ إِشْفَاقًا وَزُرْتُكَ خَائِفًا      وَفِيكَ عَلَى الدَّهْرِ مِنْكَ رَقِيبُ  
سَأَسْتَمْتِبُ الْأَيَّامَ فِيكَ لَعَلَّهَا      بِيَوْمِ سُرُورٍ فِي الزَّمَانِ تَمُوبُ  
وقوله وقد أخذه أبوه إلى الكعبة ، وقال له : تعلق بها وقل اللهم أرحني من ليلي  
وحبها ، فلما تعلق بها قال :

يَقْرُّ بَعِينِي قَرِيبًا وَيَزِيدُنِي      بِهَا شَعْفًا مَنْ كَانَ عِنْدِي يَعْجِبُهَا<sup>(٢)</sup>

(١) العروض : الطريق في عرض الجبل . الصعود : المرتفع . والمعنى أن الوصل صعب المنال مهما سهله بالعود .

(٢) روى في السكامل من قول نهبان بن عبيد العيشي :

يقر بعيني أن أرى من مكانه ذرا عقدات الأبرق المتفاوت

فقال : قرأها أبو العباس « يقر بعيني » قال الأصل يقر بعيني والباء زائدة للتوكيد . هكذا سمعته . ويقول أبو الحسن الأخفش راوى السكامل وأجود مما روى عندي يقر بعيني وهو الأصل والباء في موضعها غير زائدة .



وكم قائل قد قال تُبْ فَعَصَيْتُهُ      وتلك لَعَمْرِي توبَةٌ لا أتوبها  
فيا نفسُ صَبْرًا لستِ واللهِ فاعلمي      بأولِ نفسٍ غاب عنها حبيبها

ومن قول قيس بن ذريح في بُنَى :

فان يجبوها أو يحلّ دونَ وصلها      مقالةً واشٍ أو وعيدُ أميرِ  
فان يجبوا عيني من دائم البكا      ولن يذهبوا ما قد يجين ضميري  
إلى الله أشكو ما ألقى من الهوى      ومن كُربٍ تعنادني وزفيرِ

ومن شعراء الغزل من جعلوه لهوهم ، فأغرموا بالجمال ، وتبعوا مساقطه ، وضرروا  
المواسم ليأتوا عيونهم من أشياء غيرهم ، ثم وصفوا ما وقع لهم من ذلك فهم لم يتيمهم  
الحب ، ولا كان القول في الغزل صناعة لفظية لاغور لها في نفوسهم ، بل كانوا بين  
بين يستأسرون للجمال وهم قادرون على الإفلات من حباله . كما كان شأن عمر  
ابن أبي ربيعة ، ويكفي في التلليل على أنه كان بهذه المثابة أن تغزل في غير  
واحدة ، والحب الصادق لا يكون إلا الحبيب واحد ، وهو الذي يقول مستبيحاً الديب  
إلى المحبوبة ، ومغافلة أهلها الأبيات الآتية ، ولهذا سمي هو ومن على شاكلته  
إباحيين لأنهم أباحوا في غزلهم كلّ فحش ، أما العذريون فإنهم لا يتعلقون من محبوبتهم  
إلا التعلق الرُّوحى ، وبنو عُدرة قبيلة اشتهرت بالحُب حتى فنى فيه رجالها . قال  
ابن أبي ربيعة :

فلما فقدت الصوت منهم وأظفمت      مصابيحُ شئت بالعيشاء وأنور<sup>(١)</sup>  
وغاب قميّز كنت أرجو غيوبة      وروحَ رُعيانٍ ونومَ سمر<sup>(٢)</sup>  
ونفّضت عنى العين أقبلتُ مشيةً      الحُباب ورُكني خيفة القوم أزور<sup>(٣)</sup>

(١) أنور : جمع نار .

(٢) روح : رجع وقت الرواح .

(٣) ويروى النوم بدل العين ، والمراد بالعين الجوايسيس ، الحباب : الحبة ، أزور : مائل .



فحَيْتُ إِذْ فَاجَأْتُهَا فَتَوَلَّيْتُ      وكادت بمكنون التحية تَجْهَرُ (١)  
 وقالت وعَضَّتْ بالبنان فضَحَّتَنِي      وأنت امرؤ ميسورُ أَمْرِكَ أَعْسُرُ  
 أَرَيْتَكَ إِذْ هُنَّا عَلَيْكَ أَلْمَ تَخْفُفُ      رَقِيبًا وَحَوْلِي مِنْ عَدُوِّكَ حُضْرُ (٢)  
 فوالله ما أدرى أتعجبلُ حاجةً      سَرَّتْ بِكَ أُمُّ قَدْنَامَ مَنْ كُنْتَ تَحْذَرُ

وهذان الفريقان لم يعرف لهما في غير الغزل شعر ، وإن ورد عن بعضهم شيء من ذلك فهو نادر جداً .

ونوع ثالث من الغزلين ، وهم من كان الغزل في قولهم محض صناعة لفظية يجري أحدهم على طريقة العرب ، فيبدأ قوله بالغزل كما بدعوه به ، وإن لم ير لمحبوبته ظلاً أو لم يتعلق منها بمودة ، وهؤلاء تناولوا جميع أغراض الشعر مع الغزل ، ومن أشهرهم كثير عزة ، فإنه أكثر من ذكرها وأطال في وصفها ، وإن لم يرها في حياته مرة .

## المدح

كان المدح على ما عرفت شأنه في الجاهلية لا إسراف فيه ولا إغراق ، وكان في غالب أمره ذكراً لحقيقة اشتهر بها المدوح ، أو ثناء على عارمة كانت منه ، وكان مع ذلك قليلاً لمكان الأنفة من نفوس العرب إلا ما كان من شأن الذين تكسبوا بالشعر في أخريات الجاهلية ، كزهير ، والنابغة ، والأعشى ، والحطيئة على عفة في أكثرهم عرفت حديثها ، وفي الإسلام لم يكن منه إلا مدح رسول الله وهو دون ما يستحقه مقامه الأعظم و بلاؤه المشهود . أما الخلفاء بعده فإن ورعهم وانصرافهم إلى تحقيق العدالة ،

(١) توله : حزن وطاش عقله .

(٢) أرايتك وأرايتك : أخبرني ، هنا : من هان بمعنى حقر وقل شأنه ، حضر : جمع حاضر .



وقلة ذات أيديهم جعلهم غير موضع لآمال المداح ، فقلّ المدح في هذا العصر ، وقد ذكروا أنه بلغ عمر أن الخطيئة مدح أبو موسى الأشعري عامله على العراق فوصله ، فكتب إليه عمر يومه ، فردّ عليه أبو موسى بأنه إنما اشترى عرضه بالصلة ، فكتب إليه عمر : إن كان هذا هكذا ، وإنما تذبّ عن عرضك ، ولم تعطه للبذخ والفخر ، فقد أحسنت .

أما في دولة بني أمية فقد جنّ جنون الشعراء لما رأوا من الغنى الذي يساق سوقا إلى مجيديهم في مدح الخلفاء ، وتفخيم أمرهم ، وذكر بطشهم ، وواسع جودهم . وقد حجب ذلك إلى الخلفاء أنهم رأوه يمكن لهم ، ويوطد ملكهم ، ويلقى الرعب في القلوب ، ويدفع الآمال إلى التعلق بهم ، فكان عمل الشعر في هذا بمثابة جيوش جرّارة يرصدونها لتحقيق هذه الغاية ، فكفاهم مؤنتها بيت من الشعر يسير كل مسار ، ويتنقل مع الريح :

فَشَرِّقَ حَتَّى لَيْسَ لِلشَّرِّقِ مَشْرِقٌ      وَغَرَّبَ حَتَّى لَيْسَ لِلغَرَبِ مَغْرِبٌ  
كذلك لا تنس ما فيهم من روح عربية تحبّ المديح وترتاح له ، فجعلوا سماع الشعر في مدحهم إحدى وسائل النعيم والترف الذي وفروا لأنفسهم أسبابه ، وامتلات به قصورهم وقد كانوا لقوة النقد في نفوسهم يعرفون قدر ما يقال فيهم ، فيقبلونه قبولا حسنا ، أو يردّونه على قائله زائفاً مبهرجاً .

دخل ابن قيس الرقيّات على عبد الملك ، وقد آمنه بعد خروجه عليه ، فدحه بقوله :

إِنَّ الأَعْرَ الذي أبوه أبو العا      صِي عَلَيْهِ الوقارُ والحجُبُ  
يَعْتَدِلُ التاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ      عَلَى جَمِينٍ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ

فقال عبد الملك : يا ابن قيس تمدحني بالتاج كأنني من ملوك العجم ، وتقول في مصعب :

إِنَّمَا مُصَعَبٌ شِهَابٌ مِنْ اللَّهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّالِمَاءُ  
مُلْكُهُ مُلْكٌ عِزَّةٍ لَيْسَ فِيهِ      جَبْرُوتٌ مِنْهُ وَلَا كِبْرِيَاءُ



ثم قال له عبد الملك : أما الأمان فقد سبق ، ولكن لا تأخذ في المسلمين عطاء أبداً .  
ومن قوة تقدمهم مع حبهم للاستئثار بأعظم نصيب من المدح ماجرى لأبي زيد  
الأسلمى . دخل المدينة فصار إلى إبراهيم بن هشام ، فأنشده :

\* يابن هشام يا أبا الكرام \*

فقال إبراهيم : وإنما أنا أخوهم ، وكأني لست منهم . ثم أمر به فضرب بالسياط .

وقد دخل رجل من بني ضبة على عبد الملك ، فأنشده :

وَاللَّهِ مَا نَدَرِي إِذَا مَا فَاتَنَا      طَلَبُ إِلَيْكَ مِنَ اللَّيْلِ تَتَطَلَّبُ  
فَلَقَدْ ضَرَبْنَا فِي الْبِلَادِ فَلَمْ نَجِدْ      أَحَدًا سِوَاكَ إِلَى الْمَكَارِمِ يَنْسَبُ  
فَاصْبِرْ لِعَادَتِنَا الَّتِي عَوَّدْتَنَا      أَوْ لَا فَارْشِدْنَا إِلَى مَنْ نَذْهَبُ

فقال عبد الملك : إلى إلى ، وأمر له بألف دينار ، ثم أتاه في العام الثاني ، فأنشده :

يَرْبُ اللَّيْلِ يَأْتِي مِنَ الْخَيْرِ إِنَّهُ      إِذَا فَعَلَ الْمَعْرُوفَ زَادَ وَتَمَّامًا  
وَلَيْسَ كَبَانَ حِينَ تَمَّ بِنَاؤُهُ      تَتَّبَعُهُ بِالنَّقْصِ حَتَّى تَهْدَمَا

فأعطاه ألفين ، ثم جاءه في الثالث ، فأنشده :

إِذَا اسْتَمَطَرُوا كَانُوا مَغَازِيرَ فِي النَّدَى      يَجُودُونَ بِالْمَعْرُوفِ عَوْدًا عَلَى بَدءِ  
فأعطاه ثلاثة آلاف .

ومن ارتياحهم للمدح ، واهتزازهم له ما روى عن عمر بن هبيرة . قال العتيبي : أشرف  
عمر بن هبيرة الفزاري من قصره يوما ، فإذا هو بأعرابي يرقص جملة الآل ، فقال  
لحاجبه : إن أردني هذا فأوصله إلي ، فلما دنا الأعرابي سأله الحاجب ، فقال : قصدت  
الأمير ، فأدخله إليه ، فلما مثل بين يديه قال عمر : ما خطبك ؟ قال الأعرابي :

أصْلَحَكَ اللَّهُ قَلَّ مَا بِيَدِي      فَمَا أَطِيقُ الْعِيَالِ إِذْ كَثُرُوا  
أَلْحَ دَهْرٌ أَنَحَى بِكَ كَلِّهِ      فَأَرْسَلُونِي إِلَيْكَ وَانْتَظَرُوا  
رَجُوكَ لِلدَّهْرِ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ      غَيْثَ سَحَابٍ إِذْ خَانَهُمْ مَطَرٌ

قال : فأخذت عمر الأريحية ، فجعل يهتز في مجلسه ، ثم قال : أرسلوك إلي وانتظروا ،



إذا والله لا تجلس حتى ترجع إليهم غانما ، فأمر له بألف دينار وردّه على بعيره .

ولقد بلغ من غرام خلفاء هذه الدولة بالمدح أن أرادوا أن يجعلوه وقفاً عليهم ، فلم يرضوا عن مدح غيرهم ، ولو كان المدوح من أعوانهم ، فهذا جرير مدح الحجاج ، فلما أعجبه مدحه أوجهه ، وملاً بالثناء عليه الأرض حتى بلغ خبره الشام ، وأمير المؤمنين عبد الملك ، ثم أراد الحجاج أن يحسن إلى جرير ، فأقدمه مع ابنه محمد إلى عبد الملك ، فلما صار في مجلسه سأل عنه ، فقال محمد بن الحجاج : هذا يا أمير المؤمنين ابن الخطفي ، فقال مادح الحجاج . قال جرير : قلت وما دحك يا أمير المؤمنين ، فأذن لي في الإنشاد ، فقال : هات ما قلت في الحجاج ، فاندفعت في قولي :

صَبَرْتَ النَّفْسَ يَا بْنَ أَبِي عَقِيلٍ      مَحَافِظَةً فَكَيْفَ تَرَى الثَّوَابَا  
وَلَوْ لَمْ يَرْضَ رَبُّكَ لَمْ يُنَزَّلْ      مَعَ النَّصْرِ الْمَلَائِكَةَ الْغَضَابَا  
إِذَا سَعَرَ الْخَلِيفَةُ نَارَ حَرْبٍ      رَأَى الْحِجَّاجَ أَثَقَمَهَا شِهَابَا

قال صدقت ، ثم هات فأنشده :

طَرِبْتَ لِعَهْدٍ هَيَّجَتْهُ الْمَنَازِلُ      وَكَيْفَ تَصَابِي الْمَرْءَ وَالشَّيْبُ شَامِلُ  
فما فرغت منها حتى خيلت الغضب في وجه أمير المؤمنين ، ثم قال : هات بالحجاج ، فأنشده :

مَنْ سَدَّ مُطْلَعَ النَّفَاقِ عَلَيْهِمْ      أَمْ مَنْ يَصُولُ كَصَوْلَةِ الْحِجَّاجِ  
أَمْ مَنْ يَغَارُ عَلَى النِّسَاءِ حَفِيظَةً      إِذْ لَا يَثْقِنُ بَغَيْرَةِ الْأَزْوَاجِ

ثم قال لي الخليفة اجلس فجلست ، وقال للأخطل : هات مديح أمير المؤمنين ، فأنشده أشعر الناس وأمدح الناس ، فقال له عبد الملك : أنت شاعرنا وما دحنا ، ثم استمر الوفد يدخل على الخليفة ثمانية أيام ، وكلهن يجيب جرير ، ودخلوا في اليوم التاسع ، فأعطوا جوائزهم ، وتهيموا في العاشر للرحيل ، ثم توسل له محمد بن الحجاج عند عبد الملك ، واستأذنه في أن يسمع من جرير فأذن ، فاندفع جرير :

أَتَصْحُو أَمْ فُوَادِكَ عَيْرُ صَاحٍ      عَشِيَّةً هَمَّ صَحْبِكَ بِالرَّوَّاحِ



فقال له عبد الملك : بل فؤادك أنت ، وما زال ينشد حتى وصل إلى قوله في مدح  
عبد الملك :

أَلَسْتُ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونَ رَاحِ

فجعل عبد الملك يقول : نحن كذلك ومازلنا كذلك ، ثم قال : ردّها عليّ ، فردّها  
فطرب ، ثم أمر له بمائة ناقة وثمانية أعبد : أربعة صقالبة ، وأربعة نوبية ، وكان بين  
يديه صحاف من فضة ، فقال جرير : الحلب يا أمير المؤمنين ، فندس إليه واحدة منهم .  
ومن غرام الأمويين بالمدح ما رواه المبرد قال : وقد فضل نصيبٌ على الفرزدق  
في موقفه عند سليمان بن عبد الملك ، وذلك أنهما حضرا ، فقال سليمان للفرزدق :  
أنشدني ( وإنما أراد أن ينشده مدحا له ) ، فأنشده :

وركب كأنّ الريح تطلبُ عندهم لهاترةً من جذبها بالعصائبِ  
سروا يخبطون الليل وهي تلقهم إلى شعب الأكوار من كلّ جانب  
إذا آنسوا نارًا يقولون ليها وقد خصرت أيديهم نار غالب

فأعرض سليمان كالمغضب ، فقال نصيب يا أمير المؤمنين ، ألا أنشدك في رويها ما لعله  
لا يتضع عنها ، فقال هات ، فأنشده :

أقول لركب صادرين لقيتهم قفا ذات أوشال ومولاك قارب  
قفوا خبروني عن سليمان إنني لمعرفه من أهل ودان طالب  
فعاوجوا فأنثوا بالذي أنت أهله ولوسكتوا أثنت عليك الحقائب

وقد قال سليمان للفرزدق حين أنشده نصيب كيف تراه ؟ قال : هو أشعر أهل جلدته ،  
ثم قام الفرزدق ، وهو يقول :

وخير الشعر أشرفه رجالا وشر الشعر ما قال العبيد

ولقد عفا الخلفاء وعماهم عن المجرم لبیت من الشعر بالغ به في مدحهم ، فصادف  
هوى في نفوسهم كما حدث أن الحجاج لجّ في طلب العديّل حتى لفظته الأرض ،  
ونبا به كل مكان ، فلم يجد حيلة إلا قصده ، فلما مثل بين يديه أنشأ يقول :



خَلِيلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَسَيْفُهُ لِكُلِّ إِمَامٍ صَاحِبٌ وَخَلِيلٌ  
بِهِ نَصَرَ اللَّهُ الْخَلِيفَةَ مِنْهُمْ وَثَبَّتَ مُلْكًا كَادَ عَنْهُ يَزُولُ  
فَأَنْتَ كَسَيْفِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ خَالِدٍ تَصُولُ بِعَوْنِ اللَّهِ حِينَ تَصُولُ

فقال له الحجاج : أولى لك <sup>(١)</sup> قد نجوت ، وفرض له ، وأعطاه عطاءه .

وبلغ من حب استشارهم بالمدح أنهم حقدوا على الشاعر إذا افتخر ، فقد روى  
أن الفرزدق خرج من عند عبد الملك ، وقد مدحه فأجرل له العطية ، فقال في طريقه  
وهورا كب راحلته :

ما حملت ناقةً من معشرٍ رجلا مثلى إذا الريح ألقنتى على الكور <sup>(٢)</sup>  
فأنهى ذلك إلى عبد الملك فأرسل وراءه ، فلما دخل عليه قال : إيه يافرزدق الذى  
تقول ، فقال نعم يا أمير المؤمنين ، فلما أشده البيت قال : لتخرجن منها أولاتين  
عليك ، فقال مرتجلا :

إلا قرئشاً فإن الله فضلها مع النبوة بالإسلام والخير  
ترى وجوه بني مروان مشرقة يوم الندى كمشوقات الدانير <sup>(٣)</sup>  
فقال عبد الملك : أولى لك ورضى عنه .

## الهجاء

كان الشاعر فى الجاهلية يهجو وينافر ، ولكنه فى كل ذلك لا يتعدى التعبير  
بالقصور عن الفضل ، والتأخر عن الأقران والنكوص عن مواقف الشجاعة ، والبخل على  
الضيف والقعود عن نصرته المستجير ، لا يعرفون ذكر العورات ولا الإفحاش فى سب

(١) أولى لك : تهديد ووعيد: أى قاربه ما يهلكه .

(٢) الكور : الرجل .

(٣) الدرهم أو الدينار الشوف : المجلو .



الآباء والأمهات ، فكانت معانيهم في ذلك تتبع بساطة معيشتهم ، فهم لم يعرفوا الغلو في شيء حتى يعرفوه في الهجاء ، وقد جاء الإسلام ينهاهم عن ذلك ويجول بينهم وبينه حتى تصفو النفوس ، وتجتمع على الحب فامتنعوا عنه ، وعوقب من استمر على نزعة الجاهلية كالخطيئة . نعم أباح الإسلام للمسلمين هجاء الكفار بل دعاهم إلى ذلك لأنه اعتبره أسلوباً من أساليب حربهم ونوعاً من مساجلتهم ، ولا شك أن القول له بالنفس فعل السيف في خضد الشوكة وتثبيط العزم .

فلما جاء عصر بني أمية لم تقصر الأحزاب السياسية في جعل الشعر من عدد حربهم يذيعون به المساوى ، ويدلون به على المخازي ، ويؤلبون ويهددون ، فعل ذلك الأمويون ، وهم الحزب الأكبر بكل من ناوهم من خوارج وهاشميين وزبيريين ومهلبيين كما قابلهم هؤلاء بمثل ذلك فكثرت التهاجي ، واشتهر شعراء بالتعصب لبني أمية ، وهم جل شعراء العصر ؛ فمنهم : مسكين الدارمي ، والأخطل ، وجري ، والفرزدق ، والراعي ، وأبو النجم الراجز ، والأعشى ، والناطقة الشيباني وغيرهم ، واشتهر من أنصار الخوارج : الطمّاح بن حكيم ، وعمران بن حطان ، كما اشتهر من الأنصار المهلبيين : زياد الأعجم ، وسحرزة بن بيض ، ويهس الجرهمي ، ومن أنصار العلويين : الثعمان ابن بشير ، وأبو الأسود السؤلي ، والكميت بن زيد ، وأيمن بن خرّيم .  
وسنورد عليك نماذج من قولهم ليتمثل لك ما كان بين القوم من خلاف على السياسة .

حرّش يزيد بن معاوية الأخطل ، فهجا الأنصار بقوله :

ذهبت قريش بالمكارم كلها واللؤم تحت عمائم الأنصار

فلما شاع الشعر دخل الثعمان بن بشير الأنصاري على معاوية ، وقال يا معاوية : هل ترى لوئماً ؟ قال : لا أرى إلا كرماً . قال فما الذي يقول فينا عبد الأرقام<sup>(١)</sup> ؟ قال : قد حكمتك فيه . قال : والله لارضيت إلا بقطع لسانه ، ثم أنشده :

(١) الأرقام : حى من تغلب منهم الأخطل وجعله عبدهم تحقيراً له .



مُعَاوَى إِلَّا تُعْطِنَا الْحَقَّ تَعْتَرِفُ      حَيْ الْأَسَدِ مَشْدُودًا عَلَيْهَا الْعَمَامُ (١)  
وَيَسْتَمْتَمُنَا عَبْدُ الْأَرَاقِمِ ضَلَّةً      وَمَاذَا الَّذِي تُجْدِي عَلَيْكَ الْأَرَاقِمُ  
فَمَا لِي تَأْرُ دُونَ قَطْعِ لِسَانِهِ      فَدُونَكَ مِنْ تَرْضِيهِ عَنكَ الدَّرَاهِمُ

ثم قال :

وَإِنِّي لِأَغْضَى عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ      سَتَرْتَنِي بِهَا يَوْمًا إِلَيْكَ السَّلَامُ  
أَصَانَعُ فِيهَا عَبْدَ شَمْسٍ وَإِنِّي      لِتِلْكَ النَّبِيِّ فِي النَّفْسِ مَنِّي كَاتِمُ  
فَمَا أَنْتَ وَالْأَمْرَ الَّذِي لَسْتَ أَهْلُهُ      وَلَكِنْ وَلِيُّ الْحَقِّ وَالْأَمْرِ هَائِمُ

فلما رأى معاوية منه الجدّ دفع إليه الأخطل لقطع لسانه ، ولكن يزيد ابنه أجاره من النعمان .

وقال الأعشى : وقد دخل على عبد الملك ، وهو متردد في حرب ابن الزبير ، فقال : يا أمير المؤمنين ، مالي أراك مُتَلَوِّمًا (٢) ينهضك الحزم ، ويقعدك العزم ، وتهمم بالإقدام ، وتجنح إلى الإحجام . توجه إلى عدوك ، فجدك مُقْبَلٌ وجده مدبر ، وأصحابه له ماقتون ، ونحن لك محبون ، إلى أن أنشد :

أَلُ الزُّبَيْرِ مِنَ الْخِلَافَةِ كَالْتِي      عَجَل النَّتَاجِ بِحَمْلِهَا فَأَحَالَهَا  
أَوْ كَالضَّعَافِ مِنَ الْحُمُولَةِ حُمَاتٍ      مَا لَا تَطْيِيقُ فَضَّيَعَتِ أَحْمَالَهَا  
قَوْمُوا إِلَيْهِمْ لَا تَنَامُوا عَنْهُمْ      كَمَ لِلْغَوَاةِ أَطْلَمُوا إِمْرَالَهَا  
إِنَّ الْخِلَافَةَ فِيكُمْ لَا فِيهِمْ      مَا زَلْتُمْ وَأَرْكَانَهَا وَثَمَالَهَا (٣)  
أَمْسُوا عَلَى الْخَيْرَاتِ قَفْلًا مُغْلَقًا      فَانْهَضْ بِيَمِينِكَ فَافْتَحْ أَقْفَالَهَا

ومن قول عمران بن حطان في مدح بن ملجم قاتل عليّ ، وكان عمران مغاليبا في التعصب على عليّ .

(١) اعترف الشيء كعرفه : أقرّ به وأثبتته علما .

(٢) متلوما : مترددا .

(٣) الثمال : الذي يقوم بأمر قومه .



لِلَّهِ ذَرُّ الْمُرَادِيِّ الَّذِي سَفَكَتْ      كَفَّاهُ مُهْجَةً شَرَّ الْخَلْقِ إِنْسَانًا (١)  
أَمْسَى عَشِيَّةً غَشَّاهُ بِضَرْبَتِهِ      مِمَّا جَنَّاهُ مِنَ الْآثَامِ غُرِيَانَا  
يَا ضَرْبَةً مِنْ كَرِيمٍ مَا أَرَادَ بِهَا      إِلَّا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَانَا  
إِنِّي لِأَفْكَرُ فِيهِ ثُمَّ أَحْسِبُهُ      أَوْفَى الْبَرِيَّةِ عِنْدَ اللَّهِ مِيزَانَا

ومن قول الكُمَيْتِ بن زيد يعيب على بني أمية جورهم ، ويدعو الله أن تدول الدولة للهاشمين .

قُلُّ لِبْنِي أُمِيَّةٍ حَيْثُ حَلُّوا      وَإِنْ خِفْتَ الْمُهَنْدَ وَالْقَطِيْعَا (٢)  
أَجَاعَ اللَّهُ مِنْ أَشْبَعْتُمُوهُ      وَأَشْبَعَ مِنْ بَجُورِكُمْ أَجِيْعَا  
بِمَرْضِي السِّيَاسَةِ هَاشِمِيًّا      يَكُونُ حَيًّا لِأُمَّتِهِ رِبِيْعَا

ولم ينته الهجاء إلى هذا الحد ، بل لقد تعداه إلى تهاجي الشعراء فيما بينهم ، لا ينزعون في ذلك إلى مذهب سياسي لكنهم كانوا يحميون بهذا التهاجي داعي العصبية التي أحيتها الدولة ، ويلتمسون الشهرة بالقول ، ويتحاسدون على ماصار لبعضهم من فضل ، وربما فعلوا ذلك ليسمر أمير أو خليفة بحديثهم ، فيكون على ذكر لهم ، وربما مهاجوا أودعاهم إلى التهاجي ما يأتيه أمير أو خليفة من التحريش بينهم كما فعل بشر بن مروان ، فإنه قال للأخطل : احكم بين جرير والفرزدق ، وألح عليه في ذلك ، فلما حكم بقوله : الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحر لم يعجب حكمه جريرا فهجاه ، فرد عليه الأخطل ، وامتد بينهما التهاجي .

وأمر التهاجي بين جرير والفرزدق ، وبين جرير والأخطل مشهور ألفت فيه كتب خاصة .

(١) مر شرح هذا البيت والأبيات بعده في باب عناية الخلفاء والأمراء باللغة والأدب .

(٢) مر شرح هذه الأبيات في باب عناية الخلفاء والأمراء باللغة والأدب .



## عمر بن أبي ربيعة

[ نسبه ] : هو عمر ، ويكنى أبا الخطاب ، وأبوه عبد الله بن أبي ربيعة ، وهو حذيفة بن المغيرة ، وينتهي إلى مخزوم ، ثم إلى مرة بن كعب ، ثم إلى فيهر ، فهو قرشيّ يجتمع مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرة بن كعب . وعبد الله أبوه كان من أشرف قريش وأثريّهم ، وكان يتجر إلى اليمن ، وقد بلغ من غناه أن كانت قريش تكسو الكعبة من مالها سنة ، ويكسوها هو من ماله سنة ، وقد استعمله رسول الله على الجند ومخالفها باليمن ، وكان اسمه في الجاهلية بـمُخَيْرِي ، فسماه رسول الله «عبدالله» .  
أما أمه فهي مجد من أهل اليمن ، ولعلّ رحلة أبيه إلى تلك الأصقاع في متاجره وولايته جعلته يتزوَّج أم عمر من هناك .

وقد ولد عمر ليلة قتل ابن الخطاب رضى الله عنه لأربع بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ . ولعلّ هذا هو السبب في تكنيته بأبي الخطاب ، وكان إذا جرى ذكره فيما بعد بين أهل التقوى قالوا في حديث ولادته : « أئى حقّ رفع وأئى باطل وضع » .

## نشأة عمر

نشأ عمر يتقلب في ثراء أبيه وغناه الواسع الذى علمت بعض شأنه ، فكان عمر فتى قرشيّاً مترفاً يلبس البرود اليمانية ، ويمتطى العتاق الفره ، قد حليت بالذهب والفضة ، ويسير في كوكبة من عبيده وأتباعه ، وكان فتى جميلاً يرجل لمته ، ويتعطر ولا عمل له إلا إمتاع نفسه بتلك الثروة الواسعة في بيئة ملئت بالترف ، وجمعت أسباب اللهو ، من جمال ، وغناء ، وغزل ، وفكاهة ، تلك هى الحجاز ، وماضم من المدينة ومكة والطائف .



نشأ عمر وحوله كل أسباب النبوغ في الشعر ، وبخاصة هذا النوع الذي اختص به وهو الغزل . فالغنى وفراغ البال ، وأنواع اللهو قد اجتمعت إلى طبع غزل وظرف معمم مخل . فإن أبوته من الحجاز ، وأمومته من اليمن ، وهما مشهورتان بصفاء الطبع ، وحلاوة الشائل ، ورقة العاطفة ، وخفة الروح . هذا إلى ملكة الفصاحة نمتها فيه قرشيته ، ونشأته بمواطن البيان ، ومجالى البلاغة .

أما اختصاصه بذلك النوع من الغزل لا يقول في غيره ولا يعدل عن سبيله ، فإنما كانت دواعيه إليه غناه عن التكسب بالمدح والزلفى إلى الرؤساء ، فلم يكن يقول الشعر لرغبة أو رغبة ، وإنما جعله وسيلة من وسائل نعيمه ، وسبباً من أسباب ترفه ، بل لقد كانت لذته الروحية مقرونة إلى لذائذه الحسية من مطعم وملبس وعركب ، فهو لم يذل عنقه مطعم يحرص عليه ، وإنما خضع للجمال ، واستأسر لمظهره ، وقضى حياته واقفاً على منظر من مناظره ، أو محدثاً عما وقع منه في نفسه . وعندنا أنه لم يكن يتكلف القول ليعد في الشعراء ، ولكنه كان يسجل في قوله حوادث جرت له وتاريخاً مر به فلا يتركه من غير أن يقيده في ذلك الشعر الذي يجعله صورة لحياته ، فهو في ذلك بمثابة المترفين الذين نعرفهم بينما يخرجون للصيد أو السياحة في البلاد ، ثم يحتفظون من هذه الحوادث بصور شمسية أو مذكريات يكتبونها ليكون في النظر إليها استعادة لهذه الذكريات الجميلة . فأبو الخطاب لم يتحدث إلى الناس وإنما تحدث إلى نفسه بهذا الشعر ، ولم يكن همه أن يقال له أحسنت أو استحقت جائزة . ودليل ذلك أنه لم يكن له مع الشعراء حديث طويل ، ولا له بهم اجتماع في سوق أو عند أمير . وإنما كان مجلسه في المعجبين بشعره من المغنين ، أو الفتيان الناشئين على نهجه في الغرام بالجمال والتحدث عنه .



## نوع الغزل في شعره

عرفت من سابق كلامنا عن الغزل في الشعر الأموي أنه انقسم في هذا العصر إلى أقسام : العذرى والإباحي والصناعي ، وإنما يهمننا في هذا المقام الموازنة بين النوعين الأولين . أما الغزل العذرى فقد كان شأن الأعراب في مطارح بدواتهم ، يعشق الرجل منهم امرأة بعينها ، فتملك عليه نواحي نفسه بل قد يضلّ سعيه ، ولا يستطيع أن يكتف حبه ، وهو يعلم أن في إشاعته وإذاعته حرمان الأبد منها ، ولكنه يضطرّ إلى ذلك اضطراراً ، فيحال بينه وبين ما يشتهي من الزواج بمحبوبته ، ويظلّ حياته شاكياً باكياً يخاطب الطباء وبقر الوحش لما يرى فيها من مشابه في محبوبته ، ويستهدى الرياح سلامها ، ثم لا يكون من عاقبة أمره إلا أن يموت كمدأً وقد ملأ الدنيا شعراً . وترى سمة هذا الشعر حرارة الوجدان ، وطهارة اللسان . واللهفة على اللقاء ، وحذر الرقباء . ليس فيه إغشاش في وصف ، ولا ذكر لخلوة ، ولا حيلة في الوصول ، ولا مقارفة لفاحشة في لقاء . ومن مظاهره أيضاً ، أن المرأة في هذا الشعر صامتة يقال لها ولا تقول ، وتناجى ولا تنعم بجواب .

وأما الغزل الإباحي فهو الذي يستباح فيه الشاعر ما لم يستبحه صاحب العذرى ، ومظهره أنه إلى اللهو أقرب منه إلى الغزل ، فإن الموصوفة فيه غير واحدة بل كلّ برزة الحاسن ، فهي عروس من عرائس هذا الشعر يصف منها الشاعر ظاهرها وخفيّ أمرها ، ويذكر الخلوة بها والتحدّث إليها ، وما كان بينهما من دعابة وتجميش ، بل لقد يبرز فيه الشاعر محبوبته محبة ، ومعشوقته عاشقة ، فهي ترسل إليه وتستزيره وتحتال لمصيره إليها ، وذلك في دين العشق القديم غير جائز ولا مستساغ .

وعمر بن أبي ربيعة هو صاحب هذا المذهب : أكثر من معشوقاته ووصفهن جميعاً في شعره وذكر ماجرى منه ومنهن ، ولم يكن العرب يعرفون الغزل بهذه المثابة قبله ، فحملوه لواء هذا النوع ، وجعلوه زعيم كلّ من اتبع سبيله من الشعراء .



وفرق ما بين هذا النوع وسابقه أن حرارة الوجدان في الأول محسة ملموسة وأن رنة الأسي فيه قوية الجرس شديدة الحنين وأنه إذ كان موطنه البداوة ظهرت فيه سماتها من سداجة وقناعة .

فاسمع سداجة جنادة العذرى حيث يقول :

مِنْ حُبِّهَا أَتَمَّتْ أَنْ يَلَاقِيَنِي      مِنْ نَحْوِ بَلَدَيْهَا نَاعٍ فَيَنْعَاهَا  
كَيْتَا أَقُولَ فِرَاقٌ لَاقِيَاءَ لَهُ      وَتُضْمِرِ النَّفْسُ يَأْسًا تَمَّ تَسْلَاهَا

ثم اسمع قناعة جميل حين يقول :

وَإِنِّي لِأَرْضِي مِنْ بَشِيئَةٍ بِالذِي      لَوْ أَبْصَرَهُ الْوَاشِي لَقَرَّتْ بِبَلَابِلِهِ  
بِلَا ، وَبِأَلَّا أَسْتَطِيعَ وَبِالْمُنَى      وَبِالْأَمَلِ الْمَرْجُورِ قَدْ خَابَ أَمَلُهُ  
وَبِالنَّظَرَةِ الْعَجَلَى وَبِالْحَوْلِ تَنْقُضِي      وَأَخْرَهُ لَا نَلْتَقِي وَأَوَائِلُهُ

أما الثاني فقد اجتمعت فيه ألوان الحياة المدنية من وصف للجمال لاحياء فيه ولا تخرج ، ومن حيل لا تهتدى إليها إلا ألمعية الحضريين ، ومن حديث مبناه الدعابة والظرف ، ولا يدل هذا النوع على أن قائله قد شغف فؤاده الحب وتامه الغرام ، وإنما أكبر دلالاته أن صاحبه طروب ميال للهو ، مطاوع لرغبات النفس ، يقول الشعر متفكهاً لا متولهاً ، ويجلس إلى الغانيات لا يرجو شفاء لداء الحب ، أو برداً لحرارة القلب ، ولكنه يزجي الوقت بحديثهن ، وإشباع العين من محاسنهن ، فهو ينتقل من مجلس الرباب إلى مجلس زينب ، ويخرج من عند عائشة إلى اللثريا ، وربما اجتمع بكثير منهن في مجلس واحد .

هكذا كان عمر بن أبي ربيعة ، فقد كانت صواحباته اللاتي ذكرهن في شعره هن : الثريا بنت علي ، وعائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين ، وزينب ، ونعم ، وفاطمة بنت عبد الملك ، ورملة ، ولبابة ، والرباب ، وأسماء .



## توبة عمر

ذكروا أن عمر تاب على حدود الأربعين ، ونذر لئن قال بيتاً ليعتقن به رقبة ، ثم انصرف إلى بيته حزينا ، وأدركت جارية له مايجول بنفسه من أسف على تلك التوبة ، ومنازعة إلى العودة إلى ما كان فيه ، فقالت له : إن لك لأمرأ ، وإنك لتريد أن تقول شعراً ، فاندفع يقول :

تَقُولُ وَلِيَدِي لَمَّا رَأَيْتَنِي	طَرِبْتَ وَكُنْتَ قَدْ أَقْصَرْتَ حِينَا
أَرَاكَ الْيَوْمَ قَدْ أَحْدَثْتَ شَوْقًا	وَهَاجَ لَكَ الْهَوَى دَاءً دَفِينًا
وَكَنْتَ زَعَمْتَ أَنَّكَ ذُو عَزَاءٍ	إِذَا مَا شِئْتَ فَارَقْتَ الْقَرِينَا
بِرَبِّكَ هَلْ أَتَاكَ لَهَا رَسُولٌ	فَشَاقَكَ أَمْ بَعَثَتْ لَهَا خَدِينَا <sup>(١)</sup>
فَقُلْتَ شَكَاَ إِلَى أَخٍ مُحِبِّ	كَبَعْضِ زَمَانِنَا إِذْ تَعَلَّمِينَا
فَقَصَّ عَلَيَّ مَا يَلْقَى بِهِنِدٍ	فَوَافِقَ بَعْضِ مَا قَدْ تَعْرِفِينَا
وَذُو الْقَلْبِ الْمُصَابِ وَإِنْ تَعْرَى	مَشُوقٍ حِينَ يَلْقَى الْعَاشِقِينَا
وَكَمْ مِنْ خَلَةٍ أَعْرَضَتْ عَنْهَا	مِنْ أَجْلِكُمْ وَكَنْتُ بِهَا ضَمِينَا <sup>(٢)</sup>
أَرَدْتُ فِرَاقَهَا وَصَبَرْتُ عَنْهَا	وَلَوْ جَنَّ الْفُؤَادُ بِهَا جُنُونًا

قالوا : ثم دعا بتسعة من عبيده فأعتقهم .

وقيل في سبب التوبة : إن أخاه الحرث بن عبد الله لما رأى ما كان منه من استهتار وخروج عما يليق بشرفه ومكانته سيره إلى اليمن ورشاه بألف دينار على ترك الشعر ، فلم يستطع الصبر وقال الشعر من اليمن ، فوصل مع الريح إلى الحجاز .

(١) الحدين : الصديق الذي يجادل فيكون منك في كل أمر ظاهر وباطن ، ومنه خدن الجارية (محدثها) وكان العرب في الجاهلية لا يمتنعون أن يكون للجارية خدين يحدثها فنع الإسلام ذلك قال الله

تعالى « ولا تمتدحى أخدان » ،

(٢) الخلة بالضم : الخيلة .



تذكر الثريا يوما وهو نازح الدار ، فقال :

هياتَ مِنْ أُمَّةِ الوهَابِ منزلنا  
واحتلَّ أَهْلُكَ أَجِيَادًا فليس لنا  
لا داركم دارنا يا وهب إن نَزَحْتَ  
فلستُ أُمْلِكُ إِلَّا أَنْ أَقُولَ إِذَا  
يا وهبُ إن يَكُ قَدْ شَطَّ البِعَادُ بِكُمْ  
فكمَ وَكمَ من دَلَالٍ قَدْ شَغِفَتْ بِهِ  
بَلْ مَا نَسَيْتُ بِيظِنِ الخَيْفِ موقِفَهَا  
وقولها للثريا يومَ ذِي خُشْبِ  
بالله قولي له في غَيْرِ مَعْتَبَةٍ  
إن كنتَ حاولتَ دُنْيَا أَوْ نَعِمَتَ بِهَا

إِذَا حَلَلْنَا بِسَيْفِ البَحْرِ من عَدَنِ (١)  
إِلَّا التذَكُّرُ أَوْ حَظُّ من الحَزَنِ (٢)  
نَوَاكٍ عَنَّا وَلَا أوطَانُكُمْ وَطَنِي  
ذَكَرْتُ لَا يُبْعِدُنكَ اللهُ يَا سَكَنِي  
وَفَرَّقَ الشَّمْلَ مَنَاصِرَ فِذَا الزَّمَنُ  
منكم متى يَرَهُ ذُو العَقْلِ يَفْتَنُ  
وموقفي وَكِلَانَا نَمَّ ذُو شَجَنِ  
والدمع منها على الخدَّينِ ذُو سُنَنِ  
ماذا أُرِدْتَ بِطُولِ المُكْتِ فِي يَمِينِ  
فَمَا أَخَذْتَ بِتَرْكِ الحِجِّ من ثَمَنِ

وقيل : إنه إنما تاب في أيام خلافة عمر بن عبد العزيز حين كتب إلى عامله على المدينة : ان أحمل إلى عمر بن أبي ربيعة والأحوص ، فقد عرقتهما بالخبث ، فلما صارا عنده قال لعمر : هيه :

فلم أَرِ كالتَّجْمِيرِ مَنْظَرَ ناظِرٍ  
وكمَ مَالِي عَيْنِيهِ من شَيْءٍ غَيْرِهِ  
إِذَا رَاحَ نَحْوَ الجَمْرَةِ البِيضِ كَالثَّمِي

فإذا لم يفلت الناس منك في هذه الأيام فمتى يفلتون ؟ أما والله لو اهتممت بأمر حجك لم تنظر إلى شيء غيرك ، ثم أمر بنفيه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أو خير من ذلك ؟ قال : وما هو ؟ قال : أعاهد الله ألا أعود إلى مثل هذا الشعر ، وأجدد توبة على يدك . قال : أو تفعل ؟ قال : نعم . فعاهد الله على التوبة وخلاه .

(١) سيف البحر : ساحله .

(٢) أجيد : موضع بكة ، وسمى كذلك لأن تبعا لما قدم مكة ربط خيله به فسمى بذلك .



ولقد يكون من المعقول أن عمر تاب بوجي ضميره لم يدفعه إلى ذلك إغراء أخيه  
بالمال ، ولا تخويف الخليفة بالنفي ، ولكنها السنّ وطول العهد يحملان على الملل ،  
فجدير بعمر وقد رأى شبابه يتصوّح ، وصباه تتعرى أفراسه ورواحله ، والغواني يزور  
عنه جانبهنّ ، جدير به لكلّ هذا أن ينصرف عن اللهو وأن يتوب ، ثمّ كذلك غير  
مستغرب من أمره أن تهيج له الذكرى بعض ما كان فيه فيعود إلى شيء من غزله  
ولكن حدثه تكون قد فترت وجلال السن يرأبه عن ذكر ما كان يحمله له الشباب  
وشرخه من فتك في العشق وفحش في الغرام ، فترك دعوى التوسد ، ونزع المجاسد ،  
وفك الإزار ، وحل المعاهد ، ورشف الثغور ، وضم الخصور ، وذكر الغافلات ، ورمى  
المحصات ، فأصبح يقول :

إِنِّي امْرُؤٌ مُؤَلِّعٌ بِالْحَسَنِ أَتْبَعُهُ      لَأَحَظَّ لِي فِيهِ إِلَّا لَذَّةَ النَّظَرِ  
ويقول :

رَبِّ يَوْمٍ لَهَوْتُهُ      بجوار ربائب (١)  
ليس فيه محرّمٌ      وإله المغارب  
غير أنا نشفى الصدو      ر بذرو التّغائب (٢)

بعد أن كان يقول :

ثمّ قالت وساحت بعد منع      وأرّتني كفاً تزيّن السّوارا  
فتناولتها فمالت كغصنٍ      حرّ كته الريح عليه فارا  
وأذاقت بعد العلاج لذيذاً      كجنّي النّخل شاب صرّفاً عقارا  
ثمّ كانت دون اللحاف لمشغو      في معني بها صبوب شعارا  
واشتكت شدة الإزار من البهر      وألقت عنها لدى الحمارا

(١) ربائب : جمع ربيبة وهي المعاهدة بالتربية .

(٢) الذرو مر القول : الطرف منه ، وأخذ في ذرو الحديث : إذا عرض ولم يصرح .



حبذا رَجَعُهَا إِلَيْهَا يَدِيهَا      فِي يَدَيَّ دِرْعَهَا تَحُلُّ الْإِزَارَا  
ويقول :

فَنَاهَبْتُ لَهَا فِي خَفِيَّةٍ      حِينَ مَالِ اللَّيْلِ وَاجْتَنَّ الْقَمَرَ  
فَأَذَاقَتْنِي لَنَيْدَا خِلْتُهُ      ذَوْبَ بَحْلِ شَيْبٍ بِالْمَاءِ الْخَصِرِ<sup>(١)</sup>  
وَمُدَامٍ عُمَّتَتْ فِي بَابِلٍ      مِثْلَ عَيْنِ الدِّيكِ أَوْ حَمْرِ جَدْرٍ<sup>(٢)</sup>  
فَتَقَصَّتْ لَيْلَتِي فِي نِعْمَةٍ      مَرَّةً أَلْتَمُهَا غَيْرَ خَفِرٍ  
وَأَفْرَى مِرْطَهَا عَنِ مُحْطَفٍ      ضَامِرِ الْأَحْشَاءِ نَعْمَ الْمُؤْتَزِرِ  
فَلَهُونَا لَيْلِنَا حَتَّى إِذَا      طَرَبَ الدِّيكِ وَهَاجَ الْمُدَكِّرِ  
حَرَّكَتْنِي ثُمَّ قَالَتْ جَزَعًا      وَدَمُوعَ الْعَيْنِ مِنْهَا تَبْتَدِرِ  
قَمَّ صَفِيَّ النَّفْسِ لِاتْقَضْحِي      قَدْ بَدَا الصَّبْحُ وَذَا بَرْدُ السَّحَرِ

### خصائص شعر عمر

أظهر ما في هذا الشعر من الخصائص ذلك القصص الذي يطول فيه نفس عمر بما لم يسبق إليه شاعر من العرب : فيذكر لك الحيلة في اللقاء ، ثم ماجرى من عناق وحديث وماتلطف به للخلاص من الرقباء ، كما يحكي لك مراسلته للحبيبة ، ومازود به الرسول من قول وحذر وما رجع به الرسول من تحية الحبيبة وترحيبها ، وما كان بين القواني من نقاش في أمره ، وحديث عن زيارته ، فهو بذلك خالق لهذا النوع من القصص الذي يدعى بعض علماء الأدب ظلما خلوا الشعر العربي منه ، فهاهو ذا شعر ابن أبي ربيعة يقيم الدليل على أن العرب لم يعيهم هذا النوع .

(١) الخصر : البارود .

(٢) المدام : الخمر كالمدامة ، وسميت كذلك لطول دوامها في الدن . جدر : بلدة بين حمص وسلمية .



فاستمع لقول عمر ، واعله جمع لك كل ما يكون من لقاء ، وما يجرى في اللقاء من حديث الحب وما يعرض فيه من وصف الجمال ، ثم ما يكون من الهموم بالرحيل ووصف الوداع ، وذكر الحيلة في الخلاص ، واستشارة المرأة لمن يكتمن سرها من أخواتها حتى لا يفتضح أمرها ، فذلك حيث يقول عمر :

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت مصابيحُ شُبَّتْ بالعشاء وأنورُ (١)  
وغاب قُمْرٌ كنت أرجو قُيُوبَهُ وَرَوَّحَ رُعِيَانُ وَنَوَّمَ مَمَّرُ (٢)  
وَنَفَضْتُ عَنِ النَّوْمِ أَقْبَلْتُ مِشِيَةَ الْحُجَابِ وَرُكْنِي خِيْفَةَ الْقَوْمِ أَرْوَرُ (٣)  
فَحِيَّتُ إِذْ لَاقَيْتَهَا فَتَوَلَّهْتُ وَكَادَتْ بِمَكْنُونِ التَّحِيَّةِ تَجْهَرُ  
وَقَالَتْ وَعَصَّتْ بِالْبِنَانِ فَضَحَّتَنِي وَأَنْتَ امْرُؤٌ مَيْسُورٌ أَمْرِكُ أَعْسُرُ  
أَرَيْتَكَ إِذْ هُنَا عَلَيْكَ أَلْمٌ تَخْفَ رَقِيْبًا وَحَوْلِي مِنْ عَدُوِّكَ حُضْرُ (٤)  
فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَتَعْجِيلُ حَاجَةً سَرَّتْ بِكَ أَمْ قَدَانَامَ مَنْ كُنْتُ تَحْذَرُ  
فَقُلْتُ لَهَا بَلْ قَادَنِي الشَّوْقُ وَالْهَوَىٰ إِلَيْكَ وَمَا عَيْنٌ مِنَ النَّاسِ تَنْظُرُ  
فِيَاللَّكَ مِنْ لَيْلٍ تَقَاصَرَ طُولُهُ وَمَا كَانَ لَيْلِي قَبْلَ ذَلِكَ يَقْصُرُ  
وِيَاللَّكَ مِنْ مَلْهَىٰ هُنَاكَ وَمَجْلِسٍ لَنَا لَمْ يُكَدِّرْهُ عَلَيْنَا مُكَدِّرُ  
يَمْبِجُ ذِكِّي الْمِسْكَ مِنْهَا مُفْلَجٌ رَقِيْقُ الْحَوَاشِي ذُو غُرُوبٍ مُؤَسَّرُ (٥)  
يَرِفٌ إِذَا تَفَرَّتْ عَنْهُ كَأَنَّهُ حَصَى بَرْدٍ أَوْ أَقْحُوَانٌ مُنَوَّرُ (٦)

(١) أنور : جمع نار ، ويقال أنور بالواو أيضاً .

(٢) رَوَّحَ رُعِيَانُ : أى روحوا إليهم . رُعِيَانُ : جمع راع كركبان جمع راكب . ومَمَّرُ : جمع ماسر .

(٣) فى رواية العين بدل النوم ، والمعنى احترست من العين ( الرقيب ) . والنفضة : القوم يتقدمون الجيش يفتشون له الطريق .

(٤) أَرَيْتَكَ : أسألك أراءيتك ، ومعناها أخبرني . هنا . من هان بمعنى حقر .

(٥) المفلج : الفم الذى بين أسنانه فروج . الغروب : جمع غرب وهو الحد ، وتحديد الأسنان ( دقة أطرافها ) جمال فيها . يقال أشرت الأسنان إذا صار فيها حزوز ، والواحد منها أشرة ، والجمع أشر .

(٦) يرف : يتلألأ . البرد : قطع الثلج تسقط من السماء عند اشتداد البرد ، تشبه بها الأسنان فى البياض .



وترنؤ بعينيهما إلى كما رنا  
فلما تقضى الليل إلا أقله  
أشارت بأن الحى قد حان منهم  
فما راعى إلا منادى برحلة  
فلما رأت من قد تشور منهم  
فقلت أباديهم فإما أفوهم  
فقلت أنحقيقا لما قال كاشح  
فإن كان ما لا بد منه فغيره  
أفص على أختى بدء حديثنا  
لعلها أن تبغيا لك مخرجا  
فقامت كئيبا ليس فى وجهها دم  
فقلت لأختها أعينا على فتى  
فأقبلت فارتاعتا ثم قالتا  
يقوم فيمشى بيننا متنكرا  
فكان مجئى دون من كنت أتقى  
فلما أجزنا ساحة الحى قلن لى

إلى ررب وسط الجملة جوذر<sup>(١)</sup>  
وكادت توالى نجمه تنعور<sup>(٢)</sup>  
هبوب ولكن موعداك عزور<sup>(٣)</sup>  
وقد لاح مفتوق من الصبح أشقر  
وأيقاظهم قالت أشر كيف تأمر  
وإما ينال السيف نارا فيشار<sup>(٤)</sup>  
علينا وتصديقا لما كان يؤثر<sup>(٥)</sup>  
من الأمر أدنى للخفاء وأستر  
ومالى من أن تعلمتا متأخر  
وأن ترحبا سرا بما كنت أخصر<sup>(٥)</sup>  
من الحزن تدرى عبرة تتحدر  
أنى زائرا والأمر للأمر يقدر  
أقل عليك ألهم فالخطب أيسر  
فلا سرنا ينشؤ ولا هو يظهر  
ثلاث شخصوص كعبان ومعصر<sup>(٦)</sup>  
ألم تنق الأعداء والليل مقمر

(١) الررب : القطيع من بقر الوحش . الجوذر بضم الذال وفتحها : ولد البقرة الوحشية .

(٢) عزور : موضع بكة .

(٣) أبا ديهم : أظهر عليهم .

(٤) يؤثر : يحكى .

(٥) السرب ، بالفتح : الصدر ، وبالكسر : النفس . أخصر من حصر ( كفرح ) : ضاق ذراعا .

(٦) الحجن : الترس ، والمراد هنا مطلق الوقاية فى ثلاث شخصوص ، أنت العدد على المعنى لكلمة شخص

لأن المراد به هنا المرأة . المعصر : المرأة راهقت العشرين .



وَقُلْنَ أَهَذَا دَابُّكَ الدَّهْرَ سَادِرًا      أَمَا تَسْجِي أَوْ تَرَعَوِي أَوْ تُفَكِّرُ (١)  
كذلك من خصائصه في شعره تهوين أمر الحبّ وتسهيّله على الناس ، وجعله سنة  
الطبيعة منذ خلق الناس ، فهو يقول لمحبوبته :

وقولي لنِسْوَانٍ لِحَيْنِكَ فِي الهوى      إِذَا عَقَلُ إِحْدَاهُنَّ عَنْ وَصَلِنَا عَزَبَ  
أَجِنَّا الَّذِي لَمْ يَأْتِهِ النَّاسُ قَبْلَنَا      قَقْبَلِي مِنَ النَّسْوَانِ وَالنَّاسِ مَنْ أَحَبُّ



فَإِنْ نَحْنُ جُنَّا سُنَّةً لَمْ تَكُنْ مَضَتْ      فَنَحْنُ إِذَا مِمَّا يَقُولُونَ أَخْرَقُ  
وَإِنْ كَانَ أَمْرًا سَنَّهُ النَّاسُ قَبْلَنَا      فقيم مقالُ النَّاسِ فِينَا تَفَرَّقُوا ؟  
أَحَقُّ بَأَنْ لَمْ تَهَوَّ غَانِيَةٌ فَتِي      وَأَنْ أَنْسَأَ لَمْ يُحِوْا وَيَعَشَقُوا  
فمن ذا الذي إن جئتُ ما أمروا به      يَمِيْتُ بِهِمْ آخَرَ اللَّيْلِ يَأْرُقُ (٢)  
وقد أورد الأغانى : أن مُصْعَبَ بن عبد الله بن الزُّبَيْرِ عدد من خصائص شعر عمر نيفاً  
وخمسين ميزة ، ولكننا نعدّها أكثرها معنى اخترعه أو لفظاً وفق إليه أو أسلوباً تلتف  
فيه ، وليست جميعها من الجساماة بحيث تكون أصولاً ثابتة ، ومزايا شاخصه .  
ومما قاله مصعب فيه :

« راق عمر بن أبي ربيعة وفاق نظراءه وبرعهم بسهولة الشعر ، وشدّة الأسر ،  
وحسن الوصف ، ودقة المعنى ، واستنطاق الربع ، وإنطاق القلب ، وعطف المساءة على  
العدال ، وقد قاس الهوى وأعلنه وأسرّه ، وقنع بالرجاء من الوفاء ، واستبكي عاذله ،  
ونقض النوم ، وأغلق رهن منى » .

وأنت ترى أن بعض هذه المزايا يشاركه فيها غيره كسهولة الشعر وشدّة الأسر ،

(١) السادر : الذى لا يهتم ولا يبالي ما يصنع .

(٢) أى إذا فعلنا ما أمروا به من عدم اللقاء فنحن الذين سنشقى بالأرق والحزن .



وحسن الوصف ، ودقة المعنى ، واستنطاق الربع . وبعضها ليست إلا سبقاً إلى معنى أو اهتداء إلى أسلوب .

فأما السبق إلى المعنى ، فقوله في عطف المساءة على العُدَّال :

لَا تَلْمُنِي عَتِيقُ حَسْبِي الَّذِي بِي      إِنَّ بِي يَا عَتِيقُ مَا قَدْ كَفَانِي  
لَا تَلْمُنِي وَأَنْتَ زَيَّتَهَا لِي      أَنْتَ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ

كذلك قياسه الهوى في قوله :

وَقَرَّبَنَ أَسْبَابَ الْهَوَى لِمُتَمِّمٍ      يَقِيسُ ذِرَاعًا كَمَا قَسَنَ إِصْبَعًا

وأما ما سبق إليه من لفظ ، فاستعماله تنفيض النوم في قوله :

وَنَفَضْتُ عَنِ النَّوْمِ أَقْبَلَتْ مَشِيَةَ الْحُجُبَابِ      وَرُكْنِي خَشِيَةَ الْقَوْمِ أَرْوَرُ

وأما ادعاء ابن الزبير سبقه الشعراء في إغلاق الرهن في قوله :

وَكَمْ مِنْ قَتِيلٍ لَا يُبَاءُ بِهِ دَمٌ      وَمِنْ عَلَقٍ رَهْنًا إِذَا لَفَّهُ مَنِي<sup>(١)</sup>

فقد سبقه امرؤ القيس في قوله :

عَلَقَنَ بِرَهْنٍ مِنْ حَبِيبٍ بِهِ أَدَعَتْ      سَلِيمَى فَامَسَى حَبْلَهَا قَدْ تَبَتَّرَا

ولا يفوتنا أن نذكر أن عمر بن أبي ربيعة تلمذ في موضوع شعره ، وهو الغزل لامرئ

القيس ، فأخذ معانيه ، ولكنه زاد فيها كثيراً وحلاها بصنع المدينة وزبرج الحضارة ،

وله فيها حيلة الشياطين ، ورقى المشعوذين<sup>(٢)</sup> في حين أن امرأ القيس بدوى لا يرى غير

مشرفيه مخلصاً من كل ورطة . وفي الرائية التي مرّت بك كثير من المعاني تأثر فيها عمر

أستاذه امرأ القيس في لاميته التي أولها :

أَلَا عَمَّ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي      وَهَلْ يَعْصَمُنْ مَنْ كَانَ فِي الْعُصْرُ الْخَالِي

فعمر يقول :

(١) يقال أبأت فلانا بفلان إذا قتلته به . ويقال غلق الرهن في يد المرتهن : إذا مضى وقت استرداده فاستحقه المرتهن . منى : أحد مناسك الحج . ولفه : أى جمعه فيمن جمعهم .

(٢) الشعوذة : خفة في اليد وأخذ كالسحر . والمشعوذ بصيغة الفاعل والمفعول : هو الذى يكون منه ذلك .



ونفضت عنى النوم أقبلت مشية الحُباب ورُكْنِي خيفة القوم أزور  
وأمرؤ القيس يقول :

سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حَبَاب الماء حالا على حال  
ولا شكَّ عندنا أن امرأ القيس لا يدانى فى بيته هذا ، فإنه معدود من أوابده .  
فإن مشية الحباب فى قول عمر وإن دلت على التسلل والحذر ليس فيها ما فى سمو  
حباب الماء وصعود فواقمه ، وذلك شىء يرى ولا حس له ، وهو فى السرعة والانتهاى  
إلى الغرض لا يقوم مقامه تعبير آخر ، وقد زاده قوله حالا على حال جمالا لا يعدله جمال  
لذلك كان قول امرئ القيس بحقَّ أشرف تعبيراً ، وأدقَّ تصويراً .  
ويقول امرؤ القيس :

فلما تنازعنا الحديثَ وأسمحتُ هَصَرْتُ بغصن ذى شماريخ ميَال  
وصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ورُضْتُ فذَلَّتْ صعبةً أىَّ إذلال  
ويقول عمر :

ثم قالت وساحتُ بعد منعٍ وأرتنى كفاً تزين السّوارا  
إلى آخر الأبيات السابقة فى أول الترجمة ، وامتياز عمر ظاهر، فى تفصيله القول ، وحكاية  
الحال ، وإباحته المطلقة فحين يقول امرؤ القيس : \* « فذلت صعبةً أىَّ إذلال » \*  
يقول عمر : \* « أرتنى كفا تزين السوارا » \*

فجعلها هى البادئة بالغزل ثم يقول : \* « فتناولتها فمالت كغصن » \*  
فيصور الحركة تصويراً واضحاً ، ثم يفحش ويكشف ما ستر امرؤ القيس فى قوله :  
\* « ذلت أىَّ إذلال » \* ، فيقول : \* « ثم كانت دون اللحاف .. » \*  
فى قول امرئ القيس تمثل ضيق خيال البدوى وشدة إيجازه للقول وتجافيه عن الإفحاش  
إلى حدِّ ما ، وعلى خلاف ذلك قول عمر ، ففيه الخيال الواسع والإطناب الوافى والإفحاش  
الذى لا حجاب دونه ، ولا تورع معه .



ويقول امرؤ القيس :

فيالك من ليل كأن نجومه بكلِّ مُغارِ القتل شدتَّ بيديَّ بِل

ويقول عمر :

فيالك من ليل تقاصر طوله وما كان ليلى قبل ذلك يقصرُ

وبيت امرؤ القيس في موضوعه لا يضارعه بل لا يكاد يدنو منه بيت عمر فالقوة ظاهرة فيه ، والتشبيه محكم ، وبيت عمر خال من كل ذلك .

ويقول عمر :

وقالت وعَضَّتْ بِالْبَنَانِ فَضَحَّتَنِي وَأَنْتَ امْرُؤٌ مَيْسُورٌ أَمْرِكَ أَعْسَرُ

أَرَيْتَكَ إِذْ هُنَا عَلَيَّكَ أَلَمْ تَخَفْ رَقِيبًا وَحَوْلِي مِنْ عَدُوِّكَ حُضْرُ

ويقول امرؤ القيس :

فَقَالَتْ سَبَّكَ اللَّهُ إِنَّكَ فَاضِحِي أَلَسْتُ تَرَى السَّمَارَ وَالنَّاسَ أَحْوَالِي

وفي قول عمر أثر للحضارة ، واتساع معانيها ، والتلاعب بألفاظها .

ويقول عمر :

فَكَانَ حِجِّي دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَقِي ثَلَاثُ شُخُوصٍ كَأَعْبَانٍ وَمُعْصِرُ

ويقول امرؤ القيس :

أَيَقْتُلُنِي وَالْمَشْرِفِيُّ مُضَاجِعِي وَمَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَنْيَابِ أَعْوَالِ

فليجأ عمر إلى الحيلة في فواتهم ، وهذا فضل حضارته على بداوة امرؤ القيس .

## طرف من أخباره

١ - كان عمر محبباً للثريا بنت عبد الله بن أمية الأصغر ، وكانت حرة بذلك جمالا وتماما ، وكانت تصيف بالطائف ، وكان عمر يغدو كل غداة من مكة يسأل الركاب



الذين يحملون الفاكهة من الطائف إلى مكة عن الأخبار ، فلقى يوماً بعضهم فسأله عن أخبارهم فقال: ما استطرفنا خبراً إلا أن امرأة من قريش اسمها نجم في السماء (ذهب عن اسمها) قد ماتت ، فقال له عمر الثريا ، قال : نعم ، وكان قد بلغه قبل ذلك أنها عليلة ، فوجه فرسه إلى الطائف يرّ كضه ملء فروجه حتى انتهى إلى الثريا ، وقد توقعته ، وهي تتشوّف له وتتشوّق ، فوجدها سليمة ، ومعها أختها ، فأخبرها الخبر ، فضحكت وقالت : أنا والله أمرتهم لأخبر ما عندك ، وفي ذلك يقول عمر :

تَشَكَّى الكُمَيْتُ الجَرِيَّ لَمَّا جَهَدَتْهُ      وَبَيْنَ لَوْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَكَلَّمَ  
فقلتُ لَهُ إِنَّ أَلْقَى للعَيْنِ قُرَّةً      فهانَ عَلَيَّ أَنْ تَكِلَ وَتَسْأَمَا  
عَدِمْتُ إِذَا وَفَرِي وَفَارَقْتُ مُهْجَتِي      لئن لَمْ أَقِلْ قَرَنًا إِنْ اللهُ سَلَمًا<sup>(١)</sup>  
لذلك أدنى دون حَيٍّ لى مكانه      وَأَوْصِي بِهِ الْأَيُّهَانَ وَيُكْرَمَا

٢ — قالوا حجّ أبو الأسود الدؤلى ومعه امرأته وكانت جميلة ، فبينما هي تطوف إذ عرض لها عمر ، فأنت أبا الأسود فأخبرته ، فأتاه أبو الأسود فعاتبه ، فقال له عمر : ما فعلت شيئاً ، فلما عادت إلى المسجد كلمها ، فأخبرت أبا الأسود ، فأتاه في المسجد ، وهو جالس مع قوم ، فقال له أبو الأسود :

وَإِنِّي لَيْتَنِي عَنِ الجَهْلِ وَالخَنَا      وَعَنْ شَمِّ أَقْوَامٍ خَلَائِقُ أَرْبَعُ  
حِيَاءٌ وَإِسْلَامٌ وَبُقْيَا وَأَنِّي      كَرِيمٌ وَمِثْلِي قَدْ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ<sup>(٢)</sup>  
فَشْتَانٌ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ إِنِّي      عَلَى كُلِّ حَالٍ أَسْتَقِيمُ وَتَظْلَعُ<sup>(٣)</sup>

فقال عمر : لست أعود لكلامها بعد اليوم ، ثم عاد فكلمها ، فأنت أبا الأسود ، فأخبرته ، فجاء إليه ، وقال :

(١) أقل : مضارع قال بمعنى سكن وهدأ وقت القيلولة ( الظهر ) . قرن : موضع يسمى قرن المنازل يدكره عمر كثيراً في شعره ، والمعنى على الظرفية : أى أقل فيه .

(٢) البقيا : الاشفاق والرحمة .

(٣) ظلع ( كنفع ) عرج وغمز في مشيته .



أَنْتَ الْفَتَى وَابْنُ الْفَتَى وَأَخُو الْفَتَى      وَسَيِّدُنَا لَوْلَا خَلَاتِقُ أَرْبَعُ  
نُكُولٌ عَنِ الْجَلِّيِّ وَقُرْبٌ مِنَ الْخَنَّاءِ      وَجَلُّهُ عَنِ الْجَدْوَى وَأَنَّكَ تُبْعُ (١)

ثم خرجت ومعها أبو الأسود مشتملا على سيف ، فلما رآها عمر أعرض عنها ، فتمثل أبو الأسود :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له      وَتَتَّقِي صَوْلَةَ الْمُسْتَأْسِدِ الْحَامِي (٢)

٣ - واعد عمر نسوة من قريش إلى العقيق ليتحدثن معه ، فخرج إليهنّ ومعه الغريض ، فتحدثوا مليا ، ثم مطروا ، فقام عمر والغريض وجاريتان للنسوة ، فأظلوا عليهنّ بمطرف وبردين له حتى استترن من المطر إلى أن سكن ثم انصرفن ، فقال له الغريض : قل في هذا شعراً حتى أتغنى فيه ، فقال عمر :

أَلَمْ تَسْأَلِ الْمَنْزِلَ الْمُقْفِرَا      بِيَانَا فَيَكْتُمُ أَوْ يُخْبِرَا  
ذَكَرْتَ بِهِ بَعْضَ مَا قَدْ شَجَاكَ      وَحُقَّ لَدَى الشَّجْوِ أَنْ يَذْكَرَا  
مَبِيتَ الْحَبِيبِينَ قَدْ ظَاهَرَا      كِسَاءً وَبُرُودِينَ أَنْ يُمِطَّرَا  
وَمَمَشَى الثَّلَاثِ بِهِ مَوْهِنَاً      خَرَجْنَ إِلَى زَائِرٍ زَوَّارَا (٣)  
إِلَى مَجْلِسٍ مِنْ وَرَاءِ الْقُبَا      بِسَهْلِ الرَّبَا مُنْبِتِ أَغْفَرَا (٤)  
غَفَلْنَا عَنِ اللَّيْلِ حَتَّى بَدَتْ      تَبَاشِيرُ مِنْ وَاضِحِ أَسْفَرَا  
فَقَمْنَا يُعْفَيْنَ آثَارَنَا      بِأَكْسِيَةِ الْخَزِّ أَنْ تُقْفَرَا (٥)

(١) التبّع : من يتبع النساء .

(٢) البيت للنابعة . وقد أدخله الزبرقان في شعره . قال ابن سلام : سألت يونس عن البيت فقال : هو للنابعة وأظن الزبرقان استزاده في شعره كالمثل حين جاء في موضعه ، والعرب تفعل ذلك لا يريدون السرقة .

(٣) الموهن : الثلث الأول من الليل ، أو بعد ساعة منه .

(٤) القبة : البناء المسنن . والمراد هنا بيوت الحى لأهم إعادة تكون كذلك أو المراد بها الخيام . أغفر : وصف للمجلس : أى ذى رمل أحمر .

(٥) عني الذيل الأثر : محام . ففر الأثر : اقتفاه وتبعه والتقدير في قوله أن تقفرا : خوف ذلك



مَهَاتَانِ شَيِّعَتَا جُوذَرًا أَسِيلاً مُقَلَّدَهُ أُخَوَّرَا  
وَقُمْنَ وَقُلْنَ لَوَ أَنْتَ النِّهَا رَ مُدَّةَ اللَّيْلِ فَاسْتَأْخَرَا  
قَضَيْنَا بِهِ بَعْضَ أَشْجَانِنَا وَكَانَ الْحَدِيثُ بِهِ أَجْدَرَا

٤ - عتبت الثريا على عمر لأنه مدح رملة ( وكانت قبيحة جهمة الوجه عظيمة الأنف ) ، وكان من حديثها أن تزوجها عمر بن عبد الله بن معمر وجمع بينها وبين عائشة بنت طلحة ، فقال يوماً لعائشة : فعلت في محاربة الخوارج كذا وصنعت كذا فقالت له عائشة : أنا أعلم أنك أشجع الناس ، وأعرف لك يوماً أعظم من هذا اليوم الذي ذكرته ، وهو يوم اجتليت رملة ، وأقدمت على وجهها وأنفها . فلما قال عمر ابن أبي ربيعة في رملة :

وجلا بردُها وقد حسرتَه نُوْرَ بَدْرِ يُضِيءُ لِلنَّاظِرِيْنَا  
قالت الثريا : أفٍ له ما أ كذبه أو ترتفع حسناء بصفته لها بعد رملة ؟ ولكن ابن أبي عتيق توسط ما بين الثريا وعمر حتى عادت إلى الرضا ، وقد قص عمر قصتها هذه في قوله :

قال لي صاحبي ليعلم ما بي أَتَحِبُّ الْقَتُولَ أُخْتِ الرَّبَابِ (١)  
قلت وجددي بها كوجديك بالعدو ب إِذَا مَا مُنِعْتَ طَعْمَ الشَّرَابِ  
من رسولِي إلى الثريا فإني ضِقتُ ذَرْعًا بِهَجْرِهَا وَالكِتَابِ (٢)  
أزهقت أم نوفل إذ دعيتها مُهَجَّجَتِي مَالِقَانِي مِنْ مَتَابِ (٣)  
حين قالت لها أجيبي فقالت من دعاني ؟ قالت أبو الخطَّاب  
فأجابت عند الدعاء كما لبى رجال يرجون حُسنَ الثَّوَابِ  
أبرزوها مثل المهاة تهادى بين خمس كواعب أتراب

(١) القتل : صبغة مبالغة من القتل . الرباب : جمع ربابة بمعنى السحابة .  
(٢) والكتاب : قسم بالقرآن .  
(٣) أم نوفل كانت تتلطف لعمر عند الثريا فلما دعيتها لصلحه فلم تجبها الثريا كادت ترهق روحه .



وهي مكنونةٌ تحيّرُ منها في أديم الخدينِ ماءُ الشباب  
 دُميمةٌ عند رهابِ ذى اجتهادِ صَوْرُوها في جانبِ المخرابِ  
 ثم قالوا تحبّها قلتُ بهراً عدَدَ النجمِ والحصى والترابِ<sup>(١)</sup>  
 أذكرُ تني من بهجةِ الشمسِ لما طلعتُ من دُجْنَةِ وسحابِ  
 فارجحتُ من حُسنِ خلقِ عميمٍ تهادى في مشيها كالحبابِ<sup>(٢)</sup>  
 غصبتني مجاجةُ المسكِ عقلي فسألوها ماذا أحلَّ اغتصابي<sup>(٣)</sup>  
 قلدوها من القرنفلِ واللذُرِ رِ سخابًا واهأ له من سخابِ<sup>(٤)</sup>

### وفاة عمر

اختلفوا في موته ، فبعضهم يقول : إنه مات سنة ٩٣ هـ ، فيكون عمره سبعين سنة ، و بعض يقول : إنه عاش ثمانين سنة ، فيكون قد مات سنة ١٠٣ هـ ، ويكون خبر لقائه لعمر بن عبد العزيز صحيحاً لأن عمر بن عبد العزيز لم يتول إلا سنة ٩٩ هـ .  
 ويروى أنه لما مات اشتدَّ الحزن على جارية حبشية بمكة ، وراحت نحو المدينة أشدَّ ما تكون حزناً وإعوالاً ، وهي تقول من لمكة وشبابها وأباطحها ونزهاها ، ووصف نساءها ، وحسن جاملن بعد عمر ، فقالوا لها : خفي عليك فقد نشأ من يأخذ مأخذه ، ويسلك مسلكه يعنون العرجي ، فقالت : أنشدوني من شعره ، فأنشدوها :  
 إني وما نَحَرُوا عِدَاةَ مِنِّي عند الجِمارِ تَوَوَّدَهُ العُقْلُ<sup>(٥)</sup>

- (١) بهرا : أى بهرتني حبها بهرا أى غلبني . وقيل إن بهرا معناه تبا لكم على لومكم لى فى حبها فبهي كلمة دعاء عليهم .
- (٢) ارجحن : مال واهتز . عميم : تام . الحباب : الحية .
- (٣) مجاجة : صيغة مبالغة ، من مج الشيء بمعنى لفظه من فيه ، يعنى أنها لطيب نكهة فيها كأنما تخرج منه مسكا .
- (٤) السخاب : القلادة . واهالكذا : كلمة تعجب بمعنى ما أحسنه .
- (٥) العقل : جمع عقال ، وهو ماتقيد به الدابة والأصل فى الجمع عقل بضمتين وسكن تخفيفاً للشعر ويصح ضبطها العقل بالفتح (كبحر) والمعنى يثقله الحبس .



لو بُدِّلتْ أَعلىٰ مَنازِلِها سَفَلًا وأَصبَحَ سَفَلِها يعلو  
فيكاد يَعرِفُها الخَبيِرُ بِها فَيُرُدُّه الإِقواءَ وَالْمَحَلَّ (١)  
لَعرِفَتْ مَعنَها بِما اِحْتَمَلَتْ مِنى الضلوعُ لِأهلِها قَبْلَ (٢)

فَسَحَتْ عَينِها وَضَحِكَتْ وَقالتْ : الحمد لله الذي لم يُصَيِّعِ حَرَمَهُ .

### ج ر ير

[ نسبه ] : هو جرير بن عطية بن الخطفي (٣) ، والخطفي هو حذيفة بن بدر ،  
وينتهي إلى نزار ، وكنية جرير أبو حزره . وأم جرير بنت سعد بن عمير ، وينتهي  
إلى يربوع ، وأم عطية هي النوار بنت يزيد ، وينتهي إلى كليب .

وجرير من كليب وكليب من يربوع ويربوع من بنى تميم ، وتميم من مضر ،  
ومضر تنتهي إلى عدنان ، وهذا هو الذي جعله يقول في مفاخرة الأخطل :

إن الذي حرم المكارم تغلبا      جعل الخلافة والنبوة فينا  
مُضَرُّ أَبِي وَأَبوالْمُلوكِ فِهَلْ لَكُمْ      يا خَزُرُ تَغْلِبُ مِن أَبِ كائِنَا  
هذا ابن عمي في دمشق خليفة      لو شئتُ ساقمكم إلى قطينا

[ نشأته ] : ولد باليمامة (٤) سنة ٤٢ هـ في خلافة عثمان وقيل إنه ولد لسبعة أشهر ،  
وإن أمه رأت قبل ولادته كأنها ولدت حبلا أسود ، فلما سقط منها جعل ينزو ويقع

(١) الإقواء : عفاء الدار . المحل : الجذب .

(٢) المعنى : المنزل الذي غني بأهله ثم طعنوا عنه ، أو عام .

(٣) غلب لقب الخطفي على جد جرير لوقوع هذا اللفظ في شعره . ومعنى الكلمة السير السريع .

(٤) كان قوم جرير ينزلون بقرية حجر من قرى اليمامة بالجنوب الشرقي من نجد ( وهي المسماة

الآن بالرياض ) .



في عنق هذا فيخنته حتى فعل ذلك برجال كثيرة ، فانتبهت فرعة فأولت الرؤيا ، فقيل لها تلدين غلاما شاعراً ذا شرّ وشدّة وشكيمة وبلاء على الناس ، فلما ولدته سمته جريراً ، وهو الحبل ، وجعلت ذلك رمزاً إلى رؤياها .

نشأ باليمامة أعرابياً بدوياً فقيراً يعرّى لأبيه غنيمات له من الضأن والمعزى ، وكان في أخلاقه حبّ الانتقام والإسراف في العداوة ، والميل إلى الشرّ مع خوف وجبن من أعوان السلطان ، وكان مع ذلك ديناً كثير الصلاة والاستغفار عفيفاً ، وإن كان دينه لم يمنعه من قذف المحصنات في سبيل هجاء قومهن .

وما زال جرير بالبادية حتى قال الشعر ، ثم قدم الشام على يزيد بن معاوية ، وهو وليّ عهد ، ومدحه بقصيدة منها :

وَإِنِّي لَعَفُّ الْفَقْرِ مُشْتَرِكُ الْغِنَى      سَرِيعٌ إِذَا لَمْ أَرْضَ دَارِي أَنْتَقَالِيَا  
جَرِيءُ الْجَنَانِ لِأَهَابِ مِنَ الرَّدَى      إِذَا مَا جَعَلْتُ السَّيْفَ قَبْضَ بَنَانِيَا  
وَلَيْسَ لِسِنِّي فِي الْعِظَامِ بَقِيَّةٌ      وَلِلسَّيْفِ أَشْوَى وَقَعَةٌ مِنْ لِسَانِيَا

وحدث أن يزيد كتب بهذه الأبيات إلى أبيه معاوية في معرض معاتبة ، ولم ينسبها إلى قائلها ، فظنّ أبوه أنها له ، فلما صار يزيد خليفة استأذن عليه جرير ، فقال له الحاجب : إن أمير المؤمنين يقول : لا يصل إلينا شاعر لا نعرفه ، ولا نسمع بشيء من شعره ، وما سمعنا لك بشيء فنأذن لك على بصيرة ، فقال جرير قل لأمير المؤمنين إني القائل ، وذكر الأبيات السابقة فعرفه يزيد وأذن له فأنشده ، واستحقّ جائزته وقال له : والله لقد مات أبي وما يظنّ أبياتك التي توصلت بها إليّ إلا لي .

ثم كان يقدم البصرة لهيرة ، فرأى ما يتمتع به الفرزدق ، ( وهو تميمي مثله ) من عطايا الخلفاء ، فنفس عليه منزلته وودّ لو يغلبه على مكائته ، فاتصل التهاجي بينهما ، ولكن قول الفرزدق كان أشيع لإقامته بالبصرة مجمع العرب وللازوم جرير للبادية وظل جرير يهجو الفرزدق عشرين سنين وهو مقيم بالبادية والفرزدق بالحاضرة فكان شعره أشيع . ثم ما زال بنو يربوع قوم جرير يرغبونه في سكني المصر حتى يشيع لهم ذكر بما



يجرى على لسان شاعرهم من مفاخرهم والتنويه بمكاتبتهم ، فقدم جرير البصرة وفيها  
اتصل بالحجاج ، وشاع شعره فشرق وغرب حتى وصل إلى الخليفة عبد الملك . أقدمه  
عليه الحجاج مع ابنه محمد ، وصار من شعراء الخليفة ، وكان عطاؤه أربعة آلاف درهم  
في العام .

### مهاجته للشعراء

قال الأصمعي : كان ينهش جريراً ثلاثة وأربعون شاعراً ، فيبذم وراء ظهره ،  
ويرمى بهم واحداً واحداً ، ومنهم من كان ينفخه فيرمي به ، وثبت له الفرزدق  
والأخطل ، وكان من هاجى جريراً فغلبه جرير أرجح عند الناس ممن هاجى شاعراً  
آخر فغلب .

ولقد سأل رجل جريراً : من أشعر الناس ؟ فقال له : قم حتى أعرفك الجواب ،  
فأخذ بيده وجاء إلى أبيه عطية ، وقد أخذ عنزاً له فاعتقلها ، وجعل يمصّ ضرعها ،  
فصاح به : اخرج يا أبت ، فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال لبن العنز على لحيته ،  
فقال له : ألا ترى هذا ؟ قال : نعم . قال : أو تعرفه ؟ قال : لا . قال هذا أبي . أفتدري  
لم كان يرضع العنز ؟ قال : لا . قال : مخافة أن يسمع صوت الحلب فيطلب منه اللبن .  
ثم قال : أشعر الناس من فخر بهذا الأب ثمانين شاعراً فغلبهم جميعاً .

وأسباب مهاجته للشعراء قد وردت في حديثه مع الحجاج حين قدم عليه من قبل الحكم  
من أيوب الثقفي ، فإن الحجاج أكرمه وكساه وأنزله بكنفه فأقام أياماً ، ثم بعث إليه  
بعد نومه ، فلما دخل عليه قال له : إيه يا عدو الله ! علام تستم الناس وتظلمهم ؟ فقال :  
جعلت فداء الأمير . إني والله ما أظلمهم ، ولكنهم يظلمونني فأنتصر ، مالي ولا بن  
أم غسان ، ومالي وللبعيث ، ومالي وللفرزدق ، ومالي وللأخطل حتى عدّهم واحداً  
واحداً ؟ فقال الحجاج : ما أدري مالك ولهم . قال : أخبر الأمير أعزّه الله : أما غسان



ابن دُهَيْلٍ فإنه من قومي هجاني وهما عشيرتي ، وكان شاعراً قال الحجاج : فما قال ؟ قال :

لَعَمْرِي لَنْ كَانَتْ بَجِيلَةَ زَانِهَا      جَرِيرٌ لَقَدْ أَخَزَى كَلْبِيَا جَرِيرُهَا  
رَمَيْتَ نَضَالًا عَن كَلْبٍ فَقَصَّرْتَ      مَرَامِيكَ حَتَّى عَادَ صِفْرًا جَفِيرُهَا<sup>(١)</sup>  
وَلَا يَذْبَحُونَ الشَّاةَ إِلَّا بِمَيْسِرٍ      طَوِيلًا تَنَاجِيهَا صِفَارًا قُدُورُهَا<sup>(٢)</sup>

قال : فما قلت له ؟ قال :

أَلَا لَيْتَ شَعْرِي عَن سَلِيطٍ أَلَمْ تَجِدْ      سَلِيطٌ سَوَى غَسَّانَ جَارًا يُجِيرُهَا<sup>(٣)</sup>  
فَقَدْ صَمَّمُوا الْأَحْسَابَ صَاحِبِ سَوْءٍ      يَنَاجِي بِهَا نَفْسًا خَبِيثًا ضَمِيرُهَا  
فَمَا فِي سَلِيطٍ فَارِسٌ ذُو حَفِيظَةٍ      وَمَعْقِلُهَا يَوْمَ الْهِيَاجِ جُعُورُهَا<sup>(٤)</sup>

قال : ثم من ؟ قال البَعِيثُ . قال : فما لك وله ؟ قال : اعترض دون ابن أم غَسَّانَ ليفضله عليَّ ويُعِينه . قال : فما قال لك ؟ قال :

كَلْبِيُّ لِسَامِ النَّاسِ قَدْ تَعَلَّمُونَهُ      وَأَنْتَ إِذَا عَدَّتْ كَلْبِيٌّ لَتِيمُهَا  
لَقِيَ مُعَدَّ الْأَحْسَابِ مُنْقَطِعٌ بِهِ      إِذَا الْقَوْمُ رَامُوا خُطَّةً لَا يَرُومُهَا<sup>(٥)</sup>  
أَتَرْجُو كَلْبِيَّ أَنْ يَجِيءَ حَدِيثُهَا      بِخَيْرٍ وَقَدْ أَعْيَا كَلْبِيًّا قَدِيمُهَا

قال : فما قلت له ؟ قال :

أَلَمْ تَرَ أَنِّي قَدْ رَمَيْتُ ابْنَ فَرَاتِنِي      بِصَمَاءَ لَا يَرْجُو الْحَيَاةَ أَمِيمُهَا<sup>(٦)</sup>

(١) الجفير : جعبة من جلود لاختب فيها ، أو من خشب لاجلود فيها : المراد السهام واحدها مرماة . صفرًا : حال ، والمعنى أن جعبة سهامه خلت من السهام وهو لم ينل بعد مآرباً .

(٢) يقول يشتركون في الشاة كما يشترك الأيسار في الجزور . التناجي : التشاور .

(٣) سليط : هم بنوع جرير وكان غسان بن ذهيل سيدهم .

(٤) المعقل : الملجأ . الهياج بالكسر : الحرب . جعور : جمع جعر بالفتح ، وهو مايبس من العذرة في المعجر : أي الدبر .

(٥) اللقي : اللقي المهمل .

(٦) الفرزني : المرأة الفاجرة . الصماء : الداهية الشديدة . الأميم : الذي شجعت أم رأسه .



لَهُ أُمُّ سَوْءٍ بِئْسَمَا قَدَّمَتْ لَهُ إِذَا فَرَطَ الْأَحْسَابَ عُدَّ قَدِيمَهَا<sup>(١)</sup>  
قال : ثم من ؟ قال الفرزدق . قال : فما لك وله ؟ قال : أعان البعيث على . قال : فما  
قلت له ؟ قال :

تَمَّتْ رِجَالٌ مِنْ تَمِيمٍ لِي الرَّدَى وَمَا ذَاذَ عَنْ أَحْسَابِهِمْ ذَائِدٌ مِثْلِي<sup>(٢)</sup>  
كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَوَاطِنِي وَقَدْ جَرَّبُوا أَيَّ أَنَا السَّابِقِ الْمُجْلِي<sup>(٣)</sup>  
فَلَوْ شَاءَ قَوْمِي كَانَ حِلْمِي فِيهِمْ وَكَانَ عَلَى جُهَالٍ أَعْدَاءَهُمْ جَهْلِي  
وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْفَرَزْدَقَ حَيَّةٌ وَمَا قَتَلَ الْحَيَاتِ مِنْ أَحَدٍ قَبْلِي

قال : ثم من ؟ قال : الأخطل . قال : مالك وله ؟ قال : رشاه محمد بن عمير بن عطارد  
زقا من خمر ، وكساه حلة على أن يفضل على الفرزدق ويهجونى . قال : فما  
قال لك ؟ قال :

أَخْسَأُ إِلَيْكَ كَلِيبُ إِنْ مُجَاشِعًا وَأَبَا الْفَوَارِسِ نَهْشَلًا أَخَوَانِ<sup>(٤)</sup>  
وَإِذَا وَرَدَتْ الْمَاءَ كَانَ لِدَارِمٍ جَمَّاتُهُ وَسُهُولَةَ الْأَعْطَانِ<sup>(٥)</sup>  
وَإِذَا قَدَفْتَ أَبَاكَ فِي مِيزَانِهِمْ رَجَّحُوا وَشَالَ أَبُوكَ فِي الْمِيزَانِ

قال : فما قلت له ؟ قال قلت :

يَا ذَا الْعِبَاءَةِ إِنْ بَشَرًا قَدْ قَضَى الْأَتَّجُوزَ حُكُومَةَ النَّشَّوَانِ<sup>(٦)</sup>

(١) أى إذا فرط فى أحسابه عدّ الناس لأحسابهم أحسابا قديمة ، ويروى إذا فرط الاحساب أو فرط الاحساب (بالتحريك) والمراد ماضيها .

(٢) رجال من تميم : يريد الفرزدق والبعيث وعمرو بن لجأ وغسان بن ذهيل السليطى والمستنير ابن عمرو وهو البلتع .

(٣) السابق المجلى : هذا السابق الأول ، ويروى المبلى : أى الذى أبلى بلاء حسناً .

(٤) يقال اذهب إليك : أى اشتغل بنفسك ، فقوله هنا : أخسأ إليك أى ابتعد مشتغلا بنفسك غير متصل بأحد لحفارتك ، ومجاشع ونهشل من آباء الفرزدق .

(٥) ودارم أبوه الأعلى . جمات الماء : جمع حمة وهو ما تتجمع فى البئر منه . ومراده بقوله : جماته أنهم ذو الأولوية فى السقاية لعظيم مكانتهم فلا يجرؤ أحد أن يتقدمهم إلى الماء .

(٦) ذو العباءة : هو الأخطل ، وكان يلبس العباءة وهى من مسوح النصارى . بشر هو بشر بن مروان



فَدَعُوا الْحُكُومَةَ لَسْتُمُو مِنْ أَهْلِهَا إِنَّ الْحُكُومَةَ فِي بَنِي شَيْبَانَ (١)  
قَتَلُوا كُلَّيْبَكُمْ بِلِقْحَةِ جَارِهِمْ يَا خُزْرُ تَغْلِبْ لَسْتُمْ بِهَجَانَ (٢)  
قال : ثم من ؟ قال : الراعي . قال : مالك وله ؟ قال : قدمت البصرة ، وكان بلغني أنه  
قال في :

يا صاحبي دنا الرواح فسيرا غلب الفرزدق في الهجاء جريرا  
قتلت له :

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ تُمَيْرٍ فَلَ كَعْبًا بَلَّغْتَ وَلَا كِلَابًا  
وسنفضل حديث هذه القصيدة عند رواية شعر جرير .

وما زال الحجاج يسمر بحديث مهاجته للشعراء حتى طلع الصبح ، وقد قال في شأنه :  
قاتله الله أعرابيا إنه جَرَّوْهَرِاشٍ .

والواقع أن هذه الأسباب ليست هي الأسباب الجوهرية التي تدعو للعداوة ، وقضاء  
العمر في المشاتمة ، ولكن السبب الحق هو الرغبة في الشهرة إذ كانت رواية الشعر شائعة ،  
ومجالسه كثيرة ، وأسواقه زاخرة ، وإنما كان موضوعها الهجاء دون غيره لما تعلم من شبوب  
نار العصبية بين قبائل العرب إبان هذه الدولة على ما فصلناه لك في مواضع سابقة .

وموضوع هذه المهاجة على الجملة هو مثالب القبائل ، وما أخذ عليها في سابق أيامها  
من بخل وجبن ، وإخفار للذمام ، وإضاعة لحق الجوار ، كذلك الأعراض ، فقد سبت  
الأمهات والبنات ، ورمين بالفحشاء ، ولقبن أشنع الألقاب ، وكان نصيب الآباء من

---

ابن الحكم ، أخو عبد الملك : النشوان : السكران يعيره بما رشاه به محمد بن عطار من زق  
الحجر والحلة ليفضل عليه الفرزدق .

(١) بنو شيبان من بكر . والأخطل تغلي ، وكانت بين بكر وتغلب عداوة ومنافسة .

(٢) كليب هو الفارس المشهور الذي من أجله قامت حرب البسوس وهو تغلي يجمع مع الأخطل  
في قبيلته . اللقحة : الناقة ، والمراد بها هنا ناقة البسوس التي من أجلها قامت الحرب بين بكر  
وتغلب . الخزر : جمع أخزر ، وهو الذي في عينه ضيق وذلك كناية عن اللؤم الهجان : الحيار .



ذلك موفورًا ، فقد رموا كذلك بالفحشاء ، وسبوا بمسبات النساء . كما نسبوا إلى الضعة والامتهان بتناول الصناعات ، وهي في نظر الأعرابي سبة وشنعة ، وقد أكثر جرير من تلقيب أبي الفرزدق بالقيين (الحداد) .

وقد كان العربي إلى ذلك الحين يترفع عن الصناعات ، ويرى أنه لا يليق به إلا المجالدة بالسيف ، والتقدم أمام الصف .

ومن أمثلة هذه الأهاجي في كلام جرير ، قوله يهجو التيم :

إِذَا عُدَّ الْكِرَامُ وَجَدْتَ تَيْمًا      نُخَالَتَهُمْ وَغَيْرَهُمُ اللَّبَابَا (١)  
أَبُوكَ التَّيْمِ لَيْسَ بِخُنْدِفِيٍّ      أَرَابَ سَوَادٍ لَوْنِكُمْ أَرَابَا (٢)  
تَرَى اللُّؤْمَ بَيْنَ سِبَالِ تَيْمٍ      وَبَيْنَ سَوَادٍ أَعْيَنِهِمْ كِتَابَا (٣)  
عَرَفْتُ الْعَارَ مِنْ سِبَا لَيْتَيْمٍ      وَفِي صَنْعَاءَ خَرْزُهُمُ الْعِيَابَا (٤)  
وَمَا تَيْمٌ غَدَاةَ الْحَنُوفِ فِينَا      وَلَا فِي الْخَيْلِ يَوْمَ عَلَتْ أَرَابَا (٥)  
سَمَوْنَا بِالْفَوَارِسِ مُلْجَمِيهَا      مِنَ الْغَوْرَيْنِ تَطَّلَعُ النَّقَابَا (٦)  
دَخَلْنَا حُصُونًا مَذْحِجَ مُعَلَّمَاتٍ      وَلَمْ يَبْرُكَنَّ مِنْ صَنْعَاءَ بَابَا  
لَعَلَّ الْخَيْلَ تَدْعُرُ سَرْحَ تَيْمٍ      وَتَعْجَلُ زَيْدًا أَيْسَرَ أَنْ يَدَابَا

وقال يهجو الفرزدق :

أَلْسِنَا لِلْمُجَاوِرِ نَحْنُ أَوْفَى      وَأَصْبَرُ عِنْدَ مُعْتَرِكِ الضَّرَابِ

(١) الخالة من الدقيق : ما يبق منه بعد نخله .

(٢) خندفي : منسوب إلى خندف ، وهي ليلي بنت حلوان وهي زوج إلياس بن مضر ولدت منه مدركة وطابخة وقعة . أراب الشيء : بان فيه ما يريب .

(٣) السبال : جمع سبلة وهي شعر الشارب ، وجعله اللؤم بين شواربهم وأعنيهم : أي إنه ظاهر على وجوههم كأنه كتاب مفتوح يقرأ فيه من ينظر إليهم .

(٤) الخرز : الخياطة بالخرز . العياب : جمع عيبة وهي الحقيبة .

(٥) الحنو بالكسر : موضع ، أراب ( مثلثة الهمزة ) : موضع .

(٦) النقاب : الطريق في الأرض الغليظة ، أو هي جمع نقب ، وهو الطريق بين جباين .



وَأَحْمَدُ حِينَ يُحْمَدُ بِالْمَقَارِي      وَحَالَ الْمُرْبَعَاتِ مِنَ السَّحَابِ (١)  
أَقْمَنَا يَوْمَ طَخْفَةَ قَدْ عَلِمْتُمْ      صُدُورَ الْخَيْلِ تَنْحَطُّ فِي الْحِرَابِ  
وَطِئْنَ مَجَاشِعًا وَأَخَذْنَ غَضَبًا      بَنَى النَّجَّارِ فِي رَهَجِ الضَّبَابِ (٢)  
وَعُزْنَا يَوْمَ ذِي نَجَبٍ وَعُدْتُمْ      بِسَعْدِ يَوْمِ وَاِرِدَةِ الْكَلَابِ (٣)  
وَيَرَبُوعٌ هُمُو أَخَذُوا قَدِيمًا      عَلَيْكَ مِنَ الْمَكَارِمِ كُلِّ بَابِ  
فَلَا تَفَخَّرْ وَأَنْتَ مَجَاشِعِي      نَخِيبُ الْقَلْبِ مُنْهَتِكَ الْحِجَابِ (٤)  
إِذَا عَدَّتْ مَكَارِمَهَا تَمِيمٌ      فَحَرَّتَ بِمِرْجَلٍ وَبِعَقْرِ نَابِ (٥)  
لَقَدْ أَخْرَاكَ فِي نَدَوَاتِ قَيْسِ      وَفِي سَعْدِ عِيَاذِكَ مِنْ ذُبَابِ  
وَسَيْفُ أَبِي الْفَرَزْدَقِ فَأَعْلَمُوهُ      قَدُومُ غَيْرِ ثَابِتَةِ النَّصَابِ  
أَتَجْعَلُ يَا فَرَزْدَقُ فَيَنْ لَيْلِي      إِلَى كَعْبٍ وَرَايَتِي كَلَابِ  
وَفِي غَطَفَانَ فَاجْتَنِبُوا حِمَاهُمْ      لِيُوثُ الْحَرْبِ فِي أَجْمِ وَغَابِ  
أَلَمْ تَسْمَعْ بِخَيْلِ بَنِي نَفِيلِ      إِذَا رَكَبُوا وَخَيْلِ بَنِي الْحُبَابِ  
هُمُ قَتَلُوا بَنِي جِشْمِ بْنِ بَكْرِ      بَابِي بَعْدَ يَوْمِ قُرَى الرَّوَابِي

وقال كذلك يهجوهم :

كَذَّبَ الْفَرَزْدَقُ أَنْ يُجَارِيَ عَامِرًا      يَوْمَ الرَّهَانِ بِمُقْرِفٍ مَبْهُورِ (٦)

- (١) المقارى: جمع مقرى، وهو مكان القرى أو أداته. حل: تغير. المربعات: السحب تمطر بالريبع والجملة حالبة أى وقد حال أمر السحب فلم تمطر، أى نحن نجود فى أيام الجذب.
- (٢) يريد قابوس وحسان ابني المنذر أسرتهما بنو يربوع فى يوم طخفة.
- (٣) عزنا: اشتدنا. ذونجب: واد لمحارب وله يوم هو هذا.
- (٤) نخيب القلب: جبان.
- (٥) تميم: هم قوم جرير، بقول إذا عدت تميم مكارمها الكثيرة التى لانتتهى عند حد فإن مكارم قوم الفرزدق تنتهى عند إطعام الضيفان.
- (٦) المقرف (بصيغة اسم الفاعل) الخيل والانسان: ما كانت أمه عربية وأبوه غير عربى. المبهور: المقطوع النفس.



فأنه الفرزدق أن يعيب فارسا  
 ولقد جهلت بشتم قيس بعد ما  
 قيس (وجد أيبك في أكياره)  
 لن تدركوا غطفان لو أجرئتم  
 فخرؤا عليك بكل سام معلم  
 كم أنجبوا بحليفة وخليفة  
 حمأوا أباه على أرب نفور (١)  
 ذهبوا بريش جناحك المكسور (٢)  
 قواد كل كتيبة جمهور (٣)  
 يا بن القيون ولا بني منصور (٤)  
 فافخر بصاحب كلبتين وكبير (٥)  
 وأمير صانفتين وابن أمير (٦)

وقال يهجو الأخطل :

إني جعلت فلن أعافى تغلباً  
 قبج الإله وجوه تغلب إنها  
 قبج الإله وجوه تغلب كلما  
 عبدوا الصليب وكذبوا بمحمد  
 المعرسين إذا أنتشوا بيناتهم  
 والتغلبى إذا تنحج للقرى  
 أنسيت يومك بالجزيرة بعد ما  
 للظالمين عقوبة ونكالا  
 هانت على مراسنا وسبالا  
 شبح الحجيج وكبروا إهلالا (٧)  
 ويجبرئيل وكذبوا ميكالا  
 والدائنين إجارة وسوالا (٨)  
 حك استه وتمثل الأمثالا  
 كانت عواقبه عليك وبالا

(١) الأرب منا ومن الابل : الكثير شعر الوجه .

(٢) جهل : حق :

(٣) جد مرفوعة على الابتداء وخبرها في أكياره ، فهو يقول : قيس قواد الكتائب وجدك حداد بين أدوات صناعته ، ويصح أن تجر كلمة جد وتكون الواو قبلها للقسم ويكون ذلك تهكما بالفا حد الابل أن يحلف به وهو في نظره ممتن ساقط .

(٤) غطفان بن سعد بن قيس عيلان .

(٥) يقال فارس معلم بالكسر والفتح ، وهو على الكسر : الذى جعل نفسه علامة ليعرف بلاؤه فى القتال .

(٦) الصائفة : الكتيبة تغزو الروم لأنهم يغزون صيفاً لمكان البرد فى تلك البلاد .

(٧) الشبح : رفع اليدين بالدعاء . الإهلال : رفع الصوت .

(٨) أى م بين سائل وأجير . وقد ذمهم أبلغ ذم حين ادعى أنهم يخاطبون بناتهم فى حالة سكرهم مخالطة الأزواج .



وَلَوْ أَنَّ تَغْلِبَ جَمَعَتْ أُنْسَابَهَا      يَوْمَ التَّفَاضُلِ لَمْ تَرِنْ مِثْقَالًا  
لَا تَطْلُبِينَ خُوُولَةً فِي تَغْلِبِ      فَالزَّنْحُ أَقْرَبُ مِنْهُمْ أَحْوَالًا  
لَوْلَا الْجُزَا فُسِمَ السَّوَادُ وَتَغْلِبُ      فِي الْمُسْلِمِينَ فَكُنْتُمْ أَنْفَالًا

وأظهر ما في هجائه التهم والاستهزاء بخصمه ورميه بما يضحك منه الناس ، كقوله  
في الراعي :

فغض الطرف إنك من مُنْمِرٍ      فلا كعبا بلغت ولا كلابا  
وقوله في الفرزدق :

زعم الفرزدق أن سميئة مرِّبعا      أبشر بطول سلامة يا مرِّبع  
وقد غلب الأخطل برميته بالنصرانية ، والتزيد عليه بالإسلام والنبوة والخلافة ، فقال :

إن الذي حرم المكارم تغلبا      جعل الخلافة والنبوة فينا  
مضر أبي وأبو الملوك فهل لكم      يا خزر تغلب من أب كأيينا  
هذه صورة من هجائه تجنبنا فيها المقابح وذكر السوءات ، والإفحاش في قذف  
المحصنات ، وذكر العورات مما لا يستطيع من به مسكة من حياء أن ينشده أو يعرضه  
على قارىء .

وإننا إذا حاولنا عقد صلة بين العصر الذي عاش فيه جرير وأقرانه ، وبين نوع  
الهجاء الذي تناولوه في تشاتهم وتسابهم نجد أن لعربيتهم كل الأثر في هذه المعاني التي  
تناولوها ، فالعربي مازال يتمدح بالشجاعة والكرم ، ومراعاة الجوار ، وحفظ الزمام ،  
ويتشدد في حماية عرضه ، والغيرة على حريمه ، وهو الذي وأد البنات في جاهليته خشية  
العار في زعمه ، فلا شك أن تكون أضداد هذه الصفات معايب ياصقها أحدهم بمن أراد  
أن يذمه .

ولقد هجوا في جاهليتهم ، فعيروا بالجن والبخل وما إليهما ، ولكنهم لم يتسفلوا إلى  
قذف المحصنات ، واتهام الرجل بأمه ، ولم ياحوا في ذكر العورات كما فعل هؤلاء .  
ونرى أن مرجع هذا الفرق بين العصرين إنما هو ما صاروا إليه في العصر الأموي من



اختلاط الأنساب ، وما حام حول العفاف من شك ، فوجد الطاعن مجالاً للريبة ينفذ منه ، فكان منهم ما كان من الإخاش الذي أشرنا إليه ، وقد جرأهم على ذلك ما عرفوا به من صراحة في القول وجفاء في الطبع .

### شاعرية جرير

نشأ جرير في بيت جلّ أهله شعراء قبله وبعده ، كان أبوه عطية شاعراً ، وكذلك جده الخطفي ، ثم كان أخوه عمرو ، وهو أكبر منه ، شاعراً يقارضه ، ثم كان من بعده ابنه بلال ونوح ، ثم حجناء بن نوح ، وعقيل بن بلال ، ثم عمارة بن عقيل كلهم شعراء . وعمارة هذا هو الذي أدرك أبا تمام ، ولقي المبرد صاحب الكامل .

قال ابن سلام الجعفي : لم يتصل الشعر في ولد أحد من فحول الجاهلية ما اتصل في ولد زهير ، ولا في ولد أحد من الإسلاميين ما اتصل في ولد جرير .

من أجل ذلك كان مطبوعاً على قول الشعر ، ومن أجل انطباعه عليه طال نفسه فيه ، وأجاد في كل فنونه كان بحر الشعر كما قال عن نفسه ( بحر الشعر بجرّاً ) ، وكذلك من آثار انطباعه أنه أتى بالجيد والمتوسط والردى ، وقد شبهه أبو عمرو بن العلاء بالأعشى ، وقال العلاء بن جرير العنبري : يجيء جرير سابقاً ومصلياً وسكيتاً ، كذلك من آثار انطباعه على الشعر أنه أجاد الغزل مع دينه وعفافه ، وعدم عشقه ، حتى لقد قال عن نفسه : ما عشقت قطّ ، ولو عشقت لنسبت نسيماً تسمعه العجوز فتبكي على ما فات من شبابها ، وقد قال عنه الفرزدق حين سمع من الأحوص بالمدينة غناء بقول جرير :

أَتَدَسَى إِذْ تُودِّعُنَا سُلَيْمَى      بَعُودَ بَشَامَةٍ سُقِيَ الْبَشَامُ  
بِنَفْسِي مَنْ تَجَنَّبُهُ عَزِيزٌ      عَلَيَّ وَمَنْ زِيَارَتُهُ لِمَامٌ  
وَمَنْ أَمْسَى وَأُصْبِحُ لَا أَرَاهُ      وَيَطْرُقُنِي إِذَا هَجَعَ النَّيَامُ



ثم بقوله :

إِنَّ الَّذِينَ عَدَوْا بَلْبَكَ غَادَرُوا      وَشَلًّا بَعَيْنِكَ مَا يَزَالُ مَعِينًا  
غَيْضُنَ مِنْ عَبْرَاتِهِنَّ وَقُلْنَ لِي      مَاذَا لَقَيْتَ مِنَ الْهُوَى وَلَقِينَا

قال الفرزدق : لما سمع هذا وغيره يعنى به الأحوص من شعر جرير : ويل ابن المراغة ما كان أحوجه مع عفافه إلى صلابه شعري ، وما أحوجني مع شهواتي إلى رقة شعره . ثم قام حنقاً .

وهذه الرقة التي اعترف له بها الفرزدق هي إحدى مظاهر شعره ، وهي أثر من آثار انطباعه ، لأن الشدة لا تكون إلا نتيجة التكلف والعمل .

أما إجادته لكل فنون الشعر ، فقد شهد له بها كل من تعرض للقول فيه ، فقد روى ابن سلام . قال : لقيت أعرابياً أعجبنى ظرفه وروايته ، فقلت له : أيهما عندكم أشعر ؟ ( يعنى جريراً والفرزدق ) ، فقال : بيوت الشعر أربعة : فخر ، ومدح ، وهجاء ، ونسيب ، وفي كلها غلب جرير ، فقال في الفخر :

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ      حَسِبْتَ النَّاسَ كَالِهَيْمِ غَضَابَا  
وقال في المدح :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا      وَأُنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحِ  
وقال في الهجاء :

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نَمِيرٍ      فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابًا<sup>(١)</sup>  
وقال في النسيب :

إِنَّ الْعُمُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ      قَتَلْنَا نَمْرًا لَمْ يُحْيَيْنِ قَتْلَانَا

(١) لا يدرك قوة الهجاء في هذا البيت إلا من علم أن كعباً وكلاباً ونميراً ثلاثة أبطن من عامر بن صعصعة من قيس . فجرير فضل كعباً وكلاباً على نمير مع أنهما أخواه . ولم يسمع هذا البيت أحد من العرب يومئذ الا قال : لا يفلح النميرى بعد هذا أبداً .



قال ابن سلام : وبيت النسب عندي :

فَلَمَّا التَّقَى الحَيَّانِ اُلْقَيْتِ العَصَا وَمَاتَ الهَوَى لَمَّا أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ

وقد أبدى مثل هذا الرأي ، واحتج بهذه الأبيات أعرابي حضر طعام عبد الملك ابن مروان ، فأعجب الخليفة برأيه وكياسته ، ثم سأله عن الشعر ، فاحتج لفضل جرير بالأبيات السابقة ، وزاد عليها أن قال وأحسن بيت تشبيهاً قول جرير :

سَرَى نَحْوَهُمْ لَيْلٌ كَأَنَّ نَجْمَهُ قَنَادِيلُ فِيهِنَّ الذَّبَالُ الْمُفْتَلُّ

منزلته بين الشعراء :

لقد احتدم الجدل بين الناس في شأن جرير والفرزدق والأخطل أيهم أفضل . وكان لكل حزب يؤيده ويتعصب له ، ولقد بلغ من المتخاضمين في شأنهم أن تجالدا بالسيوف ، وذلك كله لما علمت من رواج الأدب وسمو شأنه في نظر الناس لحماية الملوك من بني أمية له وتشجيعهم عليه وإجزالهم المثوبة المبرزين من رجاله ، وقد استفاضت كتب الأدب بالآراء في هؤلاء الثلاثة ، ونستطيع أن نقسم هذه الأقوال قسمين :

فأما أولهما فهو شأن الشاعر جملة ، وهل يصح أن يقاس إلى قرنه ، أو هو مقصر عنه لا يعد من طبقتهم ، فبعض يجعل هؤلاء الثلاثة أقراناً تجوز بينهم المفاضلة ، وهؤلاء هم جمهور أهل الرأي في الأدب . ويرى بعض أن الأخطل مقصر عن زميليه لا يجوز قرنه بهما ، وآخر يدخل مع الثلاثة راعي الإبل فيجعله قريبهم وندمهم .

يقول صاحب الأغاني ، وهو : جرير ، والفرزدق ، والأخطل المقدمون على شعراء الإسلام الذين لم يدركوا الجاهلية جميعاً ، ومختلف في أيهم المقدم ، ولم يبق من شعراء عصرهم إلا تعرّض لهم ، فافتضح وسقط ، وبقوا يتصاولون على أن الأخطل إنما دخل بين جرير والفرزدق في آخر أمرها ، وقد أسنّ ونفد أكثر عمره ، وهو وإن كان له فضل وتقدم ، فليس نجده من نجار هذين في شيء . ويقول محمد بن سلام والراعي معهم في طبقتهم ، ولكنه آخرهم ، وقال بشار : لم يكن الأخطل مثلهما ، ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه .



وأما سطر الموازنة الثاني ، فهو الأغراض التي تناولوها ، والأسلوب الذي جرى عليه كلٌّ منهم ، ونرى الآراء في ذلك مختلطة غير منفصلة .

وإننا لذا كرون لك مزايا كل واحد من هؤلاء الثلاثة ، ثم نعقبها بنصوص أقوال النقاد فيهم حتى تكون كالحجة لما نقول .

فأما جرير : فقد تناول جميع أغراض الشعر من مدح وثناء وفخر وهجاء ونسيب ، ولم يقصر في واحد منها ، وله في كل منها البيت الرائع الذي تناقلته الألسن ، واشتهر عند الرواة ، ثم هو من ناحية الأسلوب ، لين العطف ، سهل المأخذ ، طويل النفس ، بعيد من الإغراب والتعقيد .

وقد امتاز جرير في مدحه بعدم الأتفة فقد مدح بني أمية وولاتهم كالحجاج ، ومدح القيسية أعداء تميم (قومه) جاهلية وإسلاما ، ومدح الموالى من العجم ، وسواهم بالعرب حتى لكانوا يحفظون شعره ، ويروونه ويجزلون عطاءه عليه ، فهو لم يفعل كالأخطل الذي أنف من مدح غير بني أمية حتى إنه لم يمدح الحجاج إلا مرة واحدة بأمر عبد الملك ، ولم يكن يخلط بالمدح غيره من الفخر والهجاء كما كان يفعل الفرزدق ، بل كان مدحه خالصاً للمدوح .

وأما الفرزدق فقد أجاد في الفخر إجابة بالغة ، واعتدل في غالب الأغراض كالممدح والهجاء ، وظهر تقصيره في الرثاء والنسيب . أما لفظه ففخم صلب قوى الجرس بانته فيه المعاطلة ، وظهر الإغراب ظهوراً واضحاً ، حتى لقد قيل إنه أحيى في شعره ثلث اللغة .

وأما الأخطل : فقد أجاد صفة الفخر ، واجتماع الندمان عليها ، وبالغ في المدح والفخر ، وهو فيما عدا ذلك من غرض ولفظ معتدل غير ظاهر الإجابة ، ولا بين التقصير .

قال أبو عبيدة : يحتج من قدم جريراً بأنه كان أكثرهم فنون شعر ، وأسهلهم المناظراً ، وأقلهم تكلفاً ، وأرقهم نسيباً ، وكان ديناً عفيفاً . وقال العلاء بن جرير : إذا لم



يجي الأخطل سابقاً فهو سكيت . والفرزدق لا يجيء سابقاً ولا سكيتاً ، وجريير يجيء سابقاً ومصلياً وسكيتاً .

قال هشام بن عبد الملك لشبة بن عقال ، وعنده جريير والفرزدق والأخطل ، وهو يومئذ أمير : ألا تخبرني عن هؤلاء الذين مزقوا أعراضهم ، وهتكوا أستارهم ، وأغروا بين عشائهم في غير خير ولا بر ولا نفع ، أيهم أشعر ؟ فقال : شبة . أما جريير فيعرف من بحر ، وأما الفرزدق فينحت من صخر ، وأما الأخطل فيجيد المدح والفخر ، فقال هشام : ما فسرنا لنا شيئاً نحصله . فقال : ما عندي غير ما قلت ، فقال لخالد بن صفوان : صفهم لنا يا بن الأهم ، فقال :

أما أعظمهم فخراً ، وأبعدهم ذكراً ، وأحسنهم عذراً ، وأشدّهم ميلاً ، وأقلهم غزلاً ، وأحلامهم علا ، الطامح إذا زخر ، والحامح إذا زار ، والسامح إذا خطر : الذي إن هدر قال ، وإن خطر صال ، الفصيح اللسان ، الطويل العنان ، فالفرزدق ؛ وأما أحسنهم نعتاً ، وأمدحهم بيتاً ، وأقلهم فوتاً ، الذي إن هجا وضع ، وإن مدح رفع فالأخطل ؛ وأما أغزرهم بحراً ، وأرقهم شعراً ، وأهتكهم لعدوّه سترأ ، الأغرّ الأبلق ، الذي إن طلب لم يسبق ، وإن طلب لم يلحق ، فجرير : وكلهم ذكيّ الفؤاد ، رفيع العماد ، واري الزناد .

وقد سأل عبد الملك أو الوليد ابنه جريراً الشاعر عن أشعر الناس ، فأجابه بقوله كان منتهى الإنصاف لنفسه ، ولأقرانه من الشعراء ، ولم يسع سائله إلا أن أمن على قوله لموافقته للحق ، وجدير بالشاعر أن يكون صادق الحكم على الشعر فإنه إنما يعرف الفضل من الناس ذووه . قال عبد الملك أو الوليد لجريير : من أشعر الناس ؟ قال : ابن العشرين ( يريد طرفة ) . قال : فما رأيك في ابني أبي سلمى ؟ قال : شعرها نير يا أمير المؤمنين . قال : فما تقول في امرئ القيس ؟ قال : اتخذ الخبيث الشعر نعلين ، وأقسم بالله لو أدركته لرفعت ذلأذله . قال : فما تقول في ذي الرمة ؟ قال : قدر من ظريف الشعر وغريبه وحسنه على ما لم يقدر عليه أحد . قال : فما تقول في الأخطل ؟ قال : ما أخرج ابن النصرانية ما في صدره من الشعر حتى مات . قال : فما تقول في الفرزدق ؟



قال : في يده والله يا أمير المؤمنين نبعة من الشعر قد قبض عليها . قال : فما أراك أبقيت لنفسك شيئاً . قال : بلى والله إني لمدينة الشعر التي منها يخرج وإليها يعود ، نسبت فأطربت ، وهجوت فأرديت ، ومدحت فسنيت ، وأرمت فأعزرت ، ورجزت فأبحرت ، فأنا قلب ضروب الشعر كلها ، وكل واحد منهم . قال نوعاً منها . قال صدقت .

### شعره

قيل إن أول شعر قاله هو الذي أنشده يزيد بن معاوية ، وهو ولي عهد ، وكان شفيعه إليه يوم ولي الخلافة ، وقد مرّ بك . وليس معقولا أن يكون هذا الشعر الجيد أول ما يقوله شاعر ، ولكن المقبول أن يقال : إنه أول شعر استجدى به ، وقصد الناس ، ولا بدّ أنه قبل ذلك قال في باديته في كل ما عرض له من أغراض .  
ومن قوله قصيدته التي أولها :

أَقْبَلِي اللَّوْمَ عَاذِلَ وَالْعِتَابَا وَقَوْلِي إِنْ أَصَبْتُ لَقَدْ أَصَابَا

قالها في هجاء الراعي . وكان من حديثها : أن الراعي لما فضل الفرزدق على جرير في قصيدته :

يَا صَاحِبِي دَنَا الْأَصِيلُ فَسِيرَا غَلَبَ الْفَرَزْدَقُ فِي الْهَجَاءِ جَرِيرَا

عاتبه جرير ، وقال له : يكفيك إذا ذكرنا أن تقول كلاهما شاعر كريم ، ولا تحتمل مني ولا منه ، وبينما هما واقفان لحق الراعي ابنه جندل ، فرفع كرمانية معه ، فضرب بها عجز بغلة أبيه ، ثم قال : لا أراك واقفاً على كلب من بني كليب كأنك تخشى منه شراً ، أو ترجو خيراً ، وضرب الدابة ، فرمحت جريراً رحمة وقعت منها قلنسوته ، فرمى الراعي ولم يعرج عليه ، فانصرف جرير مغضباً ، ثم أقبل على المنزل الذي كان يقيم فيه بالبصرة وقال لراويته : زد في دهن سراجك الليلة ، وأعدّ لوحاً ودواة ، وجعل يملئ عليه حتى بلغ قوله : فغض الطرف . . . فوثب حتى بلغ رأسه السقف ، وجعل يردد لا يزيد عليه ، ويقول : أخزيتته والله . غصصته والله . وقدمت إخوته عليه ، والله لا يفلح بعدها ، ولم يأت السحر حتى كان قد أكملها ثمانين بيتاً ، فلما أصبح وعرف أن الناس



قد جلسوا بالمربد قال : يا غلام أسرج فأسرج له حصانا ، ثم قصد مجلس الراعى حتى إذا كان موقع السلام قال : يا غلام ، ولم يسلم ، ثم قال للراعى : أبعثك نسوتك تكسبهن<sup>١</sup> المال بالعراق ؟ أما والذى نفس جرير بيده لترجعن إليهن<sup>٢</sup> بمير يسوءهن<sup>٣</sup> ولايسرهن<sup>٤</sup> ، ثم اندفع فيها فنكس الفرزدق وراعى الإبل ، وأزم القوم حتى فرغ منها فسار ، فقال الراعى من فوره لأصحابه : ركابكم ركابكم ، فليس لنا ههنا مقام . قال الراعى : فسرنا إلى أهلنا سيرا ما ساره أحد ، فوجدت البيت قد سبقنا إليهم . وصار الرجل من بنى نيمير إذا قيل له : من أنت ؟ يقول عامرى ، ويكنى عن نيمير ، وقد شاعت هذه القصيدة حتى كان العرب يسمونها الفاضحة ، ويسمونها جرير الدامغة لشدة تأثيرها ، ويسمونها قافيتها ( الباء ) المنصورة لأنه ما قال عليها قصيدة إلا انتصربها ، والعجيب أن هذه القصيدة لم يرد منها فى ديوان جرير إلا نحو عشرين بيتاً ، ومطالعها :

أَقَلِّ الأَومَ عَادِلَ والعِتَابَا      وَقُولِي إِنِ اصْبَتُ لَقَدْ أَصَابَا  
أَجِدْكَ لَا تَذَكَّرْ عَهْدَ نَجْدِ      وَحَيًّا طَالَمَا انتظروا الإيَابَا  
بلى فَارْفُضْ دُمُوعَكَ غَيْرَ نَذر      كَمَا عَيَّنْتَ بالسرب الطَّبَابَا<sup>(١)</sup>  
وهاج البرق ليلة أذِرَعَاتِ      هَوَى ما تستطيع له غلابَا  
علوت عليك ذِرْوَةَ خِنْدِفِي      ترى من دونها رُتْبًا صِعَابَا  
لنا حَوْضُ النَبِيِّ وسَاقِيَاه      ومن وَرَثَ النُّبُوَّةِ والكِتَابَا  
ألسنا أَكْثَرَ الثَّقَلَيْنِ حَيًّا      بِيْطُنِ مِنِّي وَأَكْثَرَهُم قِبَابَا

ومنها :

إِذَا غَضِبْتُ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمِ      حَسَبَتِ النَّاسَ كَالهَمِّ غَضَابَا  
فَلَا وَأَبِيكَ مَا لَاقَيْتُ حَيًّا      كَثِيرُ بُوْعٍ إِذَا رَفَعُوا النَّقَابَا  
فَغُضَّ الطَّرْفُ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرِ      فَلَا كَهَبًا بَلَّغْتَ وَلَا كِلَابَا

(١) التعيين : أن يصب فى الوعاء ماء فينظر من أين يسيل فيسد خله . الطاب : الجلدة تضرب على أسفل المزايدة . السرب : السيلان .



فَلَوْ وُضِعَتْ فِقَاحُ بَنِي مُنْمِرٍ عَلَى خَبَثِ الْحَدِيدِ إِذَا لَذَابَا

ومنها :

فَلَوْ وَلَدَتْ فَقِيرَةٌ جَرَوْ كَلْبَ لُسْبٍ بِذَلِكَ الْجُرْوِ الْكَلَابَا  
وَلَوْ وَطِئَتْ نِسَاءُ بَنِي مُنْمِرٍ عَلَى نَبْرَاكٍ أَخْبَثَتِ التَّرَابَا  
فَلَا صَلَّى إِلَاهٌ عَلَى مُنْمِرٍ وَلَا سُقِيَتْ قُلُوبُهُمْ سَحَابَا

ومنها :

أَنَا الْبَارِزِي الْمَطْلُ عَلَى مُنْمِرٍ أُتِيحَ لَهَا مِنَ الْجَوِّ انْصِبَابَا

ومنها :

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعِينَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابَا

وقال يمدح عبد الملك وقد أوفده الحجاج إليه مع ابنه محمد :

أَتَصْحُو أَمْ فُؤَادُكَ غَيْرُ صَاحٍ عَشِيَّةَ هَمٍّ صَحْبُكَ بِالرَّوَّاحِ  
يَقُولُ الْعَاذِلَاتُ عَلَاكَ شَيْبٌ أَهَذَا الشَّيْبُ يَمْنَعُنِي مَرَاحِ  
يُكَلِّفُنِي فُؤَادِي مِنْ هَوَاهُ ظِعَانٌ يَجْتَنِزُ عَنِّي عَلَى رِمَاحِ  
ظِعَانٌ لَمْ يَدَنَّ مَعَ النَّصَارَى وَلَا يَدْرِيْنَ مَا سَمَكَ الْقِرَاحِ  
فَبَعْضُ الْمَاءِ مَاءُ رَبَابِ مَزْنٍ وَبَعْضُ الْمَاءِ مِنْ سَبِيحِ مِلَاحِ  
سَيَكْفِيكَ الْعَوَازِلَ أَرْحَبِي هِجَانُ اللَّوْنِ كَالْفَرْدِ اللَّيَاحِ  
يَعِزُّ عَلَى الطَّرِيقِ بِمَنْكَبِيهِ كَمَا انْبَرَكَ الْخَلِيعُ عَلَى الْقِدَاحِ  
تَعَزَّتْ أُمَّ حَزْرَةَ ثُمَّ قَالَتْ رَأَيْتُ الْوَارِدِينَ ذَوِي امْتِنَاحِ  
تُعَلِّلُ وَهِيَ سَاغِبَةٌ بِنِيهَا بِأَنْفَاسٍ مِنَ الشَّمِّ الْقِرَاحِ  
سَأَمْدَاحُ الْبُحُورِ جَنَنِي بِي أَدَاةَ اللَّوْمِ وَانْتِظِرِي امْتِنَاحِي  
ثِقِي بِاللَّهِ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَمِنْ عِنْدِ الْخَلِيفَةِ بِالنَّجَاحِ  
أَغْنِي يَا فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي بِسَيْبٍ مِنْكَ إِنَّكَ ذُو اِرْتِيَاحِ  
فَأِنِّي قَدْ رَأَيْتُ عَلَى حَقًّا زِيَارَتِي الْخَلِيفَةَ وَامْتِنَاحِي



سَأَشْكُرُ إِنْ رَدَدْتَ إِلَى رَيْشِي وَأَنْبَتَ التَّوَادِمَ فِي جَنَاحِي  
الْأَسْمُ خَيْرٌ مِنْ رَكِبِ الْمَطَايَا وَأَنْدَى الْعَالَمِينَ بَطُونِ رَاحِ  
فقال له الخليفة: أترى أم حزرة ترويهامائة من نعم كلب؟ قال: إذا لم تروها يا أمير  
المؤمنين فلا أروها الله:

ومن قوله يمدح الحجاج، وهي القصيدة التي استنشده إياها عبد الملك حين  
قدم عليه:

هَاجَ الْمَوَى لِقَوَادِكِ الْمُهْتَاجِ فَاَنْظُرْ بِتَوْضِيحِ بَاكِرِ الْأَحْدَاجِ  
ومنها في وصف الحجاج:

مَنْ سَدَّ مُطْلِعَ النَّفَاقِ عَلَيْهِمْ  
أَمْ مَنْ يَغَارُ عَلَى النَّسَاءِ حَفِيظَةً  
إِنَّ ابْنَ يُوسُفَ فَاعْلَمُوا وَتَيَقَّنُوا  
مَاضٍ عَلَى الْعِمْرَاتِ يُمِضِي هَمَّهُ  
مَنْعَ الرُّشَا وَأَرَاكُمْ سُبُلَ الْهُدَى  
فَاسْتَوْسِقُوا وَتَبَيَّنُوا سُبُلَ الْهُدَى  
يَارُبَّ نَاكِثِ بَيْعَتَيْنِ تَرَ كُنْتَهُ  
إِنَّ الْعَدُوَّ إِذَا رَمَوْكَ رَمَيْتَهُمْ  
وَلَقَدْ كَسَرْتَ سِنَانَ كُلِّ مُنَافِقٍ

وقال يهجو التيم:

تَرَى الْأَبْطَالَ قَدْ كَلِمُوا وَتَيَّمُوا  
مِنَ الْأَصْلَابِ يَنْزِلُ لَوْمٌ لُؤْمٌ تَيَّمُوا  
صحيحُ الجلدِ من أثرِ الكلومِ  
وفي الأرحامِ يُخْلَقُ وَالشِّيمِ (٤)

(١) المراد بالبيعتين: بيعة الخليفة وبيعة الحجاج.

(٢) عماية: جبل. سواج: جبلان بالعالية.

(٣) المراد بمنع حقائب الحاج: حياتها وحفظها من اعتداء اللصوص.

(٤) الشيم: جمع مشيمة وهي محل الجنين.



تَرَى التَّيْمِيَّ يَرْحَفُ كَالْقَرْنَبِيِّ إِلَى سَوْدَاءَ مِثْلَ قَفَا الْقُدُومِ

وقال يهجو الفرزدق :

إِنَّ ابْنَ آكَلَةِ النُّخَالَةِ قَدْ جَنَى  
خُلِقَ الْفَرَزْدَقُ سُوءَةً فِي مَالِكٍ  
مَهْلًا فَرَزْدَقُ إِنَّ قَوْمَكَ فِيهِمْ  
بُسُّ الْفَوَارِسُ يَوْمَ نَعْفِ قِشَاوَةَ  
لَوْ غَيْرُكُمْ عَلِقَ الزُّبَيْرُ وَرَحْلُهُ  
كَانَ الْعِنَانُ عَلَى أَبِيكَ مُحْرَمًا  
عَمْدًا أَعْرَفُ بِالهُوَانِ مُجَاشِعًا

حَرَبًا عَلَيْهِ ثَقِيلَةَ الْأَجْرَامِ (١)  
وَلِخَلْفِ ضَبَّةٍ كَانَ شَرًّا غُلَامِ (٢)  
خَوَّرَ الْقُلُوبَ وَخَفَهُ الْأَخْلَامِ  
وَإِخْتِيلُ عَادِيَّةٍ عَلَى سِنَطَامِ  
أَدَّى الْجَوَارِ إِلَى بَنِي الْعَوَامِ (٣)  
وَالكَبِيرُ كَانَ عَلَيْهِ غَيْرَ حَرَامِ  
إِنَّ اللَّثَامَ عَلَى غَيْرِ كِرَامِ

ومن قوله يتغزل وقد رق جدًا .

بَانَ الْخَلِيطُ وَلَوْ طُوِغَتْ مَا بَانَ  
حَتَّى الْمَنَازِلِ إِذْ لَا نَبْتَعِي بَدَلًا  
أَحْبَبَ إِلَيَّ بِذَلِكَ الْجِرْعِ مَنَزَلَةٌ  
يَالَيْتَ ذَا الْقَلْبِ لَاقَى مَنْ يُعَلِّمُهُ  
مَا كُنْتُ أَوْلَ مُسْتَقٍ أَخِي طَرِبِ  
يَا أُمَّ عَمْرٍو جَزَاكَ اللَّهُ مَغْفِرَةً  
أَلَسْتُ أَحْسَنَ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ

وَقَطَّعُوا مِنْ حَبَالِ الْوَصْلِ أَقْرَانًا  
بِالِدَارِ دَارًا وَلَا الْجَيْرَانَ جَيْرَانًا  
بِالطَّلْحِ طَلْحًا وَبِالْأَعْطَانِ أَعْطَانًا (٤)  
أَوْ سَاقِيًا فَسَقَاهُ الْيَوْمَ سُلوَانًا  
هَاجَتْ لَهُ غَدُواتُ الْبَيْنِ أَخْرَانًا  
رُدِّيْ عَلَى فُوَادِي كَالذِي كَانَا  
يَا أَمْلَحِ النَّاسِ كُلِّ النَّاسِ إِنْسَانًا

(١) يريد ابن آكلة النخالة البعث الشاعر . الجرم : الجسد كله . يقال رماه بأجرامه أى رماه بجسده كله .  
(٢) يريد بخلف ضبة مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم .  
(٣) يريد الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب . أى لو كان الزبير حل في أحد سواكم لأدى جواره أى لمنعه حتى يرجع إلى بني العوام ويسلم .  
(٤) الطلح : من شجر العضاء . وهو أعظم الشجر أو شجر الحظ أو ذوالشوك أو ما عظم منه ، والأعطان مبارك الابل ، وقوله بالطلح طلحا : الباء فيه للبدل : أى وجدنا بدل طلح مواطننا الأولى طلحا مثله وكذلك قوله قبل : بالدار دارا والجيران جيرانا .



يَلْقَى غَرِيْمِكُمْ مِنْ غَيْرِ عُسْرَتِكُمْ  
لَقَدْ كَتَمْتُ الْهُوَى حَتَّى تَهَيَّمَنِي  
لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا إِذَا انْقَطَعَتْ  
مَا أَحَدَتْ الدَّهْرُ مِمَّا تَعْلَمِينَ لَكُمْ  
أَبْدَلَ اللَّيْلِ لَاتَسْرِي كَوَاكِبُهُ  
إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ  
يَصْرَعْنَ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لِاحْرَاكَ بِهِ  
يَا حَبْدًا جَبَلُ الرَّيَّانِ مِنْ جَبَلٍ  
وَحَبْدًا نَفَحَاتُ مِنْ يَمَانِيَّةٍ

ومن قوله يرثي الفرزدق ، وقد مات قبله بقليل :

لعمري لقد أشجى تميًّا وهدّها  
عشيّة راحوا للفراقِ بنعشه  
لقد غادروا في اللحد من كان ينتمى  
عماد تميمٍ كلّها ولسانها  
فمن لدوى الأرحامِ بعد ابنِ غالبٍ  
ومن لي تيمٍ بعد موتِ ابنِ غالبٍ  
ومن يطلق الأسرى ومن يحقن الدما  
فتى عاش يئني المجد تسعين حجةً

على نكباتِ الدهرِ موتُ الفرزدقِ  
إلى جدتِ في هوةِ الأرضِ معمقِ  
إلى كلِ نجمٍ في السماءِ محلّقِ  
وناطقها البدّاحُ في كلِ منطِقِ  
لجَارٍ وعانٍ في السلاسلِ مؤثّقِ (١)  
وأمّ عيالٍ ساعبينِ ودردقِ (٢)  
يداهُ ويشفي صدرَ حرّانِ مُحنّقِ  
وكان إلى الخيراتِ والمجدِ يرْتَقِي



هذا وأخبار جرير مع قرنيه الفرزدق والأخطل تملأ كتب الأدب ، وأهم ماورد

(١) العاني الأسير . موثق : مقيد .

(٢) ساعب : جوعان . دردق : أطفال .



منها تجده في كتاب الأغاني في تراجم هؤلاء الثلاثة وغيرهم ، وكذلك تجد أشعاره مع نقائضها من شعر الفرزدق مضبوطة في كتاب النقائض المطبوع بألمانيا . أما ديوان جرير المطبوع في المطبعة العلمية بمصر ، فيكاد يفقد فائدته لكثرة ما به من الخطأ والتحريف .

وقدمت جرير باليامة سنة ١١٠ هـ ، فيكون قد عمر زهاء سبعين سنة .

## الكُميت بن زينة

نحن أمام شخصية عظيمة ، كان لها في حياتها شأن ، واشتغل الناس بها حتى اهتزت لها مجالس الولاة ، وعروش الخلفاء ، فرقا حيناً ، وطرباً حيناً آخر .

يدللك على عظمة هذه الشخصية أن صاحبها كان له في كل مظاهر الحياة مداخلة ، كان شاعراً ، وخطيباً ، وعالمياً بمفاخر العرب ومثالبها ، وزاجراً للطير ، مهتدياً بالنجوم ، وعصبياً محتجاً لرأيه ، دامغ الحجة في الدفاع عنه .

وللعصبية في العصر الأموي قوّة لم تعرف بمثل شدتها ، ولا تشعب اتجاهاتها في غير هذا العصر . فقد كانت عصبية بين العدنانية والقحطانية ، ثم بين فرعي العدنانية من مصرية وربيّة . ثم تغلغت فكانت بين الأمم ، فهي شعوبية وعربية ، وبين الأقطار فهي عراقية وشامية ، ثم بين المدن فهي كوفية وبصرية . هذا إلى انشعاب آخر في الرأي بين شيعة وأمويين وخوارج وغيرهم ، بل لقد كان تعصب للشعر وقائليه ، فهؤلاء فرزدقيون ، وأولئك جريريون ، وهكذا . . .

ولقد كان الكُميت من نباهة الشأن بحيث عدّ من ذوى العصبيات لأنه كما قلنا ذورأى حرّ ، وشكيمة قوية ، وبيان ناصع ، فكان لا بدّ له أن يدلى بدلوه في هذا البحر المضطرب الأمواج ، ولم يكفه أن يأخذ في ناحية واحدة ، بل كان له رأى في كل ما يدور حوله البحث ويحتمد الجدال .



فكان شيعياً ، عصبياً عدائياً ، يفضل الكوفة . ولقد كان لا يضيّق صدره بهذه العصبية ، ولا تظنّى عواطفه فيها على غيرهما من العواطف ، فقد ذكروا أن الكميت هذا كان صديقاً للطّرّ مّاح بينهما خاطة ومودّة وصفاء لم يكن بين اثنين . وكان الطّرّ مّاح : خارجياً صُفْرِيّاً ، قحطانياً يتعصب للقحطانية ، وينتصر لأهل الشام على أهل العراق ، وقد قيل لهما : فقيم اتفقتما هذا الاتفاق مع سائر اختلاف الأهواء ؟ قالوا : اتفقنا على بغض العامة .

ذلك هو الكميت يمثل بأجل مظهر نشاط الفكر ، وحرية الرأي في عصره ، ثم هو في حريته هذه على خلاف رأى الأمراء والخلفاء الذين عرفوا بالشدة والغلظة في تقمّتهم على من يخالفهم ، ثم هو يسلم مع ذلك من مكرهم بشدة محاله ، وعظيم ما يرجون من فائدة عنده إذا استأواه إليهم ، فيبقى طول حياته مخوفاً ، مرجوّاً ، ناجياً من شر أعدائه ، نائلاً جوائزهم حتى يموت بسبب من أسباب حرية رأيه ، ولكن يكون موته غدرًا وغيلة أعجل فيه عن التدبير للخلاص .

ذلك أنه لما مدح يوسف بن عمر والى العراق بعد خالد القسرى أشار في مدحه إلى استطعام خالد الماء حين خرجت عليه الجعفرية<sup>(١)</sup> ، وهو على المنبر . قال الكميت :  
خرجت لهم تمشى البراح ولم تكن كمن حصنه فيه الرّجاج المّضبّب<sup>(٢)</sup>  
وما خالد يستطعم الماء فاعرا بعدلك والداعى إلى الموت ينعب<sup>(٣)</sup>  
وكان الجند الذين على رأس يوسف يمانية ، فتعصبوا لخالد ووضعوا ذباب سيوفهم في بطن الكميت ، فلم يزل ينزف الدم حتى مات .

(١) أتباع أبي جعفر محمد بن على العلوى .

(٢) البراح : المتسع من الأرض . الرّجاج : الباب العظيم ، وهو الباب المغلق وفيه باب صغير . ومضبّب : عليه ضبة . وأهل مكة يسمون المزلاج ضبة .

(٣) فاعرا فأتاحا فه . العدل (بالكسر) النظير . ينعب : يرفع صوته كنعيب الغراب . والمعنى أن خالد الذى استطعم الماء لايساويك في مقام القتال حين يرفع المنادى إلى الحرب صوته .



[ نسب الكميت ] : ذكر الأمدى في كتاب : « المؤلف والمختلف » أن ثلاثة من بني أسد بن خزيمة يسمون الكميت ، وهم : الكميت الأكبر بن ثعلبة ابن نوفل بن فضلة بن الأشتر بن جحران بن قفّس ، والكميت بن معروف بن الكميت الأكبر ، والثالث هو : الكميت بن زيد الذي نحصى خبره في هذه الترجمة ، وهو ابن زيد بن حنيس بن مجالد بن وهيب بن عمرو بن سبيع ، وينتهي نسبه إلى مضر بن نزار . وهو كوفي نشأ بالكوفة ، وكانت ولادته بها سنة ستين من الهجرة ، وهي السنة التي قتل فيها الحسين بن علي رضي الله عنهما . ثم كانت وفاته بها سنة ست وعشرين ومائة في خلافة مروان بن محمد .

[ بيئة الكميت ] : هي الكوفة قرية البصرة في الأدب والنحو والأنساب ، كان بها من العرب جمهرة كبيرة تقسمتهم الأهواء السياسية ، وإن كان غالبهم شيعة علي التي دوخت الولاة ، وأعيت سياستها على بني أمية كلهم ، وكم زفر الحجاج وزياذ قبله منهم ، وحنقاً عليهم ، واشتدّ في معاملتهم .

تلك هي الكوفة منبر الشعر والخطابة ، ومدرسة اللغة ، ومجال المفاخرات والمناظرات والمنافرات والممانات ، ومثار العصبيات ، ومدرجة الفتن ، ومثابتها بعد تجوالها وتطوافها في البلاد .

فيها نشأ الكميت ، فلم يكن بدعاً منه أن يكون شاعراً ، وخطيباً ، وراوياً للشعر ، وعالماً بلغات العرب ، ونسابة لهم ، يعرف بيوتهم ، ومفاخرهم ومثالبهم ، وزاجراً للطير ، ومهتدياً بالنجوم

لم يكن هذا بدعاً في الكميت ، وإنما العجيب أن يمتاز في كل ذلك حتى يغلب حماداً في الرواية ، وحتى لا يقاس به أحد من أهل زمانه في الشعر ، وحتى يكون مفخرة بني أسد في كل شيء من شعر وخطابة وجدل .

ذكروا أنه اجتمع هو وحماد في مسجد الكوفة ، فتذاكرا أشعار العرب وأيامها ، فخالفه حماد في شيء ونازعه ، فقال له الكميت : أظن أنك أعلم مني بأيام العرب



وأشعارها ، قال حماد : وما هو إلا الظن !! هذا والله هو اليقين ، فغضب الكميت ، ثم قال : لكم شاعر بصير يقال له : عمرو بن فلان تروى ؟ ولكم شاعر أعور أو أعمى اسمه فلان بن عمرو تروى ؟ فقال حماد في ذلك بعض القول . فجعل الكميت يذكر رجلا رجلا من صنف صنف ، ويسأل حماداً : هل يعرفه ؟ فإذا قال لا . أشده من شعره جزءاً جزءاً حتى ضجر الحاضرون ، ثم قال له الكميت : فإني سأئك عن شيء من الشعر ، فسأله عن قول الشاعر :

طَرَحُوا أَصْحَابَهُمْ فِي وَرْطَةٍ قَدَفَكَ الْمَقْلَةَ شَطَرَ الْمُعْتَرِكِ

فلم يعلم حماد تفسيره ، فسأله عن قول الآخر :

تُدْرِينَنَا بِالْقَوْلِ حَتَّى كَأَنَّمَا تُدْرِينُ وِلْدَانًا تُصِيدُ الرَّهَادِنَا

فأفحم حماد ، ولم يأت بتفسيرهما ، وسأل الكميت أن يفسرها ، فقال له : المَقْلَةُ حصاة يحملها القوم معهم إذا سافروا ، وتوضع في الإناء ، ويصب عليها الماء حتى يغمرها ، فيكون ذلك علامة يقتسمون بها الماء ، والشطر النصيب ، والمعتك الموضع الذي يختصمون فيه في الماء فيلقونها هناك .

وقوله تدريننا يعني النساء ، أى ختلنا فرميننا ، والرهادن : طير بمكة كالعصافير . . . كذلك لم يكن بدعاً أن يقول الكميت الشعر في بيئة كلها شعراء ، وفي زمن كل أسبابه تحمل على قول الشعر ، ولكن البدع أن يكون الكميت شاعراً لا يوزن به أهل زمانه ، فقد سئل معاذ المرء عن أشعر الناس ؟ فقال : من الجاهليين امرؤ القيس ، وزهير ، وعبيد بن الأبرص ؛ ومن الإسلاميين : الفرزدق ، وجري ، والأخطل . فقيل له : يا أبا محمد ، ما رأيناك ذكرت الكميت ، قال ذلك أشعر الأولين والآخرين ، وفيه يقول أبو بكرمة الضبي : لولا شعر الكميت لم يكن للغة ترجمان ولا للبيان لسان . وقال أبو عبيدة : لو لم يكن لبني أسد منقبة غير الكميت لكفاهم حبيهم إلى الناس وأبقى لهم ذكراً . وقيل : في الكميت خصال لم تكن في شاعر : كان خطيب بني أسد ، وفقه الشيعة ، وحافظ القرآن ، وكان ثبت الجنان ، وكان كاتباً حسن الخط ، وكان نساباً ، وكان جدلياً ، وهو أول من ناظر في التشيع مجاهرًا بذلك .



## محنة الكميت

كان الكميت كما تعلم متشيعاً لآل عليّ ، حرّ الرأي في تشيعه يجهر به ، ويناظر فيه في المجالس العامة حتى قيل إنه أوّل من ناظر في التشيع مجاهراً . وقد قال أغلب شعره في آل البيت يمدح أحياءهم ، ويرثي موتاهم ، وكانت محاسن قوله وكبار قصائده فيهم حتى عرفت له القصائد «المهاشميات» ، ومعلوم أن الشاعر الذي يقول في تمجيد هذه الفئة إنما يؤذي بقوله خلفاء الأمويين ، وينبه الناس إلى اعتدائهم عليهم واغتصابهم لحقوقهم . فكان قول الكميت في بني هاشم قذى في عيون هؤلاء الخلفاء ، وخضداً لشوكتهم ، وتأليباً للعامة عليهم ، ولكن الكميت مع ذلك كان في الكوفة بموضع التجارة من ولايتها ، فكان خالد بن عبد الله القسريّ يدني مجلسه ، ويجزل عطاءه ، ويصفيه المودّة . وكان ابتداء محنة الكميت أن كان حكيم بن عياش الأور الكلبى ولعاً بهجاء مضر ، فكانت شعراء مضر تهجوه وهو يجيبهم ، وكان الكميت يقول : هو والله أشعر منكم . قالوا : فأجب الرجل . قال : إن خالد بن عبد الله القسريّ محسن إليّ ، فلا أقدر أن أردّ عليه . قالوا : فاسمع بأذنك ما يقول في بنات عمك وبنات خالك من الهجاء ، وأنشدوه من ذلك فحمي لعشيرته وقال : « مذهبته » .

### \* الأحييتِ عنا يا مدينا \*

فأحسن فيها ، وبلغ خالدًا خبرها ، فقال : لأبالي ما لم يجز لعشيرتي ذكر ، فأنشدوه قوله :

ومن عجبٍ عليّ لعمر أمّ	غذتك وغيرها تيا يمينا
تجاوزت المياه بلا دليل	ولا علمٍ تعسّفَ مخطئينا
فإنك والتحوّل من معدّ	كهيّلة قبلنا والخالينا
تخطت خيرهم حلبا ونسنا	إلى الوالى المغادر هارينا
كغز السوء تنطح عالفيا	وترميها عصي الذابجينا



فقال خالد : فعلها !! والله لأقتلنه ، ثم اشترى ثلاثين جارية بأغلى ثمن وتخيرهن نهاية في حسن الوجوه والكمال والأدب ، فرواهن الماشميات ودسهن مع نخاس إلى هشام ابن عبد الملك ، فاشتراهن جميعاً ، فلما أنس بهن ، واستنشدهن الشعر أنشدنه قصائد الكميت الماشميات ، فقال : ويلكن من قائل هذا الشعر ؟ قلن : الكميت بن زيد الأسدي . قال : وفي أي البلاد هو ؟ قلن : بالكوفة ، فكتب إلى خالد أن يبعث إليه برأس الكميت فحسه خالد ، وقبل أن ينفذ فيه أمر الخليفة احتال الكميت للخلاص بأن أرسل إلى امرأته حبي ، وطلب منها أن تقيم مكانه ، وأن يهرب هو بثيابها ، فتم ذلك ، ثم لم يجد خيراً من الظهور وطلب العفو من الخليفة ، فاستطاع بسعي رجالات قريش بالشام أن يصل إلى مسامة بن هشام ، فاستشفع له عند أبيه فشفعه وقال له : اعقد له مجلساً نسمع فيه ما قاله فيما مدحا واعتذاراً ، فعقد له المجلس وحضره هشام نفسه .

### الكميت في مجلس العفو

قالوا : إن الكميت ارتجل في هذا المجلس خطبة ما سمع بمثها قط ، وامتح بنى أمية بقصيدته الرائية التي ارتجلها ارتجالاً حتى إنه لم يجمع منها إلا تلك الأبيات التي حفظها الناس في هذا المجلس ، وقد سئل عنها الكميت فقال : ما حفظ منها شيئاً إنما هو كلام ارتجلته .

وقد بدأ قوله في هذا المجلس بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله ، ثم قال : « أما بعد ، فإني كنت أتدهدى في غمرة ، وأعوم في بحر غواية ، أخنى على خطايا ، واستنفرني وهأما ، فتحيرت في الضلالة ، وتسكعت في الجهالة ، مهرعاً عن الحق ، جائراً عن القصد . أقول الباطل ضلالاً ، وأفوه بالبهتان وبالآ . وهذا مقام العائذ ، مبصر الهدى ، ورافض العماية . فاغسل عنى يا أمير المؤمنين الحوبة بالتوبة ، واصفح عن الزلة ، واعف عن الجرم . »



ثم أشد قصيدته التي أوّلها :

\* « قف بالديار وقوفَ زائرٍ » \*

وفيها يقول :

ماذا عليك من الوقوف بها وأنتَ غيرُ صاغِرٍ  
درجتَ عليها الغاديا تُرايحاً من الأعاصِرِ<sup>(١)</sup>

وفيها يقول :

فالآن صرتُ إلى أميَّة والأُمور إلى المصائر  
فجعل هشام يعمر مسامَّة بقضيب في يده ، ويقول : اسمع . اسمع .

وفيها يقول :

كم قال قائلكمُ لعمَّا لكَ عند عثرتهِ لهاثرُ  
وغفرتمو لذوى الذنوب من الأكابروالأصاغِرِ  
أبني أميَّة إنكم أهل الوسائل والأوامرِ  
ثقتي بكل ملعة وعشيرتي دون العشارِ  
أتم معادن للخلافة كابرأ من بعد كابر  
بالتسعة المتتابعين خلائفاً وبخير عاشر  
وإلى القيامة لا تزال شافعٍ منكم وواترٍ<sup>(٢)</sup>

ثم قطع الإنشاد ، وأعاد خطبته ، فقال :

« إغضاء أمير المؤمنين سماحته وصباحته . ومناطق المنتجعين من لا تحل حُبوتُه لإساءة  
المدنبيين فضلا عن استشاطه غضبه بجهل الجاهلين .

فقال له هشام : ويلك يا كميته ! « من زين لك الغواية ودلّك في العماية » . قال :

« الذي أخرج أبانا من الجنة وأنساه العهد ، فلم يجد له عزما » .

(١) الأعاصير : جمع إعصار ، وهي الريح تثير السحاب ، أو التي فيها نار ، أو التي تهب من الأرض كالعمود نحو السماء . والأصل في الجمع الأعاصير ولكنه خفف بحذف الياء كالمفتاح في المفاتيح .

(٢) شافع وواتر : أي لمن يتتابع منكم فيكون شفعا في العدد (زوجا) أو وترا (فردا) .



قال له : فأنت القائل :

فيأمو قدأ ناراً لغيرك ضوءها وياحاطبأ في غير حبلك تحطب<sup>(١)</sup>

قال : بل أنا القائل :

وجدنا قريشاً قريشاً المطأح على ما بنى الأول الأول

بهم صلأح الناس بعد الفساد وحيص من الفتق مارعبلوا<sup>(٢)</sup>

قال هشام : فأنت القائل :

لا كعبد للمليك أو كوليد أو سليمان بعد أو كهشام

من يمت لا يمت فقيداً ومن يخيبي فلا ذو إل ولا ذو ذمام

ويلك يا كميته ! جعلتنا ممن لا يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة . قال : بل أنا القائل :

فالآن صرت إلى أمية والأمور إلى المصائر<sup>(٣)</sup>

يابن العـقائل للعقا ثل والجحاحجة الأخائر

من عبد شمس والأكا بر من أمية فالأكا بر

إن الخـلافة والإلا ف برغم ذي حسد وواغر<sup>(٤)</sup>

دلقا من الشرف التليد إليك بالرقد الموفر<sup>(٥)</sup>

فلمت معتلج البطاح وحل غيرك بالظواهر<sup>(٦)</sup>

(١) الخطاب في هذا الشعر لهشام بن عبد الملك . يريد أنه بتولية الخلافة أفاد من حوله من بطائه واحتمل وحده إثمها .

(٢) حاص الرجل الثوب : خاطه . رعبل الثوب : مزقه .

(٣) قيل إنه إنما أراد صرت إلى أمية والأمور إلى مصائرهما : أي أنه سيصير إلى بني هاشم . وهذا طبعاً فهمه بالفحوى دل عليه المقام ، أما اللفظ فلا يدل إلا على أنه صار إلى بني أمية وانتهى أمره إليهم .

(٤) الواغر : الخاقد . الإلاف : هو الإيلاف ، ومعناه في القرآن العهد .

(٥) الضمير في دلقا يعود إلى الخلافة والإلاف . ودلف : مشى في تودة .

(٦) اعتلجت الأرض : طال نبتها . البطاح : جمع أبطح أو بطحاء وهما مسيل الماء فيه دقاق الحصى . الظواهر : أشرف الأرض ، أي ما ارتفع منها .



قال له : فأنت القائل :

فَقُلْ لِبَنِي أُمِّيَّةٍ حَيْثُ حَلَّوْا      وَإِنْ خَفْتَ الْمُهَنْدَ وَالْقَطِيعَا (١)  
أَجَاعَ اللَّهُ مِنْ أَشْبَعْتَمُوهُ      وَأَشْبَعَ مِنْ بَجُورِ كَمُو أَجِيعَا  
بِمَرْضَى السِّيَاسَةِ هَاشِمِيًّا      يَكُونُ حَيًّا لِأُمَّتِهِ رِبِيعَا

قال : لا تتريب يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تمحو قولي الكاذب . . . . قال : بماذا ؟  
قال : بقولي الصادق :

أورثته الحِصَانُ أُمَّ هِشَامٍ      حَسْبًا نَاقِبًا وَوَجْهًا نَضِيرَا (٢)  
وتعاطى به ابنُ عائِشَةَ البَدُّ      رَ فأمسى له رَقِيبًا نَظِيرَا  
وكساه أبو الخِلاَئِفِ مَرَوَا      نُ سَنِيَّ المَكَارِمِ المَأْتُورَا  
لم تَجَهَّمْ لَهُ البَطَاجُ وَلَكِنْ      وَجَدْتَهَا لَهُ مَعَانًا وَدُورَا

وكان هشام متكئا ، فاستوى جالسا وقال : هكذا فيمكن الشعر . ثم قال : لقد رضيت عنك يا كميت ، فقبل يده وقال : يا أمير المؤمنين ، إن رأيت أن تزيد في تشريفي فلا تجعل لخالد على إمارة . قال : قد فعلت وكتب له بذلك وأمر له بأربعين ألف درهم وثلاثين ثوبا هشامية ، وكتب إلى خالد أن يخلى سبيل امرأته ، ويعطيها عشرين ألفاً وثلاثين ثوبا ، ففعل .

### مبلغ التشيع عند الكميت

بعد أن عرفت أن نشأة الكميت كانت بالكوفة تستطيع أن تقدر الأسباب التي حملته على أن يكون شيعيا ، فقد كانت الكوفة بيئة العلويين وأنصارهم ، وكانت ميادينها

(١) سبق شرح هذه الأبيات ص ١٨٧ .

(٢) سبق شرح هذا الشعر ص ١٨٧ .



وأسواقها وأحيائها مسارح للتمثيل بهؤلاء الأطهار من سلالة رسول الله . كما كانت  
سجونها مُصَبَّح هؤلاء القوم ومُتَسَاهَم . بل ربما ولدت فيها ذراريتهم ، وأرمت  
كحولهم وشيوخهم .

فهذه المناظر المؤلمة من العدوان الظاهر ، والتجنى المقوت على هذه الفئة الطاهرة ،  
كانت دائماً تُسَعِّر في قلوب أهل الكوفة نار الحقد على بني أمية كما تحمل على استئثار  
الرحمة لهؤلاء المنكوبين ، والعطف على قضيتهم التي لم تمكن الأقدار أنصارها من الظهور  
بها والفَج على خصومهم .

فإذا تشيع الكميت فيما تجمعت أمامه أسباب هذا التشيع من شناعات رآها ،  
وحوادث سمع بها ، وذلّ ضارع رأى فيه هذه النفوس الزكية ، فلا شك أن كل ذلك  
يحمل نفساً آبية ، وقلباً زكياً مثل نفس الكميت وقلبه على أن ينتصر لهؤلاء بما  
يستطيع نصرهم به من وسيلة .

ولم يكن مثله وسيلة إلا وسيلة القول . وقد عرف وقعه في النفوس وقيمه بين أهل  
زمانه ، وقلق الحكام في عصره من اتخاذ هذا السلاح في محاربتهم .

لذلك كان أوّل شعر قاله الكميت هو شعره في آل البيت ، فقد ورد في الأغاني  
عن محمد بن عليّ التّوّفليّ قال : سمعت أبي يقول : لما قال الكميت بن زيد الشعر  
كان أوّل ما قال « الهاشميات » فسترها ، ثم أتى الفرزدق فقال له : يا أبا فراس ، إنك  
شيخ مضر وشاعرها ، وأنا ابن أخيك . قال : فما حاجتك ؟ قال : نفّث عليّ لساني ،  
فقلت شعراً ، فأحبيت أن أعرضه عليك ، فإن كان حسناً أمرتني بإذاعته ، وإن كان  
قبيحاً أمرتني بستره ، وأنت أولى من ستره ، فقال له الفرزدق : أما عقلك فحسنٌ وإني  
لأرجو أن يكون شعرك على قدر عقلك فأنشدي ، فأنشده :

\* طربتُ وما شوقاً إلى البيضِ أطربُ \*

قال : فقيم تطرب ؟ قال : « ولا لعباً مني وذو الشيب يلعب ؟ » . قال : بلى يابن أخي  
فالعب فإنك في أوان اللعب ، فقال :



ولم يُلْهِنِي دَارٌ وَلَا رَسْمٌ مَنْزِلٍ      ولم يَنْطَرِبْنِي بَنَانٌ مُخَضَّبٌ  
فقال : ما يطربك يا بن أخي ؟ فقال :

ولا السانحاتُ البارحاتُ عَشِيَّةً      أمرَ سليمَ القرنِ أم مرَّ أعْضَبُ (١)  
فقال : أجل لا تطير ، فقال :

ولكن إلى أهل الفضائل والثَّقَى      وخيرِ بني حَوَاءَ والخيرِ يُطَلَّبُ  
فقال : من هؤلاء ويحك !! قال :

إلى النَّفَرِ البِيضِ الذينِ مَجِبُهُم      إلى اللهِ فيما نابى أَتَقَرَّبُ  
قال : أرحنى ويحك من هؤلاء ؟ قال :

بني هاشمٍ رَهْطِ النَّبِيِّ فإِنِّي      بهمٍ ولهمُ أَرْضِي مراراً وأَعْضَبُ  
خَفَضْتُ لهمُ مني جناحِي مودَةً      إلى كَنْفِ عِطْفَاهُ أَهْلٌ وَمَرْحَبُ  
وَكَنتُ لهمُ من هؤلاءِ وهؤلاءِ      محبًّا على أَنِّي أَدَمُّ وَأَقْصَبُ (٢)  
وَأَرْمِي وَأَرْمِي بالعداوةِ أَهْلَهَا      وإِنِّي لأُوَدِّي فيهمُ وأُوْتَبُ

فقال له الفرزدق : يا بن أخي أذع ثم أذع ، فأنت والله أشعر من مضى ومن بقى .

وما زال الكميت يقول الشعر في آل البيت ويسمعهم إياه طلباً لرضا الله ، وإدخالاً  
للسرور على نفوسهم ، فكانوا في غالب أمرهم لا يملكون إلا الدعاء له يرفع أحدهم يديه ،  
ويقول : « اللهم اغفر للكميت ما قدم وما أخر ، وما أسر وما أعلن ، وأعطه حتى يرضى » .

ومما لاشك فيه أنه لم يكن يطمع في دنيا يصيبها من هؤلاء القوم ، وإنما كان  
يطمع في ثواب الله ، فقد دخل على أبي جعفر محمد بن علي ، فأنشده قصيدته :

« من لقلب مُتَمِّمٍ مُسْتَهَامِ » ، فقال : اللهم اغفر للكميت . اللهم اغفر للكميت .  
ودخل عليه يوماً ، فأعطاه ألف دينار وكسوة ، فقال له الكميت : والله ما أحببتكم للدنيا ،

(١) الأعضب : المكسور القرن .

(٢) أقصب : أعاب . ورواية الأغانى أعضب .



ولو أردتها لأتيت من هي في أيديهم ولكني أحببتكم للآخرة ، فأما الثياب التي أصابت أجسامكم فإني أقبليها لبركتها ، ثم ردّ المال ، وقبل الثياب .

ولقد يتزعزع اعتقادك في اعتقاد الكميت حين تراه مدح بني أمية وعماها ، ولكن قد كانت لهذا المدح ملابسات جعلته مقبولاً لا مطعن فيه على رأى الرجل ، فبعضه تقيّة أقرّه عليها آل هاشم أنفسهم ، وبعضه كان حيلة صناعية لجأ إليها الشاعر للقضاء على منافسيه في الشعر ، ولهذا القول تفصيل نذكره .

فأما التقيّة فقد تمثلت في مدحه لعمال الكوفة قبل محنته ، فقد كان يمدح خالد ابن عبد الله القسريّ ليغمض عينه عما يكون منه من التشيع لآل البيت . وما زال منتفعاً بهذا المدح مشبعاً به رغبته في التشيع حتى حنق عليه خالد لأنه تعلق عليه بقول يهجو به في منافراته ومناقضاته لشعراء القحطانية ، فلم يتسع له عنده عذر ، فوشى به إلى الخليفة هشام على النحو الذي مرّ بك .

كما تمثلت تلك التقيّة في مدحه لهشام الخليفة وراثته لابنه معاوية حين وقع في قبضته ، فلم يجد إلا ذلك المدح .

وهذه التقيّة قد أجازها له آل البيت ، فقد أرسل الكميت أخاه ورّداً إلى أبي جعفر محمد بن عليّ يقول له : إن الكميت أرسلني إليك وقد صنع بنفسه ما صنع . أفتأذن له أن يمدح بني أمية ؟ قال : نعم هو في حلّ فليقل ما شاء ، كما ذكروا أن الكميت نفسه دخل على أبي جعفر هذا ، فقال له : يا كميت أنت القائل :

فالآن صرت إلى أميّة والأمور إلى المصائر

قال : نعم ، قد قلت ولا والله ما أردت الدنيا ، ولقد عرفت فضلكم . قال : أما إن قلت ذلك ، إن التقيّة لتحلّ .

وأما الحيلة الصناعية فقد أردنا بها تلك الوسائل التي يلجأ إليها الرجل في صناعته ليكسب الفوز على خصمه ، ولقد كان من الكميت مكر حسن في باب المناقضة بالشعر . من ذلك أن شاعراً من أهل الشام يقال له : حكيم بن عياش الكلابي كان يهجو عليّ بن أبي طالب عليه السلام وبني هاشم جميعاً ، وكان منقطعاً إلى



بنى أمية ، فانتدب له الكميت ، فجهاه وسبّه فأجابه ولج بينهما الهجاء ، فكان الكميت يظهر أن هجاءه إياه للعصبية التي بين عدنان وقحطان . قال المستهّل بن الكميت قلت لأبي : يا أبت ! إنك هجوت الكلبى ، ففخرت بنى أمية ، وأنت تشهد عليهم بالكفر ، فألاً فخرت بعلىّ وبنى هاشم الذين تتولاهم . قال يا بنى ، أنت تعلم انقطاع الكلبى إلى بنى أمية ، وهم أعداء علىّ عليه السلام ، فلو ذكرته لترك ذكركى وأقبل على هجائه ، فأكون قد عرضت علياً له ، ولا أجد له ناصرًا من بنى أمية ، ففخرت عليه بنى أمية وقلت : إن نقضها علىّ قتلوه ، وإن أمسك عن ذكركم قتلته غمًا وغلبته . فكان كما قال : أمسك الكلبى عن جوابه ، فغلب عليه وأخم الكلبى .



فالرأى عندنا أن تشيع الكميت كان عقيدة ضمّ عليها أحناء ضلوعه ، واختلطت بدمه ولحمه ، وأما الذى كان منه من انحراف إلى أعدائهم فى بعض القول ، فهو حيلة يتخذها ليستعين بها على ردّ الكيد عنهم وعن نفسه .

## شعر الكميت

لقد حكم مُعَاذُ الْمُرَّاءِ بَأَنَّ الْكَمَيْتَ « أشعر الأولين والآخرين » ، وقال له الفرزدق : « أنت أشعر من مضى ومن بقى » ، ويخيل إلينا أن حكمهما لا مبالغة فيه ولا إسراف لأن الكميت قد تهيأت له أسباب تسوّغ قبول هذا الحكم ، ولا سيما فى عصر الكميت .

فلقد كان للعصبية المقام الأول بين الشعراء ، فمن كان نافذ القول فيها خيرًا بمدخلها ومخارجها كان له الغلب على معارضيه ، وراج شعره بين الناس بما يشير من دفائن وما يكشف من مستور ، والكميت له فى هذا المقام القدر المعلى والقدم الفارعة ، فقد كان علياً بأيام العرب ومفاخرهم ومثالبهم ، حافظًا لأنساب القبائل لا يماريه فى كلّ



ذلك مमार . حتى قيل : ما جمع أحد من علم العرب ومناقبها ومعرفة أنسابها ما جمع الكميت ، فمن صحح الكميت نسبه صحّ ، ومن طعن فيه وهنّ .

وهو الذي ردّ على الأعرور الكلابي لما رمى امرأته بأهل الحبس ، فكانت قصيدته فيه ثلثمائة بيت لم يترك فيها حياً من أحياء اليمن إلا هجاهم .

وقد حار الناس في أمر الكميت وعلمه بأنساب العرب ووقائعها ، ثم اهتموا إلى أنه كانت له جدتان أدركتا الجاهلية ، فكانتا تصفان له البادية وأمورها ، وتخبرانه بأخبار الناس في الجاهلية . فإذا ما شكّ في شعر أو خبر عرضه عليهما ، فتخبرانه عنه . قالوا : فمن هناك كان علمه .

كذلك تهياً للكميت من أسباب النبوغ في الشعر تلك الملكة الصانع التي كان يصدر عنها قوله على غرار واحد له طابعه الذي لا يشركه فيه أحد ، والشاعر إذا كان قوى الملكة صدر شعره نسيج وحده تتمثل فيه نزعة قائله الذي لم يضطره ضعفه إلى التقليد ، ولم تحوجه حيرته إلى الاحتذاء .

وإنك لتبتين استقلال الكميت في نزعته وصدوره عن محض ملكته فيما رواه صاحب الأغاني من أن الخليفة هشاماً لما وقعت له رقعة فيها أبيات تشتمل على وشاية بخالد القسري ، وهي :

تألّق برقّ عندنا وتقابلتْ      أنافٍ لِقِدْرِ الحَرْبِ أخشى اقتبالها<sup>(١)</sup>  
فدونك قِدْرَ الحَرْبِ وهي مُقِرّة      لكفّيك واجعل دون قِدْرِ جَعالها<sup>(٢)</sup>  
ولن تنتهي أو يبلّغ الأمرُ حدّه      فنلّها برِسلٍ قبل ألا تنالها<sup>(٣)</sup>

(١) يقال اقتبلت الأمر إذا استأنفته . يريد بتقابل الأنافي للقدر الاستعداد للحرب وإنما جعل الحرب قدراً لأنها تضطرب بمن فيها كما تضطرب القدر عند الغليان .

(٢) الجمال : خرقه ينزل بها القدر . ومعنى مقرة لكفّيك : أي خاضعة لهما يريد تمكنه من الأمر وقبضه على زمامه .

(٣) الرسل : الرفق والنوادة .



فَتَجَشَّمَ مِنْهَا مَا جَشِمْتَ مِنَ الَّتِي      بسور أهرت نحو حالك حالها<sup>(١)</sup>  
تلاف أمور الناس قبل تفاقم      بعقدة حزم لا تخاف انحلالها  
فما أبرم الأقوام يوماً لحيلة      من الأمر إلا قلدوك احتيالها  
وقد تخبر الحرب العوان بسرّها      - وإن لم تبخ - من لا يريد سؤالها

فأمر هشام أن يجمع له من بحضرته من الرواة فجمعوا ، فأمر بالأبيات فقرئت عليهم ، فقال : شعر من تشبه هذه الأبيات ، فأجمعوا جميعاً من ساعتهم أنه كلام الكميث ابن زيد الأسدي .

فإجماع الرواة من ساعتهم على أن الشعر للكميث دليل على أن شعره طابعاً لا يشبهه معه بشعر غيره ، وهذا الطابع هو دليل الاستقلال ، وآية الملكة المستغنية عن الاحتذاء والتقليد ، ثم إن هذا الإجماع بهذه السرعة دليل من جانب آخر على امتياز فن الكميث وأنه لعلوه لا يختلط بغيره من منازع الشعراء الذين تتداني ملكاتهم ، وتتقارب قواهم ، وتلتقي في مشرب واحد مأخذهم . لذلك سهل على الرواة أن يميزوا شعره لتحليقه وحده في سماء لا يتساعى إليها غيره من أهل العصر .

وقبل أن نحكم على شعر الكميث لا نرى بأساً من الاستئناس برأى أهل زمانه فيه من أمراء وخلفاء وشعراء ورواة .

فأما وجه هذا الاستئناس فهو أن القوم حين حكموا لم يصدرُوا في الغالب إلا عن تأثير بجمال هذا الشعر ، وربما وقع بعضهم تحت هذا التأثير كارهاً فأعجب مضطرباً وعدل عن حنقه على الشاعر إلى الرضا الذي تبعه تقريب المجلس وإغداق العطاء . وهل يمكن أن يكون هشام الخليفة ممالئاً حين يسمع شعر الكميث فيغمر ابنه مسامةً بقضيب في يده ، ويقول له : اسمع . اسمع . أو يكون الفرزدق وهو الشاعر المشهور بحقده على المجيدين من الشعراء ، مصانعاً حين يسمع أول شعره الذي جاء يستأذنه في إذاعته ،

(١) جشم الرجل الأمر (كسمع) تكافه على مشقة .



فيقول له : يابن أخى أذع . ثم أذع ، وهل تكون فاطمة بنت أبان بن الوليد (مدوح الكميت) مسرفة حين التقت برياً ابنة الكميت فى طريق الحج ، فلما عرقتها خلعت لها خلخالين من الذهب ، فقالت لها : جزاكم الله خيراً يا آل أبان . قالت فاطمة : بل أتم جزاكم الله خيراً ، فإننا أعطيناكم ما يبىد ويفنى ، وأعطيتن من المجد والشرف ما يبقى أبداً ولا يبىد : يتناشده الناس فى المحافل فيحى ميت الذكر ويرفع بقية العقب . لم يكن كل هؤلاء مسرفين فى حكمهم ولا مبالغين ، وإنما كانوا صادقين مدفوعين بتأثرهم من جمال هذا القول .

كذلك فى نوع العطاء صورة لرأى المدوح فى الشعر الذى مدح به ، فهذا خالد القسرى لما سمع من الكميت قوله فيه :

لو قيل للمجد من حليفك ما      إن كان إلا إليك ينتسب  
أنت أخوه وأنت صورته      والرأس منه وغيرك الذنب  
أحرزت فضل النضال فى مهل      فكل يوم بكفك القصب (١)  
لو أن كعباً وحاماً نُسرا      كانا جميعاً من بعض ما تهب  
لا تخلف الوعد إن وعدت ولا      أنت عن المعتفين تحتجب (٢)  
ما دونك اليوم من نوال ولا      خلفك للراغبين منقلب (٣)  
أمر له بمائة ألف درهم .

وهذا مُخَلَّد بن يزيد بن المهلب أنشده الكميت :

فأد الجيوش لخمس عشرة حجة      ولِدَاتُهُ عن ذاك فى أشغال  
قعدت بهم همتهم وسمت به      همُّ الملوك وسورة الأبطال (٤)

(١) القصب : قصب السبق .

(٢) المعتفون : طالبو الجود .

(٣) دون بمعنى أمام : أى ليس بعد نوالك نوال ولا خلفك أحد يرجى .

(٤) السورة : السطوة والشدة .



وكان قدام مُحَمَّدٍ دراهم يقال لها الرويحية ، فقال للكُميت : خذ وقرِّك منها ، قال الكُميت  
البغلة بالبَاب وهي أجد منى ، فقال : خذ وقرها ، فأخذ أربعة وعشرين ألف درهم .

## حكمتنا على شعر الكُميت

أما حكمتنا على شعر الكُميت بعد ما قدمنا لك ، فهو أن الرجل كان مطبوعاً على  
قول الشعر . يدلك على ذلك طول نفسه فيه فهاشمياته طويلة ، (وسنفردها فصلاً خاصاً)  
وكذلك قصيدته التي ردَّ بها على الأعور الكلبى بلغت ثلاثمائة بيت ، وشعره كله بلغ خمسة  
آلاف ومائتين وتسعة وثمانين بيتاً ، وهو مقدار كبير لم يبلغ مبلغه شاعر من أهل زمانه ،  
كما يدلك على هذا الانطباع قصيدته الرائية التي ارتجلها في مجلس العفو عنه بين يدي  
هشام الخليفة .

كذلك كان سليم الملكة العربية ، وقد ضمن له ذلك استظلاله بهذا العصر الذي لم  
يتحيف الملكات فيه نقص ولا اعتدى عليها اختلاط ، وقد انضم إلى علمه الواسع بلغات  
العرب ومفاخرهم ومثالبهم ، وكان زمنه يتطلب ذلك ليرضى الشاعر سامعيه ، ويكفيهم  
حاجة نفوسهم لنهش الأعراض ، أو تعداد المناقب .  
فاجتمعت بذلك للكُميت أسباب الكمال في شعره : رصانة لفظ ، وطول نفس ،  
وبعد إشارة .

ولقد كان لكثرة ما حفظ من شعر القدماء أثر عظيم في جودة شعره حتى لقد  
تسبق إليه عبارات من كلام هؤلاء القدماء فتزين قوله ، ولكن بعض المتعصبين عليه  
كخلف الأحمر كان يعدُّ ذلك من معانيه ، ويدعى أن الكُميت يسرق كلام الشعراء ،  
وما هي بسرقة ، ولكنها ما علمت من امتلائه بالحفظ وكثرة الرواية .

أما الأثر السياسى الذى أحدثه شعر الكُميت ، فقد كان بعيد الغور حتى لقد اعتبر  
هذا الشعر من أقوى العوامل فى إحياء العصبية الممتوتة التى جنت على الدولة الأموية ،  
وبقيت آثارها إلى أوائل العصر العباسى حتى أماتها الفرس وقضوا عليها جملة .



وإنك لتدرك قوّة هذا الشعر من قول صاحب الأغاني : « ولم تزل عصبينته للعدنانية ، ومهاجاته شعراء اليمن متصلة ، والمنافضة بينه وبينهم شائعة في حياته ، وبعد وفاته حتى ناقض دعبل وابن أبي عُيَيْنة قصيدته المذهبية ، فأجابهما أبو الزلفاء البصرى مولى بنى هاشم عنها » ، ولقد كان ذلك في النصف الأوّل من القرن الثالث الهجرى : أى بعد وفاة الكميت بنحو مائة سنة .

ويقول الجاحظ في بيان المدى الذى باغه شعر الكميت من التأثير في سياسة الدولة :  
« ما فتح للشيعنة الحجاج بالشعر إلا الكميت بقوله :

فإن هي لم تصلح لحيّ سواهمُ      فإنّ ذوى القربى أحق وأوجبُ  
يقولون لم يورث ولولا ترأّثه      لقد شركت فيه بكيلٌ وأرحبُ<sup>(١)</sup>

### هاشميات الكميت

هى ست قصائد كبار مجموعها نحو ٥٦٣ بيتاً ، ومعها بعض مقطعات يبلغ مجموعها نحو عشرين بيتاً ، وطولها هذه القصائد بلغت مائة وأربعين بيتاً ، ومنها ثلاث أربت كل واحدة منها على المائة .

والوصف العام لهذه القصائد أنها تشتمل على تمجيد آل البيت ، ووصفهم بالطهر والجود والشجاعة ، وأنهم أليق الناس بإقامة العدل وضبط ميزانه ، كذلك فيها ذكر للعوتى منهم متوجّين بالحديث عن سيرة رسول الله ووصف حياته وأعماله وغزواته ، ولكن بإيجاز يبعد القصيدة عن أن تعد من نوع القصص كذلك يذكر عليّاً والحسن والحسين ومقاتلهم ، وفيها كثير من الاحتجاج لآل البيت واستحقاقهم الخلافة وتعريض وتصريح بنى أمية واغتصابهم للأمر . هذا ما تدور عليه « الهاشميات » والأولى منها في ترتيب الوضع في النسخة المطبوعة بمصر ، مطالعها :

(١) بكيل وأرحب : حيان من همدان .



من لقلبٍ مُتَمِّمٍ مُسْتَهَامٍ غَيْرَ مَا صَبَوَةٌ وَلَا أَحْلَامٍ  
 طَارِقَاتٍ وَلَا أَدْكَارٍ غَوَانٍ وَاحْتَاتِ الْخُدُودِ كَالْآرَامِ (١)  
 بِلْ هَوَايَ الَّذِي أَجْنُ وَأُبْدِي لِبْنِي هَاشِمٍ فُرُوعَ الْأَنَامِ (٢)  
 لِلْمُقَرَّبِينَ مِنْ نَدَىِّ وَالْبَعِيدِينَ مِنَ الْجُورِ فِي عُرَى الْأَحْكَامِ  
 وَالْمُصَيَّبِينَ بَابِ مَا أَخْطَأَ النَّاسُ وَمُرْتَبِي قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ (٣)  
 وَالْحِمَاةَ الْكُفَاةَ فِي الْحَرْبِ إِنْ أَنْفَقَ ضِرَامٌ وَقُوْدُهُ بَضِرَامٌ  
 وَالغِيُوْثَ الَّذِيْنَ إِنْ مَحَلَّ النَّاسُ فِي أَوَى حَوَاضِنِ الْإِيْتَامِ  
 وَالْوَلَاةَ الْكُفَاةَ لِلْأَسْرِ إِنْ طَرَّتْ قِيَتْنًا بِمُجْهَضٍ أَوْ تَمَامِ (٤)  
 وَبَعْدَ ذَلِكَ يَقُولُ فِي وَصْفِ رَسُولِ اللَّهِ :

أَسْرَةَ الصَّادِقِ الْحَدِيثِ أَبِي الْقَاسِمِ فِرْعَانَ الْقُدَّامِ (٥)  
 خَيْرِ حَيٍّ وَمَيِّتٍ مِنْ بَنِي آدَمَ طُرًّا مَأْمُومِهِمُ وَالْإِمَامِ  
 وَفِيهَا يَذْكَرُ الْحُسَيْنَ ، فَيَقُولُ :

وَقَتِيلِ بِالطَّفِّ غُودَرَ مِنْهُ بَيْنَ غَوَاةٍ أُمَّةٍ وَطَفَامِ (٦)  
 تَرَكِبُ الطَّيْرُ كَالْمَجَاسِدِ مِنْهُ مَعَ هَابٍ مِنَ التَّرَابِ هَيْامِ (٧)  
 وَتَطْيِيلُ الْمُرَازِآتِ الْمُقَالِيَّتِ عَلَيْهِ الْقَعُودَ بَعْدَ الْقِيَامِ (٨)

- (١) طَارِقَاتٍ : وَصَفَ لِأَحْلَامِ . وَالْأَدْكَارِ : التَّذْكَرِ . غَوَانٍ : جَمْعُ غَانِيَةٍ ، وَهِيَ الْمَرْأَةُ الْجَمِيلَةُ .  
 (٢) أَجْنُ مَضَارِعُ جَنِّ (كَنَصْرِ) : أَسْتَرُ وَأَخْفَى ، وَمِثْلُهُ أَجْنُ (كَأَكْرَمِ) . فُرُوعُ : جَمْعُ فَرْعٍ وَهُوَ أَعْلَى الشَّيْءِ .  
 (٣) مَرَسَى قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ : مِنْ أَرَسَى الشَّيْءِ بِعَنْي ثَبَتِهِ وَأَقْرَبِهِ .  
 (٤) طَرَّتْ الْجَبَلِي : إِذَا خَرَجَ شَيْءٌ مِنَ الْمَوْلُودِ وَبَقِيَ شَيْءٌ . الْبَيْتَيْنِ : الْمَوْلُودَ الَّذِي خَرَجَتْ رِجْلَاهُ قَبْلَ رَأْسِهِ وَيَدَيْهِ . الْمَجْهُضُ : الَّذِي أَنْفَقَتْهُ أُمُّهُ قَبْلَ تَمَامِهِ .  
 (٥) الْقُدَّامِسُ : السَّيِّدُ . الْقُدَّامُ : مَنْ يَتَقَدَّمُ النَّاسَ لِقُرْفِهِ .  
 (٦) الطَّفُّ : مَوْضِعُ قَرْبِ الْكُوفَةِ .  
 (٧) الْمَجَاسِدُ : الثِّيَابُ الْمَرْعُوفَةُ . الْهَيْامُ : الَّذِي يَتَسَاقَطُ مِنْ نَفْسِهِ .  
 (٨) الْمُقَالِيَّتِ : جَمْعُ مَقْلَاةٍ وَهِيَ الْمَرْأَةُ لَا يَعْيشُ لَهَا وَلَدٌ .



يَتَعَرَّفْنَ وَجْهَ حُرِّ عَلَيْهِ عَقِبَةُ السَّرْدِ ظَاهِرًا وَالْوَسَامُ<sup>(١)</sup>  
قَتَلَ الْأَدْعِيَاءَ إِذْ قَتَلُوهُ أَكْرَمَ الشَّارِبِينَ صَوَّبَ الْغَمَامَ

والثانية مطلعها :

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ولا لعباً منى وذو الشيب يلعب ؟  
وقد سرّ بك هذا المطع وما يليه . ومنها في ذكر استحقاق آل البيت للخلافة :

وجدنا لكم في آل حاميم آية تَأْوَلَهَا مِنَّا تَقِيٌّ وَمُعْرِبٌ<sup>(٢)</sup>  
وفي غيرها آياً وآياً تتابعتُ لَكُمْ نَصَبٌ فِيهَا لَدَى الْمَشْكَ مُنْصَبٌ<sup>(٣)</sup>  
بِحَقِّكُمْ أَمْسَتْ قَرِيشٌ تَقُودُنَا وَبِالْفَدِّ مِنْهَا وَالرَّادِيْفِينَ نُرُكِبُ<sup>(٤)</sup>

والثالثة مطلعها :

أنى ومن أين أبك الطرب من حيث لا صبوة ولا ريبُ  
لا من طلاب المحجبات إذا ألقى دون المعاصر الحُجُبِ

وفيها يذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم على نحو مامرّ في الأولى .

والرابعة وأولها :

الأهل عمّ في رأيه متأملاً وهل مدبرٌ بعدَ الإساءة مُقْبِلُ  
وهل أمة مستيقظون لرُشْدِهِمْ فيكشف عنه النَّعْسَةَ الْمُتَزَمِّلُ  
فقد طال هذا النوم واستخرج الكرى مساوئهم لو كان ذا الميل يُعْدَلُ

(١) العقبة : ضرب من الثياب موشى . السرد : الشرف والمروءة . الوسام ( بالفتح ) الحسن .

(٢) الآية هي قوله تعالى في سورة الشورى « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » .

(٣) النصب بالتحريك : العلم المنسوب . منصب : متعب ، والآيات هي قوله تعالى في الأحزاب « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » وقوله تعالى في الأأنفال « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى » الآية .

(٤) يريد أن قريشا ( يعنى بنى أمية ) تحمك الناس باسم آل هاشم فهم يتخذونهم وسيلة إلى غرضهم كما تركب الدابة للوصول بها إلى الجهة ، المراد يركبها واحد أو اثنان .



وَعُطِّتْ الْأَحْكَامَ حَتَّى كَانْنَا عَلَى مِلَّةِ غَيْرِ الَّتِي نَتَنَحَّلُ  
كَلَامُ النَّبِيِّينَ الْمَدَاةَ كَلَامُنَا وَأَفْعَالُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ نَفْعَلُ  
رَضِينَا بِدُنْيَا لَا نَرِيدُ فِرَاقَهَا عَلَى أَنَّا فِيهَا نَمُوتُ وَنُقْتَلُ  
وَنَحْنُ بِهَا مَسْتَمْسِكُونَ كَأَنَّهَا لَنَا جُنَّةٌ مِمَّا نَخَافُ وَمَعْقِلٌ  
أَرَانَا عَلَى حُبِّ الْحَيَاةِ وَظَوَّلَهَا يُجَدُّ بِنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ وَنَهْزِلُ

هذه هي صورة « الماشميات » قر بناها إليك بما نقلناه منها ، وهي مطبوعة مشروحة .  
أما بقية شعره . فغير مجموع .

### نقد الكلام في عصر بني أمية

النقد ميز الخبيث من الطيب ، والزائف من الجائر ، وهو في الكلام معرفة صائبه  
من خاطئه ، وتقدير حسن موقعه ، أو سوء موضعه .

ولقد كان ذلك شغل العرب في جاهليتهم وهم من عرفت عناية بالقول والتماساً  
لأبلغه وتلفظاً لحسن موقعه ، وإن أحدهم ربما قال القول لا يبغى به إلا المباهاة  
بالفصاحة والمساماة في حسن البيان ، فلم يكن غرضهم من كل ما قالوا إرشاد السامع إلى  
ما جهل وإفهامه ما غرض ، بل كان أكبر همهم الإدلال بشرف اللفظ والتنبيه على  
مكانه ، وجدير بمن كانوا بهذه المثابة أن يكونوا قد بالغوا في العناية بالكلام ، فاختروا  
لفظه تقيماً صافياً ، وعمدوا إليه جزلاً شريفاً . والتمسوا له الموقع اللائق والسياق المناسب .  
وهم أحرى إذا نظروا في الكلام ، أو استأذن على سمعهم شيء منه أن يدركوا بموازينهم  
المضبوطة ، وملكاتهم السليمة حسن موقعه ، أو نبوء موضعه ، لأنهم طالما أخذوا أنفسهم  
بذلك ، ولم تعتد آذانهم إلا سماع الجيد .

ولعل هذا الغرام منهم بحسن الاتساق وجمال الوقع هو الذي جعل الشعر كثيراً



فيهم فإنه بوزنه واتحاد قافيته يساعد على التغنى ، ومن شأنه أن ينفى كل كلمة لا تقبل التوقيع ، ولا تدخل في حظيرة الموسيقى .

وإن ملكة النقد عندهم هي التي تمثلت في أسواقهم أيام الجاهلية ، فتنقلت قريش اللغات ، فخلص لها من بينها لغة جمعت ما تفرق في لغات العرب من مزايا ، ثم أرصد الشعراء لأنفسهم حكما يستجيدون الرصين من قولهم ، ويهرجون الباطل منه ليكون القائل دائما على ذكر من توخى المثل الأعلى والتماس الغاية المنشودة ، وليكون للملكات رقيب يحصى خطأها ، وينفي زيفها ، فلا تتأثر به الأسماع ، ولقد كان الحكم في شعرهم حينما ، النابغة الذبياني ، فكان يعرض عليه الشعراء أقوالهم فيقضى فيها بالحكم الذي لا يرد ، وقد مرّ بك حديث حسان والحسناء حين أسمعا النابغة شعرها ، وما كان له من رأى صائب .

استمرّ ذلك شأن العرب يحكمون للمجيد على المقصر ، ويتبعون الكلمة بالرأى فيها يساعدهم على ذلك ما كان لهم من حرية في إبداء الرأى لا ينهه لها غرب حتى كان أحدهم يشعر بأن ديناً في عنقه أن يقول كلمته ، ويعلن للناس رأيه ليبرى ذمته من أمانة لا يستطيع لها خيانة ، ومن عهد ما يرى في الوفاء به من بد . وهذا هو الذي جعل الخطيئة حين دنت وفاته يجعل في موضع وصيته أن يقول أبلغوا غطفان أن الشماخ أشعر العرب حيث يقول :

إِذَا نَبِضَ الرَّامُونَ فِيهَا تَرَمَّتْ      تَرْتُمُ ثَكْلِي أَوْجَعَتْهَا الْجَنَائِزُ  
وَأَبْلغُوا أَهْلَ ضَابِيٍّ أَنَّهُ كَانَ شَاعِرًا      حَيْثُ يَقُولُ :

لِكُلِّ جَدِيدٍ لَذَّةٌ غَيْرَ أَنِّي      رَأَيْتُ جَدِيدَ الْمَوْتِ غَيْرَ لَذِيذٍ  
وَأَبْلغُوا أُمَّرَأَ الْقَيْسِ أَنَّهُ أَشْعَرُ الْعَرَبِ      حَيْثُ يَقُولُ :

فِيإِلَّاكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ      بَكَلٍ مُعَارِ الْفَتْلِ شُدَّتْ بِيذْبُلٍ  
وَأَبْلغُوا الْأَنْصَارَ أَنَّ صَاحِبَهُمْ (يَعْنِي حَسَانًا)      أَشْعَرُ الْعَرَبِ حَيْثُ يَقُولُ :

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهَرُّ كَلَابُهُمْ      لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ



ثم يختم هذه الأمانة التي يؤديها ، وكأنه يرجو نفعها في آخرته بقوله :

الشعرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سَلَمَهُ      إذا ارتقى فيه الذي لا يَعْلَمُهُ  
زَلَّتْ به إِلَى الخُضِيِّضِ قَدَمُهُ      يُرِيدُ أَنْ يُعْرِبَهُ فَيَعْجِمُهُ

ولقد جاء الإسلام ، فنشر لهم بالقرآن ، وكلام النبي مطارف من القول جيدة النسيج بديعة الصنع ، فأدركوا بهما كيف يكون حسن التأليف وتلاحم القول ، وكيف تقع الكلمة موقفاً لا يحسن فيه غيرها ، ولا يليق به سواها ، وكيف تكون للأسلوب روعة في مقام الزجر ، وتطريب في مقام البشرى ، وإبكاء في سياق الوعظ ، وتثبيط وإخزاء عند العتاب واللوم ، إلى غير ذلك مما لهما من جمال رائع كان هو هادي العرب إلى الإيمان وداعيتهم إلى الدين .

عرف العرب بالقرآن مثلاً في البلاغة أسمى من مثلهم ، ورأوا في كثرة معانيه ، واتساقها ذخيرة لم تمتلئ بمثلا أيديهم ، فصار للبلاغة عندهم مقياس فوق مقياسهم وحد لم يبلغوه في جاهليتهم . فلا غرو إذا أنتج هذا فيهم دقة حس ، وحسن تقدير ، والتماساً للكمال يجعلون فيه القرآن وكلام الرسول حججهم ونموذجهم ، لذلك رأيناهم أقبلوا عليهما يكثرون من اقتباس ألفاظهما ويتأثرون بأساليبيهما ، ويهتدون في معانيهم بهديهما تساعدهم على ذلك ملكات حسيمة توارثوها من عهد قريب عن آباء صدق لم تشبها هجنة ولم تعبها عجمة ، ولقد استمرّ العرب في مدة العصر الأموي محتفظين بالمقدرة على النقد وصدق الحكم لأن الملكة بقيت سليمة خصوصاً في الخاصة من ولاية الأمر وأمراء الكلام . بل لقد كان للنقد رواج عظيم تبع رواج الشعر والاهتمام به ، فكان كما ذكرنا في مواضع سابقة لكل شاعر رواة يتعصبون له ويفضلونه على غيره ، ولا يكون التفضيل إلا بعد محاسن الكلام والنيل من غيره بالتجريح والعيب ، كذلك كانت كثرة الشعراء ، وتهافت الناس على التكبس بالشعر من أسباب النظر في كلامهم لترتيب درجاتهم ، وتقديم المستحق للتقديم كذلك كان الشاعر نفسه يرسل القصيدة ، وقد عرف البيت الذي سيزحف له المدح إعجاباً وارتياحاً كما يعرف في الهجاء البيت



الذي سيفرى جلد المهجور ويدقّ عظمه . كما حدث أن جريراً هاجه راعي الإبل ،  
فانصرف وهو مغضب ، فزال أرقاً طول ليله يهدر هدير البعير ، ويقرض الشعر في  
هجائه حتى وصل إلى قوله :

فَفُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ مُنْمِرٍ      فَلَ كَعْبًا بَأَغْتِ وَلَا كِلَابًا

فوثب حتى أصاب رأسه السقف وكبر ثم صاح أخزيتيه والله ، والله لا يفلح بعدها ،  
فكان كما قال ، وارتحل راعي الإبل على أثر سماعه لهذا القول منكسراً مخذولاً ، فكان  
كلمة مرّاً بمكان وجد هذا الشعر قد سبقه إليه .

ولقد بلغ من قوة تقدمهم وتمييزهم لطبقات الكلام أن كان مثل خلف الأحمر ، وحماد  
الراوية يقولان على لسان كل شاعر ما لا يستطيع الناس تمييزه من قوله لأن أحدهم كان  
قد سبق فعلم خصائص كل شاعر ودقائق الفروق بين قوله وأقوال غيره ، فإذا قال مثلاً  
على لسان امرئ القيس لم تر إلا روح امرئ القيس مترددة فيما يقول ، ولشدة الخلق  
وتناهي المقدرة في التقليد جاز ما وضعوه على أسنة هؤلاء الشعراء ، ودخل على الناس  
كأنه كلامهم .

ولقد راج النقد في هذا العصر رواج الشعر نفسه ، فقد حفلت به مجالس الخلفاء والأمراء  
والولاة وحلقات الأدب في المساجد الجامعة وأسواقه في البصرة والكوفة ، وكان حديث  
الناس وموضوع سمرهم ، فما ذكروا شاعراً إلا أعقبوا ذكره بالرأى فيه .

لأجل ذلك ترى كتب الأدب قد امتلأت بالحكم على الشعراء والخلاف بين النقاد  
في تفضيل شاعر على آخر ، وماذا كرهناه في فصول سابقة من أن هذه الآراء كانت مثاراً  
للمخاصمات والتجادل بالسيوف بذلك أوضح دلالة على ما كان للنقد من رواج في هذا  
العصر ، ولقد كان النقد عند العرب في هذا العصر والذي قبله من أيام الجاهلية يشمل  
جهتي الكلام : عبارته ومعناه . فأما اللفظ فقد تناولوا فيه اللفظ من حيث السهولة  
والوعورة والاضطراب والانسجام والتناسب والتنافر ، ثم الصحة والخطأ والالحن  
والإصابة . فإذا كان شعراً تناولوا الوزن ومناسبته للمعنى ، وتقيدوا الشاعر في التزامه



بحوراً خاصة لا يتعداها ، وحكموا على القافية في شدة أسرها ، أوقلت موضعها إلى غير ذلك مما تعرفه من الأمور التي تتعلق باللفظ مفرداً ومركباً ، وقد قال أصحاب الأعشى : هو أكثرهم عروضاً ، وأذهبهم في فنون الشعر ، وأكثرهم طويلاً جيدة ، وأكثرهم مدحاً وهجاء . ولا يذهب عن بلنا ما كان يعاب على شعر النابغة الذبياني من الإقواء ، وهو اختلاف حركات الروى ، وذلك لأنه لم يكن يعيد نظره في شعره حتى يفتن إلى مثل هذه المآخذ ، فاتهمز أهل المدينة فرصة حلوله بينهم ففسدوا عليه مغنية تغنيه بقوله :

أَمِنْ آلِ مَيَّةَ رَاحٍ أَوْ مُعْتَدٍ      عَجَلَانَ ذَا زَادٍ وَغَيْرَ مَزُودٍ  
زَعَمَ الْبُورِخُ أَنْ رَحَلْتَنَا غَدًا      وَبِذَلِكَ خَبَرَنَا الْغُرَابُ الْأَسْوَدُ  
سَقَطَ النَّصِيفُ وَلَمْ تَرُدْ إِسْقَاطَهُ      فَتَنَاوَلْتَهُ وَانْقَتْنَا بِالْيَدِ  
بِمُخَضَّبٍ رَخِصٍ كَأَنَّ بِنَانَهُ      عَمَّ يَسْكَادُ مِنَ اللَّطَافَةِ يُعْقَدُ

وأمرها إذا بلغت الروى أن تمده حتى يفتن له ، وقد فطن فأصلح شعره وقال : وردت يثرب وفي شعري بعض العهدة ، وصدرت عنها وأنا أشعر الناس . كذلك تقدوا المعنى ، وفي حكاية الخنساء وحسان حين وفدا على النابغة ما يدل على عنايتهم بالمعنى ، فقد عدت الخنساء على حسان أنه قلل جفانه في قوله : لنا الجففات الغر ، وجعل طعامه بالنهار في قوله : يلمعن بالضحى . قالت له : لو قلت بالدجى لكان أكثر طراقة ، ثم عابت عليه افتخاره بالأبناء في قوله :

وَلَدْنَا بَنِي الْعَمَقَاءِ وَابْنِي مُحَرَّرٍ      فَأَكْرَمُ بِنَا خَالًا وَأَكْرَمُ بِنَا ابْنًا

وعادة العرب أن تفخر بالأباء ، وسيمر بك من ذلك كثير جرى على السنة الخلفاء والأدباء في العصر الأموى .



والذي نراه أن للنقد كان نواة علوم البلاغة التي تكاملت فيما بعد فصارت علماً مستقلاً . ألت ترى أن موضوعهما واحد وهو الكلام وبيان وجوه حسنه وأسباب



نقصه ؟ فقد كانوا إذا أرادوا تعليل الحسن في الكلام أشاروا إلى ازدواجه ، أو سجعهم  
مثلا ، أو أنه اشتمل على تقسيم صادق أو اقتباس حسن ، كما نقدوا مطالع القصائد ،  
فاستحسنوا المطالع الجزل الدالّ على الغرض الملائم للموضوع ، واستهجنوا مادعا إلى التطير  
وحمل على الاستكراه ، ولم يكن مناسباً لمقام الكلام ، كما تناولوا الانتقال من التشبيب  
إلى الغرض ، فإذا رأوا الشاعر قد أحسن التخلص وتلطف في المدخل حمدوا صنيعه ،  
وإن رأوه وثب من غير ربط ، وهجم من غير تلطف عابوه واتهموه ، كذلك نظروا إلى  
الختام ، وطالبوا فيه أن يكون حسناً ليكون ما يعلق بالذهن من القول محموداً ، وليحس  
بجسسه الباقي قبلاً سبقة إن كان ، وهكذا فكان من آثار ذلك أن رأينا علم البلاغة  
يتكوّن وفيه أبواب البديع من ازدواج وسجع وتقسيم إلى غيرها .

ونحن الآن وقد فقدنا قوّة النقد لفقده السليقة العربية ترانا لانستطيع الحكم على  
الكلام إلا إذا ترسنا خطأ علوم البلاغة وحكمناها فيما نعرض له من القول فيما نقده  
ونميز طبيه من خبيثه ، لذلك لا ترى لغير البارعين في هذه العلوم الواقفين على أسرارها  
أن يتناولوا الأساليب العربية بالنقد ، فإن كلام غيرهم في ذلك خلط وضلال يجب أن  
تصان عنه العربية .



وسنورد عليك أمثلة مما وقع من النقد تدرك بها مدى هذه الملكة في نفوس القوم .

١ — عابوا على امرئ القيس قوله :

أَعْرَكَ مِنِّي أَنْ حَبَبِكَ قَاتِلِي وَأَنَّكَ مَهْمَا تَأْمُرِي يَفْعَلِي

فقالوا : إذا لم يعرفها ذلك منه فما الذي يعرفها ؟

وأخذوا عليه قوله :

فَلَيْسَ وَطِ الْأُهُوبُ وَلَيْسَ اقِ دِرَّةٌ وَلِلزَّجْرِ مِنْهُ وَقَعُ أَخْرَجَ مِهْدَبٌ (١)

(١) الأهوب : شدة الجرى . الدرة : الاندفاع . الأخرج : الظلم . المهذب : السريع العدو من



فقالوا : لو وصف أخس حمار وأضعفه ما زاد على ذلك ، واستجادوا في هذا المعنى قوله هو :

عَلَى سَابِحٍ يُعْطِيكَ قَبْلَ سُؤَالِهِ أَفَانِينَ جَرِيٍّ عَيْرٍ كَرِيٍّ وَلَا وَانِي (١)

X كما عدوا من غفلة كثير قوله :

أَلَا لَيْتَنَا يَا عَزُّ مِنْ غَيْرِ رِيْبَةٍ بَعِيرَانِ نَرَعَى فِي خَلَاءٍ وَنَعْرَبُ (٢)

كلانا به عرٌّ قرنٌ يرنا يقلُّ على حسنهما جرَّ بآءٍ تُعْدِي وَأَجْرَبُ

إِذَا مَا وَرَدْنَا مِنْهَا هَاجَ أَهْلُهُ إِلَيْنَا فَلَا نَنْفَكُ نُرْمَى وَنُضْرَبُ

حتى قالت له عزّة : لقد أردت لى الشقاء الطويل .

٢ - أراد جرير أن يذكر عفوهُ عن بنى عُدَانَةَ حين شفع فيهم عطية بن جعال ، فهجأهم أقبح هجاء حيث يقول :

أَبْنِي عُدَانَةَ إِنَّنِي حَرَّرْتُكُمْ وَوَهَبْتُكُمْ لِعَطِيَّةِ بْنِ جِعَالٍ

لَوْلَا عَطِيَّةٌ لَأَجْتَدَعْتُ أُنُوفَكُمْ مَا بَيْنَ الْأُمِّ أَنْفٍ وَسِبَالٍ (٣)

فقال عطية لما سمع الشعر : ما أسرع ما رجع أخى فى عطيته ؟

٣ - أنشد عبد الملك قول نصيب :

أَهِيْمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِّتُ فَإِنْ أُمْتُ فَوَا حَزْنَا مَنْ ذَا يَهِيْمُ بِهَا بَعْدِي

فقال بعض الحاضرين : أساء القول . أيحزن لمن يهيم بها بعده ؟ قال عبد الملك : لو كنت قائلاً فماذا تقول ؟ قال :

أَهِيْمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِّتُ فَإِنْ أُمْتُ أَوْ كَلَّ بِدَعْدٍ مَنْ يَهِيْمُ بِهَا بَعْدِي

أهدب بمعنى أمرع : والمعنى أن السوط يحمل هذا الفرس على شدة الجرى ولمس بطنه بساق الراكب يجعله يندفع فى جريه وإذا زجره رآكبه كان منه ما يكون من الظايم (ولدا النعامه) المررع .

(١) السكز : المنقبض ، والمراد هنا تقارب الخطأ فى الجرى .

(٢) من غير ريبه أن لا يكون منا ما يريب : أى يكون اجتماعهما للاثم فيه .

(٣) أنف : جمع أنف . سبال ( جمع سبلة ) وهو الشعر على الشارب .



فقال عبد الملك : أنت أسوأ قولاً ، ثم قال الوجه أن يقال :

أَهِيْمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِّتُ فَإِنْ أُمَّتُ فَلَا صَلَاحَ دَعْدُ لَدِي خُلَّةٍ بَعْدِي

٤ - أنشد عبد الله بن جعفر قول الشاعر :

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً حَتَّى تُصِيبَ بِهَا طَرِيقَ الْمَصْنَعِ

فقال : هذا رجل يريد أن يبخل الناس . أمطر المعروف مطراً فإن صادف موضعاً ، فذلك الذي قصدت له وإلا كنت أحق به .

٥ - أنشد الكميّ نُصَيْبًا ، فاستمع له ، فكان فيما أنشده :

وَقَدْ رَأَيْنَا بِهَا حُورًا مُنْعَمَةً بِيضًا تَكَامَلُ فِيهَا الدَّلُّ وَالشَّنْبُ<sup>(١)</sup>

فتى نُصَيْبُ خنصره ، فقال له الكميّ : ما تصنع ؟ قال : أخصي خطأك تباعدت في قولك تكامل الدلّ والشنب ، هلا قلت كما قال ذو الرمة :

لَمِيَاءُ فِي شَفْتَيْهَا حَوْثُ الْعَسِّ وَفِي اللَّثَاتِ وَفِي أَنْيَابِهَا شَنْبُ<sup>(٢)</sup>

قال أبو العباس المبرد : الذي عابه نصيب من قوله تكامل فيها الدل والشنب قبيح جدًا ، وذلك أن الكلام لم يجر على نظم ولا وقع إلى جانب الكلمة ما يشاكلها .

٦ - أنشد ذو الرمة بلالاً يمدحه :

سَمِعْتُ : النَّاسُ يَلْتَجِعُونَ غَيْثًا فَقُلْتُ لَصَيْدِحَ أَنْتَجِعِي بِلَالًا<sup>(٣)</sup>

تُنَآخِي عِنْدَ خَيْرِ فِتْيِ يَمَانٍ إِذَا النَّكْبَاءُ نَاوَحَتِ الشَّمَالَ<sup>(٤)</sup>

(١) الحور : جمع حوراء ، وهي الشديدة سواد العين . الدل : الدلال ، وهو ما يكون في المحبوب من التجنى على الحب . الشنب : ماء ورقة وبرد وعدوبة في الأسنان .

(٢) المي : سواد في الشفة وكذلك الحوة والعس .

(٣) الكلام على الحكاية أي سمعت هذه العبارة وهي : الناس يلتجعون غيثًا . صيدح . اسم ناقته .

(٤) يمان نسبة إلى اليمن يقال : هو يمني ويماني ويمان والنكباء : كل ريح انحرفت عن مهبها فوقعت بين مهبين ، أو هي التي تقع بين الصبا والشمال وإذا وقعت الريح كذلك كان ذلك آية الشقاء وفيه الجذب فالجود فيه يدل على رسوخ صفة السكرم في الكريم .



فلما سمع بلال « فقلت لصيدح » قال : يا غلام مر لها بقتٍ ونوى .

٧ - قدمت ليل الأخيلية على الحجاج ، فأنشدته :

إِذَا وَرَدَ الْحَجَّاجُ أَرْضاً مَرِيضَةً      تَتَّبِعُ أَقْصَى دَائِمِهَا فَشَفَاهَا  
شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ الْعُقَامِ الَّذِي بِهَا      عَلَامٌ إِذَا هَزَّ الْفَنَاءَ سَقَاهَا

فقال لها : لا تقولى غلام ، ولكن قولى همام .

٨ - عرضت امرأة لكثيرٍ ، فقالت أنت القائل :

فَمَا رَوْضَةٌ بِالْحَزْنِ طَيِّبَةٌ التَّرَى      يَمِجُّ النَّدى جَنَجَانِهَا وَعَرَارُهَا<sup>(١)</sup>  
بَأَطْيَبِ مَنْ أُرْدَانِ عِزَّةً مَوْهِنًا      وَقَدْ أَوْقَدَتْ بِالْمَنْدَلِ الرَّطْبِ نَارُهَا<sup>(٢)</sup>

أرأيت لو أن زنجية بخرت أردانها بمندل رطب أما كانت تطيب الأقلت ؟ كما قال  
أمرؤ القيس :

أَلَمْ تَرَ أَنِّي كَلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا      وَجَدْتُ بِهَا طَيِّبًا وَإِنْ لَمْ تَطْيَبْ

دخل جرير على الوليد وابن الرقاع العاملى عنده ينشده القصيدة التى يقول فيها :

غَلَبَ الْمَسَامِيحَ الْوَلِيدُ سَمَاحَةً      وَكَفَى قُرَيْشَ الْمَعْضَلَاتِ وَسَادَهَا

فقال جرير : فحسدته على أبيات منها حتى إذا أنشد فى صفة الظبية :

\* تَرْجَى أَعْنَ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقِهِ \*

فقلت فى نفسى : والله ما يقدر أن يقول أو يشبهه ، فلما قال : « قلم أصاب من الدواة  
مدادها » ما قدرت حسداً أن أقيم ، فانصرفت .

٩ - كان الحسن يخطب فى دم ، فأجابه ولىّ الدم : قد تركت ذلك لله

ولوجهكم ، فقال الحسن : لا تقل هكذا ، ولكن قل : لله ثم لوجهكم وأجرك الله ،

(١) الحزن : ما غلظ من الأرض . الجنجات : نبات . العرار : بهار البر .

(٢) الإردان : جمع ردن ( كقفل ) وهو الكم . الموهن من أول الليل إلى نحو نصفه :

المندل العود وأجوده .



ومرّ رجل بأبي بكر ومع الرجل ثوب ، فقال له أبو بكر: أتبيع الثوب ؟ فقال الرجل: لا . عافاك الله . فقال له أبو بكر: لقد علمتم لو كنتم تعلمون . قل لا . وعافاك الله . وسأل عمر رجلا عن شيء ، فقال :الله أعلم . قال عمر: لقد شقينا إن كنا لا نعلم أن الله يعلم : إذا سئل أحدكم عن شيء لا يعلمه ، فليقل لا أعلم لي .

١٠ - أنشد ابن قيس الرقيات عبد الملك :

إِنَّ الْحَوَادِثَ بِالْمَدِينَةِ قَدْ أَوْجَعَنِي وَقَرَعَنَ مَرَوْتِيَهٗ  
وَجَبَبَنِي جَبَّ السَّئَامِ فَلَمْ يَتْرُكْ رِيْشًا فِي مَنَا كَبِيَهٗ<sup>(١)</sup>

فقال له عبد الملك : أحسنت إلا أنك تخنثت في قوافيك .

١١ - أنشد ذو الرمة عبد الملك :

مَا بِالْأَعْيُنِ مِنْهَا الْمَاءُ يَنْسَكِبُ كَأَنَّهُ مِنْ كُلِّ مَفْرِيَةٍ سَرِبُ<sup>(٢)</sup>

فقال عبد الملك : ما سؤالك عن هذا يا ابن الفاعلة ؟ وأمر باخراجه . وكان بعبد الملك رمش<sup>(٣)</sup> ، فلا تزال عينه تدمع ، فتوهم أنه يعرض به .

١٢ - عابوا على النابغة الذبياني اقتضابه في قوله :

تَقَاعَسَ حَتَّى قُلْتُ لَيْسَ بِمُنْقَضٍ وَلَيْسَ الَّذِي يَرَعَى النَّجُومَ بِأَمْبٍ<sup>(٤)</sup>  
عَلَى لِعَمْرٍو نِعْمَةٌ بَعْدَ نِعْمَةٍ لَوْلَاهُ لَيْسَتْ بِذَاتِ عَقَارِبٍ<sup>(٥)</sup>

لأنه انتقل فجأة من وصف الليل إلى ذكر المدوح من غير تخلص .

١٣ - جاء جرير إلى سكينه بنت الحسين عليه السلام يستأذن عليها فلم تأذن

له ، وخرجت جاريتها فقالت : تقول لك سيدتي أنت القائل :

(١) جبه : قطعه .

(٢) كلبي : جمع كلية وكلوة وهي هنا من الزادة رقعة مستديرة تحرز عليها تحت العروة .

(٣) الرمش . تفتل في شعر الأهداب وحرمة في الجفون مع ماء يسيل .

(٤) تقاعس : طال .

(٥) العقارب هنا النمام ، والمعنى لم تفسدها النيمة .



طَرَقْتِكْ صَائِدَةٌ الْقُلُوبِ وَلَيْسَ ذَا وَقْتِ الزِّيَارَةِ فَأَرْجِعِي بِسَلَامٍ  
قال : نعم . قالت : أفلا أخذت بيدها فرحبت بها ، وأدנית مجلسها ، وقلت لها ما يقال  
لمثلها ، أنت عفيف وفيك ضعف ، فخذ هذين الألفي الدرهم فالحق بأهلك .

١٤ — بينا المهلب ذات يوم بفارس يقاتل الأزارقة إذ سمع بعسكره جلبه  
وصياحا ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : جماعة من العرب تحاكموا إليك في شيء ، فأذن لهم ،  
فقالوا : إنا اختلفنا في جرير والفرزدق ، فكل فريق منا يزعم أن صاحبه أشعر من  
الآخر ، وقد رضينا بحكم الأمير ، فقال : كأنكم أردتم أن تعرضوني لهذين الكلبين  
فيمزقا جلدتي . لا أحكم بينهما ، ولكني أدلكم على من يهون عليه أمرها . عليكم  
بالأزارقة فإنهم عرب يبصرون الشعر ويقولون فيه بالحق ، فلما كان الغد خرج عبيدة  
ابن هلال اليشكري ، ودعا للمبارزة فخرج إليه رجل من عسكر المهلب ، فقال له :  
يا عبيدة سألتك الله إلا أخبرتني عن شيء أسألك عنه ، فقال : سل . قال : أوتخبرني .  
قال : نعم . إن كنت أعلم . قال : أجرير أشعر أم الفرزدق ؟ قال : قبحك الله أتركت  
القرآن واللغة وسألتني عن الشعر . قال : إنا تشاجرنا في ذلك ورضينا بك ، فقال : من  
الذي يقول :

وَطَوَى الطَّرَادُ بَطُونَهُنَّ كَأَنَّهَا طَى التَّجَارِ بِحَضْرَمَوْتَ بُرُودًا<sup>(١)</sup>  
قال : جرير . قال : هو أشعر الرجلين .

١٥ — وعابوا على الشَّامِخِ بْنِ ضِرَّارٍ قَوْلَهُ فِي عَرَابَةِ الْأَوْسِيِّ يَخَاطِبُ نَاقَتَهُ :

إِذَا بَلَغْتَنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي عَرَابَةَ فَاشْرِقِي بِدَمِ الْوَتِينِ

قالوا : كان ينبغي أن ينظر لها مع استغنائها عنها ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
للأنصارية التي نجت من أسرها بمكة على ناقة رسول الله : إني نذرت إن نجوت عليها  
أن أنحرها ، فقال لها رسول الله لبئس ما جزيتها ، وقال : لا نذر في معصية ، ولا نذر  
للإنسان في غير ملكه .

(١) الطراد : حمل الفرسان بعضهم على بعض .



قالوا : ومما لم يعب في هذا قول عبد الله بن رَوَاحَةَ الأَنْصَارِيِّ :

إِذَا بَلَّغْتَنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي مَسِيرَةَ أَرْبَعِ بَعْدِ الْحِسَاءِ  
فَشَأْنُكَ فَانْعَمِي وَخَلَائِكَ ذَمٌّ وَلَا أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي وَرَأَى

وذلك عند ما أقره رسول الله صلى الله عليه وسلم على جيش مُؤْتَنَةٍ فرحاً منه بذلك .  
وقد اتبع ذوالرُّمَّةَ الشَّامِيَّ ، فقال :

إِذَا ابْنَ أَبِي مُوسَى بِلَالاً بَلَّغْتَهُ فِقَامٌ بِنَافَسٍ بَيْنَ وَصْلِكَ جَازِرٌ

١٦ - ومن الأمثلة الجامعة للنقد ما رواه المبرِّدُ : أن عمر بن أبي ربيعة والأحوص  
وَنُصَيْبًا صاروا إلى كُثَيْبٍ ، فأقبل على عمر ، فقال له : أحسنت في كثير من شعرك ،  
ولكن أخبرني عن قولك :

قَالَتْ لَهَا أُخْتُهَا تَعَاتِبُهَا لَتُفْسِدَنَّ الطَّوْفَ فِي عَمْرٍ  
قَوِي تَصَدَّى لَهُ لِيَبْصُرْنَا ثُمَّ اغْمَزِيهِ يَا أُخْتَ فِي خَفَرٍ  
قَالَتْ لَهَا قَدْ غَمَزْتَهُ فَأَبَى ثُمَّ اسْبَطَرَتْ تُشْتَدُّ فِي أَثَرِي

والله لو قد قلت هذا في هرة أهلك ما عدا . أردت أن تنسب بها فنسبت بنفسك .  
أهكذا يقال للمرأة إنما توصف بالخمر ، وأنها مطلوبة ممتنعة . هلا قلت كما قال هذا ،  
وضرب بيده على كتف الأحوص :

أَدُورُ وَلَوْلَا أَنْ أَرَى أُمَّ جَعْفَرٍ بِأَيَاتِكُمْ مَا دُرْتُ حَيْثُ أَدُورُ  
وَمَا كُنْتُ زَوَّارًا وَلَكِنْ ذَا الْهَوَى إِذَا لَمْ يُرْزَ لَا بَدَّ أَنْ سَيَزُورُ  
لَقَدْ مَنَعْتُ مَعْرُوفَهَا أُمَّ جَعْفَرٍ وَإِنِّي إِلَى مَعْرُوفِهَا لَفَقِيرٌ

فامتلاً الأحوص سروراً ، ثم أقبل عليه ، فقال : يا أحوص خبرني عن قولك :

فَإِنْ تَصَلَّى أَصْلِكَ وَإِنْ تَعَوَّدِي لَهْجَرٍ بَعْدَ وَصْلِكَ لَا أَبَالِي

أما والله لو كنت من فحول الشعراء لباليت ، هلا قلت كما قال هذا وضرب بيده على  
جنب نُصَيْبٍ :



بزئيب ألمم قبل أن يظعن الركب وقل إن تملينا فما ملك القلب  
فاتنفخ نصيب ، ثم أقبل عليه ، فقال له : ولكن أخبرني عن قولك يا أسود :  
أهيم بدعد ما حيت فإن أمت فواخزنا من ذايهم بها بعدى  
كانك اغتممت ألا يفعل بها بعدك . فقال بعضهم لبعض : قوموا فقد استوت الفرقة .  
(الفرقة : لعبة على خطوط واستواؤها اقتضاؤها) .

## الرواية والرواة

كانت الرواية لازمة العرب في جاهليتهم لمكانهم من الأمية ، وحاجتهم إلى تناقل أخبارهم ، ولقد ساعدهم على ذلك قوة ملكاتهم وتمام حوافظهم . ولقد أتوا في ذلك بالمدح من أمرهم ، فقد كان الرجل منهم يعرف سلسلة نسبه حتى ينتهي إلى نزار أو قحطان ، وأغرب منه أن يعرف بعضهم أنساب قبيلة أو أكثر فلا يخطئ فيها . كما ذكروا عن أبي بكر علمه بأنساب قريش وغيرها من قبائل العرب . ولما كان الشعر علم العرب ، وسجل تاريخهم ، وشاهد أيامهم كثرت روايتهم له حتى كان لكل شاعر راوية أو أكثر ، وكان الرواية من الشعراء بمثابة تلميذه الذي يتعلم عنه ويحتج لقوله . كان امرؤ القيس راوية أبو داؤد الإيادي ، وزهير راوية أوس بن حجر ، والأعشى راوية المسيب بن علس ، والحطيئة راوية زهير ، وابنه كعب من بعده .

ولما جاء الإسلام فشغل العرب عن كل شيء من سابق أمورهم قترت الرواية بفتور الشعر ، ثم رأوا أنهم محتاجون إليها لفهم القرآن ، وإدراك أسرارها ، ولتعرف أخبار آبائهم ، وإحياء ما درس من آدابهم ، فكانت للرواية سوق نافعة ، ونشأ من الرواة قوم وقفوا عملهم على الرحلة إلى البادية ، ومشافهة الأعراب ، ونقل كلامهم للاحتجاج به في إثبات عادة عربية ، أو قاعدة نحوية ، وكان علم النحو أول ما بحث من علوم العربية .



ولم يكن الرواة يأخذون إلا عن صحاح عربيتهم كقيس وقيم وأسد وهذيل  
و بعض كسنانة و بعض طيّ ولم يأخذوا عن لحم ولا جذام لجاورتهما أهل مصر ، ولا عن  
قضاة و غسان لحوهم بالشام ، ولا عن بكر لجاورتهم الفرس ، ولا عن عبد القيس  
والأزد و عمان لمخالطهم الهند و الفرس بالبحرين ، ولا من ثقيف و أهل الطائف لمخالطهم  
تجار اليمن ، ولا من أهل الحجاز لأنهم كانوا أسبق العرب إلى المخالطة ، فإن أستمهم  
كانت قد فسدت حين بدأ الرواة ينقلون اللغة .

وقد شجع الخلفاء الرواية و أدنوا الرواة ، و أثابوهم بالعطاء الجزل ، و استدعوهم من  
أقاصى البلاد لسؤالهم عن بيت شعر أو معنى كلمة . و لقد كان الأعراب بادئ الأمر  
يبوحن للرواة بما يطلبون غير طامعين فى أجر على ذلك حتى رأوا ما تدر الرواية على  
أصحابها من خير ، ف جعلوا يطلبون الأجر على إجاباتهم ، و بعضهم كان يقصد الحضر ، و يقيم  
فيه مسترزقاً بعلمه ، و ما حفظه من كلام معرب . و لقد نشأ بجانب رواية الشعر و أخبار  
العرب ، رواية لحديث رسول الله ، و قراءات القرآن و تفسيره ، و فتاوى الصحابة فى  
أمور الدين ، فكان لكل ذلك رواية ، و قد يستقلّ رواية بنوع من هذه أو يجمع بين  
أنواع منها ، وبقى للشعراء رواية كما كان لهم أيام الجاهلية ، فكان كثير رواية جميل ،  
و مزبج رواية جرير ، و الفرزدق و محمد بن سهل رواية السكيت ، و ذو الرمة رواية  
الراعى ، و فى أواخر العصر كان الراوى يروى لمن يستطيع الرواية لهم من شعراء الجاهلية  
و الإسلام لا يختصّ بواحد دون آخر ، فكان حماد يروى كل ما وقف عليه من شعر  
العرب قديماً و حديثاً .

### مبلغ الرواية من الصدق

إن الحافظة مهما قويت لا يكون لها من الضبط ما للتقيد بالكتابة ، فإن الرواية  
مهما تحرى الصدق و حرص عليه ، قد يعترية النسيان ، و يدخل عليه الشكّ لاتفاق



القوافي ، وتقارب المعاني ، واتحاد الأوزان . بذلك حدث في الشعر خطأ غير متعمد في لفظه ونسبته ، فأدخلوا في بعض القصائد ما ليس منها للتشابه الحادث بين قصيدتين في الغرض والوزن والقافية كما حدث في قصيدة ابن الحدّادِيّة التي مطلعها :

سَقَى اللهُ أَطْلَالَاً لِنَعْمٍ تَرَادَفَتْ بَيْنَ النَّوَى حَتَّى حَلَّلْنَا الْمُطَالِيَا

وقصيدة الجنون التي مطلعها :

تَذَكَّرْتُ لَيْلَى وَالسَّنِينَ الْخَوَالِيَا وَأَيَّامَ لَا أَعْدِي عَلَى الدَّهْرِ عَادِيَا

وكما حدث في أبيات ابن التَّمِيمَةِ المشهورة ، وهي :

أَقْضَى نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَبِالْمَنَى وَيَجْمَعُنِي وَالْهَمُّ بِاللَّيْلِ جَامِعٌ

نَهَارِي نَهَارِ النَّاسِ حَتَّى إِذَا بَدَأَ لَيْلِي شَاقَتْنِي إِلَيْكَ الْمُضَاجِعُ

لَقَدْ ثَبَتَتْ فِي الْقَلْبِ مِنْكَ مَحَبَةٌ كَمَا ثَبَتَتْ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ

ولقد كثر ذلك حتى لقد نسبت القصيدة إلى عشرين أو أربعين شاعراً .

ومن أسباب اختلاف الرواية أن يكون بعض الرواة من غير قبيلة الشاعر ، فينطق بما يوافق لفته ، ويخالف لغة الشاعر . كما أنه قد يغير كلمة بكلمة لأنه يرى الثانية أليق وأوفق لغرضه كقول أبي ذؤيب الهذلي :

دَعَانِي إِلَيْهَا الْقَلْبُ إِنِّي لِأَمْرِهِ مُطِيعٌ فَمَا أَدْرِي أَرُشِدُ طِلَابُهَا

هكذا رواه أبو عمرو بن العلاء ، ورواه الأصمعي : « عصاني إليها القلب » .

والرّواة لا يابون قبول مثل هذا مادام الذي يدلّ في الكلام عربياً لا يطوع لسانه بغير الصواب . كذلك من أسباب اختلاف الرواية أن الشاعر ينسى كلمة من شعره ، فيضطرّ إلى تغييرها بما يوازنها ، ويكون بمعناها في حين أن الأولى تكون قد سبقت إلى الناس ، فيصير إليهم الروايتان عن طريق الشاعر نفسه ، ولذا قال ذو الرّمّة لعيسى بن عمر : أكتب شعري فإن الكتاب أحبّ إليّ من الحفظ لأن الأعرابيّ ينسى الكلمة قد سهر في طلبها ليله فيضع موضعها كلمة في وزنها ، ثم ينشدها الناس والكتاب لا ينسى ولا يبدّل كلاماً بكلام .



ولم يقف الأمر عند هذه الأسباب ، بل لقد كان من بعضهم تعمد لنحل الشعر لغير قائله أو اختراعه ودسه على من لم يقله ، دعاهم إلى ذلك أنهم لم يحبوا أن يسألوا عن شيء فلا يجيبون .

قالوا إن حمادا قدم البصرة على بلال بن أبي بردة ، فقال له : ما أطرفتني شيئاً فعاد إليه فأنشده القصيدة التي تراها اليوم في شعر الحطيئة مديحاً لأبي موسى . فقال له بلال : ويحك ! ! يمدح الحطيئة أبا موسى ولا أعلم به ، وأنا أروى للحطيئة ، ولكن دعها تذهب في الناس .

وكذلك رغبتهم في الزلفى إلى الرؤساء بإثبات مفاخر لأبائهم لم تكن لهم ، فقد ورد في الأغاني أن حماداً الراوية تقرّب إلى خالد بن عبد الله القسري باختراع أبيات نسبها إلى قيس بن الحداية يمدح بها أسد بن كرز حين نزل به قوم ، فأكرمهم وأحسن إليهم ، وتحمل عنهم ما أصابوا من دماء . قال على لسان قيس :

وَقَدْ حَلَلْنَا بِقَسْرِيٍّ أَخِي ثِقَةً      كَالْبَدْرِ يَجْلُو دُجَى الظَّمَاءِ وَالْأَفْقَاءِ  
لَا يَجْبُرُ النَّاسَ شَيْئاً هَاضَهُ أُسْدٌ      يَوْمًا وَلَا يَرْتُقُونَ الدَّهْرَ مَا فَمَقًا  
كَمْ مِنْ ثَنَاءٍ عَظِيمٍ قَدْ تَدَارَكُهُ      وَقَدْ تَفَاقَمَ فِيهِ الْأَمْرُ وَأُنْحَرَ قَا

قال صاحب الأغاني نقلًا عن أبي عمرو الشيباني : « إن حماداً أنشد خالداً هذه الأبيات فوصله . قال : والتوليد فيها بين جدًّا » .

وقد اشتهر بهذا الكذب في الرواية حماد حتى قال فيه معاصره المفضل الضبي : « لقد سلب على الشعر من حماد الراوية ما أفسده حتى لا يصلح أبدًا » ، وكذلك فعل خلف الأحمر ، فقد ذكر عن نفسه أنه كان ينظم الأشعار وينحلها غير أصحابها .

قال ابن سلام في أسباب دس الشعر ونحلّه غير قائله : « فلما راجعت العرب رواية الشعر ، وذكري أيامها ومآثرها ، استقلّ بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كان الرواة بعد فزادوا في الأشعار . وليس يشكل على أهل العلم



زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون ، وإنما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء ، أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الإشكال .

وقال أيضاً : إن ابن دؤاد بن مُتَمِّم بن نويرة قدم البصرة في بعض ما يقوم له البدوى في الجلب والميرة ، فأتاه أبو عُمَيْدَةَ وابن نوح فسألاه عن شعر أبيه مُتَمِّم وقاما له بحاجته وكفياها ضيعته ، فلما نقد شعر أبيه متمم جعل يزيد في الأشعار ويضعها ، وإذا كلام دون كلام متمم ، وإذا هو يحتذى على كلامه فيذكر المواضع التي ذكرها متمم والوقائع التي شهدها ، فلما توالى ذلك علما أنه يفتعله .

ولكن ذلك لا يجعل الشعر العربي بهذه المثابة التي ينظر إليه بها قوم يشكون في كل ما ورد منه ، ولا يرضون أن يجعلوه حجة على عادة عربية ، أو معنى كلمة ، أو تحقيق لعر بيتها فإن العمل برأيهم يكون هدماً للغة من أساسها ، وتضييعاً لهذا التراث العظيم لتهمة عرضت أو شك جرى . على أن العربية لم تخل من نقدة زيفوا هذا المفتعل المنحول ، ومازوه من الصحيح المروي عن أصحابه كما أن من اجترأ بالكذب على الشعراء عاد فاعترف بخطئه وهدى الناس إلى مواضع كذبه ، فإن خلفاً الأحمر تنسك في آخر أيامه وندم على ما كان منه ، وخرج يوماً إلى أهل الكوفة فاعترف لهم بما كان منه وعرفهم الأشعار التي أدخلها في أشعار الناس . على أن النحل والادعاء لم يصل إلى درجة خلق شعراء لم يكن لهم وجود ، وإنما كان زيادة في أشعارهم وتتما لما نقص منها ، فالقول بأن أمراً القيس لا وجود له غلو في دعوى النحل والافتعال لم يقله أحد من السابقين ، وكان جديراً بمثل خلف أن يعترف بنحو ذلك ، ولكن اعترافه إنما كان بالبيت أو البيتين أو القصيدة يدخلها على الشاعر ، وليست من قوله : فلنتق الله في دعوانا ، ولا نترك للخيال حكمه في أحكامنا .



## حماد الراوية

هو ابن ميسرة ، أصله من الديلم من موالى بنى بكر بن وائل ، وقد نشأ بالكوفة .  
وكان أوّل أمره لصّاً يتشطر ، ويصحب الصعاليك ، فيقال : إنه نقب ليلة على رجل  
فأخذ ماله ، وكان من بينه جزء من شعر الأنصار ، فقرأه حماد واستحلاه ، فترك  
ما كان عليه وطلب الأدب من ذلك الحين ، فكان أعلم الناس بالشعر وأيام  
العرب ولغاتهم .

ولم يؤهله لهذا الفضل إلا تلك الحافظة النادرة التي وعت جميع ما وصل إليها من  
خبر وشعر ؛ وكان يحفظ ما يلقى عليه لساعته ، فقد قال الطرمح أنشدت حماداً قولى :  
« بان الخليط بسحرة فتبتدّوا » ، وهي ستون بيتاً ، فسكت ساعة ، ثم قال : أهذا  
الشعر لك !! ثم ردها عليه ، وزاد فيها عشرين بيتاً ، فدلّ بذلك على قوّة حفظه  
ومقدرته على الاختراع .

ولقد قال له الوليد بن يزيد يوماً بما استحققت أن تدعى الراوية ؟ قال : بأن أروى  
لكلّ شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ، ثم أروى لأكثر منهم ممن تعترف  
بأنك لا تعرفه ولا سمعت به ، ثم لا ينشدنى أحد شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميزت  
القديم من المحدث ، قال له : فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال : كثير ، ولكنى  
أنشدك على كلّ حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر  
الجاهلية دون شعر الإسلام . قال له الوليد : سأمتحنك ثم أمره بالإشاد فأنشده حتى  
ضجر فوكل به من استخلفه أن يصدقه عنه ويستوفى عليه ، فأنشده ألفين وتسعمائة  
قصيدة للجاهلية ، واستحقّ أن يعطيه الوليد مائة ألف درهم ، وقد استقدمه هشام  
ابن عبد الملك ، ونحن نروى لك القصة كما وردت على لسان حماد نفسه في كتاب :  
« نزهة الألبا ، في طبقات الأدبا » لابن الأنبارى . قال حماد :



كنت منقطعاً إلى يزيد بن عبد الملك ، وكان أخوه هشام يجفوني لذلك ، فلما مات يزيد وأفضت الخلافة إلى هشام خفته ، فكثت في بيتي سنة لا أخرج إلا إلى من أثق به من إخواني سرّاً ، فلما لم أسمع أحداً يذكركني أمنت ، فخرجت فصليت الجمعة في الرصافة ، ثم جلست عند باب الفيل ، فإذا شرطيان يقولان : أجب الأمير يوسف بن عمر . ولم يدعاني آتى أهلي أودعهم ، فلما انتهيت إلى الأمير رمى إليّ كتاباً فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله هشام أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر أما بعد : فإذا قرأت كتابي هذا فابعث إلى حماد الراوية من يأتيك به غير مروّع ولا متعع ، وادفع إليه خمسمائة دينار وجملاً مهرياً يسير عليه اثنتي عشرة ليلة إلى دمشق ، فأخذت الدنانير ونظرت ، فإذا جمل مرحول فركبته حتى انتهيت إلى باب هشام ، فدخلت في دار قوراء مفروشة بالرخام ، وبين كلّ رخامين قضيب من ذهب وحيطانه كذلك ، وهشام جالس على طنفسة حمراء ، وعليه ثياب حر من الخزّ ، وقد تضمخ بالمسك والعنبر ، فسلمت عليه فردّ السلام واستدانني فذنوت حتى قبلت رجله ، فإذا جاريتان لم أر مثلهما قطّ ، ثم قال : بعثت إليك لبيت خطر ببالي لم أدر قائله . قلت : وما هو ؟ قال :

وَدَعَوْا بِالصَّبُوحِ يَوْمًا فَجَاءَتْ قَيْنَةٌ فِي يَمِينِهَا إِثْرِيْقُ

فقلت : يقوله عدى بن زيد في قصيدة له ؛ فقال أنشدنيها ، فأنشدته :

بَكَرَ الْعَادِلُونَ فِي وَضْحِ الصُّبْحِ يَقُولُونَ لِي أَلَا تَسْتَفِيْقُ  
وَيَلُومُونَ فِيكَ يَا بِنَةَ عَبْدِ اللَّهِ وَالْقَلْبُ عِنْدَكُمْ مَوْثُوقُ  
لَسْتُ أَدْرِي إِذَا كَثُرُوا الْعَدْلَ فِيهَا أَعْدُوٌّ يَلُومُنِي أَمْ صَدِيقُ

إلى أن انتهيت إلى قوله : ودعوا بالصبوح فطرب ، وفي اليوم الثاني ، أفتت من النوم ، فإذا الجاريتان عند رأسي ، وإذا عشرة أعبد مع كلّ عبد بدره ، فقال لي أحدهم : أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : خذ هذه الدنانير وهاتين الجاريتين ، فأخذت ذلك وعدت إلى أهلي .



كذلك استقدمه أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة إلى العباسيين ، فقال له :  
ما شعر فيه أوتاد ؟ قال : من قائله ؟ قال : لا أدري . قال : فن الجاهليين أم  
الإسلاميين ؟ قال : لا أدري . قال : حماد ، فأطرقت ساعة حتى خطر ببالي شعر  
الأفوه الأودي :

لا يَصْحُحُ النَّاسُ فَوْضَى لَأَسْرَاةَ لَهُمْ      وَلَا سَرَاةَ إِذَا جُهَا لَهُمْ سَادُوا  
فذكره له ، فسر أبو مسلم ووصله .

كذلك استقدمه في الدولة العباسية المنصور ، وكان حزينا على موت أخيه  
أبي العباس ، وأراد أن يردّد فيه أبياتا كان يعلم أن هفان بن همام قالها في رثاء  
أبيه ، وقد غابت عن خاطر المنصور ، فرواها له حماد فبكي ، وقال : هكذا كان أخي  
رضى الله عنه ، وهذه هي الأبيات التي رواها حماد كما وردت في الأغاني :

خَلِيلِي عُوَجًا إِنَّهَا حَاجَةٌ لَنَا      عَلَى قَبْرِ هَمَامٍ سَمَّتَهُ الرَّوَاعِدُ  
عَلَى قَبْرِ مَنْ يُرْجَى نَدَاهُ وَيُبْتَغَى      جَدَاهُ إِذَا لَمْ يَحْمَدِ الْأَرْضَ رَائِدُ  
كَرِيمُ الثَّنَاءِ وَالشَّمَائِلِ بَيْنَهُ      وَبَيْنَ الْمَرْجَى نَفْسٌ مُتَبَاعِدُ  
إِذَا نَارَعَ الْقَوْمُ الْأَحَادِيثَ لَمْ يَكُنْ      عَيْبًا وَلَا ثِقَلًا عَلَى مَنْ يُقَاعِدُ  
صَبُورٌ عَلَى الْعِلَاتِ يُصْبِحُ بَطْنُهُ      خَمِيصًا وَأَتِيهِ عَلَى الزَّادِ حَامِدُ  
وَضَعْنَا النَّمِيَّ كُلَّ النَّمِيَّ فِي حَنْفِيَّةٍ      بِحَرِّينَ قَدْ رَاحَتْ عَلَيْهِ الْعَوَائِدُ  
صَرِيحًا كَنْضَلِ السَّيْفِ تَضْرِبُ حَوْلَهُ      تَرَابِئُهُنَّ الْمُعْوَلَاتُ الْفَوَاقِدُ

وقد ظلّ حماد إلى أيام المهدي يقدم عليه وينشده ، وأعلّ ذلك في ولاية عهده ، فقد  
مات حماد سنة ١٥٥ ، أو سنة ١٥٦ ، ولم يكن المهدي قد ولى الخلافة .

وحماد هو الذي جمع المعلقات ، وجمع أشعاراً كثر القبائل ، وأكث شعراء بني أمية ،  
وجعل شعر كلّ قبيلة أو شاعر في كتاب ، فكان عنده كتاب لشعر قريش ، وآخر  
لشعر ثقيف ، ولكن هذه الكتب قد ضاعت .



## أبو عمرو بن العلاء

قيل إن اسمه كنيته ، وقيل : إن اسمه زبان ، ويروى أن الفرزدق جاءه معتذراً  
عن هجاء بلغه عنه ، فقال له أبو عمرو :

هَجَوْتَ زَبَانَ ثُمَّ جِئْتَ مَعْتَذِرًا      مِنْ هَجْوِ زَبَانَ لَمْ تَهْجُو وَلَمْ تَدْعِ

وسبب الاختلاف في اسمه أنه كان لجلالة شأنه وهيبته في النفوس لا يسأل عنه .

أخذ النحو عن نصر بن عاصم الليثي ، وأخذه عنه يونس بن حبيب البصرى ،  
والخليل بن أحمد ، وكان يونس يقول عنه : لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله في كلِّ  
شئ كان ينبغي أن يؤخذ بقول أبي عمرو كله في العربية ، ولكن ليس من أحد  
إلا وأنت أخذ من قوله وتارك إلا النبي صلى الله عليه وسلم . كان أحد القراء السبعة ،  
وكان أعلم الناس بالعربية وأيام العرب ، وكانت الكتب التي نقلها عن العرب الفصحاء  
تملاً بيتاً له إلى السقف ، ثم إنه تقرأ فأخرجها كلها أو أحرقها ، فلما رجع إلى العمل في  
الرواية لم يكن عنده إلا ما حفظه بقلبه ، وكانت عامة أخباره عن أعراب أدركوا  
الجاهلية . قال الأصمعي : جلست إلى عمرو بن العلاء عشر حجج ، فلم أسمعته يحتاج  
ببيت إسلامي ، وقال أبو عمرو مرة : لقد كثرت هذا المحدث وحسن حتى هممت بأن أمر  
فتياننا بروايته ( يعني شعر جرير والفرزدق ونحوهما ) .

ومن أخباره أنه قال : كنت هارباً من الحجاج بن يوسف ، وكان يشبهه عليّ

« فرجة » أهو بالفتح أو بالضم ، فسمعت قائلاً :

رُبَّمَا تَجَزَعُ النَّفُوسُ مِنَ الْأُمْرِ      لَهُ فَرَجَةٌ كَحَلِّ الْعِقَالِ

بفتح الفاء ، ثم قال : إنه قدم الحجاج . قال : أبو عمرو ، فما أدري بأيهما كنت

أشدَّ فرحاً بقول : فرجة ، أم بقوله : مات الحجاج .



وكان يقول في مقام الدلالة على قلة المروى لنا من كلام العرب : ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً جاءكم علم وشعر كثير ، وكان يقول : (إنما نحن بالإضافة إلى من كان قبلنا كبقل في أصول رقل) ، وهذا يدل على كاله وفضله .  
وروى عنه أنه قال : سمعت أعرابياً يقول : فلان لغوب جاءته كتابي فاحتقرها .  
قال : فقلت له : أتقول جاءته كتابي ؟ قال : أليس صحيفة فحمله على المعنى ، وقد جاء ذلك كثيراً في لغتهم ، واللغوب : الأحق .

وكان أبو عمرو متواضعاً مع كثير فضله ، كثير التسليم للعرب<sup>(١)</sup> ، متمسكاً بالآثار ، صادق الرواية ، يروى عنه أنه قال : ما زدت في شعر العرب إلا بيتاً واحداً ، وهو :  
وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصلعا  
وهذا الاعتراف منه دليل تحرجه وتحريه ، وبراءته من الكذب في كل ما روى ، وهو كثير مستفيض .

وقدمت بالكوفة ، وسنه أربع وثمانون سنة ، وذلك سنة ١٥٤ هـ ، وذلك في خلافة المنصور ، وراثه محمد بن عبد الله المقفع بقوله :

رثينا أبا عمرو ولاحي مثله      فله ريب الحادثات بمن وقع  
فإن تك قد فارقتنا وتركتنا      ذوى خلة ما في السداد لها طمع  
فقد جرّ نفعاً فقدنا لك إننا      أمناً على كل الرزايا من الجزع

(١) أى الرضا عنهم والاعجاب بهم والتعصب لهم لا يرى أنهم يخطئون . وقد قيل عنه في هذا المقام « كان أبو عمرو أشد تسليماً للعرب . وكان ابن أبي إسحق الحضرمي ، وعيسى بن عمر يطعان عليهم وكان عيسى يقول : أساء النابغة في قوله « في أنيابها السم ناعم » يقول موضعها ناقما .



## الغناء العربي

منشؤه

ليس من شك في أن الغناء أثر من انفعال النفس يتولد من إحساسها بما يلذ لها أو يؤلمها ، وإذ كان من انفعال النفس ، فهو جدير أن يصحبها منذ الحلقة ، وأن يسبق النطق إلى الوجود ، فالإنسان قد تأوّه وضحك قبل أن يعبر عن شجوه . أو يدلّ على سروره ، وإنما تقيس حال الإنسان في هذا بما نرى عليه الحيوان من طير ووحش ، فهو لا يتكلم ، وليس ذلك بما نعه أن يبدي عن شجوه أو سروره . فكذلك كان الإنسان . ودليلنا على أن التأوّه أو الضحك أسبق من الكلام عند الإنسان أننا نراها إلى الآن صوتين مهملين من التهذيب غير متعدّدي المقاطع ، وذلك هو شأن اللغة عند الإنسان الأوّل .

ولكن الإنسان قد خلق للكلام ، ما زال يتدرّج حتى استطاع أن يعبر عن شعوره باللفظ ، ثم ما زال يرتقى حتى طابق بين هذا اللفظ وبين حركات نفسه فوزنه بها ، ووقعها عليه ، فكان من ذلك الشعر في أبسط حالاته وهي بحر الرجز : وإنما اتفق للعربيّ وزن الرجز لأنه كما نعلم يقتبس لغته من محاكاة الطبيعة وتقليد أصواتها وحركاتها ، وهو في باديته يتخذ من الناقة حمولة وفرشاً ، فلما أكثر من ركوبها والتأثر بحركاتها تغنى بكلام على وزن الرجز ، وهو يتزن مع حركة الناقة في سيرها ، وتعلم ذلك إذا ركبت ناقة ، وأنشدت وأنت عليها قول الشاعر :

شكاً إلى جملي طول الشرى يا جملي ليس إلى المشتكى  
الذرهمان كلفاني ما ترى شدّ الجواليقي وجدباً بالبري  
\* صبر جميل فكلانا مُبتلى \*



فإنك تجد تفاعيل هذا البحر تنسق مع خطو الناقة وحركاتها أماماً وخلفاً ، ومن أجل أن هذا البحر يوافق طبع الناقة في حركتها كان به الحداء للإبل ، لأنها إذا سمعته حنت إلى النعمة التي ألفتها ، وانطبعت عليها خطواتها

وقد تقدم العرب بعد ذلك ، فوضعوا من الأوزان ما اقتبسوه من حركات الحيوان أيضاً ، كبحر الخبب الذي يوافق سير الخيل مثل قول القائل :

إن الدنيا قد غرّتنا واستهوتنا واستلهتنا

فإن وزنه فعَلْنُ فعَلْنُ الخ ، وهو إذا أطلت ترجمه تراه يوازن حركات الخيل في سرعتها ثم ولد العرب أوزاناً من أوزان حتى تمت لهم الستة عشر وزناً التي عليها شعرهم .  
ونستطيع أن نستدلّ على أن الشعر إنما أحدث لخدمة الغناء أنك تجد في كتب اللغة أن غنّى بمعنى قال شعراً كأن قول الشعر لم يقصد إلا للتغنى به ، حتى عبروا بالملزوم عن اللازم ، ومن أخبارهم: أن الأعشى إنما سمي صنّاجة العرب؛ لأنه كان يقول الشعر ويتغنى به .

## الغناء في الجاهلية والإسلام

لم يعرف من الغناء في الجاهلية إلا أبسط أنواعه ، وهي النصب والسناد والمزج ، فالنصب: غناء الركبان ، والسناد: هو الغناء الثقيل الكثير النغمات ، والمزج هو الخفيف النغمات الذي يرقص عليه الأعراب ، كذلك لم يكن لديهم من آلاته إلا الدف ( هو أشكال : منها المستدير والمربع والكبير والصغير ) والمزمار ، وقد كان هذا الغناء وهذه الأدوات منتشرة في المدن العربية ، كيثرب ، ومكة ، والطائف ، وصنعاء ، ومأرب ، وغيرها من مدن بلاد العرب . أما في الصحراء حيث البدو ، فلم يكن غناؤهم إلا ترتمياً بالشعر ، وحداءً للإبل ، لا يستعملون لذلك أداة.



ولقد ذكروا أن أول من غنى في العرب قينتان لمعاوية بن بكر ، يقال لهما :  
الجرادتان . ومن غنائهما :

أَلَا يَا قَيْلُ وَيَحْكُ قُمْ فَهَيْنَمُ لَعَلَّ اللَّهَ يُصْبِحُنَا غَمَامَا

وفي حديث الهجرة : أن أهل يثرب صبيتهم ونساءهم خرجوا بالدفوف يغنون :

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ

وَجَبَّ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا اللَّهُ دَاعٍ

أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا جِئْتَ بِالْأَمْرِ الْمَطَاعِ

فلما جاء الإسلام بالدعوة إلى الدين ، واشتغل المسلمون بالفتح ، ولم يبق في وقتهم متسع  
لشيء من رواية الشعر والتغنى به فترت حركة الغناء تبعاً لفتور الشعر .

ولما جاءت الدولة الأموية كان للغناء فيها شأن عظيم ، فأما أولهما : فهو  
التجديد فيه بإحداث أنغام جديدة لم يكن العرب يعرفونها قبل ، وإنما اقتبسوها  
من الفرس والروم الذين عاشروهم وخاطوهم ، وأما ثانيهما : فهو ماجدله من بيئة صالحة  
ينمو فيها ويترعع ، وهي بلاد الحجاز ، ومدينته : مكة ، ويثرب ؛ ثم ما صادف من  
عناية بعض الخلفاء به عناية جعلت المغنين ينالون من عطفهم وعطائهم ، ويحضرون  
مجالسهم . بل لقد زاد بعض الخلفاء : فكان له أصوات أحدثها وغنى بها كما سنفصل  
ذلك فيما يلي :

### التجديد في الغناء

حدث التجديد في الغناء في عصر الأمويين ، ويرَوون في سبب ذلك أنه لما  
ضرب الأمويون مكة بالمنجنيق حين كان ابن الزبير متحصناً فيها فأصابها خلل ،  
أحضر ابن الزبير بنات من الفرس لإعادة بنائها ، فكانوا يغنون بالفارسية ، فالتقط النغم  
منهم سعيد بن مسبح ، وهو مكى أسود مولى لبني مخزوم ، وغنى بذلك النغم في لفظ



عربي ، فأعجب به الناس ، فسافر إلى الشام ، ثم إلى فارس ، فأتقن فن الغناء ، وعنه أخذ من جاء بعده من مغني مكة والمدينة ، وكان أول لحن عمله ابن مسجح هو :

أَلِمُّمٌ عَلَى طَلَلٍ عَنَّا مُتَقَادِمٍ - بَيْنَ الذَّوَيْبِ وَبَيْنَ عَيْبِ النَّاعِمِ  
لَوْلَا الْحَيَاءُ وَأَنَّ رَأْسِي قَدْ عَسَا - فِيهِ الْمَشِيبُ لَزُرْتُ أُمَّ الْقَاسِمِ -

ولقد كثرت المغنون والمغنيات بالحجاز كثيرة فائقة حتى كانوا يخرجون للحجّ قوافل كما قال أبو الفرج الأصفهاني ، واجتمع منهم في زمن واحد بالحجاز من الرجال والنساء : سَعِيدُ ابْنِ مَسْجَحٍ ، وابن سُرَيْجٍ ، والغَرِيضُ ، وابن مُحَرِّزٍ ، وابن عائشة ، ومَعْبُدٌ ، وطُوَيْسٌ ، والدَّلَّالُ ، وَجَمِيلَةٌ ، وهَيْمَةُ ، وَبَرْدُ الْفَوَّادِ ، وَنُتُومُ الضَّحَى ، وَعَزَّةُ الْمَيْلَاءِ ، وَحَبَابَةُ ، وَسَلَامَةُ الْقَسِّ ، وَبَلِيلَةُ ، وَلَذَّةُ الْعَيْشِ .

وكان لأهل المدينة طريقة تخالف طريقة أهل مكة ، وكان بين الفريقين تنافس ، واحتجاج للمذهب كما كان الشأن بين الشعراء في ذلك الوقت .

### بيئة الغناء

أما البيئة التي نشأ فيها الغناء الحديث وترعرع ، فهي الحجاز عموماً ، وأخص بلاد مكة والمدينة ، فقد كانت للغناء فيهما سوق نافقة ، وحركة دائمة ، ولم تسعد عواصم البلاد إلا بما خرجت هاتان المدينتان من بلابل هذا الفن ، وليس عجيباً أن يكون هذا شأن مدينة بها بيت الله ، وأخرى هي مهاجر نبيه ، وموضع قبره الشريف ، فقد تعمد خلفاء هذه الدولة أن يوقعوا أولاد المهاجرين والأنصار في أسر الترف ، وأن يشغلوهم باللهو حتى لا ينهضوا لمناوأتهم ، فكان منهم أن أفاضوا عليهم من المال ، وضاعفوا لهم من العطاء ، فانضمّ هذا إلى ما حفلت به مكة والمدينة من سبي الروم والفرس من بنات الملوك والأشراف ، فقد حضرن وهنّ يحملن آثار مدينتهم وما حملتهن به الطبيعة من جمال ودلال ، فاختلط ذلك بما ركب في طبع أهل الحجاز من رقة



ودعابة ، فزخرت المدينتان بالهجو ، وحفلتا بمجالس الغناء ، وتعهد الخلفاء أن يتهاونوا في إقامة حدود الشرع حتى يعمن هؤلاء في غيرهم ولهوهم ، فكان منهم ذلك الإمعان ، وانتهى الحال إلى أن كانت مكة والمدينة أكثر بلاد الإسلام مخنثين ، وأكثرها اجترأ على المنكرات ، واحتساء للخمر .

ومن عناية أهل الحجاز بالغناء أن معبداً ، والغريص وابن سريج كتبوا إلى حنين ، وكان وحده بالعراق ، فقالوا له : نحن ثلاثة ، وأنت واحد . فاقدم إلينا ، فلما قدم أذنت السيدة سكينه للناس إذنا عاماً ، فغصت بهم الدار ، وازدحم الناس على السطح ، وكثروا ليسمعوا حنيناً ، فسقط الرواق على من تحته ، ومات حنين تحت الردم .

### عناية الخلفاء بالغناء

اقتضت سياسة معاوية أن يكون محتشماً وقوراً لئلا يتخذ أعداؤه من مظهره حجة عليه ، ومطعناً يضيفونه إلى ما يشوهون به سمعته عند الناس ؛ وكان هذا المظهر هو الذي يليق بمعاوية من جدّه ، واشتغاله بالأمر العظيم ، وهو توطيد الملك لنفسه ولأبنائه من بعده ، فلم يكن من شأنه أن يشجع الغناء ، ولكنه لم يترك ذلك أن يضرب على أيدي المغنين والعاشقين ؛ لأن خطته إنما كانت أن يشغل عن الخلافة كل طامع فيها وهكذا كان موقفه مع عبد الله بن جعفر ، فكان ينكر عليه بلسانه ، ولا يحاول أن يغير بيده ما يراه منصرفاً إليه من الإقبال على الغناء والاستماع له .

فقد ذكروا أن عبد الله هذا قدم على معاوية الشام فأنزله بدار عماله . فغاض ذلك زوجة معاوية فاخنة ، ثم إنها سمعت ذات ليلة غناء عند عبد الله ، فقالت لمعاوية : هلم فاسمع ما عند هذا الذي جعلته بين لحمك ودمك وأنزلته بدار حريمك ، فسمع معاوية شيئاً حرّكه وأطربه ، ثم قال : والله إني لأسمع شيئاً تكاد الجبال تخزله ، وما أظنه إلا من تلقين الجن ، ثم انصرف ، فلما كان آخر الليل سمع قراءة عبد الله ،



وهو قائم يصلي ، فأنبه فأخّته ، وقال لها : اسمعي مكان ما أسمعني ، هؤلاء قومي ملوك  
بالنهار ، ورهبان بالليل .

ومرّ وهو بالمدينة يزور قبر رسول الله بدار عبد الله هذا ، فسمع غناء على أوتار ،  
فقال : أستغفر الله ، فلما انصرف آخر الليل سمع قراءته في الصلاة ، فقال : خاطوا عملاً  
صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ، هكذا كان معاوية لا يسمع الغناء ،  
ولا يضرب على أيدي مغنيه وسامعيه ، وإذا أنكر شيئاً منه ، فإنما يفعل إرضاء للعامة  
حتى لا يتهموه بالرضاء عن ذلك .

أما يزيد ابنه ، فقد سمع الغناء وهو وليّ عهد ، ولكنه شغل عنه أيام خلافته  
بمخروج الحسين بن عليّ عليه . وكذلك عمر بن عبد العزيز كان مولعاً به أيام شبابه ،  
وحين ولايته المدينة ، وقد وضع أصواتاً وغنّى بها ، وكان من أحسن الناس صوتاً ،  
فلما ولي الخلافة شغلته تقوى الله ، ورعاية الحقوق عن أمور الدنيا ، وكان هشام لا يسمع  
إلا من مغنٍ محتشم يغني بأبيات الحكمة : وكل ما لا يندش الأدب . وكان سليمان غيوراً  
على النساء ، فطارد المغنين ، وأمر واليه على المدينة أن يخصيهم حتى يؤمن شرهم ،  
وإغواؤهم للنساء .

أما يزيد بن عبد الملك وابنه الوليد ، فقد راجت سوق الغناء في أيامهما ، واستدعى  
المغنون إلى دار الخلافة ، وبذل المال الكثير في شراء القيان ، حتى يروى عن يزيد أنه  
قال : ماتقرّ عينى بما أوتيت من الخلافة حتى اشتري سلامة وحبابة ، فلما اجتمعنا عنده  
قال : أنا الآن كما قال القائل :

وألقت عصاها واستقرّ بها النوى كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

وأما الوليد بن يزيد فلم يكن طروباً فحسب ، بل كان له في صناعة الغناء حذق ، حتى  
لقد عمل أصواتاً غنى بها ومشى بالدفّ وغناها الناس بعده .

ومما نسب إلى عمر بن عبد العزيز صنعته في هذه الأبيات :

عَلِقَ الْقَلْبُ سُعَادًا عَادَتِ الْقَلْبَ فَعَادًا



كَلَّمَا عُرِبَ فِيهَا أَوْ نُهِىَ عَنْهَا تَمَادَى  
وَهُوَ مَشْغُوفٌ بِسَعْدَى قَدْ عَصَى فِيهَا وَزَادَا

ومما نسب إلى الوليد صنعته في قوله هو :

وَصَفْرَاءَ فِي الْكَأْسِ كَالزَّعْفَرَانِ سَبَاهَا الشَّجِيئِيُّ مِنْ عَسْقَلَانَ  
تُرِيكَ الْقِدَاةَ وَعَرَّضَ الْإِنَاءَ سِتْرُهَا دُونَ سِتْرِ الْبِنَانِ

### أثر الغناء في الشعر

لقد كان للغناء أثر عظيم في رواج الشعر في هذا العصر ، فقد كان الذين يسمعونه قبل ذلك هم الخاصة من أهل الفهم ، فلما غنى به صار يسمعه العامة فيفهمونه ويروونه ، فيشيع على الألسنة ، ويكون ذلك أذيع لحكمته وأسير لمدحه وغزله ، ويشتهر من جراء ذلك الشاعر الذي تغنى المغنون بشعره .

ولقد حرص الشعراء على أن تذيب شهرتهم ، وتسير أشعارهم ، وتحلو بالتوقيع الذي يجري على ألسنتها . فيزيدها رونقاً بل يحدث لها جمالاً لم يكن لها ، ويكسب معناها روعة ما كانت تظهر قبل أن يتناول اللفظ بالإيقاع الحسن والتقسيم المحبب إلى النفس ، وكان الشاعر يرجو من وراء ذلك أن يغني خليفه بقوله فيسأل عنه فيكون ذلك وسيلة لدنوه واكتسابه رضاءه .

وقد استفاد الشعر من حرص الشعراء على أن يكون لشعرهم رواج عند المغنين ، فإن كل شاعر توخى ترقيق لفظه وتسهيبه ليدخل في التقسيم ويقبل التوقيع ، كذلك عمد إلى المعنى ، فجلده أحسن تجليسة ، وبلغ به غاية الدلّ واللين في الغزل ، ومنتهى الصلابة والاستمسك في الحماسة ، وذروة الزهو والإعجاب في الفخر .

وفي القصة التالية : ما يدل على أن الشعراء كانوا يتسابقون إلى حيازة هذا الشرف بأن يكون لشعرهم قبول عند المغنين ، فيتناولونه بالتلحين والإيقاع ، ثم يشيعونه بالغناء به .



ذكروا أن نصيباً وكثيراً والأحوص خرجوا غيباً مطر إلى العقيق ، فاتموا إلى  
مكان به رجال ونساء ، فسألهم النساء أن ينزلوا بهن فنزلوا ، ثم أدخلوا إلى امرأة جميلة  
برزة ، فرحبت بهم ، فإذا بكراسى مصفوفة ، فجلس كل واحد منهم على كرسى ، ثم  
أقبلت جارية جميلة ، فقالت لها مولاتها : خذى من قول النصيب :

أَلَا هَلْ مِنَ الْبَيْنِ الْمَفْرَقِ مِنْ بَدِّ وَهَلْ مِثْلُ أَيْمِي بِمَنْقَطِعِ السَّعْدِ  
تَمَنَيْتُ أَيْمِي أَوْلِيكَ وَالْمَنَى عَلَى عَهْدِ عَادٍ مَا تَعِيدُ وَمَا تَبْدَى

فغنته ، ثم قالت لها : خذى في قوله :

أَرْقِ الْمَحِبُّ وَعَادُهُ سَهْدُهُ لَطَوَارِقِ الْهَمِّ الَّتِي تَرَدُّهُ  
وَذَكَرْتُ مِنْ رَقَّتْ لَهُ كَيْدِي وَأَبِي فَلَيْسَ تَرَقُّ لِي كَيْدُهُ  
لَا قَوْمُهُ قَوْمِي . وَلَا بَلَدِي فَكُونَ حِينًا جِيرَةً بَلَدُهُ

فقال نصيب : فكذت أطير من السرور ، ثم قالت لها : خذى في قول النصيب :

فِيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ تَمْتَعْتُ طُولَهُ وَهَلْ طَائِفٌ مِنْ نَائِمٍ بِمُتَمِّعٍ

قال نصيب فجاءني والله شيء حيرني وأذهلني طرباً لحسن الغناء وسروراً باختيارها الغناء  
في شعري ، وما سمعت فيه من حسن النغمة وجودتها وإحكامها ، ثم قالت : خذى  
أيضاً في قوله :

أَيْهَا الرِّكْبُ إِنِّي لَسْتُ تَابِعِكُمْ حَتَّى تُنْشُوا وَأَنْتُمْ بِي مُهْمُونَ

قال نصيب : فوالله لقد زهوت زهواً حتى خيل إلى أنى من قريش ، وأن الخلافة لى ،  
ثم قالت : حسبك يا بنية ، فوثب الأحوص وكثير ، وأسرع بالخروج حسداً لنصيب ،  
وما ناله من شرف التغنى بشعره .

ويروى أن الأحوص حسد معبداً مرة على اختصاصه بسباع مغنية ( هي عقيلة ) ،  
فقال شعراً أساء معبداً ، خلف الأيكلمه ، ولا يتغنى في شعر فشق ذلك على الأحوص ،  
فلما طالت هجرته إياه ، رحل نجيباً له ، وجعل طلاء في مدرع ( زق ) ، وجعله في حقيبة  
رحله ، وأعد دنانير ، ومضى نحو معبد فأناخ ببابه ، ومعبد جالس بفنائيه ، فنزل إليه



الأحوص فكلمه فلم يكلمه معبد ، فقال : يا أبا عباد أتتهجرتني ؟ فخرجت إليه امرأته  
وقالت أتتهجو أبا محمد والله لتكلمنه فكلمه ، ثم احتمله الأحوص ، فأدخله البيت وقال :  
والله لا أريم هذا البيت حتى آكل الشواء وأشرب الطلاء وأسمع الغناء فقال له معبد :  
قد أخزى الله الأبعد ! ! هذا الشواء أكلته والغناء سمعته فأنى لك بالطلاء ؟ قال : قم  
إلى ذلك المدرع ففيه طلاء ومعه دنانير فأصلح بها ما تريد من أمرنا ففعل ، فانصرف  
الأحوص مع العصر وهو يتمايل نشوة .

## مشهورو المغنين والمغنيات

١ - سعيد بن مسجح

هو أبو عثمان سعيد بن مسجح مولى بنى مخزوم كان أسود ، وهو أول من غنى  
الغناء المتقن بمكة ، وذلك أن عبد الله بن الزبير كان قد أحضر عمالا من الفرس لما  
مالت جوانب الكعبة على أثر ضربها بالمنجنيق في حصارها أيام معاوية ، فكان يسمع  
منهم غناء بالفارسية ، فما زال حتى نقله إلى العربية بعد النظر فيه والزيادة عليه  
والحذف منه

وقيل في سبب اهتدائه إلى الغناء الجديد : أنه سمع البنائين من الفرس الذين  
أحضرهم معاوية لبناء الدور المسماة بالرقط بمكة ، فيكون اهتدائه إلى إدخال الغناء  
الفارسي في العربية على هذه الرواية أسبق منه على الرواية الأولى ، والمعقول أنه استفاد  
من الحادثتين ، ولم يتم له النقل أو الشهرة به إلا على أيام عبد الملك .

ومن أوائل صنعتها ما غنى به في الأبيات الآتية من شعر الأحوص :

أَسْلَامُ إِنْكَ قَدْ مَلَكَتْ فَأَسْجِحِي      قَدْ يَمْلِكُ الْحُرُّ الْكَرِيمُ فَيُسْجِحُ  
مُنَى عَلَى عَانٍ أَطَلَّتْ عَنَاءُهُ      فِي الْغُلِّ عِنْدَكَ وَالْجُنَاةُ تُسْرِحُ



إِنِّي لَأَنْصَحُكُمْ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَّانٍ عِنْدَكَ مِنْ يَغْشَى وَيَنْصَحُ  
وَإِذَا شَكَوْتُ إِلَى سَلَامَةَ حُبِّهَا قَالَتْ أَجِدُ مِنْكَ ذَا أُمَّ تَمْزُحُ

وقد علم ابن سُرَيْجٍ ، وعاش حتى لقيه معبد ، وأخذ عنه في أيام عبد الملك .

ومن أخباره : أن عامل عبد الملك على مكة كتب إليه أن رجلاً أسود يقال له : سعيد بن مسجح قد أفسد فتيان قريش ، وأنفقوا عليه أموالهم ، فكتب إليه عبد الملك أن اقبض ماله وسيره إلى ، فلما انتهى سعيد إلى دمشق قصد إلى مسجدتها ، فسأل عن أخص الناس بأمر المؤمنين ، فقيل له . هذا نفر من قريش ، فسلم عليهم وقال : هل فيكم من يضيف رجلاً غريباً ، فنظر بعضهم إلى بعض ، وكانوا على موعد أن يذهبوا إلى قينسة يقال لها «برق الأفق» ، فتشاققوا لإفتي منهم تَدَّيْمٌ ، فقال له : أنا مضيفك ، وقال لأصحابه : انطلقوا أتم وأنا مع ضيفي ، فقالوا : لا ، بل تجيء أنت وضيفك ، فصاروا جميعاً إلى المغنية ، فلما رأى سعيد جمالها تمثل هذا البيت :

فقلت أشمسُ أم مصابيحِ بيعةٍ بدتْ لك خلفَ السَّجْفِ أم أنتَ حالمٌ

ففضبت الجارية من أن يضرب بها هذا الأسود الأمثال ، ثم غنت فقال لها : أحسنت فزاد غضبها ، ثم غنت فقال : أخطأت ، ثم اندفع يغني ، فوثبت الجارية ، فقالت لمولائها : هذا أبو عثمان سعيد بن مسجح ، فلما عرف مكانه أبي البقاء ، وخرج مع مضيفه ، وقد تعلق به كلُّ أن يكون عنده فأبي ، ثم إن مضيفه تلطف في أن يسمعه عبد الملك بأن دخل عليه ، وأمره أن يحدو من وراء شرف القصر فحدا :

إِنَّكَ يَا مُعَاذُ يَا ابْنَ الْفُضْلِ إِنْ زُلْزَلَ الْأَقْوَامُ لَمْ تُزْزَلِ

عَنْ دِينَ مُوسَى وَالْكِتَابِ الْمُنْزَلِ تَقِيمُ أَصْدَاغَ الْقُرُونِ الْمَيْلِ

\* للحق حتى يَنْتَمُوا لِلْأَعْدَلِ \*

فقال عبد الملك للقرشي : من هذا ؟ فقال : حجازي قدم علي قال : أحضره ، فلما حضر . قال له عبد الملك : غنَّ غناء الركبان . فغني له ، ثم قال : هل تغني الغناء للثمن فغني ، فاهترَّ عبد الملك طرباً وقال له : من أنت ؟ قال : أنا المظلوم المقبوض ماله المسير



عن وطنه سعيد بن مسجح ، فتبسم عبد الملك وقال : وضع عذر فتيان قريش في أن  
ينفقوا عليك أموالهم وأمنه ووصله ، وكتب إلى عامله أن يرد إليه ماله ، ولا يتعرض  
له بسوء .

٢ - سَائِبُ خَاثِرٍ

هو أبو جعفر سائب خاثر بن يسار من أهل المدينة كان مولى لبني ليث من فيء  
الفرس ، واشتراه عبد الله بن جعفر فأعتقه ، وقيل : بل كان على ولائه لبني ليث ،  
ولكن انقطع إلى عبد الله بن جعفر ولزمه ، وعرف به ، وبلغ من اختصاصه به أن  
آلى سائب ألا يغني أحداً سوى عبد الله إلا أن يكون خليفة أو ولي عهد أو ابن خليفة ،  
فكان على ذلك إلى أن قتل يوم الحرّة أيام يزيد بن معاوية .

ويقال في سبب تعلمه الغناء : إن إماء صناعات كنّ لعبد الله بن عامر ، وكان  
يظهرهنّ كلّ يوم جمعة يلعبن أمام الناس ويسمعهنّ ، فأخذ عنهنّ ؛ وقيل أيضاً في  
سبب ذلك : أن رجلاً فارسياً اسمه نشيط قدم المدينة فغنى بالفارسية ، فأعجب به عبد الله  
ابن جعفر ، فقال له سائب : أنا أصنع لك مثل غناء هذا الفارسي بالعربية ، ثم غدا على  
عبد الله ، وقد عمل لحناً في هذه الأبيات :

لِمَنِ الدِّيَارُ رُسُومُهَا قَفَرٌ لَعِبَتْ بِهَا الأرواحُ والقَطْرُ  
وخلَا لَهَا من بَعْدِ سَاكِينِهَا حَجَجٌ مَضِينِ تَمَانٍ أو عَشْرُ  
والزَّعْفَرَانُ على تَرَائِبِهَا شَرِقٌ به اللَّبَّاتُ والنَّحْرُ (١)

وقيل : إنه أول من غنى على العود من أهل المدينة ، وقد أخذ عنه ابن سريج وجميلة  
ومعبد وعزة الميلاء وغيرهم .

(١) الترائب : عظام الصدر ، أو ما يلي الترقوتين أو ما بين الترقوتين والثديين ، أو موضع القلادة . وهذا  
المعنى لازم لما قبله وهو المراد في البيت .



وقد سمع معاوية غناء مرّات : فلما سمعه قدم عليه بالشام عبد الله بن جعفر في الحديث الذي مرّ بك آنفاً ، وسمعه ليلة وقد أشرف على منزل ابنه يزيد ، فسمع صوتاً فأعجبه ، وما زال حتى تعب من الوقوف ، فدعا بكرسى وجلس عليه ، فاستمع بقية ليلته . فلما أصبح غدا على يزيد ، فقال له : يا بني ! من كان جليستك البارحة ؟ فحاول يزيد الكتمان ، فقال له : أفصح ، فإنه لم يخف عليّ من أمرك شيء ، فقال : هو سائب خاثر ، فقال : أكره له يا بني من برّك وصلتك ، فما رأيت بمجالسته بأساً ، وقدم معاوية المدينة في بعض ما كان يقدم له ، فأمر حاجبه بالإذن للناس فخرج ورجع ، فقال له : ما بالباب أحد ؟ قال معاوية : وأين الناس ؟ قال : عند عبد الله بن جعفر ، فتوجه إليه معاوية ، فلما جلس قال : بعض القرشيين لسائب خاثر : مطرفي هذا لك إن اندفعت تغني ، فقام بين السماطين ، وغنى :

لنا الجفّنات الغرّ يلعن بالضحي وأسيفنا يقطرن من نجدٍ دماً  
فأصغى إليه معاوية حتى سكت .

وقد قتل سائب يوم الحرّة . وذلك أن جند الشام لما حاصروا المدينة سنة ٦٣ هـ في خلافة يزيد بن معاوية ، وكان أهلها قد خلعوا طاعته فأرسل إليهم جيشاً عدّته اثنا عشر ألفاً وعليه مسلم بن عقبة ، استباحوا المدينة ثلاثة أيام ، وكان فيمن قتل سائب الذي كان جليست يزيد في ولاية عهده ، ولذلك استرجع يزيد لما قرأ اسمه بين القتلى ، وقال : قبح الله أهل الشام ، أو بلغ القتل إلى سائب خاثر وطبقته ؟ .

### ٣ — عبد الله بن سريج

هو أبو يحيى عبد الله بن سريج من أهل مكة . قيل : كان مولى لبني نوفل بن عبد مناف ، وقيل يشرك هو وسعيد بن مسجح في ولاء بني ليث . قال أبو الفرج الأصبهاني في صفته : إنه كان آدم الوجه أحمر ظاهر الدم سنطاً في عينيه ، قيل بلغ حساً وثمانين سنة ، ومات في خلافة هشام بن عبد الملك .



وقد أخذ الغناء عن ابن مسجح ، وكان أوّل ماشتهر بالغناء في ختان ابن مولاه .  
قال ابن سريج لأُم الغلام : خفضى عليك بعض المغرم والكلفة ، فوالله لألهين نساءك  
حتى لا يدرين ماجئت به .

وكان ابن سريج رجلاً عاقلاً أديباً يعاشر الناس بما يشتهون فلا يغنيهم بما مدح به  
أعداؤهم ، ولا بما فيه عار عليهم أو غضاضة منهم ، وقد بلغ الوليد بن عبد الملك أدبه وظرفه  
وحلاوة حديثه وجودة اختياره ، فكتب إلى عامله بمكة أن يشخصه إليه ، فلما صار إلى  
مجلس الوليد بن عبد الملك قال له : هات ما عندك ، فغناه في شعر الأحوص :

إِمَامُ أَتَاهُ الْمَلِكُ عَفْوًا وَلَمْ يُثِبْ      عَلَى مَلِكِهِ مَالًا حَرَامًا وَلَا ذِمًّا  
تَخَيَّرَهُ رَبُّ الْعِبَادِ خَلْقَهُ      وَلِيًّا وَكَانَ اللَّهُ بِالنَّاسِ أَعْلَمًا  
يَبَالُ الْغِنَى وَالْعِزَّ مَنْ نَالَ وَدَّهُ      وَيَرْهَبُ خَوْفًا عَاجِلًا مَنْ تَشَأَمًا (١)

وما زال يغنيه حتى أشار الوليد إلى الخدم أن غطوه بالخلع ففعلوا ، ثم قال الوليد : يامولى  
بنى نوفل ، لقد أوتيت أمراً جليلاً . قال ابن سريج وأنت يا أمير المؤمنين لقد آتاك الله  
ملكاً عظيماً ، وشرفاً عالياً ، وعزاً ، بسط يدك فيه فلم يقبضه عنك ولا يفعل إن شاء الله ،  
فأدام الله لك ما ولاك ، وحفظك فيما استرعاك ، فإنك أهل لما أعطاك ، ولا ينزعه  
عنك إذ رآك له موضعاً . فقال له الوليد : وخطيب أيضاً . قال : عنك نطقت ،  
وبلسانك تكلمت ، وبعزك بينت .

وكان الوليد قد أمر بإحضار الأحوص ، وعدى بن الرقاع ، فجرت ملاحظة بين  
عدى ، وأبن سريج ، وعلم بها الوليد فأحضره مجلسه وأرخصى دونه سترًا ، ثم أمره إذا  
فرغ عدى والأحوص أن يندفع في الغناء ، فلما سمع عدى الغناء استأذن في الكلام ،  
فقال مثل هذا عند أمير المؤمنين ، ويبعث إلى ابن سريج يتخطى به رقاب قریش ،

(١) تشأم: أخذ في جهة شماله . والمراد به كونه حائداً عن الطريق السوى . وقد كنى القرآن عن  
أهل الخير بأصحاب اليمين وعن أهل الشر بأهل المشأمة . والمراد أنه يرهب من عاداه ولم يكن  
من شيعته .



والعرب من تهامة إلى الشام ترفعه أرض ، وتخفضه أخرى ليسمع غناءه . قال :  
ويحك يا عدى . هذا هو ابن سريج ، فقال : لولا أنه في مجلس أمير المؤمنين لقلت  
طائفة من الجن يغنون ، ثم أمره الوليد بالظهور ، فلما رآه عدى قال : حق لهذا  
أن يحمل .

ومن أخباره : أن عطاء بن رباح لقيه بذي طوى ، وعليه ثياب مصبغة ، ويده  
جرادة مشدودة الرجل بخيط يطيرها ، ويجذبها كلما تخلفت ، فقال له عطاء : يا فتان ،  
ألا تكف عما أنت فيه ؟ قال ابن سريج : وما على الناس من تلوين ثيابي ولعبي  
بجرادتي . قال عطاء : تعنيهم بأغانيك الحبيثة ، فقال له : بحق من اتبعته من أصحاب  
رسول الله وبحق رسول الله إلا سمعت مني ، فإن أنكرت أمرتي بالإمساك عما أنا  
فيه ، فأقسم بالله وبحق هذه البنية إن أمرتني بالإمساك لأفعلن ، فأطعم ذلك عطاء في  
ابن سريج ، وقال له : قل ، فاندفع يغني بشعر جرير :

إن الذين غدوا بلبك غادروا      وشلا بعينك ما يزال معينا  
غيضن من عبراتهم وقلن لي      ماذا لقيت من الهوى ولقينا

فلما سمعه عطاء اضطرب اضطراباً شديداً ، وداخلته أريحية ، فحلف ألا يكلم أحداً بقية  
يومه إلا بهذا الشعر ، وصار إلى مكانه من الحرام ، فكل من يأتيه يسأله عن حلال  
أو حرام أو خبر لا يخبره إلا بأن يضرب إحدى يديه على الأخرى ، وينشد هذا الشعر  
حتى صلى المغرب ، ولم يعاود ابن سريج بعدها ولا تعرض له .

وروي أيضاً : أن عمر بن أبي ربيعة حج في عام ومعه ابن سريج ، فلما رموا بالجرات  
تقدما الحاج إلى كثيب على خمسة أميال من مكة مشرف على طريق المدينة ، وطريق  
الشام ، وطريق العراق ، وهو كثيب شامخ منفرد عن الكثنان ، فصارا إليه وأكلا  
وشربا ، ثم أخذ ابن سريج الدف فنقره ، وجعل يغني وهما ينظران إلى الحاج ، فلما  
أمسبارفع ابن سريج صوته ، وتغنى بشعر ابن أبي ربيعة ، فسمعه الركبان ، فجمعوا  
يصيحون به : يا صاحب الصوت ، أما تتق الله قد حبست الناس عن مناسكهم فيسكت



قليلا حتى إذا مضوا رفع صوته ، فيقف آخرون إلى أن وقف عليه رجل حسن الهيئة على فرس عتيق حتى وقف بأصل الكتيب ، ثم نادى : يا صاحب الصوت ، أيسهل عليك أن تردّد شيئاً مما سمعته منك ؟ فقال : نعم ونعمة<sup>(١)</sup> عين ، فأبها تريد ؟ فاقترح صوتاً غناه ، ثم آخر ، ثم قال له ابن سريج ، هل بقيت لك حاجة ؟ قال تنزل لأخطبك ، فنزل إليه ، فإذا هو يزيد بن عبد الملك فأعطاه حلته وخاتمته ، وقال : خذها ولا تحدع عنهما ، فإن شراءهما ألف وخمسمائة دينار ، فعاد بهما ابن سريج وأعطاهما ابن أبي ربيعة ، وقال له : هما بك أشبه ، فعوضه عنهما ثلثمائة دينار .

٤ - معبد

هو معبد بن وهب من أهالي المدينة . قيل : هو مولى بن قطر ، أو مولى العاص ابن وابصة الخزومي ، أو مولى معاوية بن أبي سفيان .  
كان يرعى غنماً لمواليه أو يتصرف لهم في التجارة ، وكان يختلف مع ذلك إلى نشيط الفارسي ، وسائب خاثر حتى حذق الغناء وسمع الألحان ، فأجاد واعترف له بالتقدم على أهل عصره . وحدث عن نفسه قال : صنعت ألحاناً لا يقدر شعبان ممتلىء ، ولا سقاء يحمل قربة على الترم بها ، ولقد صنعت ألحاناً لا يقدر متكىء أن يترنم بها حتى يقعد مستوفزاً ، ولا القاعد حتى يقوم ، ويحكى عن نفسه : أنه كان يأتي صخرة بالحرة ملقاة بالليل فيستند إليها ، فيسمع صوتاً يجري في مسامعه فيقوم من النوم فيحكيه . قال : فهذا مبدأ غنائى .

(١) تضمّ على أنها مبتدأ خبره تقديره لك ، وتنصب على إضمار فعل : أى أفعل ذلك إنعاماً لعينك أى إكراماً ، وفى لفظ « نعمة » لغات هي نعم عين ، ونعمة عين ونعام ونعيم بفتحهن ونعام ونعمى ونعم ونعمة بضمهن ، ونعمة ونعام بكسرهما .



والذى نفهمه فى تعليل ذلك أن رغبته فى الغناء ملكت عليه مشاعره حتى كان يخلتس  
الأوقات للتخرّج على نشيط وسائب ، وكان إذا نام أوهدأ اشتغل عقله الباطن بالغناء ،  
وتمثلت له النغم ، وقوى شعوره بها ، فكأنه يسمعها ، وكأن ملقياً يلقىها عليه .  
وقيل له : كيف تصنع إذا أردت أن تصوغ الغناء ؟ فقال : أرتحل قعودى وأوقع  
بالقضيب على رحلى ، وأترنم عليه حتى يستوى الصوت .

وقد قدم ابن سريج المدينة فأسمعوه غناء معبد وهو غلام ، فقال : إن عاش هذا  
كان معنى بلاده ، وقد صدق ظنّ ابن سريج ، فإن معبداً لم يلبث أن اشتهر فى  
الحجاز كله ، ووصلت شهرته إلى الشام ، فاستقدمه الوليد بن يزيد ، وعقد له المجالس ،  
وتبدل فى محضره تبذلاً كبيراً ، وكان نصيبه منه فى القدمة التى قدمها عليه أولاً خمسة  
عشر ألف دينار .

وفى آخر حياته أصيب بالفالج ، وارتعش وبطل ، فكان إذا غنى ضحك الناس  
منه وهزئوا به . وقيل : مات فى عسكر الوليد بن يزيد ، فتولى أمر إخراجة إلى  
المقبرة ، وخرجت سلامة القس (جارية يزيد) ، وأخذت بعمود السرير ، وهى  
تبكى ، وتقول :

قَدْ لَعَمْرِي بِتُّ لَيْلِي      كَأَخِي الدَّاءِ الوَجِيعِ  
وَنَجِيُّ الِهْمِّ مِئِّي      بَاتَ أَدْنَى مِنْ ضَجِيعِي  
كَلَّمَا أَبْصَرْتُ رَبْعًا      خَالِيًا فَاصَتْ دُوعِي  
قَدْ خَلَا مِنْ سَيِّدِ كَا      نَ لَنَا عَيْرٌ مُضِيعِ  
لَا تَلْمَنَّا إِنْ خَشَعْنَا      أَوْ هَمَمْنَا بِجُشُوعِ

وكان قد علمها هذا الصوت فندبته به ومشى الوليد والغمر أخوه فى جنازته حتى أخرج  
من دار أخيه .

ومن أخباره أن الوليد اشتاق إليه ، فوجه إليه البريد إلى المدينة فأحضره ، فلما



قدم أمر الوليد ببركة ملئت ماء ورد ، وخالطه بالمسك والزعفران ، وأجلس معبدا ناحية  
منها وبينه وبين الوليد ستر ، ثم قال غنى :

لَهْنِي عَلَى فِتْيَةٍ ذَلَّ الزَّمَانُ لَهُمْ      فَمَا أَصَابَهُمْ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَ  
مَا زَالَ يَعْدُو عَلَيْهِمْ رَيْبُ دَهْرِهِمْ      حَتَّى تَفَانُوا وَرَيْبُ الدَّهْرِ عَدَاءُ  
أَبْكِي فِرَاقَهُمْ عَيْنِي وَأَرْقَهَا      إِنَّ التَّفَرُّقَ لِلْأَحْبَابِ بَكَاءُ

فقدف الوليد بنفسه في البركة ، ثم أتى بأثواب غير التي عليه ، وقال : غنى :

يَا رُبُّعُ مَالِكَ لَا تُجِيبُ مُتَيَّمًا      قَدْ عَاجَ نَحْوِكَ زَائِرًا وَمُسَلِّمًا  
جَادَتِكَ كُلُّ سَحَابَةٍ هَطَّالَةً      حَتَّى تُرَى عَنْ زَهْرِهِ مُتَبَسِّمًا  
لو كنت تدري من دعائك أجبته      وبكيت من حرقي عليه إذا دما

ثم فعل الوليد فعله في الصوت الأول ، ثم غنى :

عَجِبْتُ لَمَّا رَأَيْتَنِي      أَنْدَبُ الرَّبْعِ الْمُحِيلًا  
وَاقِفًا فِي الدَّارِ أَبْكِي      لَا أَرَى إِلَّا الطُّلُولَا  
كَيْفَ تَبْكِي لِلنَّاسِ      لَا يَمْلُونِ الذَّمِيلَا  
كُلَّمَا قُلْتُ اطْمَأَنَّتُ      دَارُهُمْ جَدُّوا الرِّحِيلَا

ففعل كذلك ، ثم قال يا معبد ، أكنتم عنا ما رأيت ووصله بما ذكرنا .

حدث معبد عن نفسه قال : غنيت فأعجبني غنائى ، وأعجب الناس وذهب لى  
صيت وذكر ، فقلت لآتين مكة ، فلا سمعن من المغنين بها ولا غنينهم ولا تعرفن  
إليهم ، فلما صرت فى مجلسهم جعلت أعجب بغنائهم ، وأظهر لهم ذلك ويعجبهم منى  
حتى أقننا أياما ، فأخذت من غنائهم ولا يدرون أصواتا وأصواتا وأصواتا ، ثم قلت  
لابن سريج : فديتك أمسك على صوتك :

قُلْ لِهِنْدٍ وَتَرِبَهَا      قَبْلَ شَحْطِ النَّوَى غَدَا



إِنْ تَجُودِي فَطَالَمَا      بَتُّ لَيْلِي مُسَهَّدَا  
أَنْتِ فِي وُدِّ بَيْنِنَا      خَيْرُ مَا عِنْدَنَا يَدَا  
حِينَ تَدُلِّي مُضَفَّرَا      حَالِكَ اللَّوْنِ أَسْوَدَا

فلما سمعته صاح وصاحوا ، ثم قلت له : أمسك على صوت كذا ، ثم صوت كذا ، فلما رأوا ذلك مني صاحوا حتى علت أصواتهم ، وهرفوا بي وقالوا : والله لأنت أحسن بأداء أصواتنا منا ، ثم غنيت لهم من أصواتي ، فوثبوا إلي ، وقالوا : من أنت ؟ قلت : معبد فقبلوا رأسي ، وأقت بينهم شهراً آخذ منهم ، ويأخذون مني ، ثم انصرفت إلى المدينة .

وحدث معبد أيضاً قال : بينا أنا يوماً في بعض حمامات الشام إذ دخل رجل له هيئة ومعه غلمان ، واشتغل به صاحب الحمام عن سائر الناس ، فقلت : لئن لم أطلع هذا الرجل على بعض ما عندي لأكوننّ بمزجر الكلب فترمت ، فالتفت إلى واحتفي بي ، ثم سألتني المضيّ إلى منزله ، فأجبتّه ودعاني إلى الغناء فاجتهدت فيه ، وجعلت أخرج من حسن إلى أحسن ، وهو لا يرتاح ، ولا يحفل لما يرى مني ، فلما طال عليه أمرى قال : يا غلام شيخنا شيخنا ، فجاء شيخ ، فأخذ عوداً ، ثم اندفع يغني :

سَلُورُ فِي الْقِدْرِ وَبِئِ عُلُوهُ      جَاءَ الْقِطُّ أَكْلَهُ وَبِئِ عُلُوهُ

( السور : نوع من السمك )

فجعل صاحب الدار يصفق ويضرب برجله طرباً وسروراً ، ثم غناه :

وَتَرَمِينِي حَمِيدَةً بِالْدَّرَاقِنِ      وَتَحْسَبُنِي حَمِيدَةً لَا أَرَاهَا

( الدراقن : الخوخ بلغة الشام ، فكاد الرجل يخرج من جلده طرباً ، قال معبد ، فانسلت منهم ، ولم يعلموا بي ، فما رأيت مثل ذلك اليوم قط غناء أضيع ، ولا شيخاً أجهل .



٥ - عزة الميلاء

كانت مولاة للأنصار ومسكنها المدينة ، وسميت الميلاء لتمايلها في مشيتها .  
وقد كانت من أجمل النساء وجهاً ، وأحسنهنّ جسمًا ، وكانت عفيفة . قال عنها  
طويس « هي سيدة من غنى من النساء مع جمال بارع وخلق فاضل وإسلام لا يشوبه  
دنس ، تأمر بالخير ، وهي من أهله ، وتنهى عن الشرّ وهي تجانبه ، فناهيك بها !  
ما كان أنبلها وأنبل مجلسها ، إذا جلست جلوساً عامًّا ، فكان الطير على رؤوس الناس ،  
فن تكلم أو تحرك بقر رأسه » .

ويقول معبد عنها : « كانت من أحسن النساء صوتاً يعود مطبوعة على الغناء  
لا يعيها أدائه ولا صنعته ولا تأليفه » ، وكانت رائعة أستاذتها في الغناء القديم ، فلما  
قدم نشيط المدينة ، ونشأ بها سائب خاثر أخذت عنهما الغناء المتقن ، فهي أوّل من  
فتن أهل المدينة بالغناء ، وحرّض رجالهم ونساءهم عليه ، وكان عبد الله بن جعفر ،  
وابن أبي عتيق ، وعمر بن أبي ربيعة يغشونها في منزلها فتغنيهم . وقد غنت يوماً عمر  
في بعض أشعاره ، فشقّ ثيابه ، وصاح صيحة عظيمة صعق معها ، فلما أفاق قيل له :  
لغيرك الجهل يا أبا الخطاب . قال : إني سمعت مالم أملك معه نفسي وعقلي ، وكان حسان  
ابن ثابت معجباً بها ، وكان يقدمها على سائر قيان المدينة ، وسمعتها تغني في قوله :

أَنْظُرْ حَلِيلِي بِيَابِ جِلْقَ هَلْ تُوْنِسُ دُونَ الْبَلْقَاءِ مِنْ أَحَدٍ

فجعل يبكي ويقول : أراني بها سميعاً بصيراً ، ( وكان قد كفت بصره ) ، وعنها أخذ  
ابن محرز المكي الذي طارت له في الغناء شهرة مجيبة ، والذي يقال في وصف غنائها : كأن  
ابن محرز خلق من كلّ قلب فهو يغني كلّ إنسان بما يشتهي ؛ وقد كان ابن محرز



هذا يقيم بالمدينة ثلاثة أشهر يتعلم فيها الضرب عن عزّة ، ثم يرجع إلى مكة فيقيم بها ثلاثة مثلها . ثم يشخص إلى فارس يتعلم ألحان الفرس ، ويأخذ غناءهم ثلاثة أشهر أيضاً ، ثم يصير إلى الشام فيتعلم ألحان الروم . فمزج بعض ذلك ببعضه ، وألف الأغاني التي صنعها في أشعار العرب وأتى بما لم يسمع مثله .

ومن أخبار عزّة : أن النعمان بن بشير الأنصاري قدم المدينة في أيام يزيد ابن معاوية ، فقال : والله لقد أخفقت أذناي من الغناء ، فأسمعوني ، فقيل له : لو توجهت إلى عزّة ، فإنها من قد عرفت . قال : إني وربّ البيت إنهما لمن يزيد النفس طيباً ، والعقل شحذاً ، ابعثوا إليها عن رسالتي ، فإن أبت صرنا إليها ، فاعتلت فصار إليها في خواص أصحابه ، فأكرمتهم واعتذرت ، فقبل النعمان العذر وغنته :

أَجَدَّ بَعْمَرَةَ غُنْيَانِهَا      فَتَهَجَّرَ أُمُّ شَانِنَا شَانِهَا  
وَعَمْرَةٌ مِنْ سَرَوَاتِ النَّسَا      ۞ تَنْفَحُ بِالْمَسْكِ أُرْدَانِهَا

فأشير إليها أنها أمه فسكتت ، فقال : فوالله ما ذكرت إلا كرمًا وطيباً لا تغنيني سائر اليوم غيره .

قيل : قدم عبد الله بن جعفر على معاوية وافداً ، فدخل عليه إنسان ، ثم ذهب إلى معاوية ، فقال : هذا ابن جعفر يشرب ويسمع الغناء ويحرك رأسه عليه ، فجاء معاوية متغيراً حتى دخل على عبد الله ، وعزّة الميلاء بين يديه كالشمس الطالعة في كداء البيت يضيء بها البيت تغنيه على عودها :

تَبَلَّتْ فَوْأَدَكَ فِي الظَّلَامِ خَرِيدَةٌ      تَشْفِي الضَّجِيعَ بِيَارِدِ بَسَامِ

وفي يده عسّ ، فقال : ما هذا يا أبا جعفر ؟ قال : أقسمت عليك يا أمير المؤمنين لتشربنّ منه فشرب ، فإذا غسل مجدوح بمسك وكافور ، فقال : هذا طيب ، فما هذا الغناء ؟ قال : هذا شعر حسان بن ثابت . قال : فهل تغني بغير هذا ؟ قال : نعم بالشعر الذي يأتيك به الأعرابي الجافي الأدفر ، القبيح المنظر ، فيشافئك به فتعطيه عليه ، وآخذه أنا فأختار محاسنه ورقيق كلامه ، فأعطيه هذه ، الحسنة الوجه ، اللينة الملمس ، الطيبة



الريح ، فترتله بهذا الصوت الحسن . قال : فما تحريكك رأسك ؟ قال : أريحية  
أجدها إذا سمعت الغناء ، لو سئلت عندها لأعطيت ، ولو لقيت لأبليت . قال معاوية :  
قبح الله قوماً عرضوني لك ، ثم خرج وبعث إليه بصلة .



هذا ما مكنتنا منه معونة العليّ القدير من القول في أبواب منهاج الأدب العربي  
وتاريخه لطلاب السنة الثانية بكلية اللغة العربية من الجامعة الأزهرية ، ونرجو أن  
يكون النفع بعملنا هذا كفاء الجهد ، والإخلاص في إظهاره ، بريئاً من تهمة الجمود .  
والعكوف على القديم البالي ، محصناً من مغالاة التجديد الذي يضيع معه الحق ،  
وتطمس معالمه .

ولا ندعى لهذا العمل كمالاً ، بل إننا نستعين الله أن يمكننا من إعادة النظر فيه في  
فراغ من الوقت والبال لتتدارك نقصاً ، وتجنب سقطاً ، والحمد لله والصلاة على رسوله  
وآله أولاً وآخرًا م

٣ من ذى القعدة سنة ١٣٥١ المؤلف  
٢٧ من فبراير سنة ١٩٣٢

محمود مصطفى



ونحن نحمد الله تعالى إذ أجاب دعاءنا ، فتمكنا عند إعادة طبع الكتاب من  
النظر فيه ، وتكميل نقصه على قدر الاستطاعة ، والله الهادي لأقوم سبيل م

محمود مصطفى

ربيع الثاني سنة ١٣٥٦ هـ  
يوليو سنة ١٩٣٧ م

تمّ الجزء الأوّل ، ويليه الجزء الثاني  
وأوله

العصر العباسي



تنبیه

على القارئ للكتاب أن يعجل بتصحيح أغلظه حسب البيان الآتي  
ليقرأه بعد ذلك وهو مطمئن غير شاك في عبارة من عباراته

الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
٧	١١	عَمِيَّة	عَمِيَّة
١٧	١٥	والذكرُ	والذکرِ
٣٢	١٧	نفوسهما	نفوسهم
٣٣	٢	ثم يصل	ثم لم يصل
٤٣	١٤	الخلفاء	الخلفاء
٤٤	٥	السامة	السامية
٤٦	١٥	يلو	يتلو
٤٨	١١	بعذ	بعد
٥٧	١٤	وغب	ورغب
٥٩	٢٢	ثنان	اثنان
٥٩	٢٤	الحرريك	التحريك
٦٩	٩	الناس في	الناس إليه في
٧٠	٨	تدارت	تدابرت
٧٢	٣	الفاجر بن الفاجر	الفاجر ابن الفاجر
		الفاجر بن الكافر	الفاجر ابن الكافر



الصفحة	السطر	الخط أ	صوابه
٧٨	٣	العجة	العجمة
٨٣	٩	شعبة	شعبة
٨٦	٨	أى	إى
٩١	١٢	ويودى	ويودى
١٠٤	١٠	أريهم	أريهم
١٠٦	١٦	وذلك على	وذلك بعد وفوده على
١٠٧	١٩	لوافى	الوافى
١٠٩	١١	من حلو	بعد حلو
١١٢	١٠	بالأدوية	بالأدوية
١٢٠	١٤	وزيد ابن رفاعة	وزيد بن رفاعة
١٢٦	٢٣	أما	إما
١٢٦	٢٥	صهباء	صهباء
١٣٠	٢	من	من
١٤٦	١٧	الجوارى	الجوازى
١٥٢	٢٠	أورى	أروى
١٥٣	١٤	صره	صدره
١٥٩	٧	الرشدين	الراشدين
١٧٠	٢٣	لا يفتين	لا يفتين
١٧٢	٢	الخطر	الخط
١٧٢	٩	يعمر	يعمر



الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
١٨٣	١٦	الغداة أو العشى	الغداة والعشى
١٨٧	٣	حَيًّا	حَيًّا
١٨٨	١٥	كتب بن مالك	كتب بن مالك
١٩٢	٢٢	مولى بن عباس	مولى ابن عباس
١٩٣	٦	وتساوموا	وتساموا
٢٠١	٧	وليس	أوليس
٢١٤	١	الشَّد	الشَّد
٢١٦	٢٢	شبهة	شبهة
٢٢٥	٣	نجربة	تجربة
٢٢٥	١٩	أمين	أمين
٢٢٨	١٨	سياسية	سياسة
٢٣٦	١	بن زيدون	ابن زيدون
٢٤٠	١٧	مخزم	مخرم
٢٤٩	٦	لم ثنى	لا ثنى
٢٥٠	٢٠	(تبادلة)	(تبادله)
٢٥٣	١٢	ينتظرون	ينتظرون
٢٥٩	٢	بينهما	بينها
٢٦٨	١٧	سموا	سُموا
٢٧٢	١٠	ترفيق	ترقيق
٢٨٣	١٢	بالنقص	بالنقص



الصفحة	السطر	الخطأ	صوابه
٢٨٩	٧	أُمِيَّة	أُمِيَّة
٢٨٩	١٣	تَهَاجُوا	تَهَاجُوا
٢٩١	١	كَلَّ	كَلَّ
٢٩٤	٦	طَرَبْتُ وَكُنْتُ	طَرَبْتُ وَكُنْتُ
٢٩٦	٢٢	النُّرُومِ	النُّرُومِ
٣٠٥	١	وَسَيِّدِنَا	وَسَيِّدِنَا
٣١١	٢٤	الْفَرْتَنِي	الْفَرْتَنِي
٣١٢	٢٠	هَذَا السَّابِقِ	هُوَ السَّابِقِ
٣١٢	٢٤	أَنْهَمُ ذُو الْأُولِيَّةِ	أَنْهَمُ ذُو الْأُولِيَّةِ
٣١٨	٧	عِمَارَةَ	عِمَارَةَ
٣٢٠	١٧	وَهُوَ: جَرِيرٌ	وَهُمْ: جَرِيرٌ
٣٢٧	٧	غَيْرُكُمْ	غَيْرُكُمْ
٣٤٦	٣	الزَّلْفَاءِ	الزَّلْفَاءِ
٣٤٧	١٥	الْمُرَازَاتِ	الْمُرَازَاتِ
٣٥٢	٤	مُتَمَيِّرٌ	مُتَمَيِّرٌ
٣٥٣	٧	أَمِنْ آلٍ	أَمِنْ آلٍ
٣٥٣	١٠	يُعْقَدُ	يُعْقَدُ
٣٥٥	٢٢	أَنْ لَا يَكُونَ	أَيُّ لَا يَكُونَ
٣٥٦	١٨	عَلَى الْحَبِّ	عَلَى الْحَبِّ
٣٥٦	٢٢	آيَةُ الشَّقَاءِ	آيَةُ الشَّقَاءِ



الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٥٨	١١	يا ابن الفاعلة	يا ابن الفاعلة
٣٦٢	١٥	جرير، والفرزدق	جرير الفرزدق،
٣٦٣	١٧	يدلّ	بدلّ
٣٦٥	٣	ما يقوم	ما يتقدم
٣٧٣	٢٠	بنات	بناة
٣٧٤	٨	والدّلال	والدّلال
٣٧٧	٥	الإيناء	الإيناء
٣٧٩	١٤	أنه	إنه
٣٨٠	٢	أجدّ	أجدّ
٣٨١	١٠	غامر	غامر



## فهرس

صحيفة	صحيفة
النثر في هذا العصر ٤٣ ٩	٣ مقدمة الطبعة الثانية
الخطابة في هذا العصر ٤٤ ٥	٤ عصر صدر الإسلام
نماذج من خطابة هذا العصر ٤٧ ٨	العرب بين الجاهلية والإسلام
بلاغات النساء في هذا العصر ٦٠	٥ أثر الإسلام في العقول
من كلام عائشة أم المؤمنين	٦ أثره في الحياة الاجتماعية
من كلام أم الخير بنت الحريش ٦٢	٨ أثره في اللغة
البارقية .	١١ القرآن الكريم
٦٤ كلام أروى بنت الحارث بن	نزوله
عبد المطلب .	١٣ جمع القرآن وترتيبه
٦٥ نهج البلاغة . تحقيق نسبته إلى	١٦ قراءات القرآن
على كرم الله وجهه .	١٨ بلاغة القرآن
٦٦ ردّ هذه الشبهة	١٩ حكم القرآن وأمثاله
٧٣ ٨ الكتابة في هذا العصر	٢٠ الإيجاز في القرآن
٧٥ ٨ نماذج من كتابة هذا العصر	٢٢ الكنايات في القرآن
٧٨ عمر بن الخطاب	٢٤ إيجاز القرآن
٨٣ خلافته	٣٣ ٨ أثر القرآن في اللغة
٨٨ الأدب في حياة عمر	٣٤ ٨ البلاغة النبوية
٩٤ ٨ الشعر في هذا العصر	٣٨ ٩ النبي وقول الشعر
١٠٢ أبو ذؤيب الهذلي	٤٢ ٩ وصف بلاغة النبي



صحيفة	صحيفة
١٨٠ عناية الخلفاء والأمراء باللغة والأدب	١٠٥ النابغة الجعدي
١٨٢ أمثلة من عناية الخلفاء والأمراء بالأدب واللغة .	١٠٩ معن بن أوس
١٩٠ مجامع العلم والأدب	١١١ مختار شعره
مجامع العلم	١١٣ الخنساء
١٩٣ مجامع الأدب	١١٨ حسان بن ثابت
١٩٥ النثر في العصر الأموي	١٢٤ رأى النقاد في شعر حسان
١٩٧ الكتابة في عصر بني أمية	١٣٣ موازونات بين أقوال حسان وغيره من الشعراء .
٢٠٠ <del>خطابة في العصر الأموي</del>	١٣٦ الخطيئة
٢٠٤ أشهر الكتاب والخطباء في العصر الأموي .	١٤٧ شعره
٢٠٥ <del>الحجاج بن يوسف</del>	١٥٥ <del>العصر الأموي</del>
٢٠٧ <del>عصر الحجاج</del>	١٥٦ الخلافة والمناك
٢٠٩ <del>الحجاج قبل الولاية</del>	١٥٩ انتشار اللغة في عصر بني أمية
٢١٠ <del>طموح الحجاج</del>	١٦٠ قيام اللغة بمقتضيات الملك والسياسة
٢١٢ <del>ولاية الحجاج العراق</del>	١٦٣ طرود الحن على اللغة
٢١٣ <del>خطبة الحجاج بالكوفة</del>	١٦٦ أمثلة من الحن وضعف الملمكة
٢٢٠ <del>أخلاق الحجاج</del>	١٦٩ وضع النحو
٢٢٣ <del>أمثلة من كلام الحجاج</del>	١٧٢ الشكل
٢٢٤ <del>خطبة دير الجماجم</del>	١٧٤ الإعجاز
٢٢٧ <del>الأدب في حياة الحجاج</del>	١٧٥ تدوين العلوم
٢٢٨ <del>عبد الحميد الكاتب</del>	١٧٧ العلوم المدونة في هذا العصر
	١٧٩ وصف الكتب المدونة في هذا العصر .



صحيفة	صحيفة
٢٨١ المدح	٢٢٨ الموالى فى عصر بنى أمية
٢٨٦٥ الهجاء	٢٢٩ حياة عبد الحميد
٢٩٠ عمر بن أبى ربيعة	٢٣١ تعلم عبد الحميد وعمله
نشأة عمر	٢٣٢ أثر عبد الحميد فى الكتابة
٢٩٢ نوع الغزل فى شعره	٢٣٥٤ آراء الناس فى عبد الحميد
٢٩٤ توبة عمر	٢٣٦ نماذج من كلام عبد الحميد الكاتب
٢٩٧ خصائص شعر عمر	رسالة عبد الحميد إلى الكتاب
٣٠٣ طرق من أخباره	٢٣٨ رسالة الشطرنج
٣٠٧ وفاة عمر	٢٤٠ صورة تمجيد له فى كتاب فتح
٣٠٨ جرير	٢٤١ إخوانياته
٣١٠ مهاجته للشعراء	٢٤٣ نماذج من خطابه هذا العصر
٣١٨ شاعرية جرير	٢٤٦ خطبة زياد البتراء
٣٢٣ شعره	٢٤٩ خطبة أبى حمزة الخارجى
٣٢٩ الكميت بن زيد	٢٥٢ نماذج من كتابة هذا العصر
٣٣٣ محنة الكميت	٢٥٦ صفة الإمام العادل
٣٣٤ الكميت فى مجلس العفو	٢٥٧٤ الأجوبة والمحاورات
٣٣٧ مبلغ التشيع عند الكميت	٢٦٢ أمثلة من المحاورات والأجوبة
٣٤١ شعر الكميت	٢٦٨ الشعر فى العصر الأموى
٣٤٥ حكمنا على شعر الكميت	٢٦٩ العناية بالشعر
٣٤٦ هاشميات الكميت	٢٧٢ أسلوب الشعر ومعانيه
٣٤٩ نقد الكلام فى عصر بنى أمية	٢٧٤ أغراض الشعر
٣٦١ الرواية والرواة	٢٧٥ النسيب
٣٦٢ مبلغ الرواية من الصدق	



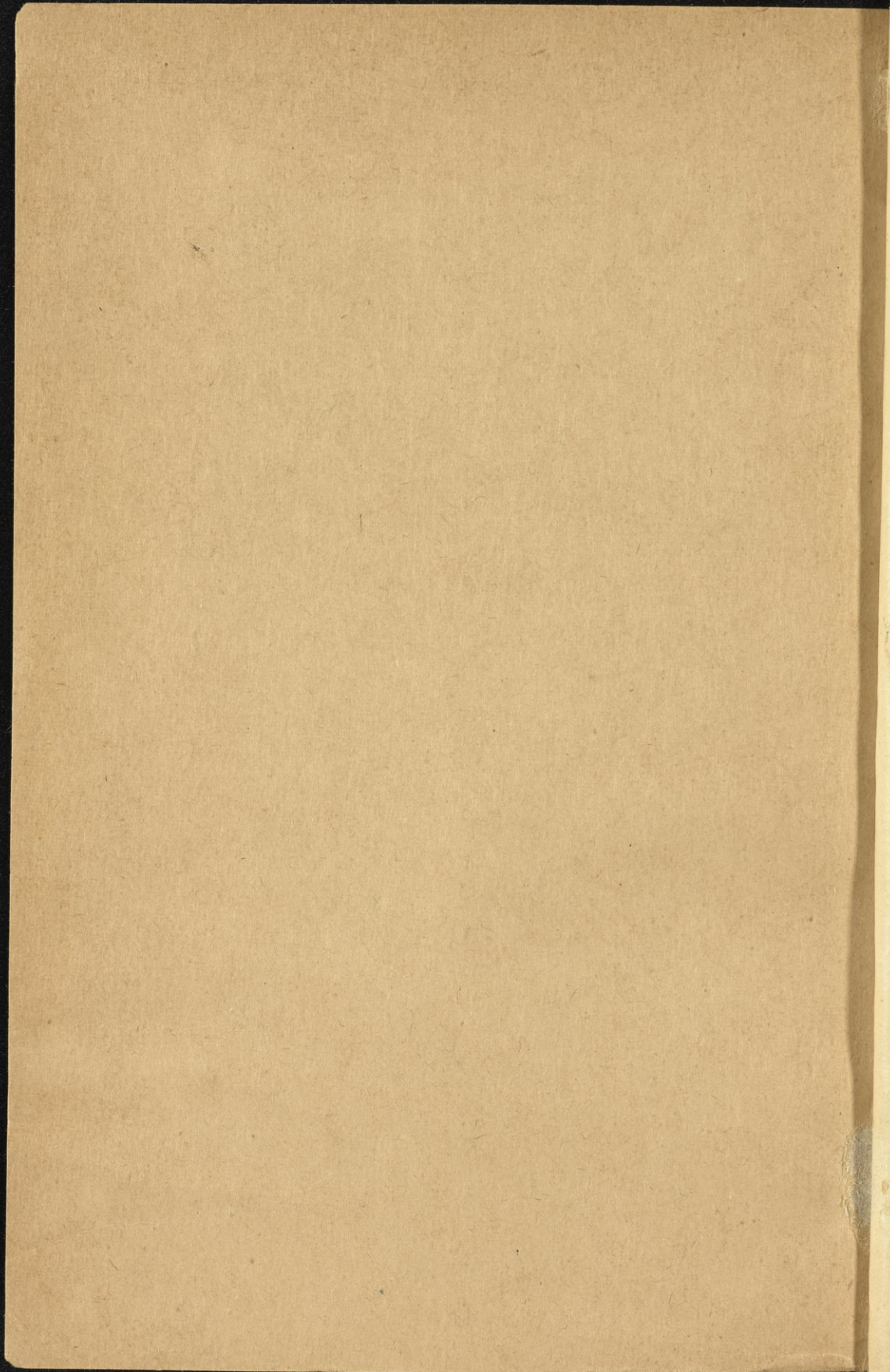
صحيفة	
أثر الغناء في الشعر	٣٧٧ α
مشهور المغنين والمغنيات	٣٧٩
١ - سعيد بن مسجع	
٢ - سائب خاثر	٣٨١
٣ - عبد الله بن سريج	٣٨٢
٤ - معبد	٣٨٥
٥ - عزّة الميلاء	٣٨٩
الخطأ والصواب	٣٩٢

صحيفة	
حماد الراوية	٣٦٦ α
أبو عمرو بن العلاء	٣٦٩ α
الغناء العربي . منشؤه	٣٧١ α
الغناء في الجاهلية والإسلام	٣٧٢ α
التجديد في الغناء	٣٧٣ α
بيئة الغناء	٣٧٤ α
عناية الخلفاء بالغناء	٣٧٥ α

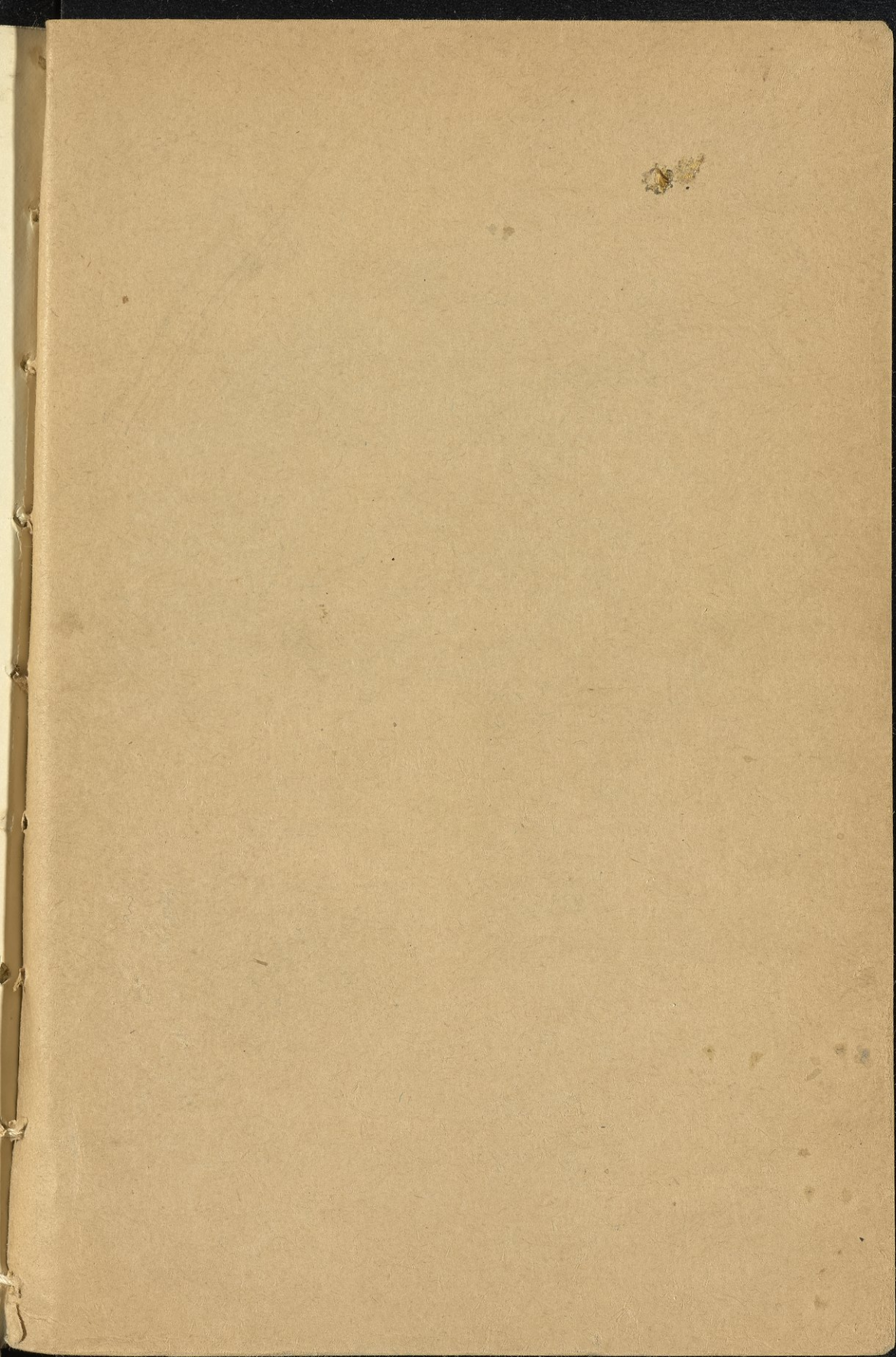
[ تمت ]



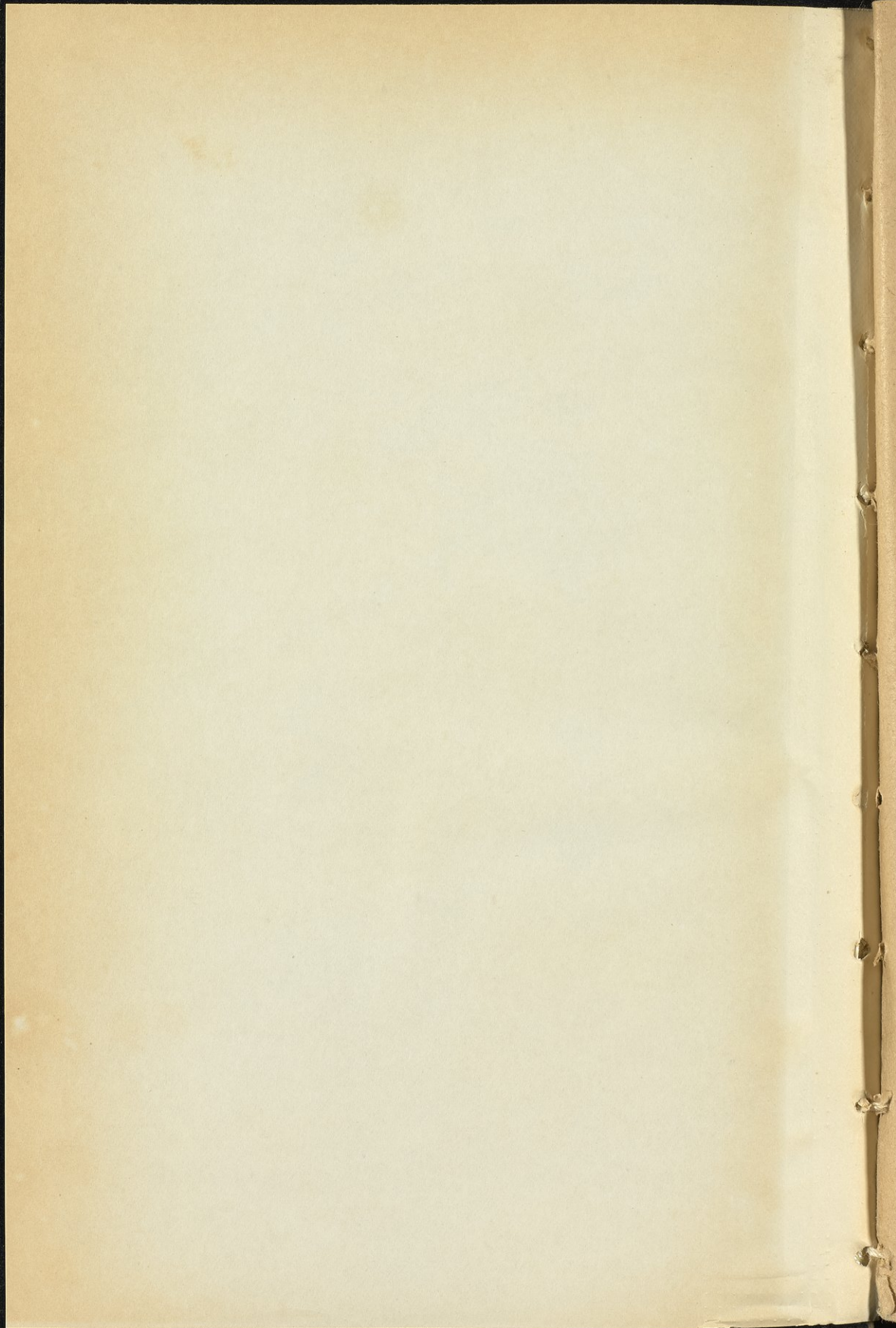




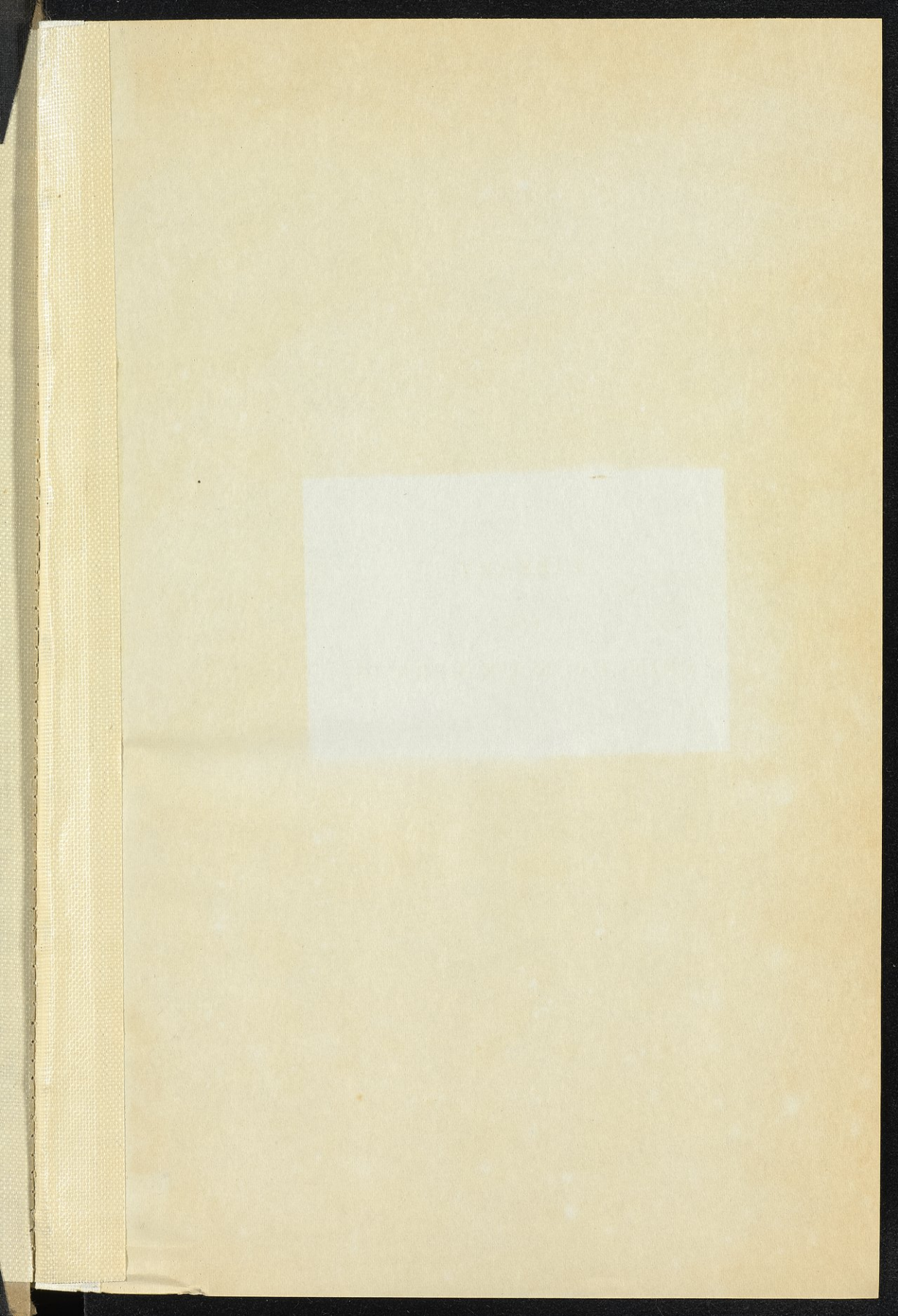














LIBRARY  
OF  
PRINCETON UNIVERSITY



Princeton University Library



32101 073825141

